دراسة

#929

روزاليند مايلز

مَن طَبَخَتِ العشاءَ الأخيرَ؟

تاريخُ العالَم كما ترويه النساءُ

ترجمة: د. رشا صادق

مكتبة



مكتبة | سُر مَن قرأ

#929

مَن طَبَخَتِ العشاءَ الأخيرَ؟

تاريخُ العالَم

كما ترويه النساءُ



اسم المؤلف: روزالیند مایلز

عنوان الكتاب: مَن طَبَخَ العشاءَ الأخيرَ؟

تاريخُ العالَم كما تَرويه النساءُ

ترجمة: د. رشا صادق

الناشر: دار المدى

الطبعة الأولى: **2021**

Author: **Rosalind Miles**

Title: **Who Cooked the Last Supper,**

The Women's History of the World

Translated by: **Dr. Rasha Sadek**

P.C.: **Al–Mada**

First Edition: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh 102 - 13 Street - Building 141

☎ +964 (0) 770 2799 999 ☎ +964 (0) 780 808 0800

☎ +964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

☎ +961 175 2617 ☎ +961 706 15017

☎ +961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد، متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

☎ +963 11 232 2276 ☎ +963 11 232 2275

☎ +963 11 232 2289 ص.ب

روزاليند مايلز

مَن طَبَخَتِ العشاءَ الأخيرَ؟

تاريخُ العالَم كما ترويه النساءُ

ترجمة : د. رشا صادق



إهداء المؤلّفة:

إلى كلّ نساء العالَم اللواتي لا يملكن تاريخاً.

المرأة هي التاريخ، وهي مَن تصنعه.

ماري رِيتَر بيرد.

في مديح الكتاب:

- أعظم قصّةٍ رُويَتْ حتّى الآن! إنّه تاريخُ الحبّ، والحياة، والأشياء كلّها!

The Times of London

- أكثر ما يدهشنا في هذا الكتاب المُميّز، هو أنّ محتوياته تُقدَّم للمرّة الأولى! دقيقٌ، رائع، وذكيّ.

Booklist

- ممتعٌ وساحرٌ... إنّه عملٌ رائعٌ يقيّم خللاً تاريخيّاً مُخجِلاً.

Newsday

- النساء يملكن تاريخاً، وهو تاريخ عظيم. فهمُنا لغنى هذا التاريخ الذي لا يمكن أن نتجاوزه، ولمجاله الواسع، يعيد لنا ماضينا، ويقودنا بثقة وإلهام نحو مستقبل أفضل.

Cosmopolitan

- بإحساسها المرهف والهجائيّ للغة، تلقي مايلز الضوء على بعض الصور الراسخة في التاريخ، وتراقبها وهي تتصدّع.

New Society

عن المؤلفة

روزاليند مايلز كاتبة بريطانيّة وُلِدت عام 1943، تحمل خمس شهادات ماجستير وشهادة دكتوراه في الأدب الإنجليزيّ، كما حازت على جائزة نتوورك Network Award عن إنجازاتها البارزة في مجال الكتابة عن النساء.

وصل عدد مؤلّفاتِها إلى ثلاثة وعشرين كتاباً حتّى الآن، تتنوّع ما بين الدراسات النقديّة لأدب شكسبير، والنقد الاجتماعيّ، والروايات (أشهرها «أنا، إليزابيث» وهي سيرة ذاتيّة متخيّلة عن الملكة إليزابيث الأولى)، والدراسات التي تتناول تاريخ المرأة على مختلف الأصعدة، التاريخيّة والسياسيّة والإبداعيّة.

إضافة إلى الكتابة، تعمل مايلز صحفيّة، ومقدّمة برامج إذاعيّة تنقّلت بين عدّة إذاعات، كالبي. بي. سي، والسي. إن. إن، وغيرهما.

تُرجِم كتابها «من طبخت العشاء الأخير؟ تاريخ العالَم كما ترويه النساء» إلى أكثر من ثلاثين لغة، وحصد جائزة أفضل عنوان أجنبيّ في معرض غوتنبرغ للكتاب، كما صُنِّف بين أفضل عشرة كتب نسويّة في معرض لندن للكتاب.

موقع المؤلّفة الإلكتروني: www.rosalind.net

المحتويات

المقدّمة

من طبخ العشاء الأخير؟!

إن كان رجلاً، ألن يُخصَّص له يوم بين أعياد القدّيسين، ويصبح شفيعاً للطهاة المشهورين؟! أسئلة كهذا السؤال أوقعتني في المشاكل منذ أيّامي الأولى في المدرسة، حين بدا لي آنذاك أنّ التاريخ -مثل كلّ شيء آخر في العالَم- هو تاريخُ الذكور. كلّ مخطّطات «فجر التاريخ» في المدرسة الابتدائيّة، تُصَوِّر الرجلَ البدائيّ وهو يخطو بثقة إلى المستقبل، لكن دون أيّ أنثى ترافقه! الرجل - الصيّاد ضَمِن انتقالنا إلى أكلِ اللحوم وبالتالي زيادة حجم أدمغتنا، الرجل - صانع الأدوات نحتَ رؤوساً للرماح، الرجل - الرسّام اخترع الفنّ في الكهوف... إلخ. على ما يبدو، تسلّق «الرجل» شجرة التطوّر وحيداً نيابة عنّا جميعاً، ولم يخطر لأحد أنّ المرأة لعبت دوراً في ذلك، أيّاً كان!

تتابعت العصور، وبالكاد ظهرت بعض النساء في المشهد. في مواكب التاريخ المبهرجة، المؤلّفة من الحروب والبابوات والملوك، شاركت النساء فقط عند فشل الرجال. جان دارك قادت الفرنسيّين بسبب عدم وجود رجال يتمتّعون بالمؤهّلات المطلوبة، والملكة إليزابيث الأولى حكمت إنجلترا بسبب عدم وجود وريث ذكر للعرش، بينما كانت البطلات اللّاحقات (كفلورنس نايتنغيل وسوزان. بي. أنطوني) معزولات نوعاً ما عن عالم الرجال، وعزلتهنّ هي شرط مسبق لتحقيق الشهرة. استشهاد جان دارك، وعذريّة إليزابيث، وعنوستهما الذكوريّة المتقشّفة، كلّها لم تستهوِ خيال البنت الصغيرة التي كنتُها آنذاك.

النساء اللواتي حفظتْ كتبُ التاريخ أسماءهنّ نادرات... أين الأخريات؟! إنّه سؤالٌ ملحٌّ رفض أن يفارقني، ولذلك كتبتُ «من طبختِ العشاء الأخير؟» في محاولة للإجابة عليه، على الأقلّ بالنسبة لي. نقطة انطلاقي كانت سؤالَ غيبون -مؤرّخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الشهير- الذي لا يقبل المساومة: «ما هو التاريخ؟ إنّه أقرب إلى سجلٍّ عن جرائم الرجال، وأخطائهم، ومصائبهم». أغراني التحدّي، «وأخيراً!» أعلنتُ بشجاعة، «اليدُ التي تهزّ المهدَ، أمسكتْ بالقلم كي تصحّح السجلّات: هناك نساءٌ في التاريخ أيضاً!». بتلك الكلمات الشجاعة، صدرتِ النسخة الأولى من هذا الكتاب بثقة أكبر ممّا شعرتُ به في الحقيقة، لأنّني لم أعرف كيف سيستقبله القرّاء، لكن كما اتّضح لي، لم أكن الوحيدة التي يؤرّقها غياب النساء عن كتب التاريخ. احتفاء الجمهور بكتابي، فاق أحلامي! منذ صدور الطبعة الأولى تحت عنوان «تاريخ العالَم كما ترويه النساء»، طُبِع هذا الكتاب مراراً وتكراراً، وتمّت ترجمته إلى ما ينوف على الثلاثين لغة بما فيها اللغة الصينيّة مؤخّراً، وألهمَ سلسلة تلفزيونيّة وعرضاً منفرداً قدّمته امرأة، فضلاً عن الاقتباسات العديدة منه بلغات مختلفة، التي تغصّ بها شبكة الإنترنت.

على مستوى الأفراد، ردود الفعل تجاه «تاريخ النساء» كانت مذهلة أيضاً! لقد لامس كتابي العقولَ والقلوب، في جميع أنحاء العالَم. في أوروبا وأمريكا، زارتني النساء كي يشكرنني على كتابته، ثمّ انفجرنَ بالبكاء، كما كتبتْ إليّ العديداتُ شخصيّاً، وتضمّنت رسائلهنّ اعترافاً بسيطاً: «لقد غيّر الكتاب حياتي!». كتبت لي جدّةٌ في الثمانينيّات من عمرها، كي تقول إنّها اشترت نسخاً لبناتها وحفيداتها جميعهنّ، لأنّ «الوقت فات بالنسبة لها، لكن ليس بالنسبة لهنّ». في بلجيكا، أخبرتني طبيبة نفسيّة أنّ إحدى مريضاتها جاءت وهي تحتضن نسخة من كتابي، فتحتْه على الإهداء «إلى كلّ نساء العالَم اللواتي لم يكن لهنّ تاريخ»، وأعلنتْ بغضب: «إنّها أنا! هذه قصّتي!». أعزّ ذكرى على الإطلاق، زيارة شابّة من جامعة ساوث ويسترن يونيڤرسيتي في جورج تاون، تكساس، أهدتني قرطين من الكريستال وقلادة جميلة ورثتْها عن أمّها الراحلة، مرفقة برسالة ما زلتُ أحتفظ بها حتّى الآن، قالت

فيها: «بعد قراءة هذا الكتاب، أصبحتُ قادرة للمرّة الأولى على موضعة تجربة حياتي الشخصيّة ضمن تاريخ النساء الأعمّ. إنّه ما أصبو إليه في الحياة الآن، ولم أكن سعيدة هكذا من قبل. من فضلك البسي القلادة والقرطين، وتذكّري كلّ النساء اللواتي أثّرتِ على حياتهنّ في تكساس».

أردتُ أن أجيبها بأنّ الفضل لا يعود لي، بل للنساء اللواتي ألقيتُ الضوءَ على قصصهنّ. الناشرُ الأوّل لهذا الكتاب وأبوه الحقيقيّ، روجر هيوتون، وصفه بـ«أعظم قصّة لم تروَ من قبل!». في الحقيقة، كانت النساء فاعلاتٍ وكفوءات ومهمّات خلال جميع عصور الإنسانيّة، ومن المفجع ألّا نعي جميعنا ذلك. الشجاعة والطاقة والحيويّة الهائلة التي تكشف عنها شخصيّات الكتاب، كانت مصدر إلهام يوميّ بالنسبة لي وأنا أتصارع مع كتالوج تاريخيّ لا نهائيّ، عن قمع المرأة واستغلالها. من وجهة نظري، الاحتفاء بـ«النساء المشاكسات» حول العالَم ليس كافياً، أيّ تاريخ حقيقيّ للنساء يجب أن يأخذ بحسبانه كلّ ما جرى معهنّ، وأن يفحص من خلالهنّ ما جرى مع الرجال، والأطفال، وفي العالَم كلّه.

هذا الإصدار الثاني تحت عنوان جديد، وبنسخته المنقّحة والمعدّلة، هو الإصدار الأوّل الذي يظهر كاملاً في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. الطبعات السابقة هذّبتِ اللغة وأزالتِ الطرائف، باعتبار أنّ الموضوع جديّ للغاية، وليس من اللائق أخذه بهزل. برأيي، الموضوع جديّ للغاية لذلك يجدر بنا التعامل معه بطرافة، لأنّ التاريخ لا يَصْدُق حول الحياة إن لم يقدّم استراحة كوميديّة... أنا سعيدةٌ لرؤية النصّ هنا كما كتبتُه! إعادة إصدار الكتاب بصياغته الأصليّة أدفأت قلبي، لأنّها دليلٌ على أنّ الاهتمام بالموضوع لم يخمد قطّ، بل على العكس، تنامى اهتمامُ الناس حول العالم أكثر فأكثر بقارّة أتلانتس المفقودة تلك التي تمثّل تاريخَ النساء، وقصّةَ الكثير من الحيوات الضائعة.

تاريخُ النساء، لماذا؟

مع ذلك، سيسأل البعض: لماذا تكتبين عن تاريخ النساء بالمطلق؟ ألم يتقاسم الرجال والنساء العالَم دوماً، واختبروا معاً حسناته وسيّئاته؟! يسود

الاعتقاد بأنّ الجنسين كليهما عانيا الظروف نفسها على حدّ سواء، لكن كان من حقّ الفلّاح الذكر مثلاً -مهما عانى من القمع الغاشم- أن يضرب زوجته، وتوجّب على العبد الأسود أن يكدح من أجل سيّده نهاراً، لكنّه لم يضطرّ لخدمته ليلاً كالمرأة السوداء. هذا النموذج القاتم ما يزال مستمرّاً إلى يومنا هذا، إذ تتحمّل النساء حصّة إضافيّة من الألم والتعاسة مهما كانت الظروف، كما تشهد معاناة المرأة في أوروبا الشرقيّة التي مزّقتها الحروب: الذكور قاتلوا وماتوا، لكنّ الاغتصاب الجماعيّ الممنهج، المترافق غالباً مع التعذيب ذاته الذي يتلقّاه الرجل وينتهي بالموت، كان مصيراً عانت منه النساء فقط! «تاريخ النساء» ينبثق من إدراكنا لتلك اللحظات، رغم أنّ الوعي بوجود الفروقات ما يزال وليداً. لم يبدأ المؤرّخون بدراسة التجربة التاريخيّة لكلّ من الرجال والنساء بشكل منفصل، إلّا في عصرنا الحاليّ فقط، وعندها أدركوا أنّ مصلحة النساء تضاربت مع مصالح الرجال خلال الجزء الأكبر من ذلك التاريخ، وأنّ الرجال عارضوا اهتمامات النساء، ولم يمنحوهنّ تلقائيّاً الحقوقَ والحريّاتِ التي حصلوا هم عليها. بالتالي، أصبح التقدّم «خاصّاً بالرجل فقط». عندما يركّز التاريخ حصريّاً على نصف الجنس البشريّ فقط لا غير، تضيع الحقائق والحلول البديلة. الرجال يهيمنون على التاريخ لأنّهم من يكتبونه، وما كتبوه عن النساء الناشطات الشجاعاتِ الذكيّات أو العدوانيّات، يميل دائماً إلى التعامل معهنّ بطريقة عاطفيّة، أو تحويلهنّ إلى أسطورة، أو إلى جرّهنّ مجدّداً إلى نوع من «الوضع الطبيعيّ» المتعارف عليه. لذلك، معظم ما يُسمّى بـ«السجلّات التاريخيّة» خاطئ ببساطة. مثلاً، لم تُرمَ جان دارك إلى المحرقة بسبب الهرطقة، بل لارتدائها ملابس الرجال، وهو مصير عانت منه الكثيرات حتّى القرن الثامن عشر. فلورس نايتنغيل لم تُلقَّب قط بـ«سيّدةِ المصباح» بل بـ«سيّدة المطرقة»، وهي صورة حرّفها مراسل صحيفة التايمز الحربيّ ببراعة، لأنّها كانت ثقيلة على الناس في الوطن. لم تكسب نايتنغيل لقبها من التجوّل في المستشفى حاملة مصباحها، بل من هجومها العنيف على باب مستودع مغلق، عندما رفض الآمر العسكريّ إعطاءها اللوازم الطبيّة التي تحتاجها.

نحتاج «تاريخ النساء»، لأنّ هناك جهوداً لا تنقطع تُنكر مشاركة المرأة، وتهدف إلى تأكيد التفوّق «الطبيعيّ» للرجل، مهما كلّف الأمر. من يعرف اليوم أن مالك الطاولة المستديرة لم يكن الملك آرثر، بل غوينيفر؟! أو أنّ أجيالاً من الملكات المتحاربات في الهند والسعوديّة، ساهمن بصنع الصورة الحاليّة لبلادهنّ؟! التحريف لم يقتصر فقط على الماضي السحيق الضبابيّ، من يعرف اليومَ كتائبَ القتال التخصصيّة التي قوامها النساء فقط، والتي قاتلت في الحربين العالميتيّن الأولى والثانية؟ من يعرف ما هو الدور الذي لعبته المرأة في اكتشاف الكوازار أو DNA؟ ماذا عن برنامج رحلات الفضاء المخصّص للنساء في وكالة ناسا، خلال الحقبة الذهبيّة للهبوط على القمر؟ لقد كان برنامجاً رياديّاً أغلقتْه ناسا فجأة دون تقديم مبرّرات، رغم أنّ أداء النساء كان –على الأقلّ– بمستوى أداء الرجال ذاته!

التذكير بموقع النساء المركزيّ بالنسبة للجنس البشريّ مهمٌّ للغاية، كي نحارب الاعتقاد الراسخ بأنّ التمييز ضدّ النساء هو أمر مقبول! في كانون الأول من عام 2000، احتفت مجلة التايم بغاندي ونستون تشرشل، باعتبارهما رجلين من بين ثلاثة حملوا لقب «شخصيّة القرن»، نظراً لما يتمتّعان به من حكمة ومهارة في القيادة، واحترام الناس جميعهم لهما. الوثائق الموجودة عن حياة الرجلين «العظيمين»، تكشف دون مواربة عن أنّ غاندي كان يغتصب النساء، وأنّ تشرشل كان عدواً شرساً للنسويّة طيلة حياته. مع ذلك، لم تتلاشَ عَظَمَتُهما! لو استبدلنا «النساء» بـ«السوداوات»، و«عدوّ النسويّة» بـ«المتعصّب عرقيّاً»، سيتّضح لنا أنّهما يستحقّان الخزي والعار، لا الانتخاب في بانثيون العظماء!

مع بزوغ فجر الألفيّة الجديدة، شهدت نهاية القرن العشرين اندفاعاً لإعادة تقييم التاريخ، بدءاً من المقالات في المجلّات وحتّى مجلّدات التاريخ الضخمة، لكنّ المرأة لم تحظَ في أيّ منها بأكثر من إيماءة عابرة. على ما يبدو، ما زال على «تاريخ النساء» أن يخوض معركته!

من وجهة نظري، يجب على «تاريخ النساء» أن يشرح الوقائع لا أن يسردها فحسب، كي يكشف أسبابها الكامنة، ويملأ الفراغات العديدة

ما بينها، وأن يقدّم تفسيراً مُرضياً للسؤال الذي حيّرنا، كما لم يفعل أيّ سؤال آخر على مرّ الزمن: كيف أصبحت المرأة خاضعة؟! يجادل البعض أنّ الاختلاف بين الجنسين متجذّرٌ في الطبيعة، وأنّنا ننتمي إلى جندرَين مختلفَين، نقطة انتهى! بينما يعتبر آخرون أنّ الاختلاف بين الذكر والأنثى، ناجمٌ عن البيولوجيا الاجتماعيّة sociobiology، ويمثّل أوّل مظاهر التقسيم الاجتماعيّ الذي قام به الجنس البشريّ، قبل ظهور القبائل وقبل الأعراق... إلخ. طيلة قرون عديدة، سلّم كلّ من الرجال والنساء بالأمر الواقع: الجنسان يعيشان في «فضاءين منفصلين»، وهو قَدَرٌ بيولوجيّ تفرضه الطبيعة، ويفرضه الربّ. هذا الفصل الجندريّ، بإصراره قانونيّاً ودينيّاً واجتماعيّاً وثقافيّاً على دور المرأة الثانويّ، كرّس دونيّة النساء حتّى عندما قدّس الأنوثة وبجّل الأمّهات، ليباركهنّ الربّ!

ألقت الطبيعة الأمّ العبءَ الأكبر في عمليّة الإنجاب على عاتق المرأة، كما يجادل البعض، لذلك يجب على المرأة أن تخضع لهيمنة الرجل ابتغاءً للحماية، سواء لها ولأطفالها. بمراجعة السجلّات التاريخيّة، سنكتشف أنّ المرأة في المجتمعات «البدائيّة»، تمتّعت بدرجة أعلى من المساواة مع الرجل قياساً للحضارات الأكثر تقدّماً، وإن نظرنا إلى النساء باعتبارهنّ موجودات في مركز التاريخ، لربّما استطعنا أن نفهم لماذا تمتّعت المرأة بحريّة أكبر فيما مضى، وهو تناقض أساسيّ يميّز عصرنا. امرأة ما قبل التاريخ مارست الصيد، وركضت حيثما تشاء، وتجوّلت حيثما تريد، ومارست الجنس مع شريك اختارته بملء إرادتها، كما صنعت الفخّار والأدوات، ورسمت على جدران الكهوف، وزرعتْ ونسجتْ، ورقصتْ وغنّت. قيامها بجمع الطعام كان أمراً لا غنى عنه لبقاء القبيلة، ولم يتحكّم بها أو يحدّ من نشاطاتها أيّ ذكر. على النقيض من ذلك، تغلغلت الهيمنة الذكوريّة في كلّ مناحي الحياة في المجتمعات «المتقدّمة»، وواظبت على ابتداع ترسانة من الأسباب الدينيّة والبيولوجيّة و«العلميّة» والسيكولوجيّة والاقتصاديّة، لتبرير دونيّة المرأة بالنسبة للرجل. يسخر المؤرّخون من تنامي شهرة وسطوة الداروينيّة الجديدة، التي سلبت خيال الناس مع نهاية

القرن العشرين، لأنّها وظّفت الجينات لتبرير كلّ شيء، ابتداءً من الوسواس القهريّ الجنسيّ وصولاً إلى العدوانيّة الذكوريّة، بينما ظلّت خرافة «الدافع الجنسيّ الضعيف» عند المرأة مقبولة دون التحقّق منها (لو كانت صحيحة، لماذا تحتاج المجتمعات إذن إلى تشكيلة ضخمة من الروادع والعقوبات، لإبقاء جنسانيّة البنات والزوجات تحت السيطرة؟!) في الحقيقة، الادّعاء الساذج بأنّ الرجل «مُبَرمَج» لنشر بذرته بينما لا ترغب المرأة إلّا بذكرٍ يحميها، والادّعاء العتيق بتفوّق الذكر، هما وجهان لمقولة واحدة. الدفاع التقليديّ عن فكرة تفوّق الذكور أثبتَ مقاومته للزمن، أمّا المرأة التي يُنظَر إليها باعتبارها مُبرمَجة بيولوجيّاً على الدونيّة، فما زالت محرومة من حقّها الإنسانيّ المتمثّل بالإرادة الحرّة المستقلّة بشكل تامّ.

لماذا الآن؟

أين نحن الآن، بعد مرور أكثر من ثلاثين عاماً على انطلاق أقوى فعاليّة متمحورة حول المرأة شهدها العالَم يوماً؟ اعتباراً من حقبَة الستينيّات في القرن العشرين، تلاقت النساء وانطلقن، ووسّعن آفاقهنّ إلى مستوى جديد، وسبرن أغوارهنّ. الحراك الذي خاضته المرأة آنذاك على الصعيدين الاجتماعيّ والشخصيّ، شبيه بنضالها الطويل المرير للحصول على حقّ التصويت. مع ذلك، لم تنحصر تطلّعاتها بهدف واحد فقط، بل أرادت تغييرَ العالَم كحدّ أدنى، ويجدر بالذكر أنّها قطعت شوطاً هائلاً باتّجاه ذلك، فحقّقت في تلك الحقبة القصيرة المدهشة الصاعقة، انتصاراتٍ فاقت كلّ ما سبقها عبر آلاف السنين. ظفرت المرأة مؤخّراً بالحقّ بالتعليم، وبالحريّات المدنيّة، وممارسة المهن المختلفة، وحقّ الانتساب للجيش والحكومة والكنيسة. من ناحية أخرى، حملت الثورة الاجتماعيّة معها قوّةً اقتصاديّة وفرصاً متكافئة، وحقّ التصويت، والسوتيان، والحقّ بالإجهاض، وفوط التامبون، وجوارب النايلون. امرأة القرن العشرين تسلّقت جبل إيفرست، دارت في الفضاء، وقطعت شوطاً مذهلاً. قادت الطائرة القتاليّة، وأصبحت قاضية في المحكمة العليا، وصناعيّة بارزة، كما أدارت البلدان والشركات، وتعاملت مع ميزانيّات

تُقدَّر بمليارات الدولارات بالثقة ذاتها التي ربّت بها أطفالها في الأزمنة الغابرة. هذا الاندفاع نحو التقدّم، فتح أبواب حقبة من التغيّرات الهائلة بالنسبة للرجال والنساء وكلّ من حولهم، على النقيض من التقدّم الذي أحرزته المرأة سابقاً، والذي كان أقرب إلى إنجازات على الصعيد الشخصيّ. نجاح أوّل طبيبة مثلاً أسهم بنجاح جنس النساء ككلّ، لكن ببطء.

نشأنا في حقبة شهدت تضامناً لا مثيل له سابقاً بين النساء، ومنه انبثقت انتصارات شهيرة، كما أنّ إزالة بعض العقبات القديمة الظالمة الواضحة، أسهمتْ بتركيز طاقة المجتمع على ما تبقّى منها. ها نحن أولاء أخيراً نشهد محاولةً مستمرّة لاجتثاث آلاف السنوات من التحيّز ضدّ المرأة، وقيام الحكومات والأفراد بتمويل الحملات، وتسخير الوقت والإرادة السياسيّة الحقيقيّة في دعم عمليّة التغيير. هذا بدوره وضع عالَمنا الجديد الشجاع أمام تناقضات مدوّخة، وأسئلة مثيرة للاهتمام: في الأعوام المئة المنصرمة، خطت المرأة خطوات عملاقة نحو الاستقلاليّة الفرديّة وتحقيق الإنجازات، أكثر ممّا فعلت خلال آلاف السنين، لكن بماذا سنَصِفُ العصر بالمجمل إن كانت اثنتان من الأيقونات النسويّة الخالدة فيه، جاكلين أوناسيس كينيدي وديانا أميرة ويلز، مشهورتين فقط بسبب أزواجهما، لا بسبب مواهبهما الشخصيّة؟! ديانا، وهي أكثر امرأة احتفى بها العالَم على الإطلاق، أصبحت مشهورة من خلال تجسيدها لفانتازيا سندريلا بزواجها من الأمير، من ثمّ حصدتِ الإعجاب بإظهار «هشاشتها». بشكل عامّ، لماذا لا يزال من العسير على النساء الملوّنات أن يحصلن على فرص متكافئة مع غيرهنّ من النساء، ناهيكم عن تحقيق التكافؤ مع الذكر الأبيض المهيمن؟! وماذا عن سيّدات صناعة الجنس، اللواتي ينشطن بصناعة منتجاتٍ تُدان بشدّة عندما يسوّقها الرجال؟ أو السيّدات الملاكِمات اللواتي يقاتلن للدخول إلى رياضة، يَعُدّها الكثيرون متوحّشة ومُهينة، حتّى بالنسبة إلى الملاكمين الذكور؟ على الأقلّ، تتمتّع الملاكمات في الغرب بحريّة الاختيار، لكن بالنسبة لمعظم نساء العالَم، الحريّة هي مجرّد فردوس خياليّ، وحدها الأفاعي حقيقيّة فيه. أن تكوني امرأة في الصين أو الهند أو إفريقيا أو الشرق الأوسط، يعني أن تتعاملي يوميّاً

مع رجال يؤمنون إيماناً راسخاً بأنّ النساء مخلوقات أدنى مرتبة، خاضعات لسيطرتهم وفقاً لمشيئة «الإله»! كلّ منظومات الإيمان الكبرى في العالَم -اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلام، البوذيّة، الكونفوشيوسيّة- تصرّ على دونيّة المرأة كجزء من العقيدة. صحيح أنّ بعض النساء شققن طريقهنّ بالالتفاف على هذه النقطة طيلة آلاف السنين، وأنّ العديد من المجتمعات اليوم تنأى بنفسها عن كلّ تلك الأفكار الصريحة التي لا تقبل النقض، لكن مع تجدّد التطرّف، يبرز التعصّب العتيق مجدّداً إلى السطح، ويحاول أن يهدم ما بُني.

الظروف الحديثة لا تعني التقدّم بالضرورة، والعديد منها يكرّر الأخطاء السابقة، فضلاً عن ظهور أنماط جديدة من القمع هي -كسابقاتها- مجرّد أعراض لعدم تكافؤ جوهريّ من الصعب تبيّن جذوره، ناهيكم عن اجتثاثه تماماً. تاريخ النساء يجب أن يرفع صوته ضدّ همجيّة الماضي، التي تُولَد اليوم متنكّرة بهيئة جديدة. لا يمكننا تلافي التناقض الأساسيّ المتمثّل بأنّ الحياة تتحسّن بالنسبة للبعض، بينما تتّخذ مساراً أسوأ بالنسبة للبعض الآخر في الوقت ذاته. التقدّم الماديّ والتكنولوجيّ غير المسبوق خلق فساداً لا يمكن تخيّله، واستغلالاً ساديّاً للقوّة، تلعب المرأة فيه -كما هو الحال دائماً- دورَ الطرف المتلقّي. فكّروا بالمثال المرعب التالي: سياسة تحديد النسل في الهند والصين، تسبّبت بموجات جديدة مخيفة من قتل الإناث (سواء الرضيعات أو الأجنّة). قبل خمسة عشر عاماً، كنتُ أخرج مع العديد من النساء في مظاهرات للاحتجاج على تطبيق اختبار بزل السائل الأمنيوسيّ، الذي يُرَوَّج له باعتباره طريقة تُسهم بزيادة نسبة المواليد الأصحّاء، بينما يُستَغَلّ على نطاق واسع في الواقع بهدف إجهاض الأجنّة المؤنّثة غير المرغوب بها، ففي عام 1984 / 1985 فحسب تمّ إجهاض 16000 جنين أنثى في عيادة واحدة في بومباي! مع بزوغ الألفيّة الجديدة، الأنظمة الباترياركيّة المتعصّبة ما زالت تطالب بالصِبية علانيّة وبوقاحة، وتفضّل الذكور على الإناث، وما زالت فاعلة تتنامى دون روادع. في بقيّة أرجاء الشرق، تكافح المرأة اليوم للحصول على حقّها بالتعليم والاستقلاليّة الفرديّة، بينما تسبغ المحاكمُ الذكوريّةُ شرعيّةً على ما تُسمّى «جرائم الشرف»،

باعتبارها مقبولة في القانون كحقّ أزليّ من حقوق الزوج بقتل زوجته الخائنة (أو لمجرّد شبهة الخيانة)، وقتلِ المراهقة العزباء الحامل. توسّع هذا الحقّ مؤخّراً في الباكستان وبعض الدول العربيّة، ليطال قتْلَ أختٍ أو أمّ أو زوجة أب تلطّخ سمعة العائلة. بتر الأعضاء التناسليّة ما يزال قدراً يترصّد الملايين من الفتيات الإفريقيّات. في الكويت، لم تحصل النساء على حقّ الاقتراع بعد[1]. في السعوديّة، تتعرّض المرأة التي تشذّ عن الطريق المرسوم لها إلى التعذيب والعنف والموت. في أفغانستان، شنّت منظّمة طالبان الشنيعة حرباً شرسة على الجنس الأنثويّ بأسره، وطردت النساء من وظائفهنّ وقامت بتعذيبهنّ وقتلهنّ لمجرّد الاشتباه بأنّهنّ خرقن القوانين الدينيّة، وهي قوانين أشدّ قسوة من تلك التي فرضها النازيّون على اليهود أثناء الهولوكوست، ولا تُعَدّ المرأة –مثل اليهود في الماضي– «شخصاً» في ظلّها. في معظم أرجاء العالم غير الغربيّ، تُرسِّخ القوانين الحديثة فكرة عمرها قرابة ألفي عام، وهي أنّ شهادة رجل واحد في المحكمة تعادل شهادة أربع نساء أو أكثر. حتّى ولو تمتّعت المرأة في القرن العشرين بالحريّة كي تصبح جيانغ كينغ أو إنديرا غاندي، ستبقى عرضة للسقوط المدوّي وللعقاب الذي واجهته هاتان المرأتان: الحبس الانفراديّ مدى الحياة بالنسبة للأولى، ورصاصة في البطن بالنسبة للثانية. أحد الدروس التي نستخلصها هنا، هو ضرورة أن نتخلّص إلى الأبد من فكرة أنّ «تأنيث السياسة» ستقودنا إلى عالم أفضل، ومن فكرة أنّ القائدات الإناث ألطف من الرجال. في الحقيقة، القوّة العاطفيّة تسير يداً بيد مع الحماقة الصارخة والجشع المخزي، من كان سيُدين إيميلدا ماركوس مثلاً، قبل أن يسير ميلاً بحذاء من أحذيتها التي يبلغ عددها 2047 زوجاً؟! زوجات الرجال الأقوياء –مثل إيميلدا السعيدة، وإيلينا تشاوشيسكو الجشعة، زوجة الدكتاتور الرومانيّ الدمويّ الأخير– ينحدرن إلى مستوى منحطّ للغاية بسبب هوسهنّ بامتلاك الأشياء، حتّى لو حلّلنا ذلك وفق معايير الحكومات التي تستغلّ شعوبها. في الوقت نفسه، تستطيع معظم النساء

1- حصلت المرأة الكويتيّة على حقّ الاقتراع عام 2005، أي بعد أربعة أعوام من صدور الطبعة الأولى لهذا الكتاب. المترجمة

حول العالم الحصول على الكوكا كولا لكن ليس على الماء النظيف، وابتياع السجائر لكن ليس موانع الحمل، وابتياع أشرطة الڤيديو الإباحيّة لكن ليس الدواء لأطفالهنّ!

ممّا سبق، يتّضح لنا أنّ «تاريخ النساء» يجب أن يركّز أكثر على امرأة تنتمي إلى عالم مختلف عن عالمنا نحن، امرأة تُجبَر على الزواج وإنجاب الأطفال قبل الأوان، وتقاسي العنف المستمرّ والموت المبكّر، وبالتالي تبدو مشاكلنا ومصائبنا في العالم الغربيّ هامشيّةً قياساً لما تعانيه. مع ذلك، كلّما تطوّر مجتمعنا أكثر، وكلّما امتدّ التواصل العالميّ، واجهت النساءُ المزيد والمزيد من التضييق، فضلاً عن الهيمنة الذكوريّة التي تتنامى من حيث المدى والتعقيد، وهو أمر يجب أن نأخذه بعين الاعتبار نحن اللواتي نعيش في مجتمعات الغرب «المتقدّمة». حتّى في العالم الغربيّ الذي ينظر إلى نفسه بوصفه «قائد الكوكب»، تعيش النساء في مجتمع ما زال الرجل يهيمن فيه على مجالات القوانين والسياسة والعمل والصناعة والحكومة. حقوق النساء لم تصل بعد إلى مستوى يكافئ «حقوق الإنسان»، أي الحقوق التي يدّعيها الرجال ويطبّقونها على أنفسهم. الأهمّ من هذا كلّه، سواء عبر وسائل الإعلام الجماهيريّة أو من خلال ديكتاتوريّة الشركات التي تقرّر ماذا نلبس وماذا نأكل وماذا نقرأ وبماذا نؤمن أو نفكّر، ما يزال الحقّ الأساسيّ المطلق وهو «حقّ التعريف» مُلكاً للرجال يتحكّمون به كما يشاؤون.

رغم ذلك، لم تستسلم النساء مطلقاً لتلك المُحاكَمات، أو للأنظمة القائمة منذ آلاف السنين سواء الاجتماعيّة أو القانونيّة أو السياسيّة أو الدينيّة، التي دأبت على اعتبارهنّ أدنى من الرجال. كلّ تقدّم اكتسبتْه المرأة بشقّ الأنفس، ترافق مع عزم لا يكلّ سار بعكس التيّار. المرأة لَم، ولن تكون، أدنى مرتبة من الرجل، ولا تعتبر نفسها كذلك. بالتالي، كلّما تفاقم القمع القديم الذي يتنكّر عادة بصور جديدة غير متوقّعة، ستنشب ثورة جديدة، وستكتشف النساء في كلّ جيل جديد مقدار قوّتهنّ، وتضامنهنّ، وتاريخهنّ السياسيّ. هذا ليس سهلاً، حتّى في العصور الحديثة! في القرن الماضي، عندما تركّزت جهود العالم على الحروب التي يصرّ الرجال حصراً على

شنّها، حُرِمَت المرأة مراراً وتكراراً من حريّة التعبير ومن العمل المثمر، وأُجبِرَت على العودة إلى المنزل. بالتالي، انفصلت كلّ امرأة عن الأخريات وعن النشاط الاجتماعيّ، ولهذا لم تنجح النساء بتأسيس، أو بترسيخ تقليد قويّ مستمرٍّ مقبول في الحقلين الاجتماعيّ والسياسيّ، على غرار تكتّلات القوى الذكوريّة، كنقابات العمّال أو الأحزاب السياسيّة. لذا، في كلّ ثورة جديدة، كان على المرأة أن تكتشف الأشياء من جديد وأن تخترعها من الصفر، وصولاً إلى عصرنا الحاليّ.

نجحنا الآن أخيراً بقلب المعادلة! صحيح أنّ هذه الحقبة طرحت علينا تحديّات صعبة، لكنّها قدّمت لنا في الوقت ذاته فرصاً لا تُعوَّض، اغتنمتها النساء جميعهنّ، حتّى أولئك اللواتي رفضن النسويّة علناً! بعد ما ينوف على القرن من إعلان شارلوت بركنز جيلمان أنّ «المنزل ليس بحاجة إلى الزوجة أكثر من حاجته إلى الزوج»، تحرّرت النساء -في الغرب على الأقلّ- من طغيان الكدح المنزليّ، الذي يُعتبر واجباً من واجبات الزوجة، وقيداً تفرضه التقاليد على حياتها. «ربّة منزل بدوام كامل» أصبحت خياراً، ولم تعد أيّ امرأة مجبرة على لعب أدوار «النساء الصغيرات والزوجات الصالحات» بتعاسة وندم، أو على حساب الآخرين. الآن، بعد انتهاء نشوة الانتصارات القانونيّة والمدنيّة الأولى، وبعد ألق إنجازات «السيّدات الأوائل الشهيرات» (أوّل امرأة تشارك في الماراثون، أوّل امرأة تقود طائرة بوينغ 747، أوّل امرأة تُمنَح جائزة نوبل... إلخ)، بدأت امرأة القرن الحادي والعشرين بالتحرّر من نير تلك الحلقة القاتلة، التي يقوم فيها العدو باستجماع قواه في مكان آخر بعد كلّ انتصار من انتصارات النساء. بإحساس صقلتْه الخيباتُ المتتالية، أدركت النساء أنّ التكرار متأصّل في نضالهنّ، وفهمْنَ أنّ الظروف التي كسبن خلالها حقوقهنّ وحرّيتهن سابقاً بشقّ الأنفس، هي بحدّ ذاتها التي تقوّض تلك الحرّيات والحقوق. لقد حقّقن تقدّماً في زمن التغيير الاجتماعيّ، حين بدأت كتل القوى الراسخة بالتصدّع والانزياح، ممّا أفسح المجال لهنّ (ولكلّ المُهمَّشين الآخرين) باختراق تراكيب كانت ممنوعة عليهنّ سابقاً. بالتالي، كان تقدّم النساء لدخول الحياة الاجتماعيّة، أو عالم العمل الخاصّ بالرجال،

مرتبطاً بأزمنة الاضطرابات والأزمات: المرأة على الجبهات قاتلت وأطلقت الرصاص، والمرأة المهاجرة عملت في وظائف وترشّحت لمناصب في المدن أو اتّحاد التّجارة. حقبة ما بعد الستينيّات من النضال من أجل التحرّر نجمت عن فترات الكساد العالميّ المتتالية، ورفعت نسبة مشاركةِ النساء في القوى العاملة في بعض البلدان (بلغت 47% في بريطانيا)، تماماً كما حصل أثناء الحربين العالميّتين، عندما هجرت ملايين النساء منفضة الغبار للعمل في المصانع، وأقسمن ألّا يعدن مجدّداً إلى العمل في المنزل... لكنهنّ عُدْنَ بالطبع، فقد اكتسبت الخدمة المنزليّة اسماً جديداً! مع نهاية الحرب العالميّة الثانية، طُرِدتْ أجيال بأكملها من المهندسات الصاعدات و«روزي المُبَرْشِمة[2]» فجأة من سوق العمالة الماهرة، وعادت مجدّداً إلى المنزل. لا يهمّ كم كان العمل ضرورة حياتيّة للنساء آنذاك، وكذلك قيادة السيّارة، أو توافر دور الحضانة ودور الرعاية النهاريّة للأطفال كي يتاح لهنّ وقتٌ للقيام بأعمالهنّ، فقد عُدَّت كلّ مظاهر التحرّر تلك استجابة مؤقّتة للأزمة، وبالتالي تقوّضت تماماً مع انتهائها. المناخ العامّ المتجسّد بعدم اليقين وخيبة الأمل والخوف الذي حرّضته الأزمة الكبرى، ترافق مع واقع امتلاك النساء للوظائف، وعدم تواجدهنّ في المنزل كـ «حضور دافئ يرحّب بالزوج»، ما بين رائحة الكعك الطازج والنار في المدفأة. لا يهمّ أنّ هذه الصورة كانت غائبة طيلة عقود، وأنّها قد تختفي إلى الأبد: تقدّمُ المرأةِ ترابط مع المشاعر السلبيّة تجاه التغيّرات الحاصلة، وأصبح بالتالي سبباً للنتائج السيّئة وللتغيير، كما أنّ هذا النمط من التفكير لم يكن محصوراً بالرجال فقط. المرأة بدورها، بعد أن عانت من الضغوطات والخيبات، وبعد أن أُلقِيَتِ اللائمةُ عليها بما حصل، قرّرت أنّ الثمن الواجب دفعه باهظ للغاية. لذلك، تقهقرت النساء جماعيّاً إلى منازلهنّ، وابتكرن «اقتصاد المنزل» و«العلوم المنزليّة»، وقمن بتذهيب أقفاصهنّ بحماس تحت قصف بروباغاندا «المنزل المثاليّ»،

2- Rosie the Riveter كانت نجمة حملة استهدفت تجنيد النساء للعمل في الصناعات الدفاعيّة خلال الحرب العالميّة الثانية، وأصبحت أشهر أيقونة تجسّد المرأة الأمريكيّة. المترجمة

وصوت دوريس داي الذي يتغنّى بمتعة «اللمسة الأنثويّة»... وبقيت الحال هكذا، إلى أن فاق امتعاضهنّ قدرتهنّ على التحمّل.

ممّا سبق يتّضح لنا أنّ نضال المرأة اتّخذ مساراً تكراريّاً، واستغرق إيصال مطالبها الشرعيّة إلى مسامع العالم زمناً طويلاً، كما دفعت الكثيرات ثمناً باهظاً عندما رفعن أصواتهن. كتبتُ عن «تاريخ العالم كما ترويه النساء» بأنّه يمثّل ملايين وملايين الأصوات المخنوقة، وهذا صحيح حتّى في يومنا هذا، ممّا يضيف حزناً مريراً إلى حقيقة أنّ العديد منها خُنِقَت على الفور. على سبيل المثال، الكاتبة الأوروغوانيّة ديلميرا أغوستيني التي نشرت ثلاث مجموعات شعريّة ذاع صيتها في كلّ العالم الناطق بالإسبانيّة، لقيت حتفها على يد طليقها عندما كانت في الرابعة والعشرين من عمرها.

هناك الكثير من الحالات المشابهة، ومن المُسلّم به أنّ نساءً كثيراتٍ يعشن في فقر مدقع ويمتن موتاً شنيعاً، لا لسبب إلّا لأنهنّ وُلِدن إناثاً. رغم ذلك، معظم النساء لسن ضحايا ميلادهنّ، ولم تحبطهنّ المعارضة التي واجهنَها. التاريخ حافلٌ بنساء ناضلن ضدّ العراقيل في خضمّ الكوارث، وقاتلن في سبيل الحياة بحدّ ذاتها. ماضينا حافلٌ بقصص لا تنتهي عن ملكات الحرب الأمازونيّات والآشوريّات، الإلهة الأمّ، «أنثى الفيل العظيمة»، خليلاتِ الأباطرة اللواتي وصلن إلى العرش وحكمن العالَم، العالِمات، السايكوباتيّات، القدّيسات والخاطئات، ثيوديسيا، هيباتيا، وو تشاو، ڤكتوريا كلافلين وودهول، وهند آل هند. بالإضافة لهنّ، هناك ملايين وملايين النساء ممّن ينهضن يوميّاً لإيقاد النار، وتسخين الطعام، وإطعام البشر والحيوانات، والاعتناء بالمحاصيل. في المنزل، يقمن بتنظيف المباول وغسل الشراشف الوسخة، ويتولّين العناية بالمحتضرين وبالمواليد الجدد. خارج المنزل، ينهضن بمهمّة البيع والشراء، وكنس درجات المعبد. معظمهنّ مجهولات وسيبقين كذلك إلى الأبد، لكنّ بقاء الجنس البشريّ يثبت لنا أنّ كلّ حياة من تلك الحيوات الخفيّة هي بشكل ما أو بآخر، انتصار غير مُعلَن. نجاح نساء العالَم يندرج ضمن سياق هذه الحقائق البسيطة، لكن الهائلة، وفي عصرنا هذا تحديداً، أثبتت قوى النساء الطبيعيّة أنّها أعظم من أن يتمّ تهميشها، حتّى

إنّ البعض منهنّ يتمتّعن بحريّة أكبر فقط لأنّهن نساء! «لو كنتُ رجلاً» تقول الطيّارة البريطانيّة آمي جونسون التي حطّمت الأرقام القياسيّة في الطيران، «لربّما انطلقتُ لاستكشاف القطبين أو تسلّقت جبل إيفرست، لكنّ روحي وجدت حريّتها في الريح». الآن، تمتلك النساء في كلّ مكان الفرصة للتمتّع بحريّة تفوق حريّة الماضي، حتّى أشدّ الأنظمة قمعاً لم يعد بإمكانها إخفاء ما تقوم به عن الرأي العامّ العالميّ، أو عن شبكة الإنترنت.

الحريّة الحقيقيّة لبنات جنسنا لا تعني فقط حريّة العمل أو السفر أو الدفاع عن النفس، بل أيضاً حريّة اختلاف كلّ امرأة عن الأخرى بصفات مهمّة. يمكننا معرفة التقدّم الذي تحقّق، بقياس الشوط الذي قطعناه منذ تعالت صرخة فرويد: «ماذا تريد النساء؟». نَضْجُنا يهبنا القوّة كي ندرك أنّه لا وجود لأجندة موحَّدة، ولا لأيّ برنامج إصلاح اجتماعيّ يلبّي احتياجات أو مطالب النساء جميعهنّ. مثلما يتقبّل الرجال أنّ مصالح الجماعات المختلفة ستتصادم حتماً، أدركنا نحن النساء الآن أنّ التوافق بالرأي حول كلّ شيء ليس ضروريّاً، وأدركنا أنّنا نختلف بعضنا عن بعض اختلافاً جذريّاً من حيث الدين، العِرق، البلد، الميول الجنسيّة، والطبقة الاجتماعيّة. يركّز نضالنا اليوم على تحقيق حريّة كلّ امرأة –سواء كانت ميولها الجنسيّة غيريّة أو مثليّة، سواء كانت متزوجة أو عازبة، لديها أولاد أم لا، فقيرة، غنيّة، قصيرة، طويلة، سمينة، نحيلة... إلخ– بممارسة خياراتها كإنسان، واعتبار هذه الممارسة حقاً من حقوقها. حرّيتنا عديمة المعنى ما لم نوسّعها لتشمل جميع سكّان الكوكب، الإنسانيّة «الكاملة» يجب أن تأخذ بحسبانها الرجال أيضاً، وإلّا فلن تحصل عليها النساء. في لحظة ما خلال الأعوام الثلاثين الماضية، رأت النساء بعضهنّ بعضاً بعيون جديدة، وتنهّدن إزاء كلّ العمل الواجب إنجازه: لقد فهمن أنّ ما يقمن به لإنقاذ عالَمهنّ يجب أن يشمل الرجالَ، والأطفال كذلك. فقط عندما ندرك أنّ بإمكان الرجال والنساء أن يتَّحِدوا ضدّ كلّ ما يعيقنا نحن، عندها نستطيع أن ندافع عن صحّتنا وسعادتنا المشتركة. هذه هي المهمّة التي تنتظرنا، ولن نقبل بالفشل.

من الصعب هدم معاقل التمييز الصريح ضدّ النساء، لكنّ هدم التعصّب

المعشّش في اللّاوعي أصعب. لهذا السبب، وبناء على كلّ ما سبق، الحاجة إلى «تاريخ النساء» لم تتضاءل خلال السنوات التي تلت صدور الطبعة الأولى، بل على العكس. في الحقيقة، نحن ما زلنا في البدايات فقط! مئات آلاف القصص المدهشة تنتظر التنقيب عنها بين رمال الزمن، قصص عن الحاكمات في «عصر الملكات» الأوروبي، عن المزارعات القويّات، وصانعات البيرة، عن التاجرات، وحكيمات القرى اللواتي يحافظن على تماسك مجتمعاتهنّ في كلّ مكان من العالَم، ومن خلال ذلك يحفظن الجنس البشريّ حيّاً. إخراج تلك القصص إلى الضوء ضروريٌّ من أجل استعادة مكانة النساء في العالم –سواء مكانتنا نحن، أم مكانة بناتنا وحفيداتنا– كما أنّ الحاجة إليها ستتزايد أكثر فأكثر، ونحن نشقّ طريقنا عبر الألفيّة الجديدة عازمات على تحقيق ما نصبو إليه. تلك القصص البديعة عمّا قامت به المرأة خلال خمسة آلاف عام، ستلهمنا بناء عالَم جديد أفضل، وستشكّل قاعدة نستند إليها، لأنّها مصدرٌ لا ينضب يساعدنا على تمرينِ عضلاتِ شجاعتنا. الأهمّ من كلّ ما سبق، هو أنّها ستذكّرنا كم أنّ النساء رائعات، وكم قطعنا في سبيل تحقيق أهدافنا.

عندما شارفت السنة الحادية عشرة المصيريّة، من فترة تولّي مارغريت ثاتشر لمنصبها على الانتهاء، يُقال إنّ صبيّاً بريطانيّاً صغيراً سأل: «هل يمكن أن يصبح الرجل رئيس وزراء؟!»، تماماً مثلما كان أيّ طفل سيطرح السؤال ذاته في زمن الملكات الفرعونيّات في مصر، أو في حقبة كاترين الكبرى في روسيا. الفرق هو أنّ ثاتشر وغيرها من رئيسات الوزراء لسن شذوذاً نادراً في عالمنا اليوم، بل يُمثّلن الشعب، ويُنتَخبن لا مرّة واحدة، بل مرّات عديدة! المرأة اليوم لا تستلم منصبها بسبب عدم وجود رجال مناسبين، نحن هنا كي نأخذ موقعنا جنباً إلى جنب مع الرجل، ونواجه الحياة معاً.

إذن، تستحقّ المرأة تاريخاً خاصّاً بها وحدها، إن كنّا سنصغي إلى قصّتها الحقيقيّة. في الواقع، إنّها قصص كثيرة، لا قصّة واحدة! سيسعدني أن أرى النساء في كلّ مكان، وهنّ يكتبن قصصهنّ وقصص أمّهاتهنّ وجدّاتهنّ، وأن ينقّب المؤرّخون الذكور بدورهم في ذلك المنجم الخصب. تلزمنا

كتب عديدة تتناول تاريخ النساء، وهدفي كان أن أُنصِف مخاوف النساء جميعهنّ في عصرنا الحاليّ، وكذلك مخاوف الرجال، لأنّها تؤثّر على المرأة في كلّ العالَم. «من طبختِ العشاء الأخير؟» لا يدّعي أنّه يقبل بخرافة «النزاهة التاريخيّة» التقليديّة، النساء هنّ الغالبيّة العظمى المظلومة في تاريخ العالم، ومعاناة هذه الغالبيّة ما تزال مستمرّة، ولن نفي هذه الواقعة حقّها مهما صرخنا ومهما تكلّمنا. سيقول بعض الرجال إنّ هذا ليس عدلاً، وستتعالى حسرتهم شيئاً فشيئاً في مجتمع يحاول إنصاف الطرف الآخر، كما سيدّعي آخرون أنّ المرأة ثملت بالسلطة وأصبحت غير منضبطة بعد انتصارها في معركة الجندر، وأنّ الرجل هو الضحية اليوم. «مسألة الرجل» خطفت الأضواء من «مسألة المرأة» الراسخة التي شغلت القرن التاسع عشر، بعد أن أذهلتنا النتائج المدرسيّة التي كشفت أنّ الفتيات يتفوّقن على الصِبية، وأنّ الرياضيّات الإناث يركضن أسرع من أولئك الرياضيّين الذكور الذين فازوا بالميداليّات الذهبيّة في الألعاب الأولمبيّة الأولى، وأنّ بطل التنس بوبي ريغز خسر أمام بيلي جين كينغ الصغيرة. كلّ مكسب، وكلّ نجاح تحقّقه المرأة، يُفَسَّر على أنّ الرجال يُخدَعون ويُهانون! من وجهة نظري، من الأفضل أن نعكس السؤال: عندما كانت المرأة تكدح بكلّ عضلة، وكلّ عصب، وكلّ خليّة في جسدها، طيلة العقود الثلاثة الأخيرة كي تعيد تشكيل ذاتها وحياتها وتشكيل العالم، ماذا فعل رجل القرن العشرين خلال ذلك الوقت؟! وكم سيطول به الأمر حتّى ينضمّ إلينا ويدعمنا؟!

رسالتنا بسيطة وواضحة للغاية، ولا يُمكن إنكارها. كلّ الثورات في تاريخ العالَم، وكلّ الحركات من أجل المساواة، عجزتْ عن تحقيق المساواة بين الجنسين. بعد آلاف السنين، وفي حقبتنا هذه، بدأنا بتغيير ذلك الواقع... دعونا لا نتوقّف قبل أن نتحرّر جميعنا.



الجزء الأوّل:

في البداية

المفتاح لفهم تاريخ النساء، هو قبولُ أنّه تاريخُ غالبيّة الجنس البشريّ، مهما كان ذلك مؤلماً.

• جيردا ليرنر

المرأةُ الأولى

- «الرجل - الصيّاد» هي النظريّة التي تهيمن على شرح التطوّر الثقافيّ البشريّ، وتفترض أنّ الحضارة الإنسانيّة نشأت على يدِ الرجل - الأيب[1] العدوانيّ، الماهر، حامل الهراوة. إنّها نظريّة مقبولة على نطاق واسع كحقيقة علميّة، كما أنّها مترسّخة بقوّة في الثقافة الشعبيّة دون الحاجة إلى برهان.

• البروفيسورة روث بلير.

- لا جنّة للرجل من دون المرأة، لا في السماء ولا على الأرض. من دون النساء، لن تكون هناك شمس ولا قمر ولا نجوم ولا زراعة ولا نار.

• مقولة عربيّة

تبدأ قصّة الجنس البشريّ مع الأنثى.

1- Apes نوع من الرئيسيّات من فصيلة Hylobatidae (تضمّ الجيبون) وفصيلة Hominidae (تضمّ الشمبانزي، البونوبو، الغوريلا، الأورانجوتان، والإنسان الذي افترق عن الأنواع السابقة تطوريّاً قبل حوالي 6 ملايين سنة)، تمتاز عن القرود بأنّها عديمة الذيل، تمتلك زائدة دوديّة، يمكنها أن تمشي منتصبة على قدمين، وأدمغتها أكثر تعقيداً. المترجمة

حملت المرأة الكروموسومات البشريّة الأصليّة كما تفعل حتّى يومنا هذا، وضَمِنَ تكيّفها التطوّريّ بقاءَ وازدهار الجنسين، كما أنّ وظيفتها كأمّ حفّزتِ الدماغ على التواصل مع البشر، وعلى التنظيم الاجتماعيّ. مع ذلك، أجيالٌ وأجيال من المؤرّخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيّين وعلماء البيولوجيا، اعتبرت أنّ النجم الوحيد في قصّة نشوء الجنس البشريّ بنسخها المعروفة جميعها، كان الرجل، والرجل فقط: الرجل - الصيّاد، الرجل - صانع الأدوات، الرجل - سيّد الخلق الذي يجوب السافانا البدائيّة بثقة متفرّداً في أبهته. في الحقيقة، اضطلعت المرأة بصمت بمهمّة تأمين مستقبل الجنس البشريّ، عملها ومهاراتها وتكوينها البيولوجيّ كانت المفتاح لمصير البشر.

كما يخبرنا العلماء، المرأة هي العِرق بحدّ ذاته، لأنّها الجنس الأوليّ القويّ، أمّا الرجل فهو مجرّد فكرة بيولوجيّة لاحقة. بدراسة بنية الخليّة البشريّة، سنجد أنّ الكروموسوم X الأساسيّ مصدره المرأة، فالجنين الأنثى يكتسب بكلّ بساطة كروموسوم X ثانياً[2] من الأب في لحظة الإلقاح، أمّا تكوين الجنين الذكر فيتطلّب كروموسوماً مختلفاً هو Y، الذي يعتبره بعض العلماء خطأً جينيّاً، أي «كروموسوم X مكسور ومعطوب». بويضة المرأة، وهي أكبر بمئات المرّات من النطفة التي ستخصبها، تحتوي على المعلومات الجينيّة البدئيّة اللّازمة للطفل. لذلك وبكلّ بساطة، المرأة هي الأصل، إنها الجنس الأوّل، والقاعدة البيولوجيّة التي يتفرّع منها الذكر. يلخّص المؤرّخ آموري دو رينكوت ما سبق على النحو التالي: «المرأة بعيدة كلّ البعد عن كونها نسخة ذكوريّة ناقصة كما يفترض التقليد الممتدّ من سفر التكوين التوراتيّ، مروراً بأرسطو، وتوماس الإكويني. الأنثويّة هي القاعدة، وهي الصيغة الأساسيّة للحياة».

2- تُختزَن المادة الوراثيّة للإنسان في 23 زوجاً من الكروموسومات أو الصبغيّات، يختلف بعضها عن بعض اختلافاً كبيراً بالشكل والحجم. الزوج الثالث والعشرون هو زوج خاصّ يتألّف إمّا من كروموسومي X عند المرأة (XX)، أو من كروموسوم X وكروموسوم Y عند الرجل (XY). تتركّب الكروموسومات من الـ DNA، أمّا الجينات Genes فهي وحدات خاصّة موجودة ضمن DNA تُرمّز كلّ صفات الإنسان. المترجمة

كيف سنخبر «الأب» بذلك؟؟ يقول الكاتب نايجل كالدر: «أسياد الكون الأوائل كانوا قطيرات من الطين الملوّن، وربّما مجرّد جزيئات من البروتوبلازما البدائيّة، أو جراثيم بدائيّة عصويّة الشكل، لكنّهم كانوا ذكوراً». على النقيض من هذا التحيّز البيولوجيّ القديم قِدمَ التاريخ، نعرف اليوم أنّ البشر في كوكبنا يتحدّرون جميعهم من سلفٍ واحد بدائيّ هو «شبيه الإنسان» Hominid، وهذا السلف المشترك كان أنثى. عملت فرق مستقلّة من العلماء في جامعتي بيركلي - كاليفورنيا، وأكسفورد، باستخدام أحدث التقنيات الجينيّة لفحص الـ DNA (التركيبة الجزيئيّة للجينات الموروثة)، ونجحت بعزل بصمة DNA واحدة مشتركة بين أفراد الجنس البشريّ جميعهم. بقيت تلك البصمة ثابتة طيلة آلاف السنين، على الرغم من تنوّع الأعراق والشعوب حول العالم، وهي بصمة أنثويّة قاطعة. الأبحاث تشير بوضوح إلى امرأة واحدة، تُعَدّ المنبع الجينيّ الأصل للجنس البشريّ بأسره. عاشت تلك المرأة في إفريقيا قبل حوالي ثلاثمئة ألف عام، ثمّ هاجرت سلالتها لاحقاً وانتشرت عبر الكرة الأرضيّة، ومنها نشأ كلّ البشر الذين يعيشون اليوم. هذا البحث المتمحور حول امرأة قد تكون جدّتنا حوّاء ما يزال وليداً، كما أنّ تداعياته مثيرة للجدل: المشكلة الأولى التي يطرحها بالنسبة لأبناء آدم هي نفي الخرافة المسيحيّة ضمنياً، ففكرة «الأمّ» التي تمثّل المنبع الجينيّ تتطلّب بالضرورة وجود تلك الأمّ، بغضّ النظر عن هويّة شركائها الجنسيّين وعددهم. خلايا الأمّ فقط، هي كلّ ما يلزم لتحديد أصل البشر.

الدور المحوريّ للنساء في تطوّر الجنس البشريّ، هو دورٌ غير قابل للدحض. تقدّم المرأة المعلوماتِ الجينيّة التي يحتاجها الفرد الجديد كي يصبح كائناً بشريّاً، وتنقلها كذلك. بهذا المعنى، كلّ الناس دون استثناء هم أبناء حوّاء تلك، ونحن نحمل في داخل أجسادنا البرهان «الأحفوريّ» الحيّ على وجود النساء الأوائل، اللواتي تجوّلن في سهوب إفريقيا جنباً إلى جنب الرجل.

ألا يقترح ما سبق صورة لحقيقة الدور الذي لعبته المرأة الأولى، تختلف جذريّاً عن صورة «خليلة الصيّاد» النمطيّة، التي ترسم كائناً باهتاً خاملاً

يجلس بالقرب من النار في الكهف؟ منذ حوالي خمسمئة ألف عام قبل الميلاد، عندما وقفت المرأة المنتصبة Femina erecta إلى جوار الرجل المنتصب Homo erectus في وادٍ بدائيّ جفّفته الشمس، طرأت عليهما تبدّلات كثيرة قبل أن يتطوّرا كلاهما إلى الإنسان العاقل Homo sapiens. بالإضافة إلى ذلك، تدلّ الاكتشافات المتلاحقة في المواقع التي تعود لحقبة البليستوسين[3] أنّ المرأة شاركت مشاركة أساسيّة في كلّ نواحي الحياة الضروريّة لبقاء جماعتها وتطوّرها، على النقيض من الاعتقاد السائد بأنّ تلك النشاطات -مثل الصيد- كانت محصورة بالرجال.

في الحقيقة، المرأة الأولى كانت مشغولة منذ مطلع الشمس حتّى مغيبها. حياتها، كأقرانها الذكور، لم تكن طويلة، إذ لم تُعمّر الشبيهات بالإنسان الأوائل hominid وسطيّاً أكثر من عشرين عاماً، استناداً إلى التحليل العلميّ لبقايا المستحاثات. حفنة من الإناث فقط عمّرن آنذاك إلى الثلاثين، أمّا بلوغهنّ الأربعين فكان استثناء نادراً. خلال حياتها القصيرة، مارست المرأة الأولى عدداً لا يُحصى من النشاطات. بتحليل الاكتشافات الأثريّة، ومجتمعات الالتقاط والصيد الباقية إلى يومنا هذا، نجد أنّ المرأة الأولى كانت مشغولة بالنشاطات التالية، وماهرة فيها:

- جمع الطعام.
- العناية بالأطفال.
- تحضير جلود الحيوانات تمهيداً لاستخدامها.
- خياطة الملابس والحمّالات والخيام و«الحقائب» من جلود الحيوانات.
- الطبخ.
- صنع الفخّار.
- حياكة السلال من الأعشاب، والقصب، ولحاء الأشجار.

3- Pleistocene حقبة بدأت قبل حوالي 2.5 مليون عام، وانتهت تقريباً قبل 12 ألف سنة خلت. بدأ الإنسان العاقل بالظهور في هذه الحقبة، وانتشر في كلّ الأرض بانتهائها. المترجمة

- صنع الحليّ من الخرز، والأسنان، والعظام.
- بناء الملاجئ، سواء كانت مؤقّتة أم دائمة.
- صناعة الأدوات المتعدّدة، كتلك المستعملة في الزراعة، والمكاشط الحجريّة لكشط الجلود، والشفرات الحجريّة الحادّة لسلخ جلود الحيوانات قبل خياطتها.
- استعمال الأعشاب والنباتات الطبيّة استعمالات متنوّعة، تبدأ من التداوي وصولاً إلى الإجهاض.

تربّع جمعُ الطعام على ذروة لائحة مهمّات المرأة، وهو ما حفظ قبيلتها حيّة. لا توجد فيما قبل التاريخ مرحلة اعتمدت المرأة –سواء كان لديها أطفال، أم لا– خلالها على الذكر الصيّاد للحصول على الغذاء، رغم أنّ الرجل قام بالصيد بلا شكّ، كما يفعل اليوم في العديد من المجتمعات البدائيّة الباقية. استقصى الأنثروبولوجيّون حتّى الآن 175 مجتمعاً من مجتمعات الصيد والالتقاط Hunter – Gatherer ما زالت تعيش في أوقيانوسيا وآسيا وإفريقيا وأمريكا، ووجدوا أنّ الصيد عملٌ خاصّ بالرجال في 97% منها، أمّا في 3% الباقية، فغالباً ما يضطلع الرجال بالصيد لكن ليس دائماً. فضلاً عن ذلك، كشفت تلك الدراسات المستفيضة والموثّقة عن أنّ الصيد لا يكفي لتأمين احتياجات القبيلة الغذائيّة، لأنّ الحصول على اللحوم من خلال صيد الطرائد غير منتظم، ونادرٌ نسبيّاً (رجال بوشمان الكانغ في بوتسوانا مثلاً، يصيدون بشكل مكثّف لمدّة أسبوع، ثمّ يستريحون بقيّة الشهر) فضلاً عن عدم إمكانيّة تخزين اللحوم، خاصّة في المناخ الحارّ. لذلك، لا تعتمد القبيلة في غذائها على الصيد الذي يقوم به الرجال، بل على ما تجمعه النساء، إذ تعمل المرأة بلا توقّف خلال ساعات النهار، وتنتج حوالي 80% من احتياجات القبيلة الغذائيّة اليوميّة بشكل منتظم ثابت. بتحليل الأرقام السابقة، سنجد أنّ الأفراد الذكور كانوا، وما زالوا، يقومون بخُمس العمل اللازم لإطعام القبيلة، أمّا الأخماس الأربعة الباقية فتقوم بها النساء حصريّاً.

في الزمن الغابر، قيام النساء بجمع الطعام لم يحفظ بقاء القبيلة فقط، بل ساهم بدفع الجنس البشريّ قدماً في مساره المتعثّر نحو الحضارة، لأنّ

جمع الطعام الناجح يعتمد على مهارات التميز والتقييم والذاكرة، ويطوِّرها في الوقت ذاته. تشكيلة البذور، وقشور الجوز، والنباتات، التي اكتُشِفَت في مواقع الحضارات البدائيّة الغابرة في إفريقيا، تشير إلى اختيار الأنواع بدقّة، وليس إلى التقاطها عشوائياً. جمعُ الطعام يمثّل أيضاً طليعة تجارب الإنسان الأوّل في مجال التكنولوجيا، إلّا أنّ تركيز الأنثروبولوجيّين على الرجل الصيّاد، دفعهم إلى تصنيف أسلحة الصيد كأوّل الأدوات التي اخترعها البشر، على الرغم من أنّ الصيد هو تطوّر لاحق ظهر بعد أن تعلّم الإنسان التقاط الطعام. أدوات الجمع والالتقاط أقدم بكثير من الأسلحة، كالعظام، والأحجار، وقطع الخشب المستخدمة في جمع الطعام، ونبش الجذور والدرنات، وتكسير القشور الخشبيّة لتسهيل المضغ... إلخ، وكلّها أدوات نسائيّة. اكتشاف عصي للنبش تمّت تقسية رؤوسها بتعريضها للنار في مواقع الحضارات البدائيّة، يبرهن على مقدرة المرأة الإبداعيّة في حلّ المشكلات. لقد اكتشفت أن تعريض رأس العصا إلى نار خفيفة يجفّفها ويقسّيها، فتتحوّل بين يديها إلى أداة أكثر كفاءة للقيام بالعمل المطلوب.

على النقيض من الرؤوس الحجريّة للفؤوس والرماح والسهام، بقيت أدوات قليلة جدّاً تدلّ على عبقريّة النساء ومهارتهنّ، فضلاً عن أنّ العصا مثلاً تفتقر إلى الألق المرعب الذي تسبغه عيون الأنثروبولوجيّين على أسلحة القتل، ولا تلعب دوراً في تطوّر دراما الرجل الصيّاد. بالمثل، ظلّت الأنثروبولوجيا صامتة إزاء اختراع آخر من اختراع المرأة الأولى، وهو السلّة التي لا بدّ أنّها صنعتْها كي تنقل إلى مكان إقامتها ما جمعتْه، أو التقطتْه، أو صادتْه، أو نبشتْه خلال يومها. حجم الطعام المطلوب يوميّاً، وتنوّع مصادر الغذاء المتوافر، يجعل من المستحيل أن تقوم النساء بنقل ما حصلن عليه بأيديهنّ، أو في طيّات الملابس. لم تقتصر غنيمتهنّ على الأعشاب وأوراق الشجر والتوت والجذور فقط، بل تضمّنت أيضاً البروتينات الضروريّة للحياة التي توفّرها السحالي، النمل، الحلزون، الضفادع، واليرقات. البيوض والأسماك كانت مُتعاً نادرة لكنّها معروفة، وبالنسبة للنساء اللواتي عشن بالقرب من الشواطئ، قدّم البحر مصدراً غنيّاً لا ينضب من الطعام.

نظراً لعبء تأمين مستلزمات الحياة الملقى على كاهلها، لم يكن بمقدور المرأة الأولى أن تهمل أيّ شيء يظهر أمامها -حتّى الجراد الميّت، أو الأفاعي المتفسّخة- إذ ينبغي عليها أن تملأ سلّتها تماماً قبل أن تعود إلى بيتها، وعندها تتصدّى للتحدّي الأخير الذي يحمله يومها، وهو تحويل تلك الموادّ الخام المرعبة إلى ما يشبه وجبة شهيّة.

لا بدّ أن قيام المرأة بجمع الطعام اتّخذ بُعداً أوسع وأشدّ إلحاحاً، عند وجود رضيع تعتني به إضافة إلى العناية بنفسها. أوّل واجباتها كأمّ، كان ابتكار وسيلة لحمل طفلها كي تأخذه معها عندما تذهب لجمع الطعام، لذلك حوّلت سلّتها إلى حمّالة. معظم النساء آنذاك كما ذكرنا لم يعمّرن أكثر من عشرين عاماً، أي لا وجود لجماعة من النساء الهرمات، أو ممّن تجاوزن سنّ الضهي، يعتنين بالأجيال الأصغر بعد أن يكبر أولادهنّ. أطفال أشباه الإنسان كانوا ثقيلي الوزن، كما أنّ وزنهم يزداد مع نموّ الدماغ، وزيادة حجم الجمجمة المرافق. في الوقت ذاته، أجساد الأمّهات فقدت الكثير من الأشعار خلال مسيرة التطوّر، ولم يعد الباقي كافياً كي يتشبّث به الرضيع. لعلّ الأمّ الأولى علّقت طفلها فوق صدرها بحمّالة مائلة، أو ثبّتته على ظهرها كما تفعل أمّهات السكّان الأصليّين في العالم الجديد اليوم، لكنّها من اخترعتِ الحمّالة، وليت علم الآثار قادر على شرح كيف فعلتْ ذلك!

طرحت الأمومة تحدّيات أخرى مصيريّة، بالنسبة لكلّ من المرأة الأولى ومستقبل الجنس البشريّ على السواء، إذ أسهم عاملان اثنان بجعل مهمّة الأمومة أصعب بكثير ممّا قامت به إناث الرئيسيّات. أوّلاً، يستغرق الطفل البشريّ زمناً أطول بكثير من صغار الآيب كي يكبر ويعتمد على نفسه، أي أنّه يحتاج المزيد من الرعاية لفترة أطول بكثير، ولا تستطيع الأمّ أن تنتزع حلمتها من فمه، وتدلّه ببساطة على أقرب شجرة موز. ثانياً، الأمومة بالنسبة للبشر ليست مجرّد رعاية جسديّة بحتة، إذ ينبغي تعريف الأطفال بمنظومة معقّدة من الفعاليّات الاجتماعيّة والفكريّة تفوق ما تخضع له الحيوانات. في غالبيّة المجتمعات البشريّة، كانت المسؤوليّة الأهمّ الملقاة على عاتق الأمّ، التي تقوم بها منفردة، هي مسؤوليّة العناية بالأطفال. إلقاء نظرة على

إنجازات نسل الأمّ الأولى عبر التاريخ، يدلّنا على نجاحها الباهر في مهمّتها تلك! دور الأمومة المركزيّ في مسيرة التطوّر لم يُقَدَّر حقّ تقديره، على عكس الدور الذي لعبه الصيّاد في تاريخ الجنس البشريّ. أحد الادّعاءات غير القابلة للنقض، هو أنّ تعاون الذكور أثناء الصيد أدّى إلى تطوّر مهارات التواصل والتنظيم الاجتماعيّ، وقدّم بالتالي حافزاً لتطوّر الدماغ ونشوء المجتمعات البشريّة. تطرح سالي سْلُوكَم بحدّة فرضيّة مناقضة:

«الحاجة إلى التنظيم من أجل تغذية الأطفال بعد الفطام، وتعلّم الروابط الاجتماعيّة والعاطفيّة المعقّدة التي كانت قيد التطوّر آنذاك، وتعلّم المهارات والاختراعات الثقافيّة المرتبطة بعمليّة جمع الطعام الحثيثة... كلّها تطلّبت أدمغة أكبر. أُولِيَتِ المهاراتُ المطلوبة للصيد اهتماماً ضخماً، أمّا المهارات المطلوبة لجمع الطعام وتربية الأطفال الصغار العاجزين عن العناية بأنفسهم، فلم تحظَ إلّا بالقليل!»

على نحو مشابه، ابتكارُ النساء لنظام التشارك بالطعام كجزء من توسيع العناية بالأطفال، مثّل خطوة باتّجاه التعاون الجماعيّ وتنظيم المجتمع، لا تقلّ أهميّة عن عمل الرجل الصيّاد كقائد ومدير لمجموعته. عمل المرأة كأمّ للأطفال البشريّين الذين يحتاجون مدى زمنيّاً طويلاً من أجل النمو والتطوّر بعد الولادة، جعلها أيضاً خبيرة بمختلف متطلّبات العناية الأموميّة (الإيواء، التهدئة، الإلهاء... إلخ)، وكذلك باللعب والنشاطات الاجتماعيّة مع بقيّة الأمّهات وصغارهنّ. تُبيّن السيكولوجيا الحديثة أهمّيةَ النشاطات السابقة كلّها بتطوير ما ندعوه بمعدّل الذكاء IQ، ولا بدّ أنّ تلك النشاطات لعبت دوراً محوريّاً في تعزيز انفصالنا عن جنس الآيب، من حيث المقدرات العقليّة والفكريّة. بلا شكّ، لم تكن الإناث الوحيدات القادرات على تهدئة الطفل أو تحفيزه أو اللعب معه، لكنّ هذه النشاطات بعيدة كلّ البعد عن الدور المُفتَرض للرجل البدائيّ، الذي يتولّى الصيد والقتل.

أهميّة الرابطة بين الأمّ والطفل لا تنتهي هنا. في خرافة الرجل الصيّاد، يخترع الرجل العائلةَ من خلال إخصاب شريكته، وحبسها في الكهف كي تتولّى إبقاء النار مشتعلة: الرجل هو من ابتكر اللبنة البشريّة الاجتماعيّة

الأساسيّة، وهو من حافظ عليها بواسطة الصيد والقتل! الصحفيّ الأمريكيّ روبرت آردْري، المناصر الأبرز لتلك الفرضيّة، يصوّر بسذاجة التقسيمَ الجندريّ ليوم العمل النموذجيّ في المجتمعات البدائيّة: «ينطلق الذكور إلى أرض الصيد، وتذهب الإناث إلى مقرّ الإقامة، كما نذهب نحن اليوم إلى المكتب والبيت». على النقيض من سيناريو «الأب الذي بيده كلّ شيء»، تبرهن أدلّة كثيرة على أنّ العائلات الأولى كانت مؤلّفة من النساء وأطفالهنّ، وأنّ قبائل مجتمعات الصيد جميعها كانت متمحورة حول الأمّ، وتُنظّم بالانتساب الأموميّ. إمّا أن يُطرَد الذكور الشباب من المجموعة، أو أن يغادروا من تلقاء أنفسهم، بينما تبقى الإناث قريبات من أمّهاتهنّ ومن المكان الذي وُلِدنَ فيه، برفقة أطفالهنّ. في العائلة المتمركزة حول المرأة، كان الذكور عاديّين وهامشيّين، أمّا الأنثى فقد كانت نواةَ العائلة والشبكةَ المتفرّعة عنها معاً. هذا النمط ما يزال موجوداً اليوم في عدد من قبائل الالتقاط والصيد الباقية، التي يطلق عليها العلماء لقب «الأحفوريّات الحيّة»، إذ يؤكّد لنا الأنثروبولوجيّ دبل يو. آي. توماس: «ينتمي الأطفال للمرأة، ويبقون أفراداً من مجموعتها. نواة التنظيم الاجتماعيّ كانت دائماً المرأة وأطفالها، وأحفادها، وأحفاد أحفادها».

في الواقع، كلّما اكتشفنا أدلّة بيولوجيّة جديدة، أدركنا مقدار الدَّين الذي تدين به البشريّة للمرأة الأولى. على سبيل المثال، نحن مدينون للمرأة الأولى بأنّ معظمنا يستعمل اليد اليمنى كما يشرح لنا نايجل كالدر: «استعمال اليد المسيطرة، وهي اليد اليمنى عند معظم البشر، هو ظاهرة أنثويّة». منذ أقدم الأزمان، اعتادت المرأة على وضع طفلها على الجهة اليسرى من صدرها كي تهدّئه بصوت دقّات قلبها، ممّا يترك يدها اليمنى حرّة للعمل، ولا بدّ أنّه ما حفّز اعتماد معظم البشر على أيديهم اليمنى فيما بعد. اختيار اليد المسيطرة (وكذلك الكلام) يتطوّر أسرع عند الإناث، وبطريقة حاسمة أكثر منها عند الذكور، وهو دليل آخر على «أنثويّة اليد المسيطرة» على حدّ قول كالدر. هناك إرثٌ بيولوجيّ آخر أهدته النساء للرجال، ويتطلّب عرفاناً بالجميل أكثر بكثير ممّا يتلقّاه حاليّاً: القضيب الذكريّ عند

الرئيسيّات باختلاف أنواعها، هو عضو صغير غير مبهر. قضيب كينغ كونغ الصغير قياساً لجسده الهائل، لن يروّع أيّ أنثى، ولن يثير إلّا شفقتها. على العكس من الثدييّات، طوّر الرجل قضيباً كبير الحجم، ويحقّ له التباهي بأنّه سيّد الكون فيما يختصّ بالأعضاء التناسليّة الذكريّة، لكنّ الفضل يرجع إلى النساء. ببساطة، عندما تطوّرت الأنثى الأولى femina إلى الأنثى المنتصبة femina erecta، وقفت على ساقيها الخلفيّتين ومشت، لذلك تزوّى مهبلها إلى الأمام والأسفل، كما أصبح أعمق داخل جسمها. قضيب الذكر حاكى تطوّر المهبل المستمرّ، متّبعاً المبدأ التطوّريّ نفسه الذي اتّبعه عنق الزرافة، إذ يجب أن يزداد حجم القضيب وإلّا لن ينال مبتغاه، كما أنّ هذه الضرورة أملتْ بدورها تفرّد الإنسان بممارسة الجنس من الأمام. مستقبل البشريّة يعتمد على قدرة الرجل على اختراق المهبل بشكل ما أو بآخر، لكنّ السهولة التي يتنقّل بها البشر بين وضعيّات ممارسة الجنس من الأمام ومن الخلف، هي تذكير دائم بتأثير التطوّر البيولوجيّ للمرأة.

بيولوجيا المرأة تحمل بين طيّاتها المفتاح لفهم قصّة البشريّة: نجاح التطوّر يتظاهر في جسم المرأة من خلال صفة أساسيّة، وهي الانتقال بيولوجيّاً من الدورة النزويّة عند الرئيسيّات التي تحصل عندما تكون الأنثى مستعدّة للتزاوج، إلى الدورة الطمثيّة عند المرأة. الدورة الطمثيّة الشهريّة لا تُؤخَذ بعين الاعتبار، ولا تُذكَر أصلاً، لكنّها تكيّف تطوّريّ حفظ الجنس البشريّ من الانقراض، وضَمِنَ بقاءه ونجاحه. الدورة النزويّة عند الرئيسيّات العليا هي آليّة غير كفوءة، إذ إنّ إناث الشمبانزي والغوريلا والأورانجوتان تدخلها بشكل متقطّع، ولا تنجب إلّا صغيراً واحداً كلّ خمس أو ستّ سنوات، ممّا عرض أجناسها لخطر الانقراض، خاصّة أنّ أعداد حيوانات الأيب العليا اليوم قليلة، ولا تعيش إلّا في بيئات توفّر لها شروطاً مثلى. مع اثنتي عشرة فرصة للحمل كلّ عام، عوضاً عن فرصة واحدة كلّ خمس سنوات، أصبحت خصوبة المرأة أعلى بستّين مرّة من مثيلتها عند إناث الرئيسيّات العليا. الطمث، وليس الصيد، كان القفزة التطوّرية الكبرى نحو الأمام، ومن خلال تكيّف الأنثى لا الذكر، ازدهر «الرجل» وتكاثر واستعمر الأرض. الطمث

ليس مجرّد ظاهرة فيزيولوجيّة كالتبرّز، أو تناول الطعام. يجادل الباحثون حالياً أنّ «لعنة النساء» تلك ساهمت بحلّ مشكلة قلّة ذريّة الرجل، وأنقذته من ظلام عقله البدائيّ. في عملهما الرائد عن الطمث «الجُرح الحكيم»، شدّدت بينلوب شاتل وبيتر ريدغروف على الصلة التي عقدتها المجتمعات البدائيّة بين الدورات القمريّة والدورات الطمثيّة، واقترحا أنّ المرأة هي أوّل من أيقظ مقدرة العقل البشريّ على التفكير الرمزيّ، وتمييز الأفكار المجرّدة، واستحداث الصلات بينها. ترجّح إيليز بولدنغ أنّ تلك الوظائف العقليّة ظهرت في مرحلة باكرة جدّاً، قامت النساء خلالها بتعليم الرجال مبادئ الأرقام، وتنظيم التقويم الزمنيّ، والعدّ: «كلّ امرأة تمتلك روزنامة جسديّة هي دورتها الطمثيّة الشهريّة. لا بدّ أنّ المرأة هي أوّل من لاحظت العلاقة بين دورات جسدها، وبين دورات القمر». عبّرت باحثات أخريات في شؤون المرأة، عن دهشتهنّ إزاء سذاجة البروفيسور الشهير جايكوب برونكوفسكي في السلسلة التلفزيونيّة «صعود الإنسان»، حين وصف عظمة إيَل تعود إلى حقبة ما قبل التاريخ حُفِرتْ عليها 31 ثلمة، وكان مقتنعاً تماماً أنّها «تسجيلٌ للشهر القمريّ». في تعليقها على «صعود -تعرفون- مَن»، شكّكت فوندا ماكينتير بتصريحه قائلة: «أنتم احكموا بأنفسكم! شهرٌ قمريّ مؤلّف من واحد وثلاثين يوماً؟! العظمة على الأرجح سجلٌّ للدورة الشهرية لامرأة ما».

من وجهة نظر موضوعيّة، ذلك الشاهد الصامتُ المحفور بعناية، والذي يؤرّخ حدثاً ضائعاً غامضاً، قد يكون تسجيلاً للدورة القمريّة، أو الدورة الطمثيّة، أو كليهما، أو لشيء مختلف تماماً عنهما، ولكن في سياق الإنكار الروتينيّ اللّاواعي لنشاط النساء وتجاربهنّ وإيقاعاتهنّ، بل وحتّى قدرتهنّ على العدّ، لم يأخذ الباحثون بحسبانهم أصلاً أن تكون عظمة الإيل تلك من صنع امرأة وثّقت بواسطتها حياتَها الشخصيّة الحميمة. في الواقع، لم يولِ الباحثون اهتمامهم على الإطلاق لتداعيات التطوّر بالنسبة للنساء، حين اختفت الدورات النزوية المتفرّقة الخفيفة، وحلّ مكانها الطمث الكامل المتمثّل بنزف تختلف كميّته من مرّة لأخرى (رغم أنّها كميّة لا يستهان بها)،

ويدوم أسبوعاً من كلّ أربعة أسابيع. ماذا فعلت المرأة الأولى؟ هل قرفصتْ ببساطة فوق كومة من أوراق الشجر، ونزفتْ؟ إنّها صورة مزعجة، شبيهة بتلك التي تقدّمها خرافة الرجل الصيّاد عن المرأة السلبيّة التي لا عمل لها إلّا العناية بنار الكهف. المرأة التي تجمع الطعام للقبيلة -وهو نشاط لا غنى عنه- لا يمكنها أن تجلس خاملة خلال 25% من وقتها، ولكن إن تجوّلتْ هنا وهناك، فلا بدّ أنّ سيلان دم الطمث الحرّ سيسبّب سحجات مؤلمة في باطن فخذيها، خاصّة في الطقس البارد أو العاصف، قد تختلط بالإنتانات في المناخ الحارّ، وبالكاد ستُشفى تقرحات الجلد الناجمة عن ذلك قبل بدء الطمث التالي.

هناك عدّة مؤشّرات تدلّنا على الحلّ. في البريّة، تقوم إناث القرود بالتقاط حفنة من الأوراق تستعملها لمسح بقع الدم الناتجة عن الدورة النزوية. في مجتمعات الصيد والالتقاط الباقية اليوم، تقوم النساء بحياكة أو خياطة الملابس، والحمّالات لأطفالهنّ، والحقائب البدائيّة لنقل ما ينبشنه أو يجمعنه. لا بدّ أنّ المرأة الأولى ارتجلت ما يشبه الحمّالة أو الحزام أثناء الطمث، ثبّتتْ بواسطتها فوطة تمتصّ سيلان الدم الغزير. اليوم، تقوم نساء الماوري والأسكيمو بصنع فوط من الطحالب الناعمة الطريّة، وتصنع نساء إندونيسيا كراتٍ تشبه فوط التامبون من ألياف النباتات الطريّة. نساء آزيمبا في أفريقيا الوسطى يستعملن أليافاً نباتية كفوط، تُثبَّت بواسطة حمّالة أسطوانيّة من جلد الماعز الناعم، تُثَبَّتُ بدورها بواسطة حزام من الأشواك المجدولة. من السهل أن نستنتج أنّ المرأة القادرة على دفع الجنس البشريّ الوليد نحو المستقبل، لم تكن عاجزة عن إيجاد طريقة تتعامل فيها بكفاءة مع جسدها.

أمرٌ واحد أكيد: كلّ الأدوات، وكلّ التكنولوجيا التي اخترعتها المرأة الأولى، اختفت! حتّى ولو بقيت، هل ستُعَدُّ جديرة بالاهتمام؟! حياة الرجل الأوّل دُرِسَت باستفاضة على كلّ المستويات، بدءاً من الأبحاث الأكاديميّة وحتّى التخمينات الجامحة. لم يعقّب أحدٌ، سواء من الأكاديميّين أو الناس العاديّين، على تعليق الأنثروبولوجيّ دونالد جونسون، مكتشِف مستحاثة «لوسي» الشهيرة التي تنتمي لأشباه البشر الأوائل، حين نفى «جدل الدورة

النزويّة»، وبالتالي نفى الانتقال البيولوجيّ إلى الدورة الطمثيّة عند المرأة بقوله: «أنا لا أصدّق أيّ شيء لا أستطيع أن أقيسه، ولم أصادف قط مستحاثة في طور الدورة النزويّة». حسناً، لن يصادفها مطلقاً، أليس كذلك؟! تماماً كما فعل جونسون، أعمت أجيالٌ من المعلّقين الذكور عيونها عن حقيقة وأهميّة تداعيات تطوّر المرأة الأولى، وأصرّت كلّها على اختزال المرأة البدائيّة إلى وعاء جنسيّ للرجل. «كانوا يقومون بتسمين عرائس العصر الحجريّ من أجل تزويجهنّ» يكتب إتش. جي. ويلز، «وكانت الإناث عبدات محميّات، يملكهنّ الذكر الأكبر سيّدُ النساء جميعهنّ». يا لها من فانتازيا «ويلزيّة» تشتهي حريماً من النساء!

بالنسبة لروبرت آردري، تطوّرت الدورة الطمثيّة كجائزة للرجال. عندما تدخل أنثى الرئيسيّات في دورتها النزويّة كما يتشدّق، «ستربح الجائزة الكبرى في يانصيب الجنس، لأنّها تقدّم المتعة للذكور جميعهم، وتحصل في الوقت نفسه على الحدّ الأقصى من اهتمامهم». لكنّ الدورات النزويّة قصيرة ومتفرّقة، لذلك لا بدّ من بديل يجعل الصيّاد يترك التلال ويعود إلى منزله. وفقاً لآردري، تعلّمت المرأة الأولى كيف تحوّل الدورة النزويّة إلى طمث، ممّا جعلها متوافرة جنسيّاً كي تستقبل الذكر على مدار العام، كمكافأة له لأنّه يشاركها بالفرائس التي يصطادها. إنّه إذن أوّل مثال معروف في التاريخ، عن اتفاقيّة مقايضة يحترمها الطرفان!

نظريّة «المتعة للرجال جميعهم» عن تطوّر المرأة الجنسيّ المبكّر، تفسّر أيضاً تركيب جسد الأنثى المعاصرة. عندما بدأ الرجل الصيّاد بالمشي منتصباً، أراد تلقائيّاً أن يمارس الجنس من الأمام، وكما يشرح لنا ديزموند -القرد العاري- موريس[4] بحماس، أطاعت المرأة رغبته تلك بـ«جعل الجنس أشهى» من خلال تضخيم ثدييها: لقد أدركت المرأة الأولى أنّ «فلقتي مؤخرتها المترهّلتين نصف الكرويتيّن» أصبحتا موضة قديمة لا

4- ديزموند موريس عالم أحياء إنجليزيّ من مواليد 1928، وكاتب مشهور في مجال السوسيوبيولوجيا. من أشهر مؤلّفاته «القرد العاري» 1967 الذي تشير له الكاتبة بسخرية. المترجمة

تجذب انتباه الرجال، «كان عليها أن تقوم بشيء ما لجعل نصفها الأماميّ مغرياً أكثر! أيّ علاقة بين زيادة حجم الثدي، وبين تزايد حجم المولود البشريّ عند الولادة، هي على ما يبدو مصادفة بحتة!

النظريّات الأندروسينتريّة[5] السابقة التي تشرح تطوّر المرأة، تعتبر أنّ جسدها تغيّر لتقديم فائدة للذكر، لا لتحقيق منفعتها الشخصيّة. من أجل الرجل وحده طوّرت المرأةُ الأورغاسم الأنثويّ، كجائزة إضافيّة يستحقّها ذلك الصيّاد المُرهَق الذي يجلب لها اللحم آخر النهار، «وهكذا، توالت ابتكارات الأنثى» يهلّل آردري، «قد يكون الذكر متعباً، وعندها تنعشه رغبة الأنثى». في ختام تقمّصه التطوّري، يصبح الرجل بطلاً جنسيّاً وقرداً داعراً، أمّا المرأة السلبيّة التي تستجيب له طيلة 365 يوماً في السنة، فهي تنتظر عودته إلى الكهف كي تستعرض أمامه ذخيرتها الجديدة من الحيل الجنسيّة المسليّة، كثدييها وبظرها، بعد أن أصبحت نجمة مجلّة بلاي بوي في عصر البليستوسين.

على ضوء الأدلّة التي تقدّمها المصادر العلميّة الغزيرة، عن دور النساء المركزيّ في تاريخ الجنس البشريّ، كيف نفسّر استمرارَ خرافة الرجل الصيّاد وهيمنتَها؟

مفهوم تشارلز داروِن عن أصول البشر لم يشمل مخلوقاً يشبه ذلك الرجل البدائيّ. من وجهة نظره، كان الرجل حيواناً اجتماعيّاً يعمل ضمن «مؤسّسة جماعيّة» هي القبيلة، وتنعدم فرص بقائه على قيد الحياة بعيداً عنها. الداروِنيّون اللّاحقون، من أمثال توماس هكسلي وهربرت سبنسر («أعظم وغد في تاريخ المسيحيّة» كما يصفه توماس كارلايل)، قدّموا تفسيراً جديداً للمعركة التطوّريّة من أجل البقاء، تتلخّص بأنّها لا تحدث بين الجينات وإنّما بين الأفراد. بحلول عام 1925، اعتبر الأكاديميّون تلك الفكرة حقيقةً واقعة. البروفيسور كارْفِث ريد من جامعة لندن، اقترح بحماس أن يُسمَّى الرجل

5- Androcentrism: هي اعتناق نظرة ذكوريّة في تفسير العالَم والثقافة والتاريخ، وبالتالي تهميش النساء. المترجمة

الأوّل بالرجل – الذئب Lycopithecu نظراً لشراسته الوحشيّة، وهو اقتراح تلقّفه كاتب فاشل آخر، هو البروفيسور رايموند دارت من جنوب إفريقيا: «يختلف أسلاف الرجل عن الآيب اليوم بكونهم قتلةً حقيقيّين، كائنات لاحمة تهاجم خصومها بعنف وضراوة، تضربهم حتّى الموت، تمزّق أجسادهم المحطّمة أشلاء، وتروي عطشها الوحشيّ بدم الضحايا الحارّ، وتأكل لحمهم الحيّ المرتعش بشراهة».

كما يقترح المقطع السابق، فكرة «الرجل – الصيّاد» تكشف عن عناصر أخرى، تغذّي وتمدح الفانتازيات الذكوريّة المتعلّقة بالعنف والتدمير. «نحن أبناء قابيل» يتباهى آردري، «الرجل هو مفترسٌ، وغريزته الطبيعيّة هي أن يقتّل بالسلاح». اشتغل العديد من «الصِبية» على هذه الفكرة، بدءاً من كونراد لورينز إلى أنطوني ستور، «الحقيقة البسيطة هي أنّنا (من يقصد بـ: نحن؟!) أقسى جنس عديم الرحمة مشى على وجه الأرض يوماً»، وعدوانيّة الرجل الغريزيّة تلك تجد متنفّساً طبيعيّاً لها بإخضاع الموجودين حوله، «النساء، الصِبية، البنات» كما يكتب إتش. جي. ويلز، «جميعهم يخشون الذكر الكبير». برأي آردري، «الهيمنة، وهي ضرورة اجتماعيّة ثوريّة حتّى أثناء حياة الغابات الخالية من الهموم، أصبحت نظاماً للبقاء بالنسبة للصيّادين، يُطَبَّقُ يوميّاً». بالتالي، السلف الصيّاد الذي يتحدّر منه الرجل، تحوّل إلى برهان يبرّر كلّ أفعال الرجل العدائيّة، سواء المراوغة في العمل، أو ضرب الزوجة، أو الاغتصاب. «الحقّ بالهيمنة» الذي امتلكه ذلك «الرجل السيّد الأوّل»، قدّم إلى ذرّيته من الذكور ذريعة نافعة لا غنى عنها.

في الحقيقة، ما من جانب من جوانب المجتمع البشريّ المعاصر، ولا من وَهْمٍ يُرضي غرور الذات عن غريزة الرجل «الطبيعيّة» للسيطرة والتدمير، إلّا وينبع من خرافة الرجل–الصيّاد، ويُفسَّر بها. أجيال وأجيال من الأكاديميّين صدحت بأصواتها المحترمة في أنشودة تسبيح للرجل الصيّاد وزملائه، «ذكاؤنا، اهتماماتنا، مشاعرنا، وحياتنا الاجتماعيّة الأساسيّة» يغرّد البروفسوران الأمريكيّان وشبرن ولانكاستر، «ندين بها كلّها إلى صيّادي الزمن الغابر». مع ذلك، لم ينجرف الجميع مع تلك الخرافة بلا شكّ، وصف دونالد جونسون

مثلاً فرضيّة الصيد تلك بأنّها نتاج «مخيّلة آردري الخصبة»، وأنّها «إحراج للأنثروبولوجيّين». ألقت الأوساط الأكاديميّة اليوم تلك النظريّة إلى سلّة المهملات بعد المراجعة والازدراء، كما يشاطر العديد من الأكاديميّين عالمَ النفس جون نيكولسن إقراره بأنّه «ما زلتُ منزعجاً لأنّني آمنتُ بها يوماً».

من ناحية أخرى، ما إن اجتذبت خرافة الرجل - الصيّاد المخيّلةَ الشعبيّة واستحوذت عليها، حتّى أصبح من الصعب تحطيمها، وقلّة من الناس فقط تلاحظ كيف انتقل الرجل الصيّاد من جيل إلى جيل بمفرده طيلة الألفيّة. بالنسبة للمرأة، لا مكان لها في تلك الخرافة باستثناء جهازها التناسليّ الناشئ. المرأة الأولى أخفقت كليّاً باللحاق بركب التطوّر، «عندما تطوّر الرجل، ازداد حجم جسمه وقوّة عضلاته وسرعته، كما ازداد ذكاؤه وخياله ومعرفته» يصرّح فرنسيّ بارز من أصحاب السلطة الفكريّة، «بالكاد شاركتْه الأنثى أيّاً من ذلك». أجيال لا تحصى من المؤرّخين، والأنثروبولوجيّين، وعلماء الآثار، وعلماء البيولوجيا، صادقت على ادّعائه بطرق شتّى. الرجل على ما يبدو تطوّر بمفرده نيابة عن كلّ الجنس البشريّ، أمّا المرأة الأولى الخاملة والمعتمدة عليه، فقد تكاسلت في الكهف فحسب، وكانت مجرّد مخلوق بدائيّ متخلّف، أنثى جميلة غبيّة توقّف تطوّرها، وانتهى هناك.

رغم ذلك، عندما نحتفي بإنجازات المرأة الأولى، ونفنّد الأساطير المختَلَقة التي تبني خرافة الرجل الصيّاد، من الضروريّ ألّا نستبدل الإنكار التاريخيّ لمنجزات المرأة الأولى، بإنكار إنجازات الرجل الأوّل. في مفارقة واضحة، يصبح دور الرجال في بقاء الجنس البشريّ طبيعيّاً ومهمّاً أكثر، ما إن نقيّم التعاون الذي ساد في حياة البشر الأوائل.

الصيد كان نشاطاً تتعاون فيه الجماعة كلّها، وليس مغامرة فرديّة بطوليّة

تشرح لنا ميرا شاكلي ما يلي: «نجاح الصيد، خاصّة صيد الطرائد الكبيرة التي تتنقّل في قطعان -كالرنّة، الخيول، الماموث، البيسون، ووحيد القرن الصوفيّ- يتطلّب التعاون في مجموعات». حتّى يومنا هذا، كلّ أفراد

المجتمعات المعتمدة على الصيد، بمن فيهم النساء والأطفال، يشاركون حكماً في فعّاليات الصيد. بدورها، تقوم المرأة منذ زمن غابر بصيد الحيوانات الأصغر، أو الأبطأ، أو الأقلّ خطراً. في القرن الثامن عشر، عثر تاجر يعمل في شركة هادسن باي في كندا، على امرأة من الأسكيمو تمكّنت من النجاة بمفردها طيلة سبعة أشهر، في جزيرة جليديّة معزولة في منتصف الشتاء، «لا يحيط بها سوى القفار على امتداد ألف ميل»، باعتمادها على الصيد لا غير.

الصيدُ لا يعني القتال

على النقيض ممّا نتصوّر، غاية التنظيم الجماعيّ للصيد، كانت تجنّب المواجهة المباشرة المنفردة بين الرجل البدائيّ وفريسته. تعاون البشر الأوائل لتحقيق ذلك كما تشرح لنا شاكلي، من خلال «سَوْقِ الحيوانات لتقفز من أعلى جرف ما إلى حتفها»، كما حصل مثلاً في سولَتر، وهو موقع يعود للعصر الباليوليتيّ المتأخّر[6]»، أو «بتخويفها بالنار، كي تندفع وتسقط في حفرة معدّة مسبقاً»، كما تفعل قبائل تورالبا وأمبرونا. في منطقة دوردونيه في فرنسا، تُصوِّر رسومات كهف كرومانيون بوضوح ماموثاً سقط في حفرة، وبشراً يرشقونه بالرماح، وهي ممارسة منتشرة حول العالم لا يضطرّ الصيّاد معها إلى قتل الحيوان أصلاً، بل يتركه كي يموت وحده.

معظم طرق الصيد لم تكن مواجهة شرسة مباشرة، ولا يقوم بها فردٌ واحدٌ يخوض معركة حتّى الموت، وإنّما اعتمدت على التربّص بالفرائس التي تتحرّك ببطء كالسلاحف، أو الحيوانات الجريحة أو المريضة، أو الإناث الحوامل التي توشك أن تلد، أو الجثث التي قتلتها الضواري الشرسة وتركَتْها.

6- العصر الباليوليتيّ يُعرف أيضاً بالعصر الحجريّ القديم، ويبدأ مع اختراع الإنسان للأدوات الحجرية قبل حوالي ثلاثة ملايين عام، وينتهي بانتهاء حقبة البليستوسين قبل حوالي 12 ألف سنة مضت. يُقسَم إلى باكر، وأوسط، ومتأخّر. المترجمة

اعتمد كلّ من الرجال والنساء بعضهم على بعض، قبل الصيد، وخلاله، وبعده.

تصف الأنثروبولوجيّة نيكول كونستابل شعبَ يوكاجير في سيبيريا، وهم مجتمع من مجتمعات الصيد والالتقاط المعاصرة. عند الصيد، يشكّل الرجال مجموعة تنطلق أوّلاً لتفقّد الفخاخ، وتليهم النساء اللواتي يتولّين مهمّة تقطيع الطرائد، ونقلها إلى مكان إقامة القبيلة. تقدّم الطريدة الغذاءَ، والجلودَ لخياطة الخيام والثياب، والعظام لصناعة الأدوات وخرز الزينة. معظم ما سبق تنتجه المرأة، لذلك فهي تملك حقّاً متأصّلاً بتقطيع الطريدة.

تذكّرنا ميرا شاكلي بالتالي: «إضافة للحصول على الغذاء، اصطاد البشر الأوائل الحيوانات من أجل جلودها وعظامها وأوتارها، لاستغلالها في صناعة الثياب والخيام والفخاخ، وغيرها من الاستخدامات ضمن الحياة اليوميّة. تُجفَّف الجلود الملائمة وتُدبَغ، ومن ثمّ تَطرّى بالشحم الحيوانيّ... تُصنَع الملابس بعد قصّ الجلود الخامّ بشفرة حجريّة، من ثمّ يتم تجميع قطع الرداء معاً، بواسطة أوتار الحيوان، التي تُمرَّر عبر ثقوب تُثقَب بأداة حجريّة أو بمسلّة عظميّة... لا سبب يدعونا للافتراض، بأنّ ملابس النياندرتال كانت بدائيّة كما يصوّرها الرسّامون. بقايا بيوض النعام التي وُجِدَتْ في المواقع الموستيريّة[7] في صحراء النيجر، تقترح أنّ إنسان نياندرتال استخدمها كأوعية للماء كما تفعل قبائل البوشمان اليوم، لكن بماذا استخدم الريش الفاخر؟! غياب الأدلّة الأركيولوجيّة، لا يعني أنّ الإنسان القديم لم يهتمّ بالزينة».

الرجل الصيّاد إذن، لم يكن مهاجماً منفرداً لا يعرف الخوف، ولا بطلاً في آلاف المعارك الدامية. الدافع الوحيد المألوف خلف شراسته، كان نداء الحماية الذي لا يمكن تجاهله. العناية بالأطفال وحماية المجموعة يمثّلان التقسيم الوحيد للعمل حسب الجندر، والذي يظهر بدرجات متفاوتة عند

7- حضارة ترافقت مع إنسان نياندرتال في أوروبا، غربي آسيا، وشمال إفريقيا خلال الفترة الممتدّة ما بين 160 ألفاً – 40 ألفاً قبل الميلاد تقريباً، صنع خلالها الإنسان الأدوات الحجريّة. المترجمة

الرئيسيّات وعند المجتمعات البدائيّة. عندما قاتل الرجل البدائيّ أو قَتَل، لم يقم بذلك على سبيل الرياضة أو المتعة أو الإثارة، بل بدافع الخوف الشديد، أو تحت الظروف التي تهدّد حياته، أو من أجل البقاء.

حماية الجماعة كانت عملاً فائق الأهميّة من أعمال الرجل، لكن من الضروريّ أن نتفحّص التقسيم السائد للجنسين استناداً إلى «المجهود العاطفيّ»، وفيه تُعزى مشاعر الحنان والرقّة كلّها إلى النساء، بينما يُعزَل الرجال خارج الحلقة المجتمعة حول النار، باعتبارهم همجيّين مُشعَّرين ضخاماً، لا غاية من وجودهم إلّا الاقتتال أو النكاح. في الواقع، الرجل الأوّل -كالمرأة الأولى- لم يصبح إنساناً إلّا عندما تعلّم كيف يعتني بالآخرين. اكتشف علماء الآثار هيكلاً عظمياً في كهف شاندر في العراق، يقصّ علينا قصّة مشوّقة كما يقول الأنثروبولوجيّ جون ستيوارت: «ذلك الرجل... أصبح معاقاً، بعد أن بُتِرَتْ ذراعه اليمنى في وقت ما من حياته فوق المرفق تماماً، وكان هرماً، ربّما في الأربعينيّات من عمره -وهو عمر يعادل بالنسبة للنياندرتال ثمانين عاماً من أعوام الإنسان الحديث- بالإضافة إلى أنّه عانى من التهاب المفاصل، ومن العمى بعينه اليسرى، كما توحي الندبة الموجودة على الجزء الموافق من عظام الوجه. من الواضح أنّ شخصاً معاقاً مثله، احتاج إلى مساعدة حثيثة ممّن حوله. التفكير بأنّ عائلته امتلكت كلّاً من الرغبة والقدرة على إعالة فرد عديم الفائدة عملياً من أفراد المجتمع، يقول الكثير عن حسّها الاجتماعيّ المتطوّر». أين هو إذاً ذلك «الرجل الصيّاد، الذي يخطّط بوحشيّة للمستقبل»؟! ألم تبدؤوا بعد برؤيته ككائن بشريّ حقيقيّ؟!

ما سبق لا يعني أنّ نساء ما قبل التاريخ لم يتعرضّن للعنف والقتل. في إيغينسدروف، ألمانيا، وُجِدت ضحيّة أنثى من ضحايا آكلي لحوم البشر، قُتِلت في جريمة تعود إلى 150-200 ألف سنة خلت. المرأة، التي تنتمي إلى جنس إنسان نياندرتال الباكر، ضُرِبَت حتّى الموت بفأس حجريّة، من ثمّ فُصِل رأسها عن جسدها بعد موتها، وفُتِحَ قعر جمجمتها لاستخراج دماغها. بالقرب منها، تستلقي رفات طفل في العاشرة تقريباً، لاقى مصيراً مشابهاً.

العنف الجنسيّ بدوره، لم يكن غريباً عن مجتمعات ما قبل التاريخ. في كهوف إستوريت في جبال البيرنيه، وُجِدَت عظمة فريدة من نوعها منحوتة على شكل سكّين، مرسوم على أحد وجهيها ثور مطعون بحربة، يتقيّأ دماً في سكرات موته الأخيرة، وعلى الوجه الآخر امرأة مطعونة بحربة أيضاً، تركع على يديها وركبتيها، وخلفها يقرفص ذكرٌ شبق يحاول مضاجعتها من دبرها، رغم أنّها حبلى كما يوحي ثدياها المتدليّان وبطنها المنتفخ. في تعريف مُحيّر لفكرة الرجل البدائيّ عن اللهو، فسّر الأنثروبولوجيّ الفرنسيّ جي. إتش. لوكويه تلك الأداة الشنيعة على أنّها «تميمة للحبّ»!!

من المثير للاهتمام أن دونيّة النساء في المجتمعات البدائيّة، هي أقلّ بكثير ممّا يتخيّله المراقب المعاصر، خاصّة الغربيّ. المرأة آنذاك لم تكن عبدة خاضعة لرغبات الرجل واحتياجاته، بل تمتّعت في المجتمعات الباكرة بمستوى من الحريّة والكرامة والأهميّة، أفضل بكثير ممّا تحظى به بناتها في المجتمعات «المتقدّمة» اليوم. يكمن السرّ في علاقة القبيلة بمحيطها: عندما يكون البقاء على قيد الحياة بحدّ ذاته صراعاً وجوديّاً، تصبح المساواة بين الرجل والمرأة مميّزة، لأنّ المرأة تلعب في تلك الظروف دوراً حيويّاً للغاية، ولا يمكن إقصاؤها عن النشاطات، أو الحدّ من مشاركتها فيها، كما أنّ معارفها وخبراتها هي موارد تبجّلها القبيلة، أي أنّ المرأة تمتّعت آنذاك بالحريّة والقوّة والمكانة، باعتبارها المزوّد الرئيسيّ بالطعام، وحاملة أسرار البقاء.

الرجال في مجتمعات الصيد والالتقاط لا يحكمون المرأة، ولا يستغلّون عملها، كما لا يستحوذون على إنتاجها ولا يتحكّمون به، ولا يمنعونها من التنقّل بحريّة كما تشاء. سُلطتهم -إن وُجِدَت- على أجساد النساء أو أجساد بناتهم، هي سلطة هشّة، كما أنّهم لا يحوّلون العذريّة أو العفّة إلى فيتيشيّة جنسيّة، ولا يطالبون المرأة بعلاقة جنسيّة حصريّة. ذخيرة المعارف التي تملكها القبيلة ليست حقّاً حصريّاً للرجال فقط، كما أنّ الإبداع الأنثويّ لا يُقمَع ولا يُنكَر. اليوم، يجدر بالأخوات «المتحضّرات» لأولئك النسوة «البدائيّات»، أن ينظرن بتمعّن وإنصاف إلى تلك التشكيلة الجوهريّة من حقوق المرأة الأساسيّة.

هناك المزيد! الأدلّة المستمدة من حضارات الصيد والالتقاط التي ما زالت موجودة إلى يومنا الحالي، تُظهِر عموماً أنّ المرأة يمكنها الاضطلاع بدور المستشارة، أو الحكيمة، أو القائدة، أو الراوية، أو الطبيبة، أو الساحرة، أو المشرِّعة... إلخ، ولا تُعاقَب بحرمانها من قوّتها الفريدة، نظراً لأنّها تملك سحراً خاصّاً يتعلّق بالخصوبة والولادة، ترتبط به طاقة شفائيّة.

تؤكّد الأدلّة ما قبل التاريخيّة، على مكانة المرأة الخاصّة بوصفها «أنثى» ضمن القبيلة. من بين اللقى الأثريّة العديدة التي تصوّر نساء يقمن بطقوس دينيّة، هناك رسم جداريّ من منطقة تين زوميتك في جبال طاسيلي ناجر في الجزائر، تظهر فيه امرأتان ترقصان رقصة طقوسية، يحيط بهما قطيع من الماعز، وتتزيّنان بالكثير من الأطواق والأساور وأكاليل الخرز. في لوحة مشهورة أخرى ممّا قبل التاريخ تُدعى بـ«سيّدة كهوف جبل دراكِنسبرغ البيضاء» في جنوب إفريقيا، نرى امرأة تقود الرجال والنساء في رقصة قَبَليّة طقوسيّة.

منذ فجر التاريخ، كان دور المرأة الأولى أوسع بكثير ممّا اعتقد الأكاديميّون، ومساهمتها في تطوّر البشريّة أعظم ممّا يتخيّلون. امرأة فجر التاريخ، مع والدتها وجدّتها، وأخواتها وخالاتها -وربّما مع مساعدة صغيرة من الرجل الصيّاد- تمكّنت من تحقيق كلّ ما جعل الإنسان homo يفكّر بنفسه لاحقاً على أنّه الإنسان العاقل Homo sapiens. الرجل بحدّ ذاته ميّز دورها ذاك، ففي الصور العالميّة التي تبدأ منذ انبلاج فجر الوعي الأوروبيّ، وصولاً إلى خرافات «زمن الحلم»[8] عند سكّان أستراليا الأصليّين في الجهة الأخرى من العالم، نجد أن المرأة قادت الطقوس المقدّسة، وكانت جزءاً من الألغاز السريّة المقدّسة لحياة القبيلة، بل هي أهمّ تلك الألغاز على الإطلاق، نظراً للتوافق الغامض بين إيقاع دوراتها الطمثيّة والدورات القمريّة، وقدرتها على خلق حياة جديدة. كانت المرأة طافحةً بالمعجزات، وقويّةً للغاية، أهمَّ

٨- يشير إلى اعتقاد السكّان الأصليّين بزمن غابر عاش فيه أسلافهم الذين يمتلكون قوى سحريّة وصفات عجيبة. هذا المصطلح هو ترجمة لكلمة alcheringa باللغة المحليّة، والتي يجادل الباحثون أنّ المعنى الأدقّ لها هو: الأبديّة. المترجمة

من الرجل، وأهمّ من الإنسان. عندما بدأ الإنسان البدائيّ بالتفكير بطريقة رمزيّة، وجد تفسيراً وحيداً: المرأة هي الرمز الأصل، والكينونة الأعظم. المرأة إلهة، لا أقلّ.

الإلَهةُ الكبرى

– الإلهة الكبرى هي تجسيدٌ للذات الأنثويّة التي تظهر في تاريخ البشريّة، وفي تاريخ كلّ امرأة شخصيّاً.

• **إريك نيومان، الأمّ الكبرى.**

– أمُّ الأغنياتِ، أمُّ بذرتنا الكاملة، حبلتْ بنا في البداية. إنّها أمُّ أعراق الرجال جميعها، وأمُّ القبائل كلّها. أمُّ الرعد، والأنهار، والأشجار، والحبوب. إنّها أمّنا الوحيدة، وهي وحدها أمُّ كلّ الأشياء، وحدها.

• **أغنية من أغنيات هنود كايابا، كولومبيا.**

حوالي عام 2300 قبل الميلاد، نظمت الكاهنةُ الكبرى في مملكة سومر أنشودةً تمجّد الإلَهة، تُعرف بـ «تسبيحة إنانا». احتفاؤها ذاك بالإلهة القديرة، هو أغنية مشبعة بقوّة وعاطفة استثنائيّتين، كانت أوّل قصيدة معروفة في العالم، فضلاً عن أنّ لها وجهاً آخر لا يقلّ أهميّة: كلٌّ من «الإله الأوّل» و«كاهنه الأوّل» المعروف، كان أنثى.

في البداية، عندما خرجت البشريّة من ظلمات ما قبل التاريخ، كان الله امرأة... ويا لها من امرأة! السومريّون الذين استوطنوا العراق الحاليّ، عبدوها ومجّدوها بتسابيح إيروتيكيّة جريئة. مدحوا شَعرها المضفور، و«حضنها المليء بالعسل»، وفَرْجها الباذخ كأنّه «زورق من الجنّة»، وخيراتِ

الطبيعة التي «تسكبها من رحمها» بسخاء، لدرجة أنّهم كرّموا الخسّ بوصفه «شَعر عانة سيّدتنا». الإلهة العليّة لم تكن مجرّد ربّة كريمة تغدق الملذّات الجسديّة فحسب على عبادها، فقد تغنّى السومريّون أيضاً بغضبها الساحق وبجّلوه، فاعتبرت الكاهنة الكبرى إنخيدوانا الإلهةَ الكبرى «تنّيناً يُدمِّر بالنار والطوفان، ويملأ الأنهارَ بالدماء». إنخيدوانا تلك تمتّعت شخصيّاً بسلطة مؤقّتة باعتبارها ابنة سرجون الأوّل، لكنّ سلطتها الحقيقيّة مستمدّة من كونها «كاهنة القمر» الكبرى، التي تمثّل الإلهة الأسمى. باعتبارها شاعرةً وكاهنةً وعرّافةَ إنانا، كانت إنخيدوانا صوتَ الإلهة التي امتدّت عبادتها وسلطتها في أرجاء الكوكب، الأزليّة كالزمان، الإلهة الأولى، والأمّ الكبرى.

سلطة أوّل إلهة أنثى، وموقعها المركزيّ، هما سرّ حفظه التاريخ بعناية. نحن نفكّر اليوم بعدّة إلهات تختلف أسماؤهنّ (إيزيس، جونو، ديميتر... إلخ)، وننسى أنّه قبل خمسة آلاف عام، كانت كلّ فتاة صغيرة تعرف أنّ هناك إلهاً واحداً، وأنّ هذا الإله امرأة، بغضّ النظر عن الاسم أو الهيئة التي تتّخذها. المحامي الرومانيّ لوسيوس أبوليوس، وظّف بمهارة كلّ الكليشيهات المعروفة آنذاك في البورتريه التي رسمها للإلهة الكبرى، عندما تكلّمتْ معه في إحدى الرؤى: «أنا الطبيعة، أنا الأمّ العالميّة، سيّدة العناصر كلّها، ابنة الزمن البدئيّة، حاكمة الأرواح كلّها، ملكة الأموات... رغم أنّني أُعْبَدُ بطرق كثيرة، وأُسَمَّى بأسماء لا حصر لها، وأُقَدَّس بكلّ أنواع وأشكال الطقوس، لكنّ الأرض بأسرها تبجّلني».

الأجيال اللّاحقة دحضت عبادة الأمّ الكبرى بوصفها «خرافات» أو «ديانات»، لكن بعد أن صرّح السير آرثر إيڤانز مكتشفُ الحضارة المينونيّة[1] المفقودة، أنّ كلّ تماثيل الإلهات العديدة التي عثر عليها تمثّل «الأمّ الكبرى

1- Minoan civilization حضارة من حضارات العصر البرونزيّ ازدهرت في جزيرة كريت، وما حولها من جزر بحر إيجه، خلال الفترة ما بين 3000-1100ق.م. تُعتَبر أوّل حضارة متقدّمة في أوروبا، إذ تركت خلفها أبنية ضخمة، وأعمالاً فنّيّة، ونظاماً كتابيّاً، وشبكة تجارة واسعة. اكتشفها السير آرثر إيڤانز في مطلع القرن العشرين. المترجمة

ذاتها... والتي انتشرت عبادتها تحت أسماء وألقاب مختلفة، في مناطق واسعة من آسيا الصغرى وما يجاورها»، قَبِل الأكاديميّون أنّ «الإلهة الكبرى» أو «الأمّ الأصلُ التي لا يرافقها زوج»، كانت سيّدة الميثولوجيا بلا منازع، و«حقيقة واقعة» عرفها العالَم بأسره. لم تكن عبادتها ظاهرة معزولة أو مؤقّتة، فالأمّ الكبرى الإلهة كما أكّد الباحثون، كانت عنصراً بارزاً وسائداً وأساسيّاً في حياة البشر منذ فجر التاريخ، عُبِدَت أوّلاً في هضاب جنوبي روسيا، ومن هناك انتشرت إلى مناطق جغرافيّة شاسعة، ووصلت إلى البحر المتوسّط ووادي السند وآسيا، بل حتّى إلى الصين وأستراليا وإفريقيا.

سيفاجئنا الخطّ الزمنيّ لانتشار عبادة الإلهة الأمّ عبر التاريخ:

- 12000–9000 قبل الميلاد: بدأ الدفن الطقوسيّ للأجساد المطليّة بالمغرة الحمراء، التي تقترن عموماً مع عبادة الإلهة الأمّ كما سنرى. اكتُشِفت تلك المقابر في قرية دولني – ڤِستونيتسه في تشيكوسلوڤاكيا، وكهوف شاندر في العراق.
- 7000 قبل الميلاد: شُيّد أوّلُ معبد في العالم يُكرّس للإلهة الأمّ في أريحا.
- 6000 قبل الميلاد: ظهرت مستوطنة شاتال حيوك في تركيا، وهي موقع يمتدّ على مساحة 32 أكراً فقط، لكنّها تضمّ ما لا يقلّ عن أربعين معبداً مكرّساً للإلهة الأمّ بتجليّاتها الثلاثة (العذراء، الأمّ، العجوز).
- 5000 قبل الميلاد: نُحِت تمثال في هاسيلار، تركيا، يجسّد الإلهة الكبرى وهي تمارس الجنس.
- 4000 قبل الميلاد: ظهرت أوّل لغة مكتوبة في معبد الإلهة التي تُلقَّب بسيّدة السماوات، في مدينة إرِخ (أوروك)، في مملكة سومر.
- 3000 قبل الميلاد: ظهرت الإلهة الأمّ في كلّ أرجاء العالم المعروف آنذاك، من خلال التماثيل والمعابد والسجّلات المكتوبة.
- 200 قبل الميلاد: بدأت القبائلُ الكلتيّة بإرسال كاهناتِها كلّ عام، للمشاركة في احتفالات عيد الإلهة سيبيل في الأناضول.
- 200 للميلاد: في تراليس غربي الأناضول، نصبت امرأة تُدعى أوريليا

إيميليانا تمثالاً في معبدِ الإلهة الأمّ، نقشت عليه أنّها أتمّت على أكمل وجه خدماتها الجنسيّة (ممارسة الجنس المقدّس تكريماً للإلهة الأمّ)، كما فعلت أمّها وأسلافها من الإناث قبلها.

- 500 للميلاد: قمع الأباطرة الرومان المسيحيّون بعنف عبادة الإلهة الأمّ، وأغلقوا جميع معابدها.

ممّا سبق، يتّضح لنا أنّ المكانة المقدّسة للمرأة دامت قرابة خمسة وعشرين ألف عام. يعتقد بعض الباحثين أنّها دامت فترة أطول، تتراوح ما بين أربعين ألفاً إلى خمسين ألف عام. في الواقع، لم تمرّ حقبة في تاريخ البشريّة آنذاك لم تتمتّع المرأة فيها بمكانة سحريّة خاصّة.

عندما تحوّل الصراع من أجل البقاء، إلى الصراع الأصعب المتمثّل بالبحث عن المعنى، أصبحت النساء محور التفكير الرمزيّ، وآليّته في الوقت ذاته. حلّ عالم الآثار الفرنسيّ آندريه ليروي – غورهان لغزاً من ألغاز رسومات الكهوف القديمة كان قد استعصى على الأنثروبولوجيّين الذين يعتنقون ثقافة تطهّريّة، فجادل أنّ أشكال «العينين الاثنتين» المحيّرة التي تتكرّر في الرسوم، هي في الواقع رمزٌ لفَرْج المرأة. لاحقاً، اكتُشِف إفريزٌ منحوت في قرية آنغْلُه سير لانغلَه Angles – sur l'Anglin في فرنسا تزيّنه أشكال حيوانيّة وبشريّة، لكنّ الشخصيّات الأنثويّة فيه منحوتة بأسلوب تجريديّ بحت، على شكل مثلّثات ترمز للمرأة، مع التركيز على المثلّث الجنسيّ البارز.

كيف تمكّنت المرأة من حيازة تلك المكانة المميّزة منذ البداية؟!

أحد الأسباب عائد بلا شكّ إلى الطمث، وعلاقته المفترَضة مع الدورة القمريّة، أي إلى لغز نزيف المرأة الشهريّ غير المميت، الذي لا يمكن إيقافه. السبب الثاني هو علاقة المرأة الوطيدة الفريدة بالطبيعة، فقد تطوّر التقاط الطعام إلى بستنة منتظمة، وبالتالي عزّزت النساء أهميّتهنّ ودورهنّ المركزيّ كمنتِجاتِ الغذاء الأساسيّات. السبب الثالث والأهمّ، كما توضّح لنا الأثداء والبطون المبالغ بإظهارها في منحوتات ورسومات الإلهة الأولى، يتعلّق بمعجزة الولادة. لم يفهم البشر في بادئ الأمر كيف يتمّ الإلقاح، بل

اعتبروا ببساطة أنّ المرأة تلد الأطفال من تلقاء ذاتها، دون أن يلمحوا أيّ صلة لذلك مع العلاقة الجنسيّة (حتّى يومنا هذا، يعتقد سكّان أستراليا الأصليّون أنّ أرواح الأطفال تهيم في البرك وما بين الأشجار، وعندما ترغب بأن تُولَد، تدخل جسد أيّ امرأة عشوائياً). لم يكن للرجال دور في سلسلة الأجيال، لأنّ المرأة فقط هي القادرة على توليد حياة جديدة، لذلك بجّلها الناس، فكلّ قوى الطبيعة، وكلّ القوى التي تتحكّم بالطبيعة، موجودة بيدها. وهكذا، ظهر الاعتقاد بأنّ المرأة ليست كائناً بشريّاً، وإنّما إلهة تتمتّع بأقدس وأهمّ القوى في العالَم، ومن هنا وُلِدتْ عبادة الأمّ الكبرى.

ولادة الحياة الجديدة من جسد المرأة، ترابطت على نحو لا ينفصم مع ولادة المحاصيل الجديدة من جسد الأرض، كما ارتبطت هاتان الصورتان بدورهما منذ البداية على نحو حميم مع ألوهة أنثويّة أقوى، وأكثر تعقيداً، ممّا تقترحه الدراسات التقليديّة. الأمّ هي أقدم صورة تجسّدت فيها الإلهة الكبرى، لكنّ التنويعات المحليّة والوطنيّة على هذا النموذج التقليديّ المباشر، تشهد بحدّ ذاتها على عبقريّة وقوّة «الإلهةِ أمِّ البلاد» كما تُسمّى في التيبت، وعلى رفضها الخضوع للصور العاطفيّة النمطيّة. في الهند، ماتا – ديڤي هي الإلهة الأمّ التقليديّة، التي تُصوَّر وهي تعصر الحليب للبشريّة من ثدييها العارمين، أمّا في الأساطير الأخرى المنتشرة من مملكة الآشوريّين إلى بولينيزيا، لا تلد الإلهةُ الكبرى الرجالَ والنساءَ، وإنّما «بيضةُ العالَم» العظيمةُ لمرّة واحدة لا تتكرّر. في الطقس الأقدس من «طقوس الأسرار» في مدينة إليوسيس[2]، تلد الإلهة الكبرى (أو ممثّلتها الأرضيّة) سنويّاً حزمة من سنابل الحنطة، في إشارة نمطيّة واضحة إلى العلاقة بين خصوبة الأرض، وخصوبة المرأة باعتبارها «الأمّ الأرض». في بعض تنويعات أسطورة الأمّ الإلهة بأيّ حال، نجد أنّ أتباعها كانوا متلهّفين لإثبات أنّ «الجوهر الأنثويّ» سابق على وجود الإلهة الأمّ، مهما كانت عتيقة. غايا، وهي الأمّ – الأرض عند

2- شعائر كانت تقام سنويّاً في مهرجان ضخم لتمجيد الربّة ديميتر وابنتها بيرسفون في مدينة Eleusis في اليونان القديمة، وتعتبر الأشهر والأشيع بين طقوس الأديان السريّة آنذاك. المترجمة

الإغريق، بزغت من مهبل بدائيّ هو لجّة كلّ المشاعر والمعارف، أمّا عشتار البابليّة فهي بذاتها الرحم الكونيّة، ورداؤها هو نجوم الأبراج السماويّة. إيمير Ymir (ومعناه نَفَس الحياة)، هي إلهة الريح في الميثولوجيا الإسكندناڤيّة، وتخرج من «الفَرْج الكليّ»: الأمّ جينونغاغاب Ginnungagab.

تلطيف وتنقيح دور الإلهة الكبرى عبر التاريخ، حجبَا طبيعةَ أمومتها العمليّة النابضة بالحياة، كما أنّ إنكار الجانب الماديّ الصريح أدّى بدوره إلى إنكار الارتقاء إلى الميتافيزيقيا، وهو عنصر أساسيّ في ألوهيّة الأمّ الكبرى: «كنت حبلى بكلّ القوى»، تتفاخر الإلهة ڤاك في أغنية من أغاني الديانة الڤيدية في الهند، «كنتُ أجوب مياه البحر، ومن هناك انتشرتُ من خلال المخلوقات كلّها، ولامستُ السماء بتاجي. أنا أزمجر عبر الخلق بأسره، كأنّني الريح». في معبد نوت المقدّسة في مصر، نقرأ نقشاً محفوراً يفصح عن ادّعاء أقوى: «أنا ما هو كائن، وما سيكون، وما كان. لم يرَ رجلٌ عُريي. الشمس هي ثمرة حملي وأنا من ولدتُها».

من ناحية أخرى، التأكيد المبالغ به على دور الأمّ «الطيّبة» التي تنجبُ وتقدّم الغذاء، يُنكِر نقيضتها حتماً، وهي الأمّ «الشرّيرة» القاتمة الخطرة والمدمِّرة. الحضارات الأولى ميّزت بوضوح ذلك الترابط الوثيق ما بين المرأة المقدَّسة والموت، وأكّدت أنّ الإلهة التي تهب الحياة للبشر، هي ذاتها من تسلبها منهم بلطف (أو بعنف). حوالي عام 1000ق.م في إيرلندا، نجد ثالوثاً مرعباً من الإلهات الموريغان Morrigan اللواتي يترصّدن ساحات المعارك كي يجمعن الرؤوس المقطوعة، ويظهرن لمن يوشكون على الموت. في حضارات أخرى، ترافق الإلهةُ الكبرى الموتى كأنّها كلبٌ يسوق القطيع، كي تأخذهم إلى «الدرك الأسفل»، الإغريقيّون على سبيل المثال كانوا يسمّون الموتى ببساطة «شعبَ ديميتر».

في تجلّيها الأقتم، لا تنتظر الأمّ الشرّيرة موت الناس، بل تطالب به. آمبوسا الفارسيّة كانت تطوف العالَم في فقاعة دمويّة باحثة عمّن تقتله، رغم أنّ الأضاحي قد تنفع لتلطيف غضبها. حوالي عام 1500ق.م، شُيِّدت في هال تارشين في مالطا منحوتة حجريّة ارتفاعها سبعة أقدام للإلهة الكبرى

الحبلى، التي يتدلّى بطنها الهائل على ساقيها الأشبه بالإجاصة، وهناك تقوم كاهناتها بجمع دماء الضحايا في وعاء عميق يرمز إلى المهبل المقدّس.

إذن، قد يستمرّ غضب الأمّ وعطشها للدماء رغم تقديم الأضاحي، كما يروي لنا أحد من شاهدوا «الأمّ السوداء» الهندوسيّة، الإلهة كالي-ما:

«كالي-ما، الأمّ السوداء هناك. إنّها سوداء برّاقة، أطرافها الأربعة ممدودة، وهي تحمل سيفاً ذا حدّين في كلّ يد، وأدوات لتقطيع الأعضاء، ورؤوساً بشريّة. يداها حمراوان كالدم، وعيناها الغاضبتان حمراوان، ولسانها الأحمر كالدم يتدلّى على ثدييها الضخمين المدبّبين، ويصل إلى بطنها الصغير المدوّر. فرْجها ضخم بارز، شعرها المشعّث ملطّخ بالدم، وأسنانها التي تلمع تشبه الأنياب. تعلّق حول عنقها إكليلاً من الجماجم، قرطاها صورتان لرجل ميت، وحزامها سلسلة من الأفاعي السامّة».

نظراً لأنّنا نتماهى بقوّة مع صورة نمطيّة عن الأمّ التي لا تعرف إلّا الحبّ والتسامح، سيصعب علينا للوهلة الأولى أن نطابق ما بين تلك الصورة المرعبة عن الأمّ الشرّيرة، وصورة الأمّ الطيّبة. وجه «الموت» يترافق دون عناء مع وجه «الحياة» في التجلّي المبدئيّ للإلهة الأمّ، وهذا التجلّي لا يتمثّل في «الأمومة» البريئة البسيطة، بل في «جنسانيّة» الإلهة الكبرى: من خلال نشاطها الجنسيّ البدئيّ خلقت الإلهة الأمّ الحياة، وهي تطالب بجوهر الرجل من خلال الجنس أيضاً، وتطالب بالرجل ذاته، بل وحتّى بموته. هنا أيضاً نكتشف أنّ الطبيعة الحقّة للإلهة الأمّ ونشاطاتها، وقعت ضحيّة لطهرانيّة الأجيال اللّاحقة التي تتحاشى الحديث عن الجنس، وتشير بخجل إلى نشاط الأمّ الكبرى الجنسيّ (إن ذكرتْ ذلك النشاط أصلاً) بـ«طقوس الخصوبة» أو «معتقدات الخصوبة» أو «طوطم الخصوبة»، وكأنّ الإلهة الكبرى مارست الجنس بدافع من الإيثار، أي كواجب يهدف إلى ضمان خصوبة الأرض، فقط لا غير.

آن الأوان لتصحيح السجلّات التاريخيّة: خصوبة المحاصيل والحيوانات، كانت نتيجة ثانويّة لنشاط الإلهة الكبرى الجنسيّ. نشاطها الجنسيّ ذاك كان أمراً شخصيّاً يخصّها وحدها، تماماً كاستمتاعها به، وكلّ

البراهين الأثريّة الموجودة تؤكّد أنّها مارست الجنس من أجل نفسها، كأيّ امرأة متّزنة.

بلا شكّ، لم تمارس الإلهة الكبرى الجنسَ بمفردها، ففي كلّ حضارة كان لها عشّاق كثيرون، وهو ما يعرّي بدوره ضعفاً آخر في فهمنا لدورها المتمثّل بالأمّ الكبرى. بالنسبة لأبناء النظام الباترياركيّ، «الأمّ» دائماً وأبداً تتماهى مع «الزوجة»، لأنّ الأمّ هي المرأة التي تتزوّج الأب، ممّا يضيف قيداً ثانياً على فكرة الأمّ «الطيّبة»: الأمّ الصالحة لا تقوم بمغامرات جنسيّة، بل إنّها لا تختار الرجل الوحيد الذي تتزوّجه، وإنّما يختاره لها «الأبّ». من هنا، نشأ تناقض لا حلّ له في مفهوم الإلهة الكبرى من وجهة نظر حرّاس الأخلاقيّات اللّاحقين. الإلهة الكبرى كانت عزباء دائماً، ولا تلتزم بعلاقة جنسيّة حصريّة مع رجل واحد –الإسكيمو مثلاً يلقّبونها بـ «تلك التي لن تتّخذ زوجاً»– لكنّ حريّتها الجنسيّة تحمل مضموناً أعظم: باعتبارها مصدر الحياة والطاقةَ التي تغذّيها، الإلهة الأمّ أزليّة وأبديّة، على عكس الذكور الذين يأتون ويرحلون، ووظيفتهم الوحيدة هي خدمة «الرحم» أو «المهبل» الإلهيّ المقدّس، وهما لقبان آخران حملتهما الإلهة الكبرى في معظم الحضارات، رغم أنّني لا أقترح هنا أنّ عشّاق الإلهة مارسوا دوراً وظيفيّاً بحتاً.

بعض صور جنسانيّة الإلهة الكبرى تؤكّد على قوّتها ورهبتها، على ختم أسطوانيّ من بابل مثلاً، تجعل الإلهة العقاربَ تفرّ هاربة من خلال الاستعراض الطقوسيّ لأعضائها التناسليّة المثيرة. في ملحمة جلجامش السومريّة التي ترجع إلى ما قبل عام 2000ق.م، الإلهة عشتار، وقد أخفقتْ في محاولاتها الغراميّة، تهدّد بتفجير البوّابات وتدمير المنازل وإحياء الموتى كي يسودوا على الأرض. أغنية إنانا عن عشيقها بعيدة كلّ البعد عن المألوف، لأنّها مديح شعريّ حسّاس، وطفوليّ نوعاً ما، تتغنّى فيها ببراعته ومباهج جسده. أغنية إنانا تلك التي ينوف عمرها عن أربعة آلاف عام، ما تزال طازجة مثل عشقها الصباحيّ:

أحضرني أخي إلى بيته
مدّدني على سرير العسل المعطّر

حبيبي الغالي، يستلقي على صدري
قام أخي بذلك خمسين مرّة،
مرّة تلو مرّة، بلسانه.

إلى الشمال من بابل، في مدينة نينوى الأسطوريّة، جعل الشاعرُ المجهول الإلهةَ عشتار تدندن كأمٍّ، عندما اضطجعت مع الملك الآشوريّ آشوربانيبال:

وجهي يغطّي وجهك
كما تغطّي الأمّ ثمرة رحمها
سأضعك كجوهرة منقوشة بين نهديّ
سأغطّيك ليلاً
سأكسوك بالثياب نهاراً
لا تخف يا صغيري، يا من ربّيتكَ.

أخي؟! صغيري؟! من كان عشّاق الإلهة الكبرى هؤلاء؟ ولماذا يوصفون بتلك المفردات؟ الإجابة عن هذا السؤال تحيلنا إلى الدليل الأوضح عن السلطة المطلقة التي تمتّعت بها الإلهة الكبرى، والتي تؤكّدها البراهين التاريخيّة.

كانت سُلطة الإلهة الكبرى سلطة مطلقة، سلطةَ حاكمةٍ لا ينازعها أحد، بيدها الحياة والموت: عندما تكون المرأة هي الملكة المقدَّسة، على الملك أن يموت. في الميثولوجيا والتاريخ، يتّحد شبق الإلهة الكبرى الصريح وميولها الدمويّة في ممارسة عتيقة لا يعترض عليها أحد، وهي قتل الملك. «الملك»، هو في واقع الأمر لقب فخريّ، يُطلَق على الذكر الذي وقع عليه الاختيار لمضاجعة الملكة - الإلهة، في محاكاة بسيطة للدراما البدئيّة التي وصفها الأنثروبولوجيّون والمؤرّخون لاحقاً بـ«الزواج المقدّس»، والتي يلعب فيها الذكر دورَ «القرين الإلهيّ»، لكنّ المنطق الوحشيّ الكامن خلف

ذلك الطقس، يتعارض مع محاولتهم الضعيفة الخارجة عن السياق لتبجيل دور الذكر فيما يحدث. الحياة كلّها تتدفّق إلى داخل الأنثى، ومن خلالها، وإلى خارجها. لذلك، كان أقصى طموح للذكر هو الخلاص من مصير «ذكر النحل» الذي تُطلَب خدماته مرّة واحدة، وأن يقترن بالألوهيّة، حتّى ولو كان الثمن عودتَه إلى التراب.

تشهد آلاف النسخ المختلفة من هذه القصّة في الميثولوجيا، على التضحية الطقوسيّة بالملك الشابّ، وتلعب فيها الأمّ الخالدة دائماً دور عاشقة قاتلة، لا لكي تنجب أطفالاً (مع أنّ إنجاب الأطفال هو نتيجة منطقيّة)، وإنّما كي تمارس أنوثتها وتحتفي بها. نشاهد هنا نمطاً واضحاً، عن امرأة وشابّ أصغر منها سنّاً، تجمعهما علاقة مؤقّتة: عشتار وتمّوز، ڤينوس وأدونيس، سيبيل وآتيس، إيزيس وأوزوريس. وظيفة موتيف القصّة تصبح أوضح في أسطورة ديميتر: يضطجع إياسون الجريء مع إلهة الحنطة في خندق في الحقل، من ثمّ يموت بصاعقة بعد انتهائهما مباشرة. في كلّ الحالات، العشيق أدنى مرتبة من الإلهة، هو فانٍ وهي خالدة، هو شابٌّ وهي أزليّة وأبديّة، هو ضعيف وهي كليّة القدرة، فضلاً عن كونه أصغر منها حجماً. كلّ هذه العناصر تتّحد لتقديم العشيق عادة على أنّه ابن الإلهة أو أخوها الصغير، كما أنّه يموت دائماً لا محالة. مصير عشّاق الإلهة الكبرى كان معروفاً عندما رفض جلجامش رغبة «عشتار البهيّة»، ووبّخها قائلاً: «مَن مِن عشّاقكِ أحببتِ للأبد؟ أيّ من رعاتك أدخل البهجة على قلبكِ دائماً؟ وإن كنّا سنصبح عاشقَين أنا وأنتِ، ألن تعامليني بالطريقة ذاتها كما عاملتِ كلّ الآخرين الذين أحببتِهم من قبل؟!»

مراراً وتكراراً، تطرأ تنويعات مختلفة على قصّة قتل الملك في التاريخ المكتوب. الإلهة أنايتيس في نينوى كانت تطالب سنويّاً بأجمل فتى في المدينة كي يصبح عشيقها / ضحيّتها: يُجمَّل بالأصبغة، يُزيَّن بالحليّ الذهبيّة، ثم يلبسونه ثوباً أحمر ويعطونه فأس الإلهة المزدوجة. هذا الفتى كان يقضي يومه وليلته الأخيرة في ممارسة الجنس الطقوسيّ مع كاهنات الإلهة في خيمة أرجوانيّة، على مرأى من الناس جميعهم، من ثمّ يُسجّى على

سرير من التوابل والبخور والأخشاب الثمينة، ويُغطّى برداء ذهبيّ، قبل أن تُضرَم فيه النار، وعندها يهلّل العابدون: «لقد أخذته الأمّ كي يرجع إليها». في إيرلندا، كبرى كاهنات إلهة القمر (التي تمثّل الإلهة الأمّ)، تقوم بقتل الذكر المختار بيديها، وتقطع رأسه فوق «وعاء التجدّد» الفضيّ كي تجمع دمه. «مرجل جوتلاند» الموجود اليوم في متحف كوبنهاغن، هو أحد تلك الأوعية الطقوسيّة، ويصوّر تمثيلاً غرافيكيّاً للإلهة في ذروة طقس التضحية.

استمرّت عمليّة القتل الانتخابيّ للقرين الملكيّ إلى وقت متأخّر نسبيّاً، فحتّى أواخر القرن التاسع عشر، كانت ممالك البانتو في إفريقيا تُحَكَم من قبل الملكات حصراً، دون أن يرافقهنّ أمراء أو أقران ذكور، إلّا أنّ الحاكمة تتّخذ عشيقاً من عبيدها أو من عامّة الناس، من ثمّ تعذّبه وتقطع رأسه بعد أن يمارسا الجنس. يرد في تقارير الإداريّين البريطانيّين الساخطين في مستعمرة «ساحل الذهب [3]»، أنّ آخر ملكة من ملكات أشانتي[4] كانت تقوم دوريّاً بقتل العشرات والعشرات من «أزواجها»، لأنّها تهوى إبادة «الحريم» الملكيّ بين فترة وأخرى كي تنشئ «حريماً» جديداً. حتّى عندما تأسّس نظام الملوك، كما يذكّرنا جيمس فريزر، تمتّعت الملكات الإفريقيّات بسلطة تخولهنّ الحكمَ على الملك بالموت، وتقريرَ لحظة إعدامه.

بأي حال، طوّرت العديد من الحضارات بالتدريج تقديمات بديلة. أوّلاً، التضحية بـ «ذكورة» الشاب عوضاً عن حياته، من خلال شعائر الإخصاء الطقوسيّ الذي كان منتشراً على نطاق واسع في آسيا الصغرى. في أمريكا الوسطى، لم يقبل الآزتك بالاختيار بين حياة الشابّ أو ذكورته، وأصرّوا على التضحية بهما كليهما حتّى انهيار حضارتهم. لاحقاً، امتنعت المجتمعات عن التضحية بالرجال، وضحّت عوضاً عنهم بالأطفال والحيوانات والدمى

3- مستعمرة أنشأتها بريطانيا في الساحل الغربيّ للقارّة الإفريقيّة. دامت من عام 1821م وحتّى عام 1957، حين نالت الاستقلال عن دولة غانا. المترجمة

4- إمبراطوريّة ذات نظام ماترياركيّ كانت قائمة جنوب غانا الحاليّة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، ازدهرت فيها تجارة العبيد مع البريطانيّين. المترجمة

الرمزيّة، كتلك التي اعتادت عذراوات ڤستا[5] إغراقها في نهر التيبر سنوياً في فصل الربيع.

على أرض الواقع، لم يكن على الرجل العاديّ أن يخاف من الإلهة الكبرى، أو أن يخشى عبادتها، ففي ثقافة تكون فيها الإلهة العليا أنثى، سيتركّز الاهتمام على النساء، ومنهنّ يستمدّ المجتمع تركيبَه وإيقاعاتِه بل وحتّى ألوانه. على سبيل المثال، السحر الخاصّ المتعلّق بجنسانيّة النساء (كالطمث الغامض، وموهبة المرأة بإنتاج حياة جديدة) عبّرت عنه ممارسة واسعة الانتشار سادت خلال فترة عبادة الإلهة الكبرى، وهي طلاء القبور والمدافن المقدّسة بالمغرة الحمراء. اللون الأحمر القويّ أو الوهّاج يترافق في العديد من الديانات مع دم الطمث، والصلة واضحة بين المغرة الحمراء ochre وبين الدم، في اسمها الآخر الهيماتيت Haematite[6]. باستعمال المغرة الحمراء إذن، تلك المادّة القويّة التي ترتبط مع الطمث والولادة، أراد أتباعُ الإلهة الكبرى إحياءَ موتاهم رمزيّاً. القيمة الفعليّة والرمزيّة لدم المرأة الطمثيّ، أي «هديّة القمر» التي تهبها لها الإلهة، تبدو واضحة أيضاً من خلال قيام الإغريق القدماء بمزجه مع حبوب الحنطة قبل عمليّة البذار السنويّة، بوصفه «المُخَصِّب» الأفضل. هذا التبجيل العلنيّ لإيقاعات المرأة الطبيعيّة وطمثها الشهريّ، يتناقض تناقضاً غريباً مع تحويل الطمث لاحقاً إلى لعنة وعار سرّيّ. عندما كان «الله» امرأة، تمتّعت كلّ النساء وكلّ ما هو مؤنّث،

5- هنّ كاهنات الإلهة ڤستا العذراء، المكلّفات بإبقاء النار المقدّسة مشتعلة في معبدها ليل نهار بلا انقطاع، واللواتي بجّلهنّ الأباطرة وعامّة الشعب على السواء. يبدأن خدمة الإلهة بسن السادسة، ويبقين في خدمتها ثلاثين عاماً كاملة بشرط الحفاظ على عذريتهنّ وعفّتهن المطلقة، وإلّا عوقبن بالموت. بعد انتهاء خدمتهنّ يمكنهنّ ترك المعبد، والحصول على حقوق وامتيازات وسلطة لا تتاح لغيرهنّ من النساء في روما. ديانة الإلهة ڤستا كانت ديانة تشرف عليها النساء حصراً، ودامت ألف سنة تقريباً، إلى أن انتهت عام 394م مع انتشار المسيحيّة. المترجمة

6- المغرة هي طين خاصّ تتراوح ألوانه ما بين الأصفر إلى البنيّ والبرتقاليّ، وتتكوّن من أكاسيد الحديد ومواد أخرى. المغرة الحمراء تحتوي على الهيماتيت (نوع من أكاسيد الحديد صيغته Fe_2O_3) الذي يُشتقّ اسمه من مفردة Haema الإغريقيّة التي تعني الدم. المترجمة

بمرتبة أعلى ممّا هي عليه الآن في معظم بلدان العالم، وعندما تدهورتْ مكانةُ الإلهة، تضرّرتِ النساء. هل يمكننا إذاً التكهّن بحقبة غابرة حكمت النساءُ خلالها الرجالَ، وكانت السلطة الطبيعيّة ماترياركيّة دون نقاش؟ وما هي الحقيقة التاريخيّة الكامنة خلف الأساطير المتكرّرة، عن نساء حكمن الرجالَ في «عصر الملكات»؟

قارب المؤرّخون هذين السؤالين بعناد، متخيّلين صورة مرآتيّة عن المجتمعات الباترياركيّة، فبحثوا عن مجتمعات تمتّعت فيها المرأة بالسلطة المطلقة، بينما كان الرجال خاضعين مقموعين كنتيجة حتميّة. في الواقع، لا يفاجئنا أنّ النظر إلى الخلف عبر المرآة فشل بالتوصّل إلى حقيقة ملموسة. إحدى القناعات الخياليّة الأخرى في القرن التاسع عشر، هي أنّ الماترياركيّة شكّلت مرحلة عالميّة في الحضارة حول العالَم، نجحت النساء بإرسائها عندما هزمن الذكور الشبقين، بعد بزوغ المجتمع البشريّ من مرحلة الفسق البهيميّ. في ذلك النظام الاجتماعيّ الناشئ، تمتّعت المرأة بالسيادة والأولويّة على جميع المستويات، بدءاً من البشريّة وانتهاءً بالإلهيّة، أمّا الذكر الهمجيّ العنيف فنُفِيَ إلى هوامش تلك «الأنثقراطيّة»، وبدأ يخطّط لانتقام شرس! بالتالي، الماترياركيّة هي مجرّد مرحلة في مسيرة الإنسان نحو الحضارة، تآمر الرجال للانقلاب عليها في نهاية المطاف وفقاً لمنطق المؤرّخين الذكور، فأسّسوا الباترياركيّة التي تُعدّ المرحلة النهائيّة من مراحل الحضارة، وزهرتها الأجمل.

لن نتوقّع من المؤرّخات الإناث أن يعتنقن هذه النظريّة وأن يبشّرن بها، خاصّة سيمون دي بوڤوار التي تصدّت لها بضراوة في عام 1949: «عصر النساء الذهبيّ هو مجرّد خرافة... الأمّ الأرض، الإلهة، لم تكن ندّاً للرجل. قوى المرأة تنتمي إلى عالَم آخر أسمى من مملكة البشر، وبالتالي المرأة ذاتها كانت ما -فوق- بشريّة. المجتمع كان ذكوريّاً دائماً، والذكر هو من يتحكّم بالقوّة السياسيّة». التيّار التقليديّ الحديث أنكر عمليّاً أيّ دور بدئيّ للمرأة، وشدّد على أنّ خرافة «سلطة النساء» ليست إلّا أداة نافعة لتبرير هيمنة الرجال.

لا يمكن أن تكون الماترياركيّة نظاماً للسلطة السياسيّة يشبه ذاك الذي

طوّره الرجال، لأنّ الباترياركيّة تطوّرت لاحقاً، ونشأت من جذور إيديولوجيّة سابقة مجهولة. من ناحية أخرى، لا يمكننا منطقيّاً أن نبحث عن نظام عالميّ موحَّد، في كوكب تتطوّر فيه المجتمعات بدرجات متفاوتة للغاية وبسرعة مختلفة، فقد يبدأ أحدها مثلاً قبل ثلاثين ألف عام من مجتمع آخر، باستعمال الحديد والحجارة وصناعة الفخّار، أو بناء القرى المستقرّة. بالعودة إلى أرشيفنا الضخم من الأدلّة التي لا يمكن دحضها عن الإلهة الكبرى، وعن الأنظمة الاجتماعيّة التي تمحورت حولها، نجد أنّ الماترياركيّة هي نمط من التنظيم الاجتماعيّ المتمركز حول المرأة، تسود فيه المساواة بين الجميع، ولا يعتبر امتلاك المرأة لزمام السلطة أو مشاركتها في النشاطات كلّها جنباً إلى جنب الرجل، أمراً شاذّاً أو استثنائيّاً. استناداً إلى تعريفنا هذا، نجد أنّه خلال أربعة آلاف عام تقريباً تفصل ما بين ظهور الحضارات الأولى ووحدانيّة الإله (بوذا، المسيح، الله)، كانت الماترياركيّة شائعة، وحتّى في المجتمعات التي يحكمها الرجال، ظهرت بعض ملامحها القويّة، كالحريّات التي تمتّعت بها المرأة آنذاك، والتي فقدتها ولم تسترجعها في معظم دول العالَم، رغم «التطوّرات» التي نعرفها اليوم.

لكن، ما هي تلك الحريّات؟

على قاعدة تمثال عملاق للفرعون رمسيس الثاني الذي يرجع إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، نقرأ وصيّة صريحة تماماً تتعلّق بحريّة المرأة الأولى: «استيثر الإلهة الزوجة، الأمّ الملكيّة، سيّدة العالَم».

تمتّعت النساء آنذاك بسُلطةٍ خضع لها الرجال روتينيّاً

كانت النساء إلاهات على الأرض، وممثّلات للإلهة الكبرى يتحدّرن من صلبها، ولا فرق بين قوى المرأة المقدّسة وقواها الدنيويّة. وصف المؤرّخ هيرودوت الملكة المتواضعة سمورامات (سميراميس)، التي حكمتْ مملكة آشور طيلة اثنين وأربعين عاماً، ومدّت شبكات الريّ في أرجاء بابل، وقادت الحملات العسكريّة وصولاً إلى الهند. لقّبها بالتناوب بـ«ابنة الإلهة» و«الإلهة»، لأنّ سلطة الإلهة كانت متوارثة، تنتقل من

الأمّ إلى ابنتها مباشرة. يصبح الرجل ملكاً في حالة واحدة فقط، هي أن يتزوّج صاحبة السلطة الملكيّة، لكنّه لا يحتفظ باللقب كحقّ شرعيّ من حقوقه. خلال فترة حكم الأسرة الفرعونيّة الثامنة عشرة، كان على الفرعون تحتمس الأوّل أن يتنازل عن العرش لابنته المراهقة حتشبسوت بعد وفاة زوجته، رغم أنّ لديه ابنين اثنين. انتقال النسب الملكيّ والحقّ بالحكم عبر خطّ أنثويّ معروف في الكثير من الحضارات، عند هنود ناتشه في خليج المكسيك مثلاً، يحتفظ الملك الملقّب بـ «الشمس العظيمة» بمرتبته فقط لأنّه ابن الحكيمة زعيمة القبيلة، التي تُلقَّب بـ «المرأة البيضاء». عندما تموت هذه الحكيمة، تصبح ابنتها «المرأةَ البيضاء» الجديدة التي يرث ابنها العرش، ممّا يحافظ على انتقال اللقب الملكيّ دائماً عبر خطّ نسب أنثويّ. هذا التقليد كان قائماً في اليابان أيضاً خلال حقبة سلالة وي (220–264م)، حين اندلعت حرب أهليّة ضارية بوفاة الملكة الكاهنة هايميكو، لم تنته إلّا مع تتويج ابنتها الكبرى.

في مصر، كانت سلطة الملكة استثنائيّة طيلة آلاف السنين. المرأة هناك هي الحاكمة، الإلهة، زوجة الإله، الكاهنة الكبرى، وطوطمٌ يُبجَّل من خلاله كلّ ما سبق. حتشبسوت، كنظيرتها سميراميس، حاربت على رأس جيوشها، وتمتّعت بسلطة الرجال وامتيازاتهم، كما كُرِّمَتْ بعبادة دامت ثمانمئة عام بعد موتها: «ملكة الشمال والجنوب، ابنة الشمس، حورس الذهبيّ، واهبة الزمن، إلهة الفجر، سيّدة العالَم، سيّدة الحياة والموت، نافخة الحياة في القلوب، المرأة القويّة». وجود ملكات عديدات لعبن دور الحاكمة الفعليّة، لا دور زوجة الملك، لم يكن ظاهرة مقتصرة على مصر الفرعونيّة. كان من الشائع مثلاً أن تحكم النساء قبائلَ البريتون الكلتيّة، لدرجة أنّ المحاربين الكلتيّين الأسرى الذين عُرِضوا في موكب النصر أمام الإمبراطور الرومانيّ كلاوديوس عام 50م، تجاهلوه كلّياً وقدّموا التبجيل لزوجته الإمبراطورة أغريبينا.

المثال الأهمّ، هو دبورة قاضية بني إسرائيل عام 1200ق.م تقريباً. في الآيات 4 و5 من سفر القضاة، نقرأ أنّ دبورة تمتّعت بسلطة مطلقة على قادة

قبيلتها الذكور، الذين اعتمدوا عليها اعتماداً كليّاً، لدرجة أن قائد الجيش باراق لن ينطلق إلى ساحة المعركة من دونها. التاريخ اليهوديّ القديم حافل بأمثالها من النساء المميّزات القويّات: «أميرة يهوديّة؟ جوديث، التي أنقذت الشعب اليهوديّ، غازلت قائد جيش الأعداء وجعلته يسكر دون أن ينتبه، من ثمّ قامت بمساعدة خادمتها (التي لا تذكر القصّة اسمها) بقطع رأسه، وخبّأته في سلّة، ثم هربت عائدة إلى قبيلتها. هناك، علّقوا رأس القائد على البوّابة، فدبّ الذعر في قلوب جنوده عندما هجموا ورأوا رأس قائدهم الدامي، وفرّوا هاربين بأسرع ما تحملهم أقدامهم الصغيرة. أعتقت جوديث خادمتها، ورقصت كلّ النساء تكريماً لها. تلك هي حقّاً أميرة يهوديّة».

سلطة المرأة وامتيازاتها آنذاك، لم تكن مقتصرة على الأميرات والملكات. الأدلّة الوفيرة من كلّ مكان في العالم تدلّ بوضوح على أنّ النساء جميعهنّ حظين بأهميّة اجتماعيّة واقتصاديّة، وتمتّعن بحقوق أساسيّة معيّنة، عندما حلّت الزراعة مكان الصيد، وارتدى المجتمع أثواب الماترياركيّة.

امتلكت المرأة الأموال والعقارات، وتحكّمت بها

في إسبرطة، امتلكت النساء ثلثي أراضي المملكة. المرأة العربيّة امتلكت قطعان الماشية، بينما قام زوجها بدور الراعي لتلك القطعان، لا أكثر. عند هنود مونوميني، ذُكِرَت نساء تملك كلٌّ منهنّ ما بين 1200 إلى 1500 زورق مصنوع من لحاء أشجار البتولا. تحت شريعة حمورابي (التي تدهشنا بما تنصّ عليه من مساواة بين الرجل والمرأة)، والتي أصبحت قانوناً لبابل حوالي عام 1700ق.م، كانت دوطة[7] المرأة تُعطى لها لا لزوجها، كما أنّ أرضها -أو أيّ مِلكيّة أخرى- تبقى لها، وتنتقل عند وفاتها إلى أطفالها. في مصر الفرعونيّة، كانت المرأة مستقلّة ماديّاً عن زوجها، ويحقّ لها أن تطالبه بدفع فائدة إن استدان منها مالاً.

7- ما تدفعه عائلة الفتاة للعريس عند زواجه بابنتهم في بعض المجتمعات. المترجمة

عقود الزواج احترمتِ حقوق المرأة كفرد، وكرّمتها كشريكة

هناك عدّة قوانين تشبه شريعة حمورابي، وتتناقض صراحة مع حالة «التابعة» التي آلت إليها المرأة بعد الزواج في المجتمعات اللّاحقة. في بابل، يحقّ للزوجة طلب الطلاق رسمياً في المحكمة لعلّة قانونيّة هي «سوء المعاملة»، إن أهانها الرجل. إن حصل الطلاق، ستحتفظ بحقّ رعاية أطفالها وسلطتها عليهم، ويُجبَر الزوج على إعالتهم.

يذكر المؤرّخ الإغريقي ديودورس عقدَ زواج مصريّ، يتعهّد فيه الزوج لعروسه بما يلي: «أحترمُ حقوقكِ كزوجة. من اليوم فصاعداً، لن أعارض أقوالك بكلمة واحدة. أنا أعلنكِ زوجتي أمام الناس جميعهم، رغم أنّني لا أدّعي الحقّ بأن تكوني مُلكاً لي، فأنا زوجك ورفيقكِ لا غير. أنتِ وحدكِ من تملكين الحقّ بالانفصال، ولا أستطيع أن أعارض رغبتكِ إن أردتِ الرحيل. أنا أعطيكِ...» ويتلو التعهّد قائمة بممتلكاته التي يهبها لزوجته.

نجد مؤشراً أقوى على الحميميّة الدافئة والتسامح الذي تتوقّعه المرأة المصريّة من زوجها، في «أقوال بتاح حتب»، وهو كتاب قد يكون الأقدم في العالم، لأنّه يرجع إلى خمسة آلاف عام خلت: «إن كنتَ حكيماً، ابقَ في المنزل، وأحبّ زوجتك ولا تتشاجر معها. أطعِمها، دلّلها، ودلّك جسدها.

قم بتلبية جميع رغباتها، وانتبه لما يشغل بالها. إنّها الطريقة الوحيدة لإقناعها بالبقاء معك، وإن عارضْتها، ستصبح حياتك تعيسة».

تمتّعت النساء بالحريّة الجسديّة

الاحترام الذي كُرِّس للمرأة عند الزواج، عكس الاستقلاليّة الفرديّة التي تمتّعت بها قبل أن تتزوج. في الحقبة الكلاسيكيّة الباكرة، عاشت الفتاة الإغريقيّة حياة حرّة، فمارست النشاطات البدنيّة في الهواء الطلق، وتلقّت تدريباً في الرياضة وألعاب القوى، من أجل تحفيز لياقتها البدنيّة وتعزيز جمالها في آن واحد. في كريت، تدرّبت الشابّات كي يصبحن toreras، أي

مصارِعات ثيران محترفات يشاركن في مصارعة الثيران الشعائريّة[8]. المرأة في أيونيا شاركت في صيد الخنازير البرّيّة، وكانت رماحها وشباك الصيّد الخاصّة بها جاهزة دائماً في متناول يدها. آلاف المزهريّات المصنوعة في أثينا (والتي يسمّيها الشاعر جون كيتس بالجرار اليونانيّة) تصوّر الفارسات الإناث وهنّ يتسابقن عاريات، أو يرقصن ويسبحن عاريات طيلة آلاف السنين في زمن بطيء صامت. الحريّة التي تمتّعت بها نساء إسبرطة كانت مميّزة، لدرجة أنّها أثارت حفيظة المدن الإغريقيّة الأخرى. يوريبيدس على سبيل المثال لم يكن المواطن الأثينيّ الوحيد الذي اعتبرها فضيحة: «بناتُ إسبرطة لا يتواجدن أبداً في المنزل! إنّهنّ يتبارين بأوراك عارية مع الشباب في ألعاب المصارعة، وقد خلعن ثيابهنّ كلّها! يا للعار!».

قصّة البطلة الرومانيّة كلوليا توضّح أنّ الهدف من بناء القوّة البدنيّة، والتدريب الرياضيّ الذي تلقّته النساء، لم يكن التسلية: عندما أخذها الملك الإتروسكيّ لارس بورسينا رهينةً، بعد هجومه على روما في القرن السادس قبل الميلاد، نجحت كلوليا بالهرب، وسرقت حصاناً، ثمّ قطعت نهر التيبر سباحة، وعادت إلى روما بسلام. رغم أنّ الرومانيّين سلّموها مجدّداً للغزاة، لكنّ شجاعتها انتصرتْ، إذ أُعجِب الملك لارس بورسينا ببطولتها فحرّرها هي والرهائن جميعهم كبادرة تقدير.

المجتمعات التي قاتلت فيها المرأة كالرجال

تقوية أجساد النساء الشابّات بالرياضة والتعرّي بانتظام، كانت لها تداعيات تتجاوز عروض الشجاعة الفرديّة تلك. تبرهن الأدلّة العديدة المتفرّقة من أرجاء العالَم القديم، على أنّ المرأة حملت السلاح، وقاتلت كجنديّة في الصفوف الأولى خلال المعارك، رغم الحكمة التقليديّة القائلة بأنّ ذلك الموقع محجوز للرجال! قادت الملكاتُ الحاكماتُ الجيوشَ في المعارك، لا بوصفهنّ شخصيّات رمزيّة، وإنّما كقائدات مُحنّكات.

8- تسمّى حرفيّاً «القفز فوق الثور»، وهي رياضة شعائريّة غير دمويّة، يقوم المشاركون فيها بالقفز بطريقة بهلوانيّة على ظهر ثور -أو بقرة- يركض مندفعاً. المترجمة

الملكة السيثيّة تاميريس، وهي محاربةٌ وقائدة قبيلةِ ماساجِته (استوطنت إيران الحاليّة)، قادت جيشها إلى النصر في معركة مع جحافل الملك سيروس الأكبر، ثمّ أعدمتْه انتقاماً لمقتل ابنها في المعركة. قادت الملكات أيضاً المعارك البحريّة، كما فعلت الملكة المصريّة كليوباترا في معركة أكتيوم، لكنّ جُبنها (الذي لا يتلاءم مع شخصيّتها) كلّفها خسارةَ الحربِ، والإمبراطوريّةِ، وحبيبِها أنطونيو، وحياتِها كذلك. بريطانيا الكلتيّة بجّلت الملكات المحاربات، وحملت الإلهة الكبرى هناك دائماً ملامح حربيّة، إذ تتكرّر في الحوليّات ما قبل المسيحيّة قصصُ قائدات الجيوش الإناث، كالملكة مادب (أو مايڤ) التي قادت جيشها الخاصّ، وشنّت حرباً على الملكة فيندمور، وأسرت بيديها خمسين محاربة من المحاربات في جيش عدوّتها، بعد أن اقتحمت قلعة دون سوبهاريش في مقاطعة أنتريم.

شجاعة المحاربات الكلتيّات وضراوتهنّ في القتال، كانتا أسطوريّتين. الملكة الكلتيّة بوديكا، ملكةُ إيسيني، أذهلت المؤرّخ الرومانيّ ديو كاسيوس الذي وصفها عندما ظهرت في المعركة: «ضخمة الحجم، مخيفة، تحمل رمحاً». تلك الروح العدوانيّة، كانت أيضاً سمة مميّزة لأخوات بوديكا في السلاح. أحد المؤرّخين الرومان الذي شارك شخصيّاً في المعارك، حذّر زملاءه من أنّ كتيبة رومانيّة بأكملها لن تستطيع صدّ جنديّ غاليّ واحد[9] إن نادى زوجته لمساعدته، لأنّها «غاضبة وأسنانها تصطكّ، تسدّد بذراعيها الهائلتين الضربات والصفعات وكأنّها قذائف منجنيق».

قصص النساء المحاربات طافت دائماً حول حوض البحر المتوسّط والشرق الأدنى، كما ذكرت السجّلاتُ الكتابيّة والشفهيّة منذ أقدم العصور وجودَ قبيلة من النساء المحاربات، أطلقت عليها اسم «قبيلة الأمازونيّات». غياب الأدلّة الأركيولوجيّة الملموسة (بقايا مدينة مهدّمة مثلاً، أو نقوش محفورة تصوّر انتصارات مشهورة) أدّى لمقاربة تلك السجّلات على

9- نسبة إلى بلاد الغال Gaul وهي منطقة في غربي أوروبا، كانت تضمّ فرنسا الحاليّة وأجزاء من بلجيكا وألمانيا وإيطاليا، وسكنها شعب ينتمي إلى العرق الكلتيّ. المترجمة

أنّها خرافات وأساطير، «مجرّد قصص يتناقلها المسافرون، عن الأجانب الذين يقومون بكلّ شيء بطريقة خاطئة»، كما يشرح لنا قاموس أكسفورد الكلاسيكيّ بحزم. لم تعجب قصّةُ الأمازونيّات المؤرّخاتِ النسويّات في القرن العشرين، لأنّها لا تفيد من وجهة نظرهنّ إلّا بدعم الإصرار التاريخيّ على حتميّة الهيمنة الذكوريّة، فالأمازونيّات يُهزَمْن دائماً، ويتعرّضن للاغتصاب، أو يتزوّجهنّ الأبطال مثل ثيسيوس. المشكلة الأخرى تكمن في التفسير الزائف الخياليّ لسبب تسميتهنّ بذلك الاسم، مفردة amazon تعني «عديمة الثدي»، وهي مشتقّة من اللغة الإغريقيّة: a التي تعني «بدون»، وmazos التي تعني «ثدي»، لكنّه تفسير خاطئ لغويّاً، كما أنّه سخيف من الناحية التشريحيّة. كم عدد النساء اللواتي يعانين من ضخامة الثدي الأيمن، لدرجة يصعب معها تحريك الذراع؟! بالتالي، فكرة قبيلة من النساء اللواتي يقطعن أثداءهنّ اليمنى كي يقاتلن، هي فكرة مُختَلَقة، أمّا نسف الأسطورة من أساسها فهو فعل طائش! السجلّات المكتوبة - التي تتراوح ما بين ثرثرة الحكواتيّين، وأعمالِ المؤرّخين الموثوقين -كثيرة جدّاً كما أنّها متجانسة، ولا يمكننا أن نتجاهلها. قصّةٌ كهذه يرويها كتّاب جدّيون من قامة بليني، سترابو، هيرودوت، إسخيليوس، ديو دوروس، وبلوتارخ، لا بدّ أن تحمل نواةَ حقيقةٍ نبذتها الأجيال اللّاحقة. بدوره، متنُ الأسطورة يستند إلى شواهد تاريخيّة، كالطقوس والأضاحي والشعائر وإعادة تمثيل المعارك في العصور اللّاحقة، والتي ينسبها من يؤدّونها بثقة إلى الأمازونيّات، ويعتبرونها احتفالات تذكاريّة تمجّد لحظات مفصليّة من تاريخهم الخاصّ. كما مع السؤال الأشمل المتعلّق بالماترياركيّة، التي ترتبط بها ثيمةُ «قبيلة من نساء قويّات يحكمن أنفسهنّ بأنفسهن»، الطريق لحلّ لغز الأمازونيّات يبدأ بتفكيك الخرافة والأسطورة، وتحليل الأحداث التاريخيّة الحقيقيّة. لقد قاتلت النساء كقائدات للجيوش وكجنديّات عاديّات في الكتائب، كما أنّ الرمز الرئيس للإلهة الكبرى الذي ينتشر انتشاراً واسعاً في حوض البحر المتوسّط وآسيا الصغرى، هو الفأس الحربيّة ذات الرأسين Labrys. أمامنا أيضاً سجّلات كثيرة لا يختلف أحد حول صحّتها، كتلك التي تروي كيف

استنهضتِ الشاعرةُ والمحاربة الإغريقيّة تيليسيلّا في القرن الخامس قبل الميلاد، نساءَ مدينةَ آرغوس بأناشيدها الحربيّة عندما حُوصِرَت مدينتهنّ. أولئك «الأمازونيّات» الآرغوسيّات حملن السلاح، وقمن بشنّ هجوم ساحق، ودحرن الأعداء بعد معركة طويلة. من ثمّ، كرّسن معبد أفروديت للشاعرة تيليسيلّا، التي نظمت أنشودة نصر لتكريم الإلهة الكبرى ربّة الأرباب. لو أضفنا هذا المثال إلى الأدلّة الأخرى التي توثّق النشاطات «الأمازونيّة» عند النساء، سيتوضّح لنا على الفور أنّ الأمازونيّات لسن قبيلة واحدة مفردة -تماماً مثلما لم تكن الماترياركيّة نظاماً شاملاً- وأنّ مشاركة النساء في القتال والحروب هي حقيقة واقعة.

طالبت النساء بالحريّة القصوى

الاستقلاليّةُ الجسديّة المتمثّلة بممارسةِ الرياضة، والمشاركةِ في القتال أثناء الحروب، تنمّ عن حريّة أعمق تمتّعت بها المرأة، وهي حريّة وجدت الأجيال اللّاحقة صعوبة كبرى في تقبّلها، أو شرحها شرحاً وافياً. دون شكّ، اختلفت العادات والتقاليد من بلد إلى بلد، ومن قبيلة إلى قبيلة، لكنّ حريّة المرأة في فجر الحضارة كانت واسعة، دون قيود تشدّد على عفّتها أو التزامها بعلاقة جنسيّة حصريّة مع رجل واحد، عدا عن أنّها فاقت آنذاك ما ستحظى به النساء لاحقاً. بالنسبة للعديد من المجتمعات، لم يترافق عري المرأة مع شعور بالخزي، سواء كانت فتاة صغيرة تمارس الرياضة أو ألعاب القوى، أو امرأة بالغة تمارس التعرّيَ الطقوسيّ، وتخلع ثيابها عند المشاركة بالطقوس أو بالشعائر الهامّة، كالاحتفالات الرسميّة وتلك التي تُقام على سبيل المرح. المزهريّات الأثينيّة التي ترجع إلى القرنين الثامن والتاسع قبل الميلاد، تُصوّر الأرملةَ شخصيّاً والنساءَ المشاركات في الحِداد، وهنّ يسرن عاريات في الموكب الجنائزيّ الذي يرافق رفات أيّ مواطن في أثينا.

لا بدّ أن تلك الحريّة الجسديّة قد ترافقت مع حريّات جنسيّة معيّنة، من تلك التي نتوقّع ظهورها في المجتمعات الماترياركيّة، فحيثُ تحكم المرأةُ، تبحث عن الحبّ! من بين عشرين أغنية إيروتيكيّة كُتِبَت في مصر الفرعونيّة

في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، ألّفتِ النساء ستّ عشرة. إحداها تقول بلا خجل: «تسلّقت عبر النافذة، ووجدتُ أخي في سريره، فطفح قلبي بالسعادة!»، في أغنية ثانية أشدّ صراحة نقرأ: «آه يا حبيبي الوسيم! أنا مستعدّة للموت كي أتزوّجك، وأصبح سيّدة كلّ أملاكك».

في بقيّة أرجاء العالم، كانت التقاليد أقلّ تسامحاً وأشدّ صرامة. عندما استجوبتْ جوليا أوغستا -زوجة الإمبراطور الرومانيّ سيڤروس- أسيرةً إسكتلنديّة حول الحريّات الجنسيّة التي يُشاع أنّ النساء البريطانيّات يتمتّعن بها، وبّختها الأسيرة قائلة: «نحن نلبّي احتياجاتنا الطبيعيّة أفضل بكثير منكنّ أيّتها الرومانيّات! نحن نضاجع الرجل الأفضل علناً، أمّا أنتنّ فتمارسن الفسوق سرّاً مع الأكثر وضاعة». تلبية الاحتياجات الطبيعيّة لم تقتصر على البشر، كما تقترح عالمة الاجتماع إليز بولدنغ: «الطرق التي وظّفت المرأة الكلتيّة من خلالها الجنسَ، تتوضّح من القصص التي تروى عن الملكة مادب، حين عرضتْ صداقة الفخذ[10] على أحد مالكي الثيران، لقاء أن يعيرها ثوراً كي يسافد بقراتها، كما عرضتْ صداقة الفخذ أيضاً على الرجال لقاء مساعدتها في الغزوات والمعارك. من الواضح أنّ الأطراف جميعها -بما في ذلك زوجها- اعتبرت تلك الصفقات منطقيّة».

حقوق وواجبات المرأة التي مارستْها تكريماً للإلهة الكبرى، لا لإشباع متعتها الشخصيّة، كانت منطقيّة أيضاً. تلك الحقوق والواجبات تنوّعت ما بين عرض المرأة لنفسها على الرجل، إلى ألغاز أشدّ غموضاً يُعتبر الكشف عنها خيانة عقوبتها الموت. على المستوى الأبسط، يُعتَقَد أنّ المرأة كانت تمارس طقوس عبادة الإلهة الأمّ عاريةً، أو شبه عارية. في رسم جداريّ في

10- أي أن تمنح حظوتها الجنسيّة لزميلها المحارب كنوع من عربون سلام، أو لقاء خدمات معيّنة يؤدّيها لها. ترتبط هذه الممارسة بالملكة الكلتيّة المحاربة سكاثاخ في الأساطير الإيرلنديّة المعروفة بـUlster cycle، والتي كانت مقاتلة شرسة تعلّم اليافعين فنون القتال في مدرسة خاصّة. عند انتهاء الفترة التدريبيّة تقام شعائر رسمهم كمحاربين، ومنها «صداقة الفخذين» أي ممارسة الجنس الطقوسيّة مع الملكة سكاثاخ. المترجمة.

كهف كوغل بالقرب من ليريدا في كاتالونيا، تظهر تسع نساء أثداؤهنّ متدليّة، لا يرتدين إلّا قبّعات وتنانير تشبه الأجراس، ويؤدّين رقصة الخصوبة حول ذكر صغير الحجم، لكنّ قضيبه المتدلّي ضخمٌ للغاية. المؤرّخ الرومانيّ بليني وصف كيف تتعرّى النساء في بريطانيا لأداء الشعائر، وكيف يلطّخن أجسادهنّ بصبغة بنيّة اللون تحضيراً للطقوس. الرقص كان عنصراً أساسيّاً في عبادة الإلهة الكبرى، اتّسم بطابع مقدّس جنسيّ غالباً، كما كان من المألوف تعاطي الموادّ المخدّرة والمهلوِسة، لأنّ الإلهة الكبرى تطالب بالتخلّي التامّ عن العالم.

في بعض الحضارات، طلبت الإلهة الكبرى نوعاً من الخدمات الجنسيّة التي أساء المؤرّخون فهمها فيما بعد، وقدّموها تحت مسمّيات مضلّلة خاطئة. وصف هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد تلك الشعائر كما يلي:

«أسوأ عادات البابليّين، هي تلك التي تُجبَر بموجبها كلّ امرأة في بابل، على الجلوس في معبد الحبّ مرّة واحدة في العمر، كي تضاجع الغرباء. يمرّ الرجال، ويختارون من تعجبهم، ولا يمكن للمرأة أن ترفضهم لأنّ ذلك يُعدّ خطيئة. بعد أن تنتهي، تصبح المرأة مقدّسة في عيني الإلهة، وتعود إلى بيتها».

حيثما ورد ذكر هذه الممارسة في الشرق الأوسط أو الشرق الأدنى، ستوصَف دائماً بـ«البغاء المقدّس». لا شيء يحطّ من وظيفة «القاديشتو» الحقيقيّة كما يفعل هذا المصطلح! القاديشتو هي المرأة المقدّسة التي تُبجَّل من خلال ممارسة الجنس، باعتبارها تجسيداً للإلهة الكبرى شخصيّاً. كان الجنس آنذاك هدية مقدّسة ثمينة، تستلزم رفعَ الشكر الأبديّ للإلهة الكبرى في معبدها، وممارستُه مع رجل غريب، هي التعبير الأنقى عن إرادة الإلهة الكبرى، ولم تترافق بوصمة شائنة أيّاً كانت. على العكس، حملت نساءُ القاديشتو دائماً لقب «المُقدَّسات» أو «الطاهرات»، أو nu – gig كما تُسمّيهنّ مدينة أوروك السومريّة، وهو لقب يعني «اللواتي لا تشوبهنّ شائبة» أو النقيّات.

الإسقاط الخاطئ تاريخيّاً لتعصّب خارج عن سياقه الزمنيّ (الجنس خطيئة، ممارسة الجنس خارج إطار الزواج هي بغاء)، يفشل بأن يأخذ

بحسبانه الدليلَ التاريخيّ على سموّ مكانة القاديشتو. شريعة حمورابي على سبيل المثال، تميّز بدقّة بين خمس مراتب لنساء المعبد، وتحمي حقهنّ بالاستمرار في العبادة التي مارستها أمّهاتهنّ من قبل، كما تميّز بشكل واضح بين النساء المقدّسات وبين البغايا العاديّات. عبارة «البغاء المقدّس» تحمل في طيّاتها افتراضاً عجيباً بأنّ الناس آنذاك لم يعرفوا ما هو البغاء الحقيقيّ، لكنّه كان موجوداً بلا شكّ. «بائعة الهوى» الحقيقيّة التي تتحوّل إلى سلعة سرمديّة تجسّدها قصّة المحظيّة المصريّة الأشهر آرشيديس، التي ذاع صيت مفاتنها الجنسيّة، لدرجة أنّ الرجال كانوا يدمّرون أنفسهم لقاء حظوتها. أحد طالبي ودّها، عاد إلى منزله عندما رفضته لأنّه غير قادر على دفع أجورها، وحلم أنّه يتمتّع بها. ساقته آرشيديس الغاضبة إلى المحكمة، واتّهمته بأنّه تمتّع بممارسة الجنس معها دون أن يسدّد أجورها المعتادة. وافقت المحكمة على شرعيّة ادّعاء آرشيديس، لكن بعد مداولات مطوّلة، قرّر القاضي أنّ الزبون حلم مجرّد حلم بأنّه يتمتّع بها، لذلك حكم عليها بأن تحلم بقبض أجورها.

شاعرة، كاهنة، ملكة، أمّ، عاشقة، بطلة رياضيّة، جنديّة، محظيّة وضيعة... لعبت المرأة الأولى كلّ الأدوار الممكنة في تاريخ البشريّة، وقدّمت لنا عرضاً مدهشاً، ولم يقل لها أحدٌ آنذاك إنّ المرأة ضعيفة جسديّاً، وغير مستقرّة عاطفيّاً، وغبيّة. حوليّات الحضارة المينونيّة في جزيرة كريت حافلة بالنساء، بائعات وتاجرات ومزارعات وبحّارات وسائقات عربات وصيّادات وكاهنات للإلهة الكبرى، وكلهنّ «جهلن» تماماً عدم قدرة المرأة على القيام بتلك الوظائف في المجتمعات اللّاحقة المتقدّمة. تركت المرأة بصمتها على كلّ الأصعدة، خذوا على سبيل المثال أسبازيا المتألّقة، المحظيّة والعالِمة والسياسيّة التي كانت شريكة بِركليس[11] في أثينا في القرن

11- سياسيّ وخطيب بارز وجنرال في أثينا خلال عصرها الذهبيّ في القرن الخامس قبل الميلاد، وهو من باشر ببناء الأكروبوليس والبارثينون. من خلاله، مارست أسبازيا تأثيراً عظيماً على السياسة في أثينا. المترجمة

الخامس قبل الميلاد، أو معاصرتها أرتيميسيا التي كانت أوّل قبطانة بحريّة معروفة، وشنّت بأسطولها البحريّ هجوماً كاسحاً في معركة ماراثون، لدرجة أنّ الأثينيّين عرضوا مكافأة ضخمة لقاء رأسها. نجت أرتيميسيا من الحروب الفارسيّة لكنّها ماتت من الحبّ، عندما ألقت بنفسها عن حافّة جرف في نوبة حزن، بعد أن رفضها شابّ أصغر منها.

إنّهن نساء حقيقيّات، حقيقيّات فعلاً، حتّى في لحظة موتهنّ، لأنّهن يعرفن أين تكمن قوّتهن. قوّتهن تلك حفظتها مجموعة من التقاليد الاجتماعيّة والحقوق القانونيّة، التي تتضمّن: الحريّة الجسديّة والجنسيّة، إمكانيّة الوصول إلى السلطة، التعليم، المواطَنة التامّة، امتلاك الأموال والممتلكات، الحقّ بالطلاق، حضانة الأولاد والنفقة الماليّة عند الطلاق.

القيمة التي تحظى بها المرأة في القوانين والعادات المعاصرة، تعود بجذورها إلى المكانة الخاصّة لأولئك النساء، والمستمدّة بدورها من علاقتهنّ المباشرة مع الإلهة الأمّ، وتجسيدهنّ لها. الإلهة الكبرى كانت إلهة محليّة، وكلّ قبيلة أو بلد أو مدينة أو حتّى قرية، عبدت نسختها الخاصّة من «سيّدتنا»، وبالتالي تحوّلت الإلهة الكبرى إلى إلهة عالميّة بهذه الطريقة. بالنسبة لعابديها، الإلهة الكبرى ستبقى أبديّة على مرّ الزمن: «أنا إيزيس، سيّدة كلّ البلاد. سننتُ القوانين للجميع، نظّمتُ أموراً لن يغيّرها أحد. أنا المقدّسة بين النساء، فصلتُ السماء عن الأرض، رسمتُ مسارات النجوم، رسمتُ مسار الشمس والقمر، زوّجتُ الرجال والنساء... ما أجعله قانوناً، لا يغيّره رجل».

هل ذلك هو التحدّي الذي انبرى الرجل للتصدّي له؟! أين كان الرجل في الدراما الأوليّة المتعلّقة بعبادة الإلهة الكبرى؟! إنّه الخليل المؤقّت، الملك الذي يُضحّى به، «ذكر النحل» الذي تُطلَب خدماته مرّة واحدة فقط. المرأة كانت كلّ شيء، أمّا هو فلا شيء... ممّا فاق احتماله! لا بد أن يحظى ببعض المعنى في الوعي البشريّ الشاسع المتنامي، لكن مع انتقال الصراع من أجل فهم ما يجري إلى طور جديد، المعنى الوحيد الممكن كان انقلاب صيغة المعتقدات القائمة رأساً على عقب بكلّ ما فيها. تضخّمَ غرورُ

الرجل، وأراد أن يتحدّى سلطة المرأة، فأطلق الحرب الجنسيّة التي ستقسّم الجنسين، والمجتمعَ كذلك، لآلاف السنين القادمة.

أراد الرجل أن يحقّق رجولته من خلال قتل وتخريب كلّ ما صنعته المرأة، الإلهة الكبرى، المحاربة العاشقة، والملكة.



سيادةُ الفالوسِ[1]

– يا شيڤا المقدّس، أيّها الليـنغانوت[2] الإلهيّ أيّها الجذر الفردوسيّ، والقضيب السماويّ يا ربَّ الفالوس، لينغامك المتوهّج ضخمٌ لدرجة أنّه لا بَراهما ولا ڤيشنو، يعرفان كم طوله.

• صلاةٌ هندوسيّة

– أطلقَ سهماً، اخترقَ بطنها فلَقَ أحشاءها، شقّ قلبَها دمّر حياتها طرحَ جسدَها أرضاً، ووقف فوقه منتصراً.

• الملك مردوخ ينتصر على الأمّ الكبرى
في ملحمة الخلق البابليّة، حوالي 2000 قبل الميلاد.

– يتطلّع الرجال إلى تدمير أي صفة في المرأة تؤهّلها لامتلاك سلطة تكافئ سلطتهم. من وجهة نظرهم، المرأة تتسلّح أصلاً بتلك القوّة التي تجذبهم إليها.

• نورمان ميلر.

1- Phallus مفردة تشير في الأصل إلى القضيب في حالة انتصاب، لكنّها تُستخدم عموماً بمعنى «ما يأخذ شكل قضيب منتصب»، سواء كانت أداة، أو منحوتة، أو صورة، أو رمزاً. المترجمة

2- linganaut وLingam مفردتان من اللغة السنسكريتيّة، تردان في هذه الصلاة بمعنى الفالوس. المترجمة

«في البدء» تكتب ماريلين فرنش، «كانت الأمّ». تلك الأمّ كما رآها «أولادها» ما زالت معنا اليوم: ثدياها الهائلان، بطنها الضخم وردفاها السمينان، فرْجها البارز، وفخذاها الأشبه بجذعي شجرة، كلّها ما تزال واضحة في تماثيل ڤينوس التي عُثِر على آلاف منها في أوروبا فحسب. مقارنةً مع هذا العنصر القويّ الهائل، لم يكن الرجل إلّا مجرّد شخصيّة باهتة، فكلّ الأساطير والأغنيات التي مجدّت الإلهة الكبرى، أكّدت بالمقابل على ضآلة الذكر بتعابير هجائيّة لاذعة غالباً. الإلهة تامِنُيو من الأسرة المصريّة الحادية والعشرين (1102–952ق.م)، تظهر عارية في لفافة بردي، جسدها يتقوّس فوق العالَم بأكمله، وهي تعرض ثدييها المرصَّعين بالنجوم وبطنَها وعانَتها، أمّا الإله – الصبيّ جِب فيستلقي على الأرض، ويحاول عبثاً أن يطال تامِنُيو بقضيبه. صحيح أنّ اللوحة تبالغ بتضخيم عضوه، لكن من الواضح أنّ ذكورته لا ترقى إلى مستوى الإلهة. لم يتوقّف إذلال الأمّ الكبرى الجنسيّ عند هذا الحدّ، عند هنود وينباغو في كندا، الرجل الشجاع الذي يشاهد الإلهة في أحلامه ولو مرّة واحدة، يعرف أنّها اختارتْه لمصير مرعب، هو أن يتحوّل إلى Cinaedi، أي إلى رجل مثليّ الجنس، مُجبَرٍ على ارتداء ملابس النساء، والخضوعِ لرغبات الذكور الآخرين الجنسيّة، أيّاً كانت.

في العديد من الحضارات التي يختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذريّاً، نجد أمثلة مشابهة لا حصر لها عن الإلهة القويّة المرعبة التي لا تُهزَم، كما يشرح لنا روبرت غريڤس: «في ظلّ الإلهة الأمّ، النساء هنّ الجنس المسيطِر، أمّا الذكور فضحايا خائفون». عندما جسّدت المرأة كلّ المعنى وكلّ السحر والحياة، لم يكن للرجل فائدة ولا أهميّة. «الطفل، الدم، الصراخ، الرقص... كلّها للنساء» يعلن سكّان أستراليا الأصليّون، «لا وظيفة للرجل على الإطلاق، عدا عن الجماع». عندما تنامى الوعي، تسلّل الحسد إلى ذلك الفراغ، «الرجال الذين صعقتهم قدرة المرأة الحصريّة على خلق حياة جديدة، حسدوها وحسدوا رحمَها». ممتعضين من سيطرة المرأة وتلاعبها بكلّ إيقاعات الطبيعة، اندفع الرجال إلى ابتكار سلطتهم الخاصّة. في الأصل، كلّ الطقوس المتمحورة حول الذكر، لم تكن إلّا محاولات لتقليد الأفعال

البيولوجيّة التي يقوم بها جسد المرأة، وهو فضلٌ تعترف به حضاراتُ الصيد والالتقاط الباقية اليوم: «في البداية... لم يكن لدينا شيء. أخذنا تلك الأشياء من النساء». أحد الأمثلة النموذجيّة عمّا سبق، هو الطقس الأزتكيّ البغيض الذي يقوم فيه الكاهن المشرف على شعائر الأضاحي بارتداء جلد ضحيّته البشريّة، من ثمّ «يخرج من الجلد الدامي كما يبزغ الجذر المنتش من بذرة الحبوب»، بالتالي يتقمّص في آن واحد كلّاً من الحياةِ الجديدة، والرجلِ القادر على الولادة من خلال سحره القويّ. في قبيلة آراندا في أستراليا، يلاقي الصِبية جميعهم مصيراً مرعباً خلال طقوس الإدخال[3]:

«أثناء الشعائر، يمسك الكاهن – الطبيب قضيبَ الصبيّ، ويُدخِل عظمة طويلة رفيعة في الإحليل، ثمّ يمزّق القضيب مراراً وتكراراً بشظيّة صغيرة تشبه المشرط، ويقطع طبقات اللحم وصولاً إلى العظم. عندها، ينفتح القضيب وكأنّه قطعة سجق مسلوقة».

تلك الشعائر القبيحة، التي عمّدها المستعمرون البيض باسم «ما تحت – الخزع»، عذّبتْ عقولهم المتحضّرة. ما الغاية منها؟! لو فهموا لغة الآراندا لتوضّحت الأمور بالنسبة لهم! في لغة السكّان الأصليّين، المفردة التي تعني «القضيب المشقوق» مأخوذة من مفردة تعني المهبل، كما أنّ لقب «مالِك الفَرْج» هو لقب فخريّ يُسبَغ على الصبيّ في النهاية. تتضمّن الطقوس اللّاحقة إعادة فتح الجرح دوريّاً، لإثبات أنّ الصبيّ الذي اجتاز طقس الإدخال يمكنه الآن أن «يحيض». بكلمات مارغريت ميد: «وكأنّ الرجال لا يمكن أن يصبحوا رجالاً، إلّا من خلال الاستحواذ على وظائف النساء الطبيعيّة». بالنسبة لكارل يونغ، يكمن سرّ طقوس الإدخال كلّها في «المرور من خلال الأمّ مجدّداً»، ومعاناة الخوف والألم والدم كي يولَد كذكر جديد، لا كطفلٍ، وإنّما كرجل وبطل. «من خلال الأمّ» هي فكرةٌ لا تنطوي على

3- Initiation Rituals ترد في النصّ بمعنى الطقوس والشعائر التي تقام عند انتقال الفرد من مرحلة الطفولة إلى مرحلة البلوغ، يتمّ فيها فصله طقوسياً ورمزيّاً عن مرحلة حياته السابقة، من ثمّ تحويله إلى الحالة الجديدة المطلوبة، وإدخاله إلى الجماعة من جديد. المترجمة

تعاطف أو تماهٍ مع الأنثى، والعنصر الرئيس فيها هو الاستحواذ على عمليّة الولادة كي تصبح لغزاً خاصّاً بالذكر، «وأوّلَ سلاح من أسلحة الرجل، في نضاله ضدّ الهيمنة الأنثويّة التي خلقتْها الماترياركيّة». نضاله لم يهدف إلى تقليد قوّة المرأة والتفوّق عليها فحسب، بل إلى اغتصاب قدرتها على خلق حياة جديدة على الأصعدة كلّها. الإله زوس مثلاً ولَدَ ابنتَه الإلهة أثينا من رأسه، في موتيف كلاسيكيّ يقلب أسطورة الخلق الأوليّة، نجد مقابلاً له في كلّ الميثولوجيات. ذلك النضال كان ثورة: ثورة الضعيف ضدّ القويّة، ثورة المضطَّهَد ضدّ مضطَهِدَته، وثورةَ بُنْيةِ القيمةِ وعادات التفكير. التفكير بحدّ ذاته، بدأ يتطوّر وفق خطوط مهّدت الطريق لهيمنة الذكور. عندما تجاوز الكائن البشريّ تلك العتبة الذهنيّة ما بين تفسير الأحداث بتعابير رمزيّة وسحريّة، وما بين إدراكه لوجود علاقة بين السبب والنتيجة، اكتشف دورَ الذكور في إنجاب الأطفال. بالتالي، أصبحت إيقاعات المرأة بشريّة لا مقدّسة، كما أنّ إدراك الذكر بأنّه هو من يحدّد الحمل، عزّز ثورته التي بدأها للتوّ بسبب امتعاضه وممانعته. يلخّص المؤرّخ جان ماركدايل ما حصل كالتالي: «عندما تأكّد الرجل أنّه ضروريّ لعمليّة الإخصاب، انهارت طريقة التفكير القديمة تماماً. كان ذلك بمثابة ثورة فائقة الأهميّة في تاريخ الرجل، يفاجئنا أنّها لم تُصَنَّف على قدم المساواة مع اختراع العَجَلَة، أو الزراعة، أو استخدام المعادن. لقد خُدِع الذكرُ طيلة قرون، ولن ترضيه المساواة مع المرأة الآن، لأنّه فهم تداعيات قوّته كلّها، وسينطلق كي يهيمن». وما هو أفضل سلاح توافر آنذاك لتحقيق الهيمنة، إلّا الفالوس؟! عندما بدأ الرجل بنحت نوع من المعنى لذاته، كي يتصدّى لقدرات المرأة المتأصّلة الأبديّة، ما الذي سيخدم دوره الجديد إلّا أفضل صديق له: قضيبه؟!

القضيب فريسةٌ للانتصاب الذي لا يمكن منعه، أو على العكس، قد يرفض الانتصاب بعناد أو يرتخي فجأة. بالتالي، في هيئته البشريّة الهشّة، لا يمكن للقضيب أن يتحدّى قوّة الإنجاب التي لا تخيب عند المرأة، أمّا عندما يرتقي فوق مستوى الواقعيّ نحو الرمزيّ، متحوّلاً إلى «فالوس» مصنوعٍ من موادّ تقاوم التداعي كالمعادن والحجارة، عندها، سيخدم صاحبه بالطريقة

المثلى. بضربة واحدة إذن، أصبحت القوى طوعَ «قضيب» الرجل. الآن، وقد تحرّر من كونه مجرّد فكرة لا قيمة لها على هامش الخلق -الذي لا تلعب فيه الذكورة أصلاً أيّ دور سحريّ، إلّا بالنسبة إلى الذكر نفسه- تحوّل الرجل إلى سرٍّ، وأصلٍ، قوّةِ الخلق التي تملكها الأمّ الكبرى. تلاشت قوّة المرأة وانتقلت إلى الرجل، العضو الذكريّ أصبح الآن «عضو التكاثر المقدّس»، والفالوس لا الرحم هو منبع الحياة. قوّة الفالوس إذن أصبحت جوهريّة: يتمّ الخلق من خلال الفالوس، وفيه، ومنه... وهكذا وُلِدَت ديانة جديدة.

أنا لا أقترح هنا أنّ القضيب الذكريّ ورمزَه المكافئ (الفالوس)، كانا مجهولَين في المجتمعات القديمة، قبل أن تكتسح فكرة الأبوّة البيولوجيّة العالَم في بدايات العصر الحديديّ، أي قبل حوالي 3500 عام. في الحقيقة، عثر علماء الآثار على الرموز الفالوسيّة بأعداد وأحجام مبهرة، في أقدم المواقع التي عاش فيها الإنسان منذ بدايات الثورة النيوليتيّة (حوالي 9000-8000 قبل الميلاد في الشرق الأدنى). مثلاً في أعماق «قبر غرايمز» Grimes Grave، وهو منجم صوّان نيوليتيّ مهجور في نورفولك، بريطانيا، وجدوا مذبحاً يحمل كأساً، وسبعة من قرون الرنّة، وفالوساً ضخماً منحوتاً من الحجر الجيريّ، كلّها مرتّبة كتقدمة لتمثال الإلهة الكبرى المنصوب خلفها. مهما كان حجم تلك الرموز الفالوسيّة (وكذلك تلك المنقوشة في الطين أو الحجر، والتي تشير إلى تطوّر مقدرة مبهرة على التفكير السحريّ)، فإنّها تُعدّ جزءاً من عبادة الإلهة الأمّ، ولم تكن مقدّسة بحدّ ذاتها.

في مفارقة واضحة إذن، الإلهة الكبرى هي من أسّستْ عبادةَ الفالوس. في أسطورة إيزيس، التي انتشرت عبادتها من الشرق الأدنى إلى آسيا وأوروبا، أمرت الإلهةُ بصنع لينغام lingam (فالوس) خشبيّ لأوزيريس، كي يُنصَبَ في معبدها في مدينة طيبة المصريّة. لاحقاً، اشتملت عبادتها على تقديمات لرموزها الفالوسيّة، إذ رفعت النساء المصريّات صورَ أوزيريس في مواكبهنّ المقدّسة، بالإضافة إلى فالوس متحرّك «هائل الحجم» على حدّ تعبير مُشاهِد ساخط، تحمله كلٌّ منهنّ بيدها، بينما حملت الإغريقيّات أثناء احتفالات الإلهة الكبرى فالوساً يمكن التحكّم بحركته بوساطة خيوط.

يصل الإله في حالة «الإحياء والنشوة» تلك إلى المعبد، حيث تنتظره سيّدات المدينة الموقّرات، فيتوّجنه بالأكاليل ويطبعن عليه القبلات تكريماً للإلهة الكبرى، في إشارة إلى أنّها قبلتْ تقديمة الطقس الفالوسيّ.

عندما ارتقى الرجل من رتبة كائن فائض عن الحاجة، إلى الممثّل الرئيس في الدراما البدئيّة، اتّضح أنّ القضيب متعطّش لرائحة الأصبغة[4] وتهليل الجماهير! في اليونان، بزغ الفالوس في كلّ مكان كأنّه «أسنان التنّين»[5]، وانتصبت الأعمدة الهرمزيّة[6] الحارسة (الأعمدة الفالوسيّة) باسطةً سيطرتها على كلّ زاوية وكلّ شارع. جزيرة دِلوس Delos اليونانيّة في القرن الثالث قبل الميلاد، افتخرتْ بشارع تحدّه قضبان ذكريّة عملاقة، تنتصب فوق خصى منتفخة، وتعلو نحو السماء كأنّها مدافع ثقيلة. في إيطاليا على الضفّة المقابلة من البحر الأدرياتيكيّ، أصبح الإله فالِس Phalles معروفاً في البيوت جميعها، بوصفه جزءاً من الآلهة المنزليّة المعتادة التي تعبدها كلّ عائلة، كما أنّ مدناً بأكملها مثل بومبي انتقلت إلى عبادة الإله الفالوسيّ بريابوس Priapus، وهي ظاهرة سرعان ما اعتبرها الحكماء اللّاحقون الذين لم ينظروا إليها بعين الرضا، سبباً لدمار المدينة بعد ثوران بركان فيزوفيوس عام 79م. في دورْسِت Dorset في إنجلترا، «عملاقُ سِرْن آباس» Cerne Abbas كان مفخرة إنجازات البريتونيّين القدماء، وهو رجلٌ عملاق منحوت على هضبة، طوله أربعون قدماً، يحدّق إلى التاريخ فخوراً بقضيبه المنتصب الذي يصل إلى مستوى صدره، وبهراوته الفالوسيّة التي تؤكّد على رسالة أسمى أعضائه.

تتصدّر الهند بقيّة البلدان في حماسها إزاء عبادة الفالوس. هناك، كما

4- المقصود هو الأصبغة الملوّنة التي يطلي بها المشاركون في الطقوس وجوههم وأجسادهم. المترجمة

5- في الميثولوجيا الإغريقيّة، عندما تُزرَع أسنان التنين في الأرض، تنبت فوراً على هيئة محاربين مدجّجين بالسلاح. المترجمة

6- Hermai أعمدة حجريّة منحوتة على شكل قضيب الإله هرمز الإغريقيّ، تحمل رأسه في أعلاها، نُصِبَت عند تقاطع الطرق، أو عند الحدود، وفي الجمنازيوم. يُعتقد أنّ إحدى غاياتها هي ضمان خصوبة الأراضي والقطعان. المترجمة

يُصرّ كتّابُ الأساطير، يوجد «أضخم قضيب في العالَم»، وهو «القضيبُ السماويّ»، قضيبُ الإله شيڤا الذي نما إلى أن اخترق كلّ العوالم السفلى، ثمّ انتصب كالبرج مُقزِّماً السماوات، ممّا أرهب إلهَين رئيسيّين آخرَين في البانثيون الهندوسيّ هما براهما وڤيشنو، فخرّا ساجدَين وعبداه، وأمرا النساء والرجال جميعهم بعبادته. نستشفّ التزامَ الأجيال اللّاحقة بهذه الوصيّة طيلة آلاف السنين، من خلال ما دوّنه الغربيّون المحتارون إزاء هذا التقليد العريق. التجّار، المبشِّرون، والمستعمرون، وصفوا في مذكّراتهم كيف يخرج كاهن الإله شيڤا كلّ يوم عارياً من المعبد، ويجوب الشوارع وهو يرنّ جرساً صغيراً، في إشارة للنساء للخروج من بيوتهنّ، كي يُقبّلنَ الأعضاءَ الذكريّة المقدّسة لممثّل الإله. لا بدّ أنّ الرجل الإنجليزيّ الڤكتوريّ العاديّ، ظنّ أنّه في «بلاد عجائب الفالوس»!

مع ارتقائه إلى مصاف الألوهيّة، ازداد حجم الفالوس وأهميّته وقداسته، كما أصبح تفوّق الرجال بدءاً من تلك الحقبة نابعاً عن هذا العضو وحده، ومُتأصّلاً فيه، ومُمَثَّلاً به، كتذكير حاضر دائماً بالقوّة الذكوريّة. بتوسيع هذا المفهوم (وهو توسيع لا حدود له)، لم يكن الفالوس مجرّد مصدر للقوّة، بل منبع للمعنى والأنظمة الثقافيّة. لمسُ القضيب وتحريضُه أسبغا الشرعيّة على تحيّات الرجال وعهودهم، ففي روما مثلاً، ذيّلت الخصى testis كلّ شهادة testament[7]، أمّا الرجل العربيّ فكان يقول «يا أبا الأعضاء الذكريّة، كن شاهداً على قَسَمي!»، ويدعو الشيخ أو ربّ القبيلة لفحص أعضائه التناسليّة كبادرة احترام عند اللقاء.

منذ البداية، لامست قوّة الفالوس المقدّس النساءَ بطرق عديدة. في معبد

7- testis مفردة لاتينيّة تعني في الأصل «الشاهد»، وهي مشتقّة من مفردة هندو-أوروبيّة تعني الرقم ثلاثة، إذ اعتبر الرومان أنّ الشاهد هو طرف «ثالث» محايد لا يتدخّل في الخصام بل يتفرّج عليه من بعيد، ويروي شهادة موثوقة عنه. كما استعملوا المفردة ذاتها testis مجازيّاً للإشارة إلى الخصية testicle، وكأنّ الخصية تشهد على ذكورة الرجل. إن أراد رجلان في روما أن يتعاهدا على الولاء مثلاً، كان كلّ منهما يمسك خصية الآخر، كما أنّ الرجل يضع يده على خصيته كدليل على صدقه عندما يشهد في المحكمة. يرد ذكر القسَم بالخصية أيضاً في العهد القديم. المترجمة

شيفا، اختار الكهنة عبدة يافعة تتميّز بجمال فائق «يشبه جمال اللوتس»، يخصّصونها لخدمة «القضيب المقدّس»، بعد وشمِ نهديها وعانتها الحليقة برموز الإله. في بقيّة أرجاء العالَم، تبرهن السجلّات التاريخيّة واللقى الأثريّة على أنّ المرأة مارست لعقَ، ولمسَ، وتقبيل، أو حتّى امتطاء الفالوس المقدّس المنحوتِ من الخشب أو الحجارة، كعلاج للعقم الذي يبتليها به «ربّ الفالوس»، والذي قد يكون المتلقّي الأوّل لعذريّتها أيضاً. في القرى النائيّة في جنوبي فرنسا، ظلّت عبادة القدّيس المحليّ فوتان بكلّ بهائه الفالوسيّ، شائعة حتّى القرن السابع عشر، ممّا سبّب إحراجاً شديداً للكنيسة الكاثوليكيّة. «قضيب» القدّيس كان مهدّداً بالتلاشي، نظراً لأنّ النساء ينتزعن منه باستمرار شظايا يستخدمنها في تحضير جرعات سحريّة لتحفيز الإخصاب، فقام القساوسة سرّاً بوضع عصا خشبيّة وراء المذبح، تتصل خفيةً مع الجزء الخلفيّ للفالوس، وتُجدَّد باستمرار من أجل الحفاظ على سمعة القدّيس، و«قضيبه الذي لا يفنى». أخبث الشعائر الفالوسيّة، كانت تلك الكلتيّة التي ظلّت حيّة في ويلز إلى حقبة هاول الصالح (Hywel Dda) ما بين 909–950م. هناك، إن أرادت امرأة أن تقاضي رجلاً بجرم اغتصابها، يتوجّب عليها أن تقسم وهي تضع يداً على رفات القدّيسين، بينما تمسك بيدها الثانية «العضوَ الهمجيّ» للمعتدي، ربّما كي تقرص ضميره مثلاً؟! هذا يذكّرنا بأنّ القضيب قد يكون سلاحاً للحرب وأداة للحبّ في آن واحد، كالفالوس العملاق الموجود في معبد الكرنك، الذي نصبه الملك منبتاح عام 1300 ق.م. النقش المحفور على قاعدته، يروي كيف قام الملك بقطع الأعضاء الذكريّة لأعدائه المهزومين بعد إحدى المعارك، وعاد إلى الديار حاملاً معه 13240 قضيباً.

ممّا سبق، نلاحظ أنّ سيادة الفالوس لم تكن انقلاباً فوريّاً على سيادة الإلهة الكبرى. على العكس، من الممتع أن نراقب كيف تحوّرت الأساطير والقصص والشعائر المرتبطة بعبادته خلال فترة زمنيّة طويلة، كي تتوافق مع إيقاعات المبدأ الذكريّ المتسارعة في اندفاعها نحو المركزيّة المطلقة. انزياح السلطة من الإلهة إلى الإله، من الملكة إلى الملك، من الأمّ إلى الأب،

حصل على مراحل نتتبّعها في الميثولوجيا حول العالم، وكأنّها طبقات الصخور الجيولوجيّة. في المرحلة الأولى، الأمّ الكبرى هي العالَم بحدّ ذاته، أو أنّها تخلقه بمفردها. لديها عشّاق عابرون وأطفال عديدون، لكنّها بدئيّة وعَلِيَّة. في المرحلة الثانية، تُوصَف أو تُصوَّر على أنّ لها قريناً ذكراً، قد يكون ابنها أو أخاها الصغير أو العشيق-الدمية البدائيّ، الذي يصغرها عمراً عادة، من ثمّ يتزايد نفوذه تدريجيّاً إلى أن يصبح زوجها. المرحلة الثالثة هي بمثابة تمهيد للإطاحة بها، وفيها يحكم الإله – الملك – الزوج جنباً إلى جنب الإلهة على السواء. أخيراً، ينفرد الملك بالحكم، أمّا الإلهة – الأمّ – المرأة فتُهزَم، وتُجرَّد من قوّتها، وتُحبَس في دوامة التقهقر التي ما زالت البشريّة تحاول إيقافها اليوم.

الميثولوجيا ليست ستاتيكيّة، وتقسيم هذا التطوّر إلى مراحل، يقترح تنظيماً منطقيّاً من النادر أن تتبعه السيرورة التاريخيّة، فقد ظهرت تطوّرات مختلفة بتوقيت متباين في مناطق عديدة. حتّى عندما نصّب الرجال أنفسَهم ملوكاً وأطاحوا بالآلهة والإلهات، وجدوا أنّ من مصلحتهم الاستمرار بتكريم العادات القديمة وتبجيل الإلهة الكبرى. «الإلهة عشتار أحبّتني، لذلك أصبحتُ ملكاً»، يعلن سرجون الآشوريّ في القرن الثامن قبل الميلاد.

سجلّات الشعائر الدينيّة والسياسيّة في الممالك القديمة تشهد على أنّ سلطة الملوك، مهما امتدّتْ، لم تكن مطلقة. توجّب مثلاً على ملك إيرلندا الكلتيّة، أن يؤدّي banfheis rígi أي شعائر «الزواج – الجماع» مع الملكة الكبرى التي تمثّل روح إيرلندا، قبل أن يقبل الشعب به ملكاً. ذلك الواجب كان فعليّاً وليس رمزيّاً بالنسبة لحكّام بابل، إذ ينبغي أن يجدّدوا سلطتهم المقدّسة كلّ سنة، من خلال قيام الملك الذي يجسّد الفالوس الإلهيّ، بإتمام «الزواج المقدّس» مع الكاهنة الكبرى التي تمثّل الأمّ الإلهة، في احتفال شعبيّ على منصّة أمام عامّة الناس جميعهم. إذن، الإلهة الكبرى ما زالت تحتفظ ببعض القوى، لكنّ الرجال الحاكمين أهملوا واجب تبجيلها في محنتها.

بشكل عامّ، تضافرت حلقات متداخلة من التغيّرات الاجتماعيّة العميقة

التي عصفت بالحضاراتِ الأولى، وتآمرت مع الحافز الفالوسيّ العدوانيّ المستجدّ، للإطاحة بما تبقّى من عناصر قوّة الإلهة و«حقّ الأمّ» المرافق لها. نجمت تلك التغيّرات عن تزايد عدد البشر (الناجم بدوره عن ظهور أوّل تنظيم اجتماعيّ ناجح)، وعن الحاجة للغذاء التي تُعَدّ أهمّ الدوافع البشريّة. يشرح نايجل كالدر طبيعة تلك التطوّرات، التي طردت النساء بعيداً عن مركز الحياة باتّجاه هوامشها: في جنوب مصر، قبل 18 ألف سنة خلت، ظهر أوّل دليل على زراعة الحنطة والشعير على ضفاف نهر النيل. لا بدّ أنّ الضحكات الأنثويّة قد أفزعت الطيور المائيّة، عندما جاءت النساء بكيس من البذور، و«اخترعنَ» المحاصيل. ربّما كان ذلك هدراً للطعام الجيّد، وربّما أبقته النساء سرّاً لم يخبرن به الرجال، إلّا أنّ غرز البذور في شقوق الطين الجاهزة، لا يستغرق إلّا لحظات... لا تعرف النساء إلّا القليل عن جينات النباتات، لكنّ الحبوب نمت ونضجت قبل أن تجفّف الشمس حوضَ النيل تماماً، وعندما رجعنَ مع المناجل الحجريّة، لا بدّ أنّهن شعرن بالفخر... وكأنّهنّ إلهات.

ذلك «الفخر الإلهيّ» الذي شعرت به المرأة وهي تتحكّم بالطبيعة، دام كما يقدّر كالدر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشر ألف سنة، لكن الزيادة المفاجئة في عدد البشر التي حدثت قبل ثمانية آلاف عام، أجبرت الناس على تغيير طريقة إنتاج الطعام، فحلّت «الزراعة» المكثّفة تدريجيّاً مكان «البستنة»[8] النسويّة. سابقاً، تعاملت المرأة مع الطبيعة بنوع من السحر التآزريّ وكأنّها حليفتها، أمّا الرجال فكان عليهم أن يروّضوا الطبيعة ويسيطروا عليها، كي تنتج لهم ما يريدون. الطرق الزراعيّة الجديدة خلّفت أثراً رمزيّاً مؤذياً على أدوار الأنثى والذكر، وعلاقتهما بعضهما ببعض على حدّ سواء. نقرأ في نصّ هندوسيّ عنوانه «شرائعُ مانا» يعود إلى عام 100 للميلاد تقريباً ما يلي: «في القانون، تُعتبر المرأة بمثابة الحقل، أمّا الرجل فهو

8- البستنة horticulture تتمّ على مساحة أصغر من الأرض المستصلحة للزراعة agriculture، وتعنى بنباتات مختلفة، بينما تركّز الزراعة على محاصيل الحبوب بشكل رئيسيّ، فضلاً عن الاستعانة بالحيوانات، أيّ أنّها تتمّ على نطاق منظّم وأوسع بكثير. المترجمة

البذرة». بعد أن كانت الإلهة هي المنبع الوحيد للحياة، لا تملك المرأة الآن لا البذرة ولا البويضة، بل هي مجرّد حقل سلبيّ يُخصَّب فقط عندما يُحرَث، أمّا الرجل الثمل بقوّة الفالوسيّة المركزيّة الجديدة، فهو المحراث والبذرة والبرعم وحامل البويضات معاً.

مع استبدال البستنة العاديّة تدريجيّاً باستصلاح الأراضي والزراعةِ المُنظّمة، أصبح دور الرجل أقوى وأهمّ. في مفارقة واضحة، حدث هذا الأمر أيضاً حتّى بين الجماعات التي فشلت بإنتاج ما يكفيها من الغذاء في أراضيها، إذ فرضت المواسم السيّئة أو الشحيحة الارتحالَ من مكان إلى آخر، ممّا يعني بالضرورة شنّ الحروب، لأنّ الجماعات التي تسكن مناطق خصبة ستتكاتف لصدّ الغزاة. سواء ضمن الجماعات المرتحلة الجوّالة أو في الحروب، حظي الرجل بالأفضليّة بسبب قوّته العضليّة وحريّة حركته، على عكس المرأة التي أعاقها وجود الأطفال، كما أنّ كلّ مهاراتها الثمينة السابقة في البستنة فقدتْ أهميّتها عند ارتحال القبيلة. عندها، تحرّك الرجال بدافع من الفالوسيّة الشرّيرة، لاقتناص السلطة من خلال العدوانيّة والتنظيم الحربيّ. بالإضافة إلى ذلك، تمخّضت عن صراع القوى حتماً جماعات مسيطِرة وأخرى تابعة، ورابحون وخاسرون، ممّا حدّد المراتب والعبوديّة والخضوع، وكان من المحال أن تنجو المرأة ضمن ذلك الإطار. عالقة بين عنف المحراث وعنف السيف، خسارتها باتت محتومة.

هناك نتيجة واحدة فقط لكلّ ما سبق: في الألفيّة السابقة لولادة المسيح مباشرة، الأساطير كلّها، حيثما ظهرت، وأينما وُجِدَت، رَوَت قصّة الإطاحة بالإلهة الأمّ الكبرى. أبسط نسخة لتلك الحكاية دارت في بابل الساميّة، حين شنّ الإله – الملك مردوخ حرباً على تعامات، أمّ الأشياء كلّها، ومزّقها إلى أشلاء. موتها كان شرطاً ضروريّاً، كي يخلق العالَم من أجزاء جسدها كما يجب. من المدهش أنّ هذا الموتيف ثابت، ويتكرّر في حضارات متباعدة للغاية. أسطورة الخلق عند شعب تيوي Tiwi في وسط إفريقيا، تروي ما يلي: «خلقتْ بوڤي البلادَ أوّل مرّة، والبحر كان ماء عذباً. هي من خلقتِ الأرض، والبحر، والجُزر... قال بوريتي: لا تقتل أمّنا! لكنّ إيريتي مضى وقتلها، ضربها

على رأسها. بَوْلُها جعل البحر مالحاً، وروحها صعدت إلى السماء». في تنويعات أخرى على القصّة، تُهزَم الإلهة الكبرى لكنّها تبقى حيّة. الميثولوجيا الكلتيّة تروي كيف تقوم الحكيمات الثلاث (أي الإلهة الأمّ بتجلّيها الثلاثيّ) إيمو، بانْبا، وفوْدْلا، بمجابهة أبناء مِلْ إلهِ الحرب في معركة، وكيف يستسلمن بعد جولات طاحنة ويخضعن لسلطة الغزاة. أيّاً كان الشكل الذي يأخذه، انتقال السلطة الأساسيّ من الأنثى إلى الذكر ينعكس على الأساطير كلّها: عند الإغريق، يستحوذ الإله أبولو على أقدس معابد الإلهة في دِلفي. أبناء شعب كيكويو في إفريقيا يروون كيف قام أسلافهم بهزم النساء، من خلال تشكيل عصابة منظَّمة قامت باغتصابهن كلهنّ في اليوم ذاته. بالتالي، بعد تسعة أشهر، استطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على الحوامل، وأفلتوا من العقاب. عند الأزتك، تنجب إلهةُ الأرض زُوكيكيتْزِل ابناً هو ويتْزيلُوْبوشْتلي، الذي يقتل أخته إلهة القمر ويحتلّ منصبها كحاكم للسماوات، من ثمّ يقتل بقيّة أخوته وأخواته، ويبعثر أشلاءهم في سعيه المسعور نحو السلطة.

نموذج «هزيمة الإلهة مع بقائها حيّة» واضحٌ في الموتيف المستخدَم هنا، وهو انتصار إله الشمس على إلهة القمر (القمر مؤنّث دائماً). في النسخة اليابانيّة، يشنّ الإله سوسا – نو – وو هجوماً على الإلهة آما – تِراسو، وهي الإلهة العليا في بانثيون ديانة شنتو، ثمّ يدمّر حقولها المزروعة بالأرزّ، ويلوّث معابدها المقدّسة بالبراز والجثث. تتصدّى له الإلهة، لكنّه «يسرق ضوءها»، وفي النهاية لا تستعيد إلّا نصف قوّتها السابقة، لذلك تسطع ليلاً فقط.

عندما حدث الانتقال التاريخيّ من البستنة إلى الزراعة، ترافق ذلك التطوّر التلقائيّ مع تغيّراتٍ عميقة غير عكوسة في العلاقات بين الرجال والنساء، وكذلك في طريقة التفكير: ألوهيّة الشمس «سيّدة»[9] الزمان والمكان، كانت دائماً مذكّرة. أشعة الشمس الفالوسيّة تخترق الأمَّ الأرض، وكأنّها ذكر تُخصِب أشعّته الأرضَ وتجعل البذور تنتعش. من إسبانيا إلى

9- المفروض أن تكون الجملة: ألوهيّة الشمس «سيّد» الزمان والمكان، لأنّ الشمس مذكّر في كلّ الحضارات المذكورة، على عكس اللغة العربيّة التي تؤنّثها. بالمثل، يجب أن تكون الجملة التي ترد لاحقاً في الفقرة: القمر «حاكمة» المذّ. المترجمة

الصين، طيلة حقبة ما قبل التاريخ، مثّلت الشمسُ الذكورةَ، ووعيَ الفرد لذاته، والذكاءَ، وضوءَ المعرفة الساطع، في صورة تتناقض مع القمر المؤنّث «حاكم» المدّ، والرحم، ومياه المحيط، والعتمة، واللّاوعي الأشبه بحلم. «التشميس» هو انتصارُ إله الشمس الذكر على إلهة القمر الأنثى، والذي حطّم ديانات الخصوبة الدوريّة المتمحورة حول المرأة، وساند مبدأ ذكريّاً مهيمِناً هو التاريخ الخطيّ المؤلّف من تتالي أحداث لا تتكرّر.

الإطاحة بالأنثى ليست مجرّد ثيمة ميثولوجيّة، إذ تعرّضت النساءُ الحاكماتُ في الحياة الحقيقيّة إلى الهجوم، حين حاول الذكور سلبَ سلطتهنّ بشتّى الطرق. بالنسبة إلى اللقب الملكيّ الذي ينتقل عبر خطّ وراثيّ أنثويّ، يمكن لمغامر شجاع أن يخطف العرش من خلال فرض الزواج على الملكة، أو اغتصابها. الملكة تاميريس السيثيّة قاومت «عرضاً» من هذا النوع تقدّم به سيروس العظيم ملكُ بلاد فارس في القرن السادس قبل الميلاد، بينما لم تكن النساء الأخريات محظوظات مثلها. بعد أن رفضت بِرِنِيس الثانية ملكة مصر الزواجَ بابن أخيها الصغير بطليموس ألكساندر[10] عام 80ق.م، قام باغتيالها، إلّا أنّ أهل الإسكندريّة الأوفياء لملكتهم المحبوبة ثاروا عليه وقتلوه، ممّا يوضّح لنا كم كان انتهاكه الفاضح للسلطة عنيفاً. عموماً، نجح الملوك بالاحتفاظ بالسلطة التي اغتصبوها، كما انتشر «زنى المحارم» الملكيّ خلال تلك الحقبة التي انتهك فيها الذكر العدوانيّ امتيازاتِ الأنثى، لأنّ الملك الذي لا يرغب بالتخلّي عن العرش بعد وفاة زوجته الملكة، كان يتزوّج وريثتها الشرعيّة، أي ابنتها. كخيار بديل، يمكنه أن يزوّج أحد أبنائه للملكة الجديدة، وعندها يضرب عصفورين بحجر: يبقى كرسيّ الحُكم تحت سيطرة الذكور، ويندمج أولئك الذكور تدريجيّاً في نسيج الوراثة، إلى أن يصبحوا هم، لا الإناث، ورثة شرعيّين.

10- يرد في المراجع أنّها حكمت مصر باسم كليوباترا برنيس، أو برنيس الثالثة (لا الثانية)، بعد وفاة زوجها طيلة عام كامل تقريباً، من ثمّ أجبرت على الزواج بابن زوجها (أو ابنها الحقيقيّ في مراجع أخرى) وليس ابن أخيها، وهو بطليموس ألكساندر الذي اغتالها بعد 19 يوماً من الزواج لا غير. المترجمة

في تلك الظروف، سرعان ما تحوّلتِ الحاكمات إلى بيادق في لعبة السلطة التي يمارسها الذكر، الذي يعترف بأهميّتهنّ فقط ضمن ما تمليه حاجته لامتلاكهنّ، وفرضِ سلطته عليهنّ. غالا بلاسيدا، ابنة الإمبراطور الرومانيّ ثيوديسيوس الأكبر، أُسِرَت من قبل آلاريك ملك القوط عندما اجتاح روما، من ثمّ تزوّجها أخوه بعد وفاته. عند اغتيال الأخ، سُلِّمَت غالا مجدّداً إلى الرومان، وأُجْبِرتْ على الزواج من الجنرال المنتصر كونْستانْتيوس، الذي أطلق عليها لقب «أوغستا» Augusta، وحكم هو باسم أغسطس Augustus بوصفه شريكها الإمبراطور. عندما مات، نفاها أخوه إلى القسطنطينيّة واستولى على العرش. لم تحظَ غالا بلاسيدا بالسلام أو بالاستقرار، إلّا بعد أن أصبح ابنها إمبراطوراً عام 425م.

يقدّم التاريخ لنا أمثلة لا حصر لها من جميع البلدان، عن نساء السلالة الملكيّة اللواتي يستغلهنّ الذكور كبيادق في لعبة القوى بعد أن يصبحن ملكات أو وريثات للعرش، من ثمّ يتخلّصون منهنّ. إحدى القصص الكلاسيكيّة، هي قصّة آماسونثا ملكة القوط، التي أصبحت وصيّةً على ابنها القاصر عندما ورث العرش بعد وفاة أبيها الملك ثيودوريك عام 526م، لكنّها أُجبِرَت على الزواج بابن عمّها عندما توفّي ابنها، وسرعان ما أعدمها المغتصِبُ بعد أن رسّخ سلطتَه.

مَن تجري في عروقها دماء ملكيّة، ليست الوحيدة التي عانت من تعطّش الرجال للهيمنة والتدمير والتحقير. مع ظهور التدوين، بدأت الحلقة الأولى في سلسلة الهجمات المنظّمة على طبيعة المرأة، وحقّها بأطفالها، بل وحقّها بالوجود الإنسانيّ الكامل. توسّعت ثنائيّة الشمس / القمر، لتشمل نظاماً كونيّاً بأكمله من الأضداد المتقابلة: أيّاً كانت الصفة التي يتحلّى بها الرجل، المرأة لا تملكها. تدريجيّاً، ومع فرض مبدأ التضادّ الجندريّ ذاك، تطوّر تعريف الرجل على أنّه من يتحكّم بكلّ المهارات والمقدرات البشريّة، أمّا المرأة فهي النقيض الذي لم يتطوّر كفاية ولم ينضج. في القرن الرابع قبل الميلاد، تلخيص أرسطو للفروقات الجنسيّة في الطبيعة البشريّة، لا ينقل سوى ما كان الناس في عصره –رجالاً ونساء– يعتبرونه حقيقة واقعة:

«الرجل نشيط، مليء بالحركة، مبدع في السياسة وفي العمل وفي الثقافة. الذكر يُشكِّل ويُقَولِب المجتمعَ والعالَم. على النقيض منه، المرأة سلبيّة، وتبقى في المنزل لأنّ تلك هي طبيعتها. إنّها مادّة خامّ، تنتظر أن يعطيها المبدأ الذكريّ الفعّال شكلَها. بلا شكّ، العناصر النشيطة هي دائماً الأرفع على أيّ مقياس، والأكثر ألوهيّة. بالتالي، الذكر هو من يلعب الدور الأعظم في عمليّة التكاثر، والمرأة هي مجرّد حاضنة سلبيّة لبذرته... مني الرجل يطهو الدم الطمثيّ، ويشكّله، ويخلق منه كائناً بشريّاً جديداً».

انهال تحقير المرأة كالطوفان دون رادع، بعد أن أخذت تلك الأفكار شكلها النهائيّ. قادة الجيش، السياسيّون، المؤرّخون أمثال زينوفون وكاتو وبلوتارخ، كلّهم انتابهم القلق حول «مشكلة المرأة»:

– خلقت الآلهة المرأةَ للقيام بالأعمال داخل المنزل، والرجلَ للقيام بكلّ ما عداها. وضعت الآلهة المرأةَ في الداخل، لأنّ قدرتها على تحمّل البرد والحرّ والحروب أقلّ. بالنسبة للمرأة، الإخلاص يعني بقاءها في المنزل، أمّا الخيانة فهي مغادرته سعياً وراء ملذّاتها. بالنسبة للرجل، من العار أن يبقى حبيساً في المنزل، وألّا يشغل نفسه بأمور العالَم الخارجيّ.

– يجب أن تُحْكِمَ «شدّ اللجام» على المرأة. المرأة تريد الحريّةَ المطلقة، أو الإذنَ المطلق بفعل ما تشاء... إن سمحتَ للنساء بتحقيق المساواة التامّة مع الرجل، هل تظنّ أنّ الحياة معهنّ ستصبح أسهل؟! كلّا، على الإطلاق! ما إن تحصل المرأة على المساواة، حتى تصبح سيّدتك.

– بكلّ تأكيد، لن أصف بـ«الحبّ» تلك المشاعر التي يكنّها المرء للبنات والنساء، تماماً مثلما لن نستخدمها لنقول إنّ الذباب يحبّ الحليب، أو إنّ النحل يحبّ العسل، أو إنّ مربّي الماشية يحبّون العجول والدجاج الذي يقومون بتسمينه في الظلام.

كما يذكّرنا بلوتارخ في المقطع الأخير، يوجد حبّ واحد صادق من وجهة نظر الإغريقيّين، وهو الحبّ المكرّس للصِبية. في الواقع، المثلية الجنسيّة في اليونان القديمة وظّفتْ مؤسّسةَ الفالوس المهيمن بذكاء، وأنكرتْ أيّ دور اجتماعيّ أو عاطفيّ للنساء يتعدّى إنجاب الأطفال. برأي الرجل الجديد

الذي شبّ ضمن إطار الوعي والتفكير من خلال الفالوس، لا ينبغي أن يحظى مخلوقٌ كالمرأة إلّا بحقّ أصغريّ بـ «أطفال الذكر». في «حُكم أبولو» الشهير في ذروة مسرحيّة إيومِندس Eumenides، يعلن إسخيليوس على لسان إله الشمس: «المرأة ليست والدة مَن تسمّيه طفلها، بل مجرّد مرضعة للبذرة التي بُذِرَت حديثاً كي تنمو. الوالد، هو ذاك الذي زرعها».

كما يوضّح لنا هذا الاتّفاق البسيط الوحشيّ المفروض من جانب واحد، قلبَ التفكيرُ الفالوسيُّ معتقداتِ الخلق البدائيّة التي دامت آلاف السنين رأساً على عقب. المرأة الآن لا تجسّد الطبيعة، ولا تخلق الرجلَ، بل الرجل هو الذي يخلقها من أجله، وكما غلبت الشمسُ القمرَ، هكذا يهزم الملكُ الملكةَ. لقد اغتصب الفالوس وظيفةَ الرحم كمصدرٍ للحياة، وكرمزٍ لها. مع هذه الشريعة الجديدة، تلاشت حقوق المرأة والطقوس الخاصّة بها في كلّ البلدان، من الصين وحتّى البيرو، وانحطّ مستواها إلى ما يشبه الخادمة. المرأة الآن نوعٌ من الأملاك، أمّا أملاكها الحقيقيّة فقد سُرِقَتْ. الأنظمة الفكريّة والاجتماعيّة الجديدة صادرت حريّة المرأة، واستقلاليّتها الفرديّة، وسلطتها، بل وحتّى حقّها الجوهريّ بالتحكّم بجسدها. الآن، أصبحت النساء مِلكاً للرجال، أو بالأحرى، لرجل واحد فقط، ففي لحظة مصيريّة لكن لا يمكن تحديدها بدقّة، وجدت المرأة نفسها خاضعة لديكتاتوريّة الاحتكار الجنسيّ من قبل الرجل، الذي أدرك للمرّة الأولى أنّ عملية الإخصاب لا تحتاج سوى ذكر واحد، وبالتالي لم يستغرق وقتاً طويلاً الانتقال إلى فكرة «رجل واحد فقط». رغم ذلك، تبيح الضرورة له أن يتخلّى مؤقّتاً عن استحواذه الحصريّ على المرأة، وعن احتكار خدماتها الجنسيّة. في قبائل الأسكيمو على سبيل المثال، تتفشّى «إعارة الزوجة»، وهي من وجهة نظر الزوج «استثمار حكيم للمستقبل، لأنّ من يعيرُ يعرف أنّه سيستعير في نهاية المطاف، عندما يحتاج امرأة تجعل كوخه الجليديّ مريحاً، وتفرش له الجلود الجافّة، وتطبخ الطرائد التي يجلبها»، وهذا ليس كلّ شيء! تتّضح أبعاد واجبات الزوجة المعارة، من اللقب الذي يطلقه أطفال الأسكيمو على أيّ رجل يعقد تلك الصفقة مع والدهم: «ذاك الذي ينكح أمّنا».

باعتبارها نوعاً من الأملاك، وُضِعَتِ المرأة في المجتمعات الباكرة تحت تصرّف الرجال، وانتهى دورها كرأس المال الرئيس بالنسبة للقبائل المتحاربة، وكمصدر الحياة المقدّس، أو كأمل المستقبل. لذلك، ما من شيء ردع الرجل عن استعمال العنف ضدّها في صراعه من أجل السلطة. في القرن الثاني الميلاديّ، كتبَ الإغريقيُّ بوسيديبوس ما يلي عن الصين القديمة: «حتّى الرجل الفقير يربّي الصبيّ، وحتّى الرجل الغنيّ يتخلّص من البنت». في الجهة الأخرى من العالَم، روى زعيم قبائل تييرا دِل فويغو Tierra del Fuego لداروين أثناء رحلته بسفينة «بيغل»، أنّهم يقومون أثناء المجاعات بقتل النساء الهرمات وافتراسهنّ، لكن من المستحيل أن يقوموا بالمثل مع الكلاب. من السجلّات والملاحم والحوليّات الكثيرة، ومن الأدلّة الأنثروبولوجيّة والأركيولوجيّة، نكتشف أمثلة لا تعدّ ولا تحصى عن عدوانيّة جنسيّة مستعرة، بلغت حدوداً متطرّفة في أغلب الأحيان: تحوّلت النساء إلى سلعة للمقايضة، اسْتُعبِدنَ، خُطِفن، تمّ بيعهنّ إلى المباغي، ذُبِحنَ عند موت سيّدهن أو زوجهن، وتعرّضن للاستغلال عمداً بكلّ الطرق الممكنة. في مثال حيّ عن التعميم الفجّ السابق، نقرأ قصّة مريرة من مستوطنة للأنغلوساكسونيّين في بريطانيا الوثنيّة. هناك، تمّ العثور على هيكلين عظميّين لامرأتين عاشتا في الحقبة ما قبل المسيحيّة، ودُفِنتا معاً في قبر واحد. الكبرى، وهي في أواخر العشرينيّات من عمرها، دُفِنَت حيّة وعارية، ويبدو من وضع الهيكل العظميّ أنّها حاولت أن تنهض عندما أهالوا التراب عليها. الصغرى، وهي فتاة في حوالي السادسة عشرة، تُبدي أذيّات قديمة صريحة «نموذجيّة لتلك التي تنجم عن الاغتصاب الوحشيّ، الذي قاومته الضحيّة بقوّة على ما يبدو»، بما في ذلك فجوة على الوجه الخلفيّ لعظام ركبتها، نتجت عن قيام المعتدي بطعنها بخنجر لإجبارها على فتح ساقيها. لقد عاشت ستّة أشهر بعد الجريمة، وواقع أنّها دُفِنَت عارية، موثقة اليدين والقدمين، وهي ما تزال غالباً على قيد الحياة كالمرأة الثانية المدفونة معها، يقترح أنّ موتها كان نتيجة اكتشاف «عدم عفّتها» عند ظهور علامات الحمل، وفقاً لاستنتاج الأركيولوجيّين:

«لا يمكننا أن نخمّن ما هي الجريمة التي استوجبت عقاب المرأة الأكبر سنّاً، أمّا الصغرى... عارية، موثقة، جريحة، وحيّة على الأغلب، وعواء الضباع البشريّة يدوّي في أذنيها... لا بدّ أنّ جواز سفرها إلى الخلاص الرحيم، كان وحل وتراب هذا الخندق الجيريّ».

بعد إسقاط صفة القداسة عنها، لم تعد المرأة ضروريّة. عند الأزتك مثلاً، أحد طقوس الموت يستهزئ بالسلطة التي حظيت بها النساء سابقاً، ففي شهر كانون الأوّل من كلّ عام، تلبس امرأة زيَّ الإلهة العجوز إيلامتِكوتلي -إلهة الأرض والذُّرَة- من ثمّ يُقطَع رأسها، ويُقدّم لكاهن يرتدي بدوره زيّ الإلهة وقناعها، ويقود رقصة طقوسيّة في احتفال ينضمّ إليه كهنة ذكور آخرون بالزيّ نفسه. هناك طقوس عديدة مشابهة في ثقافة الأزتك، في شهر حزيران يُضحّى سنوياً بامرأة أخرى تمثّل الإلهة سيلونِن إلهة الذرة اليافعة، وفي آب، يُقطَع رأس ثالثة تمثّل تِتوإنان أمّ الآلهة، ويُسلَخ جلدها كي يلبسه الكاهن الذي يلعب دور الإلهة في الاحتفال المرافق. موتيف «ضرب الأمّ حتّى الموت»، يتّضح هنا بجلاء في تفاصيل هذه العمليّة الوحشيّة: يُسلَخ جلد أحد فخذي الضحيّة بشكل منفصل، ويحوّل إلى قناع يلبسه الكاهن الذي يتقمّص دور «ابن» الأمّ الميتة!

سادت تقاليد مماثلة في كلّ أرجاء العالم. في الصين مثلاً خلال حقبة ما قبل الإقطاع، تُختار امرأة شابّة كلّ عام كي تصبح عروس «النبيل الأصفر»، وبعد سنة من التسمين والتجميل، تُرمى لتغرق في «النهر الأصفر» هوانغ -هِي Huang He. من الأضاحي الشعائريّة، إلى طقس سوتي Suttee[11] الإجباريّ الذي تُحرَق فيه العرائس- الطفلات غير المرغوب بهنّ في الهند، تفشّت إبادة النساء كالطاعون عبر الصين، الهند، أوروبا، والشرق الأوسط وصولاً إلى أبعد مستوطنة بشريّة معروفة، أي إلى أيّ مكان يسيطر عليه الفالوس.

11- يُسمّى بالسنسكريتيّة Sati، ومعنى المفردة هو «المرأة الصالحة» أو «الزوجة العفيفة». كان طقساً تمارسه بعض الطوائف البراهميّة والسلالات الملكيّة في الهند، تقوم فيه أرملة الميت بإحراق نفسها إمّا جنباً إلى جنب جثّة زوجها على المذبح نفسه، أو في طقس منفصل بعد موته بقليل. المترجمة

تطوّرت المجتمعات تدريجياً، واستبدلَتْ سُلطةَ الذكر المرتكزة على القوّة الوحشية، بسلطة القانون. في روما، ربّ العائلة الذي يُلقّب بـ Pater familias أي «والدُ العائلة» حرفيّاً، كان يملك حقَّ تقرير «حياة أو موت» أيٍّ من أفراد عائلته، كما يُعتبَر الشخصَ الوحيد الكامل من تلك العائلة في عيني القانون. في اليونان، مَنْعُ النساء من مغادرة منازلهنّ ليلاً كان بين أوائل القوانين التي سنّها سولون الأثينيّ عندما أصبح مشرّعاً عام 594ق.م، ممّا أدّى إلى احتجازهنّ أكثر فأكثر في البيت خلال النهار. في مصر القديمة، لم تتحوّل المرأة إلى جزء من أملاك الرجال فحسب، بل أصبحت جزءاً من «أبيها» أو «زوجها» وفق القانون، وتتلقّى العقاب ذاته الذي يحلّ بهما إن ارتكبا جرماً. سجّل المؤرّخ الإغريقيّ ديودورس (60–30ق.م) مرتعباً في كتابه «تاريخ العالَم»، كيف تضخّمت أعداد أولئك النساء البريئات بين صفوف العبيد البائسين، الذين بنوا الأهرامات دون أجر: «مربوطات بالسلاسل، يعملن باستمرار دون أن يُسمح لهنّ بأخذ استراحة، لا ليلاً ولا نهاراً. لا خرقة تستر عريهنّ، ولا ضعفُ الشيخوخة أو مرضُ النساء يعفيهنّ من السخرة، بل يتمّ سوقهنّ إلى العمل، ويُجلدن بالسياط حتّى الموت».

بأيّ حال، لم تعش كلّ النساء كضحايا، ولم يمتن جميعهنّ كعبدات. من المجحف تاريخيّاً، ومن الخطأ، أن يُقدَّم جنس النساء بأسره على أنّه سلبيّ ومهزوم أمام المضطهِد. حتّى عندما كان أرسطو يحاور طلّابه بحماس حول الدونيّة المتأصّلة في النساء، نجحت امرأة تُدعى أغنوديس في القرن الرابع قبل الميلاد باختراق عالَم التعليم المقتصر على الرجال. بعد أن ارتادت دروس الطبّ، مارست أغنوديس مهنة طبيبة نسائيّة متنكّرة كرجل، وحقّقت نجاحاً باهراً لدرجة أنّ الأطبّاء الآخرين وقد غاروا من شهرتها، اتّهموها بإغواء المريضات. اضطرّت أغنوديس أن تكشف عن جنسها في المحكمة كي تبرّئ نفسها، فواجهت تهماً جديدة تتعلّق بممارسة مهنة مخصّصة للذكور حصراً وفق القانون. بعد أن انتصرت في المحكمة مرّة أخرى، عاشت لتصبح أوّل طبيبة نسائيّة أنثى في العالم كلّه.

كما تقترح قصّة أغنوديس، لم تخضع المرأة خضوعاً مطلقاً حتّى في

أقسى الظروف. كجنس، عانت النساء كثيراً من الإذلال، لكن كلّما ضاعفت الفالوقراطيّة جهودها، تولّدتْ مقاومة أغنى وأقوى، إذ لا يتطلّب الأمر الكثير من الذكاء بالنسبة للمرأة، لقلب الأنظمة التي اخترعها الرجال. نظام تابو الطمث المنتشر حول العالَم مثلاً، والذي تُعزَل بموجبه الحائض عن المجتمع كي لا تلوّث الرجال أو الطعام، وكي لا تلطّخ المرايا بأنفاسها كما ادّعى أرسطو، قدّم في حقيقة الأمر فرصة مثاليّة عظمى للنساء لتطوير شبكة سلطة بديلة واسعة التأثير، سرّية وغير مرئيّة. كلّ ما يدور في الكوخ الذي تُعزَل فيه الحائض، أو في الأقسام المخصّصة للنساء، سواء عندما يجتمعن هناك لجلب الطعام أو الأخبار أو الرسائل لأختهنّ الحائض، سيبقى خارج نطاق الذكور، لكنّه يؤثّر في حياتهم بشكل ما أو بآخر.

فضلاً عن ذلك، عبّرت المرأة عن رفضها لسلطة الذكر بشكل صريح، بل وعنيف أحياناً، كما اكتشف أعضاء مجلس الشيوخ في روما بأنفسهم عام 215ق.م، حين حاولوا تقليص التضخّم النقديّ من خلال سنّ قانون يمنع النساء من امتلاك أكثر من نصف أونصة من الذهب، أو ارتداء الملابس الملوّنة، أو ركوب عربة يجرّها حصانان. عندما ذاع الخبر، اقتحمت النسوة الثائرات مبنى الكابيتول، وتظاهرن غاضبات في كلّ شوارع المدينة. لا توبيخ السلطات، ولا تهديدات أزواجهنّ نجحت بإعادتهنّ إلى بيوتهنّ صامتات، ورغم المعارضة الشرسة من كاتو[12] عدوّ النسويّة السيئ الصيت، تمّ إلغاء القانون، وكان ذلك أحد أوّل الانتصارات التي حقّقتها النساء بالتضامن بعضهنّ مع بعض.

في لعبة الهيمنة والخضوع، لم تكن المرأة هي الطرف الخاسر دائماً. حوليّات المستكشفين في القرن التاسع عشر غنيّة بحكايات عن قبائل إفريقيّة بدائيّة، جابهت نساؤها التحدّياتِ التي فرضها الفالوس، وبقيت المرأة حاكمة. معظم تلك القبائل انقرضت اليوم، مثل قبيلة بالوندا التي

12- ماركوس بورسيوس كاتو (243-149ق.م) الملقب بـ«كاتو الأكبر»، وهو رجل دولة رومانيّ تميّز بسياسته المحافظة المعادية للبذخ، وهو أحد الذين سنّوا القانون المذكور. المترجمة

يخضع الزوج فيها خضوعاً مطلقاً لزوجته، حسب ما أورده الأنثروبولوجيّ فرانك لِفِنْغستون، ولا يجرؤ على القيام بأيّ فعل دون استشارتها. قبيلة مَندوغوما Munduguma، هي قبيلة من آكلي لحوم البشر ما تزال موجودة اليوم، وتعيش عند ضفاف نهر يوات Yuat في بابوا – غينيا الجديدة. نساء هذه القبيلة شرسات كأزواجهنّ صيّادي الرؤوس على السواء، ويمقتن إنجابَ الأطفال تحديداً. ذلك التمرّد القديم قدم التاريخ على دور الزوجة التقليديّ، واضح أيضاً في مَثَل من أمثال قبيلة مانوس التي تقطن المنطقة ذاتها: «الجماع مقرفٌ جدّاً، لذلك، الزوج الوحيد الذي ستتحمّلينه هو ذاك الذي لا تكادين تشعرين بأنّه يخترقك».

ممّا سبق، نكتشف أنّ المرأة لم تخضع بسهولة للدور الذي أصرّ أسياد الفالوقراطيّة في كلّ مكان على أنّه «الدور الطبيعيّ» الذي يلائمها، أي مجرّد تابعة ثانويّة تقدّم المساندة للذكر. لقد استنبطت طرقاً عديدة متنوّعة عرّت من خلالها سلطة الرجال، ودمّرتها، وأصرّت على حقّها بالاستقلاليّة الذاتيّة والتحكّم بنفسها. من ناحية أخرى، الأنظمة السياسيّة الجديدة التي ترسّخ الهيمنة الذكوريّة، لم تكن موحّدة ولا متجانسة، وفيها العديد من الثغرات التي يمكن لأيّ امرأة طموح أن تتسلّل منها. بالإضافة إلى ذلك، قد يحسب المُهيمِن الفالوسيّ نفسه مَلِكاً على الفضاء المطلق، أمّا في الحياة العاديّة، كلّا وأبداً! لا مفرّ من أن يتزوّج الإناث، وأن ينجب الإناث. بأخذ كلّ تلك العوامل مجتمعة، نجد أنّها وفّرت قاعدة للمرأة كي تتابع حياتها كما يفعل الرجل.

يمكن أن تربح المرأة مقعداً ضمن النخبة الحاكمة

الطريق الكلاسيكيّ إلى السلطة، مُستَمَدٌّ هنا من علاقة المرأة بالرجل الحاكم، أي أنّه صورة مرآتيّة عن الوضع السابق في المجتمعات الماترياركيّة. أحد الأمثلة المشهورة، هو مهنة «الجوليات» المبهرة، وهنّ سلالة من النساء القويّات مؤلّفة من أختين وابنتين، حكمت روما خلال القرن الثالث الميلاديّ. الأخت الكبرى، جوليا دومنا، اعتلت عرش السلطة السياسيّة في

روما بزواجها من الإمبراطور سِفِروس. بعد وفاتها عام 217م، حلّت محلّها أختها الصغرى جوليا مايسا، التي دبّرت تزويج ابنتيها -كلاهما تحملان الاسم ذاته: جوليا- بدهاء، فأنجبتا الإمبراطورَين اللّاحقَين، ومن خلالهما استمرّت الأمّ وابنتاها بالحكم، وكان لهنّ تأثير قويّ على سياسة روما حتّى عام 235م. ربّة أخرى من ربّات هذه اللعبة، هي الإمبراطورة البيزنطيّة بَلشِريا (399-453م)، التي قامت بدور الوصيّة على أخيها الإمبراطور الأبله منذ أن كانت في الخامسة عشرة من عمرها. تصدّت بَلشِريا لاحقاً لمحاولات زوجة أخيها بالسيطرة على العرش، وحكمت كوريثة شرعيّة بعد وفاته، بمساندة زوجها الجنرال القويّ مارسيان الذي كان زوجاً صوريّاً لا غير، إذ لم تسمح له قط بانتهاك قَسَمها بالعفّة المطلقة، فطُوِّبت قديسة بعد موتها.

برعت المرأة في السياسة

كما توضّح قصّة بَلشِريا، تعلّمت المرأة باكراً كيف تدير آلة السلطة، وكيف تناور ببراعة ضمن الأطر التي قيّدتْ أفعالها، دون أن تمنعها مع ذلك من تحقيق أهدافها الأهمّ. تيودورا الجليلة، التي كانت ذات يوم مدرّبة دببة، وراقصة في سيرك، ومحظيّة، عاشت فانتازيا «سندريلا» حقيقيّة بزواجها من الأمير جوستينيان، ووريثِ عرش الإمبراطوريّة البيزنطيّة عام 525 للميلاد. كانت تيودورا تطرح مقترحاتها على مجلس الدولة الرومانيّ، وهي «تتقدّم باعتذارها دوماً لأنّها سمحت لنفسها بالكلام، نظراً لكونها امرأة»، لكن من خلف هذه الواجهة، شقّت طريقاً لإقرار تشريعات أعطت النساء الحقّ بالمِلكيّة والوراثة والطلاق، كما اشترت بمالها الخاصّ حريّة الفتيات اللواتي تمّ بيعهنّ للمباغي، وحظرت تواجد القوّادين وأصحاب دور الدعارة في روما.

على النقيض من تيودورا، التي سخّرت سلطتها الخفيّة بإيثار لسنّ التشريعات، لجأت نساء أخريات إلى السياسة الواقعيّة realpolitik[13]

13- مذهب سياسيّ يقوم على تقدير الظروف والعوامل الراهنة، واتّباع المصلحة، عوضاً عن إيديولوجيّة فكريّة أو أخلاقيّة ثابتة. المترجمة

بأبشع صورها. الإمبراطورتان الرومانيّتان دروسيلا ليڤيا (55ق.م-29م)، وڤاليريا مِساليِنا (22-48م)، انخرطتا كغيرهما في مؤامرات عنيفة لا تنتهي، بما فيها تسميم الخصوم الذين أعاقوا خططهما. السمّ كان أيضاً سلاحاً في جعبة الملكة الأسطوريّة الجميلة زنوبيا، تلك الملكة السيئة المحاربة التي دحرت الجيش الرومانيّ، وانطلقت لاحتلال مصر وآسيا الصغرى. عندما هزمها الرومان أخيراً، نجت من الموت بإغواء سناتور رومانيّ تزوّجته فيما بعد، وعاشت برفاهيّة حتّى وفاتها عام 274م. «ذات اللحية الزرقاء»[14] دون منازع في لعبة القوى الملكيّة، هي فرِديغونْد، ملكة الفرانك التي ماتت عام 597م. بدأت حياتها كخادمة في البلاط الملكيّ، ثمّ أصبحت خليلة للملك، وحرّضته على طلاق إحدى زوجتيه وقطع رأس الأخرى. الملكة برَنْهِلد، أختُ الملكة القتيلة، أصبحت بالتالي عدوّةَ فرِديغونْد اللدود، التي حاكت مؤامرة لاغتيال زوج برَنْهِلد، وزجّت المملكتين في حرب دامت أربعين عاماً. ضحايا فرِديغونْد اللّاحقون كانوا أبناء زوجها جميعهم، وزوجها الملك، وأخيراً عدوّتها الأبديّة الملكة برَنْهِلد. أذلّتها فرِديغونْد أمام العامّة، ثمّ عذّبتها تعذيباً وحشيّاً أمام الجيش طيلة ثلاثة أيام، ولم تنته تسليتها إلّا بموت ضحيّتها. في نهاية المطاف، ماتت فرِديغونْد بسلام في سريرها.

الإنجازات الشخصيّة كانت ممكنة دائماً

إنجازات الكثير من النساء الموهوبات اللواتي حفظ التاريخ أسماءهنّ، هي شاهد حيٌّ على أنّ النساء باعتبارهنّ الأغلبيّة في الجنس البشريّ، امتلكن دائماً أكثر من نصف الإبداع والذكاء الجمعيّ، بدءاً من سافو Sappho في القرن السادس قبل الميلاد، التي كانت أوّل من وظّفت الشِعر للكتابة عن التجربة الذاتيّة، وسبر أغوار الأنثى وما تمرّ به، وصولاً إلى الصينيّة بان تشاو Pan Chao (أو Pan Zhao) المتعدّدة المواهب، التي برزت في نهاية القرن الأوّل للميلاد تقريباً، كمؤرّخة وشاعرة وفلكيّة وعالمة رياضيّات ومدرِّسة.

14- الإشارة إلى بطل القصّة الفولكلوريّة الفرنسيّة «ذو اللحية الزرقاء»، الذي يتزوّج نساء عديدات يقتلهنّ جميعاً. المترجمة

مدى إبداع النساء مدهش، وسنصادف الكثيرات في كلّ حقل من حقول المعرفة، أكثر بكثير من أن يتسع المجال لهنّ هنا، عملن على تطوير المعارف، وأسهمن بتحقيق الرخاء لمجتمعاتهنّ من خلال إنجازاتهنّ. فابيولا الرومانيّة مثلاً أسّست مشفى عملت فيه طبيبة وممرضة معاً، وأصبحت أوّل طبيبة جرّاحة في العالَم حتّى وفاتها عام 399م. فضلاً عن ذلك، برزت النساء في مختلف المجالات العلميّة، لا كسلطات مرجعيّة في اختصاصهنّ فحسب، بل كأمّهاتٍ مؤسّساتٍ للتقاليد العلميّة العريقة. كليوباترا الملقّبة بخيمائيّة الإسكندريّة[15]، كانت عالمة كيمياء، وأستاذة، وألّفت كتاباً كلاسيكيّاً عنوانه Chrysopeia أي «صناعة الذهب»، ظلّ متداولاً في أوروبا حتّى العصور الوسطى. الفنّانة الصينيّة وي - فو - جِن، التي كانت معاصرة لكليوباترا الخيميائيّة، ما زالت تُبجّل اليوم كأعظم خطّاطة في الصين، وكمؤسّسة مدرسة الفنّ الكاليغرافيّ الصينيّ.

بلا شكّ، لم يكن مقدّراً لكل النساء أن يتركن بصمتهنّ على التاريخ، لكنّ هذا لا يعني بالضرورة أنّنا خسرناهنّ إلى الأبد في الماضي الأخرس. القصص الفولكلوريّة في كلّ الثقافات، حفظت ذكرى بطلات من الحياة اليوميّة روّضن زوجاً غبيّاً أو متوحّشاً، أو تغلّبن بذكائهنّ على السيّد الجشع، وخطّطن بدهاء لمستقبل أطفالهنّ، وعشن حياة مديدة واحتفلن بأحفادهنّ.

أحياناً، نشعر أنّ تلك القصص الفولكلوريّة تمسّنا شخصيّاً على نحو غريب، كقصة صينيّة تعود لبدايات سلالة تانغ (618-907م)، تقدّم لنا بطلة صغيرة متلهّفة للحصول على التعليم، وهي تستعدّ ليومها الأوّل في المدرسة متنكّرة كصبيّ، و«سعيدة كطير هرب من قفصه». هناك قصّة صينيّة أخرى أقدم وأشدّ مرارة كُتبت حوالي عام 200ق.م، عنوانها «الباحثة عن زوجها عند سور الصين العظيم»، تروي قصّة زوجة نجحت بقطع رحلة طويلة شاقّة للبحث عن زوجها، ونجت من كلّ المخاطر والكوارث، لكن يا حسرة!

15- عاشت في القرن الثالث الميلاديّ، وهي بالطبع ليست كليوباترا الشهيرة آخر ملكات البطالمة. اشتغلت على الخيمياء التطبيقيّة، وعُدّت واحدة من أربع خيميائيّات في عصرها قادرات على تحضير حجر الفلاسفة (تحويل المعادن إلى ذهب). المترجمة

سبق للزوج أن توفّي قبل وصولها بوقت طويل. إذن، كان هناك حبّ متبادل بين النساء والرجال. صحيح أنّ أسياد الخلق الجدد انشغلوا بالتشديد على أنّ «الرجل هو مجرّد منظومة دعمٍ تحافظ على حياة قضيبه»، لكنّ الرجل لم يكن فالوساً في عيني زوجته، بل تشكّلت بينهما في حميميّة فراش الزوجيّة الغامضة روابطُ تحدّتِ الزمنَ، كما نقرأ في هذا الرثاء المسهب الحزين، المنقوش على شاهدة قبرٍ نصبها زوج رومانيّ مفجوع، وما زال حبّه لزوجته المتوفّاة واضحاً بعد ألفي عام:

«كنّا محظوظَين بزواج متناغم دام واحداً وأربعين عاماً... لماذا أعدّد صفاتك كزوجة، وطيبتك، وطاعتكِ، ورقّتكِ، ولطفكِ... لماذا أتحدّث عن حبّك وإخلاصك لأقاربك، وقد اعتنيتِ بأمّي كما لو كانت فرداً من أفراد عائلتك؟ عندما كنتُ فارّاً، بعتِ مجوهراتكِ كي تعيليني... فيما بعد، خدعتِ أعداءنا بذكاء، وزوّدتني بكلّ ما أحتاجه... عندما هجمت عصابة من الرجال بقيادة ميلو علينا، وحاولوا أن يقتحموا منزلنا ويسرقوه، تصدّيتِ لهم بنجاح ودافعتِ عن بيتنا».

قارنوا الرثاء السابق، مع الخطاب المعادي للنساء الذي اعتنقه معظم المعلّقين الرومان، وسيصعب عليكم التصديق أنّ موضوع النقاش في الحالتين هو الشخص ذاته: المرأة! من الواضح أنّ الصورة المُصغَّرة لما تقوم به النساء الحقيقيّات، تتناقض مع الصورة المُكبَّرة التي يصرّ الرجال أنّها «يجب أن تحدث»، وأنّها «ما يحدث» حقّاً.

تزايد الخطر الذي يتهدّد النساء، مع اكتساح عبادة الفالوس للعالم بأسره حوالي 1500ق.م. امتعاض الرجال المتراكم من النساء، وصراعهم من أجل الأهميّة والاعتراف بدور الذكر في عمليّة الإنجاب، هي عوامل أغرتهم بشنّ هجوم على امتيازات النساء السابقة. خسرت الإلهة الأمّ مكانتها المقدّسة وسلطتها، وترافق ذلك مع تحقير عنيف للملكات والكاهنات والنساء العاديّات في كلّ مرحلة من مراحل حياتهنّ، منذ الولادة وحتّى الموت، يتلخّص بخسارة «حقّ الأمّ». بحلول هذه المرحلة، انفصل الفالوس عن طقوس عبادة الإلهة الأمّ، وتحوّل إلى موضوع مقدّس يُبَجّل لذاته، ومن ثمّ

إلى محورٍ لكلّ القوى الخلّاقة محتلّاً مكانة الرحم، وأخيراً إلى رمز وأداة لفرض الهيمنة الذكوريّة على النساء والأطفال والأمّ - الأرض والرجال الآخرين. عندما كانت الأنثى هي منبع الحياة بأسرها، كان كلّ الخلق مُتَّحِدين، أمّا عندما انفصلت العناصر بعضها عن بعض، أصبح الرجل هو الروح المحرِّكة أمّا الأنثى فمجرّد مادّة. بهذا التفسير الإلهيّ للذكورة، واجه رجال ما بين النهرين مخاوفهم المتمثّلة بأن يصبحوا عبيداً للإلهة - المرأة، وتغلّبوا عليها من خلال تدمير ألوهيّتها واستعبادِ النساء.

قصّة الفيلسوفة وعالمة الرياضيّات الإغريقيّة هيباتيا، تلخّص عواقب كلّ ما سبق. تدرّبت هيباتيا منذ ولادتها عام 370م على المنطق وطرح الأسئلة والتفكير، وأصبحت العالمة الأبرز في الإسكندريّة حيث درّسَتِ الفلسفةَ، الهندسة، الفلك، وعلم الجبر في جامعة المدينة. من المعروف أنّها ألّفت أعمالاً أصيلة مرجعيّة في مجالي الفلك والجبر، كما اخترعت الإسطرلاب وإنبيق تقطير السوائل، وجهازاً يشبه «الهيدروسكوب» أو المقياس الهوائيّ الذي يقيس الكثافة النوعيّة للسوائل. كانت محبوبة من قبل تلامذتها جميعهم، واعتبرها الناس في كلّ مكان سلطة مرجعيّة في اختصاصها، وأشاروا إليها ببساطة بـ «الفيلسوفة».

فلسفة هيباتيا المتمثّلة بالعقلانيّة العلميّة، تعارضت آنذاك مع دوغما العقيدة المسيحيّة الصاعدة، كما أنّ كونها امرأة، والشعبيّة التي تتمتّع بها، لم يصبّا في مصلحتها. في هجمة إرهابيّة من تلك التي ستصبح مألوفة بالنسبة للنساء جميعهنّ لاحقاً، حرّض سيريل بطريرك الإسكندريّة عام 415م مجموعةً من الغوغاء المتعصّبين تزّعمها رهبانه، فقاموا بجرّ هيباتيا من عربتها، وعرّوها من ثيابها، ثمّ عذّبوها حتّى الموت بتجريد لحمها عن عظمها، مستخدمين المحار والشفرات المسنونة.

جريمة القتل المروّعة تلك، تمثّل ما هو أكثر من اغتيال عالمة بريئة في أواسط العمر. أيّ امرأة مفكّرة كانت ستستشفّ من خلال سيريل وبلطجيّته المتعصبين، ما هو نوع رجال المستقبل. سيطرة الفالوس العنيفة أحدثت ثورة في التفكير والسلوك، لكنّها لم تكن كافية. الهيمنة ليست مطلقة،

الأنظمة قاصرة، وما زال هناك متسعٌ كافٍ للمناورة. لا يمكن أن ترتكز السلطة على عضو لا يستطيع الرجل أن يتحكّم به، ولا بدّ من المزيد. لا بدّ من ذكورة أبديّة قائمة أبد الزمان، متأصّلة، غير ماديّة ولا مرئيّة، عصماء، أعظم من النساء كلهنّ لأنّها أعظم من الرجل كليّ القدرة، الذي لا تُناقَش سلطته: الإله الأحَد، الإله الأب، الذي اخترعه الرجل على صورته ومثاله.

الرجال جميعهم، يقرّون بأنّ النساء هنّ من أسّس الدِين.

• سترابو، 64ق.م – 21م.

خلف إصرار الرجل على تفوّق الذكورة، يكمن حسدٌ أزليّ للمرأة.

• إريك إريكسون.



الجزء الثاني

سقوطُ النساءِ

هل جعل الرجلُ المرأةَ عَبْدَتَه
طيلة قرون عديدة،
بدافع الانتقام؟!

• إدوارد كاربنتر

الإلهُ - الأبُ

- ولادة رجلٍ يحسب نفسه إلهاً، ليست فكرة جديدة.

• مثلٌ تركيّ

- «كما يكون الرجل، يكون إلهه»، هذا يفسّر لماذا يكون الإله سخيفاً غالباً.

• جيل وميلڤيل هاركورت،
من كتاب «صلوات قصيرة لنهار طويل».

- حمداً لك أيّها الربّ إلهي، يا ملك الكون، لأنّك لم تخلقني امرأة.

• صلاة يوميّة يردّدها الذكور اليهود.

«في البدء كان الكلمة» يعلنُ القدّيس يوحنا، «وتلك الكلمة كانت الربّ». في الحقيقة، تلك الكلمة كانت كذبة، إذ لم يكن هناك ربٌّ في البداية، لكن مع تقدّم مسيرة التاريخ في مختلف البلدان والأزمان، كان لا بدّ من اختراعه. هناك حدود هامّة تعيق إسناد ألوهيّته وقوّته إلى قاعدة ماديّة بحتة، لأنّ القضيب البشريّ، حتّى بعد أن يتضخّم إلى حالته الدينيّة - السحريّة، يبقى قاصراً عن تحقيق الألوهيّة. الذكر الفالوقراطيّ الناشئ جرف كلّ شيء أمامه، وقضى بشكل ممنهج على سلطةِ النساء التقليديّة المستندة إلى الخلق والطبيعة. المَلكُ المقدّس، سرق من الملكة الكبرى تقنيّتَها الانتقائيّة في

إدارة الموارد الذكريّة وفق مبدأ مناديل كلينكس «استعمليه مرّة، وارميه»، وطبّقه على الجنس الأنثويّ بالجملة. القوّة الوحشيّة لا يمكنها المضيّ أبعد، لأنّ الذكر غير قادر على تجريد المرأة كليّاً من ارتباطها بالألوهيّة، ما لم تتجرّد من قدرتها البدائيّة على خلق حياة جديدة.

فضلاً عن ذلك، اكتشافُ الزراعة وتوحّدُ القبائل في المدن، جعلا المجتمعات البشريّة أكثر تعقيداً، لأنّها تتطلّب المزيد من البنى والأنظمة والإدارة. ما إن أصبح البقاء على قيد الحياة مضموناً، حتّى تحوّل الإنتاج الفائض إلى «مِلكيّة»، واستيقظ الرجل ليجد نفسه سيّداً وحاكماً. الحفاظ على المِلكيّة، وحماية حقوق الوراثة في المجتمع الجديد المعقّد، يتطلّبان منه أكثر من مجرّد استخدام عضوّه التناسليّ عشوائيّاً، كما أنّ توسّع البنى التنظيميّة خلق فرصة أكبر لظهور كلّ من الخضوع والمقاومة. في كلّ قبيلة أو مدينة أو بلاط أو معبد، عاشت نساء امتلكن الذكاء والموارد، وناضلن لإثبات أنّهن لن يقبلن أوتوماتيكيّاً ادّعاءَ الرجل بحقّه في السلطة. كان من المستحيل القضاء عليهنّ كما جرى مع برنيس وبوديكا، من ثمّ رميهنّ للكلاب والغربان، أو دفنهنّ في قبور مجهولة.

عندما استحوذ الرجل على السلطة، أراد أن يمتلك سرّها، وعندما بدأ بالبحث أبعد من ذروة قضيبه، وجد حاكماً أقوى وسيّداً أعظم: الله. الإله المذكّر ليس فكرة جديدة بلا شكّ، إيزيس كان لديها أوزيريس، وديميتر أُجبِرَتْ على الانصياع لانتقام إله العالَم السفليّ. في الواقع، عندما اجتاح هوس الفالوس العالَمَ، وجدت الألوهيّة المذكّرة أبعاداً جديدة في نظيرتها الأنثويّة الضائعة. زوس، ملكُ الخالدين، استعرض هيمنته من خلال عدد النساء الشابّات اللواتي اغتصبهنّ. الآلهة الذكور الجدد كانوا أقوياء وعنيفين ومتوحّشين مثله تماماً. الفرق الآن هو أنّ كلّاً منهم يصرّ على أنّه وحده «الله»، وأنّه إله أَحَد، وحيد، ومن غير المسموح لإله آخر أن يشارك في اللعبة. خلال ألف عام تقريباً تفصل ما بين ظهور اليهوديّة وولادة الإسلام، كلّ الأديان الرئيسيّة في العالَم طرحت ذلك الادّعاء، وعلى الفور، انطلقت لتحقيق هدف مزدوج، هو خلقُ مجتمع من المؤمنين الحصريّين، وإبادةُ كلّ

من يعارضها. حتّى الآلهة الذكور أصبحوا هدفاً لتلك الإبادة، فما بالكم بالإلهات الإناث؟! عندما تمشّت الأمّ - الطبيعة في الحديقة التي كانت «جنّة عدن»، التقت بالإله - الأبّ، وبحتفها أيضاً. في الصراع على امتلاك روح البشريّة، خسرت الإلهة روحها، لأنّ الإله - الأبّ على حد قول فريدريك إنجلز، جلب معه «الهزيمة التاريخيّة للجنس الأنثويّ في العالَم».

لم تكن كلّ الأديان الجديدة أنظمة تتمحور حول إله. اليهوديّة قدّمت نموذجاً أبويّاً[1] لتحكّم الدِين بحياة الأفراد، بعد أن نجحت بإعلاء الإله القَبَليّ المحليّ يهوه إلى مرتبة مختلفة تماماً، إثر سبي اليهود قبيل عام 600ق.م. على نحو مماثل، رفع الإسلام شعار «لا إله إلّا الله» على يد نبيّه محمّد في بدايات عام 600م. في منتصف الفترة ما بينهما، وُلِدَت المسيحيّة كإصلاح دينيّ لليهوديّة، بعد أن أنجب إله اليهود القديم ابناً يمثّل نسخة عنه، وكان سعيداً به للغاية دون شكّ.

بالنسبة إلى الهند والصين على التوالي، لا تقلّ البوذيّة والكونفوشيوسيّة أهمّيّة عن أديان الشرق الأوسط. كلٌّ منهما ظهرت مع ولادة مؤسِّس بشريّ، وانتشرت بسرعة، وصولاً إلى مناطق بعيدة جدّاً عن أصولها المتواضعة. لا بوذا ولا كونفوشيوس ادّعيا الألوهة، وتعاليمهما كانت أقرب إلى نظام أخلاقيّ منها إلى شريعة دينيّة، لكنّ أساس العقيدتين أبويّ Paternalistic، وفي الحالتين عبد أتباعُهما المؤسِّسَ كإله، كما أثّرت تعاليمهما الإيديولوجيّة على حياة النساء، تماماً كالأديان الإبراهيميّة المتمحورة حول إله - أب. إذن، كان تأثير الأديان واحداً على حياة النساء في كلّ مكان، مهما كانت الطريقة التي غُلِّفَت بها رسالة الهيمنة الذكوريّة. قُدِّمَتْ تلك الأنظمة كلّها (اليهوديّة، الكونفوشيوسيّة، البوذيّة، المسيحيّة، الإسلام) للنساء على أنّها مقدَّسة، نابعة من إلهام إلهيّ انتقل من ذكر قويّ، إلى ذكور ساندهم لتلك الغاية تحديداً، أي أنّ الذكورة بحدّ ذاتها أصبحت سُلطة.

1- Paternalism نظام يقوم على قمع حريّة الفرد (أو المجموعات) الخاضع لها، والحدّ من استقلاليّته الفرديّة وحريّته الشخصيّة، بهدف درء الضرر عنه أو تحقيق مصلحته. المترجمة

المؤرّخون، الذكور منهم والإناث على السواء، لم يقاوموا دائماً إغراء أن يعتبروا العقائد التوحيديّة مؤامرةً ضدّ النساء، نظراً لأنّ تداعياتها كانت دائماً كارثيّة على الجنس الأنثويّ. صحيح أنّ فكرة المؤامرة الكونيّة مغريةٌ، خاصّة عند الأخذ بعين الاعتبار مشاعر الضعف وقلّة الحيلة التي اكتسبتها النساء، لكنّها تتغاضى عن حقيقة أنّ الكثير من تفاصيل تلك العقائد اجتذبت الجنسين كليهما في البدايات، والنساءَ خصوصاً في بعض الأحيان. قد يكون الدِين المُنظَّم سبباً جذريّاً للهزيمة التاريخيّة التي لحقت بالجنس الأنثويّ –حوّاء لم تسقط، لقد دفعوها دفعاً– لكنّه لم يضع تلك الهزيمة نصب عينيه منذ البداية. لو نظرنا إلى السياق الأشمل لنضال البشر من مختلف الأعراق بهدف التوصّل إلى معنى أعمق لحياتهم، وإلى روحانيّتهم المتنامية، سنكتشف لماذا كانت تلك العقائد الخمس جذّابة جدّاً بالنسبة إليهم. أوّلاً، قدّم كلٌّ منها وضوحاً ويقيناً، وخلق رؤية للعالم تحمل قناعات طازجة عميقة، تختلف اختلافاً جذريّاً عن تلك الدوّامة الجمعيّة المختلطة التي تتداخل فيها عبادة الآلهة الذكور القدماء، وعبادة الإلهات. في القرن الخامس قبل الميلاد في أثينا مثلاً، كان على المرأة أن تختار لمن تصلّي أثناء المخاض من أجل ولادة آمنة. هل تختار الأمّ الكبرى سيبيل، أم أثينا ربّة الحكمة، أم الصيّادة العذراء أرتيميس (ديانا عند الرومان)؟! فكلّ منهنّ ترعاها أثناء الولادة رعاية خاصّة. أمّا زوجها، وهو يقدّم أضحية كي يولَد له صبيّ، فكان يتوجّه إمّا للإله آرِس كي يهبه محارباً صغيراً، أو للإله أبولو كي يهبه شاعراً أو موسيقيّاً، لكنّه سيتجاهل زوس كبير الآلهة في محنته هذه. عندما توحّدت تلك الآلهة المتنافسة جميعها في أب واحد كليّ القدرة، يُبقي عينيه على كلّ سنونو، ناهيكم عن كلّ إنسان مِن خَلْقِه، أو عندما توحّدتْ في إطار «الاستنارة» الصارمة أو «السبيل الوحيد»، ساد شعور بالأمان لطالما سعى الناس إليه عبثاً في السابق.

ثقة الإله الجديد بنفسه مدهشة! «أنا الربّ إلهكَ» خاطب يهوه اليهودَ، «لا يكن لكَ آلهة أخرى أمامي» (سفر التثنية، 5:6، 5:7) الرسالة ذاتها، بالثقة ذاتها، وجّهها كلٌّ من إله المسيحيّة وإله الإسلام. هذا التبسيط الظاهريّ

يخفي ثراءً معقّداً نجح في تحقيق التجانس الكونيّ، وقدّم للمؤمنين إطاراً نموذجيّاً ميتافيزيقيّاً يضمن لكلّ فرد -مهما كان وضيعاً- عشّاً مريحاً خاصّاً به. ضمن إطار هذه الثقة تحديداً، التي لم تكن متاحة أمامهنّ من قبل، وجدت النساء قوّة عظيمة! العبدة المسيحيّة فِليسيتاس، التي استشهدت مع سيّدتها بِرِبتوا خلال حملات الإعدام التي شنّها الرومان عام 203م، أنجبت في الليلة السابقة لموتها طفلاً في السجن. أثناء المخاض، كان الحرّاس يسخرون من صراخها وآلامها قائلين: «أنتِ تتعذّبين كثيراً الآن، ماذا ستفعلين غداً عندما نرميك للوحوش؟». عندما واجهت فليسيتاس الأسودَ في الحلبة صباحَ اليوم التالي، كانت هادئة تماماً، وسعيدَة أيضاً، وماتت دون أن تصرخ.

كما هو واضح من قصّتها، وجد المؤمنون الأوائل في ألمهم وعذاباتهم إجابةً عن ألم المحنة البشريّة بحدّ ذاتها، ومعنىً للحياة التي كانت عبثيّة. بالإيمان، تعزّز شعور الفرد بذاته، لأنّ المؤمن تحرّر من حالة العبوديّة اليائسة للإلهة الأمّ، أو لبديلها الفالوسيّ الهامشيّ المهووس بالحروب. الآن، أصبحت المرأة مهمّة بصفتها فرداً في عيني إلهٍ يهتمّ بها وبإمكانيّاتها: «أنا الله القدير»، يعلن يهوه، «سِر أمامي وكن كاملاً» (التكوين 17: 1). بالنسبة إلى المؤمن والمؤمنة، جائزتهما حصريّة لا تقلّ عن الفردوس. نقرأ على لسان الشهيدة العذراء هِيرِنا تبجُّحَها بالانتصار، في مسرحيّة ألّفتها هروتسڤيتا الساكسونيّة، أوّل كاتبةٍ مسرحيّةٍ أنثى في أوروبا، وكانت امرأة تشبه في الحياة الواقعيّة بطلَتها القويّة الساخرة:

«يا لكَ من رجل تعيس! اخجَلْ! اخجَلْ يا سيسِنْيوس، وتأوّهْ! لأنّ فتاة صغيرة هشّة هزمتكَ... ستُلعَن في تارتاروس[2]، أمّا أنا فسأتلقّى سعفة الشهادة وتاج العذريّة، وسأدخل مخدع الملك الخالد الأثيريّ».

لا بدّ أنّ المزج بين سيكولوجيا الانتقام، والرضا الناجم عن تحوير الشبق إلى صيغة مقبولة، بثّ راحة عميقة في نفوس النساء المُستضعَفات. فضلاً

2- Tartarus الهاوية تحت الأرض في الميثولوجيا الإغريقيّة، التي يسكنها الخطأة والعصاة، وفيها يُعذَّبون بعد موتهم. المترجمة

عن ذلك، كلّما خضعت المرأة وعانت أكثر، أصبحت جائزتها الختاميّة أكبر في نظام المكافأة والعقاب ذاك.

ما يلفت انتباهنا هنا هو أنّ النساء الذكيّات، أدركن على الفور أنّ الله في نظام العقائد التوحيديّة يقدّم لهنّ «شيكات آجلة»، ولم يرجع أحدٌ من الحياة الآخرة ليشتكي أنّها رُفِضَت! لذلك، انخرطن بحماس فريد من نوعه في أنماط سلوكيّة لا يمكن وصفها أبداً بالتقيّة، حريصات على الالتزام في أواخر حياتهنّ بطور ختاميّ من الإيمان المبهر، بهدف ضمان الفردوس. ربّة هذا التكتيك كانت الملكة الروسيّة أولغا، التي تولّت العرش بعد اغتيال زوجها إيغور الأوّل. في البداية، حكمت حكماً دمويّاً انتقاماً لمقتله، فأحرقت قادة المعارضة البارزين أحياء، وأعدمت مئاتٍ آخرين. من ثمّ، بعد عشرين عاماً من القسوة الوحشيّة، كرّست أولغا نفسها للمسيحيّة بإخلاص وتفانٍ، لدرجة أنّها طُوّبتْ كأوّل قدّيسة في الكنيسة الأرثوذكسيّة الروسيّة.

الثقة التي اعتنقت بها النساء في المسيحيّة الباكرة تعاليمَ الأنظمة الباترياركيّة الجديدة، وكيفيّة تلاعبهنّ بها، تقدّمان مؤشّراً ثانياً على سبب نجاح العقائد التوحيديّة. عند نشأتها، كانت تلك العقائد ما تزال قريبة جدّاً من الأديان المتمحورة حول الإلهة الكبرى، قبل أن تستحوذ عليها فيما بعد. لذلك، لم تنقطع عابدات الإله – الأب عن ممارسة الطقوس الأنثويّة التقليديّة، جنباً إلى جنب الدين الجديد طيلة مئات السنين. النبي حزقيال، وهو أحد الآباء المؤسّسين لليهوديّة، والذي انتشلها من بدايتها القَبَليّة المتعثّرة، روّعته رؤية النساء اليهوديّات في القرن الخامس قبل الميلاد «يبكين على الإله تمّوز»، ويندبن موت الملك القتيل، سواء كان تمّوز أم آتيس أم أدونيس، في طقوس سنويّة تقام في «يوم الدم» في أواخر آذار (استحوذت المسيحيّة لاحقاً على هذا الطقس، وحوّلته إلى الجمعة الحزينة). لم تكن النساء وحيدات، ففي عيني النبي إرميا المستنكرتين، كلّ رجل وكلّ امرأة وكلّ طفل كان مذنباً على السواء: «أما ترى ماذا يعملون في شوارع مدن يهوذا، وفي شوارع أورشليم؟ الأبناء يلتقطون حطباً، والآباء يوقدون ناراً، والنساء يعجنّ العجين ليصنعن كعكاً لإلهة السماوات، ولسكب سكائب لآلهة أخرى كي يغيظوني» (سفر

إرميا 7: 17-18). رغم ادّعاء الباترياركيّات كلّها بأنّها اجتثّت الإلهة الكبرى تماماً، لكنّها لم تنجح إلّا من خلال استعمار، بل وافتراس، هيئاتِ الإلهة الأمّ وتمائمها وأغراضها المقدّسة. تُكرِّس العديد من الدراسات اللّاهوتيّة اليوم، لاكتشاف ما كانت كلّ طفلة صغيرة تعرفه في الماضي: الإلهة الكبرى بتجسّدها الثلاثيّ (العذراء، الأمّ، الحكيمة) هي أصل الثالوث المسيحيّ المقدّس، وإلهة القمر، التي تمثّل الإلهة الكبرى في طورها غير الناضج جنسيّاً بعد، تحوّلت إلى مريم العذراء. الأعياد المعاصرة، كعيد أيّار وعيد السيّدة، هي في الأصل أعياد خاصّة بعبادة الإلهة الأمّ. في احتفالات عيد أيّار تحديداً، تتكلّل العذراوات بالزهور في تجسيد لخصوبة الأمّ الأرض ونموّ المحاصيل، ويرقصن حول «عمود أيّار»، وهو رمز فالوسيّ يرمز إلى الصبيّ - الملك - العشيق الذي تمّت التضحية به (تموز، دوموزي، آتيس، أدونيس، ڤيربيوس... إلخ)، وتقطيعه أشلاء.

نلاحظ هذه الاستمراريّة حتّى عند الجماعات الإثنيّة التي لم تعتمد اعتماداً صريحاً على الإله - الأب. المقطع الصينيّ الذي يعني «السَلَف» حاليّاً، كان يرمز للفالوس قديماً، ووُجِد منقوشاً على الأدوات البرونزيّة وعِظام العِرافة oracle bones[3] التي تعود إلى زمن أقدم بكثير، ومعناه آنذاك «الأرض». عبادة الأسلاف عند الصينيّين هي تجسيد للهيمنة الباترياركيّة، فالابن الذكر هو وحده المخوّل بإقامة طقوس الأضاحي، كي تتحرّر روح والده وتنضمّ إلى أسلافها، لكنّ تلك العبادة انبثقت عن عبادة الإلهةِ الكبرى، الأمّ الأرض، التي أحاطت الخصوبة بعنايتها، وضمنتْ حصول الأسلاف الذكور الأوائل على ذُرّيّة.

من بين الأديان جميعها، عملية اختطاف الأمّ الكبرى هي أوضح ما يكون في الإسلام. الإلهة الكبرى كليّة الحضور فيه، بدءاً من رمز الهلال على

3- عظام ثور أو درع سلحفاة غالباً، يكتب عليها العرّاف الصينيّ القديم سؤال الزبون، ثمّ يلطّخها بالدم، ويضغط عليها قضيباً حامياً إلى أن تتشقّق. نموذج التشقّقات والكسور الناجمة عن ذلك، يُحدّد المستقبل الذي يتراوح ما بين الأمور الشخصيّة إلى حالة الطقس إلى نتائج الحملات العسكريّة. المترجمة

الرايات الإسلاميّة وصولاً إلى أسرار أقدس معبد إسلاميّ، كما لاحظ السير ريتشارد بورتون في أسفاره: «الكعبة في مكة كانت معبداً للعزى، وهي إلهة متميّزة وحامية للنساء، وأحد التجليّات الثلاثة للإلهة الكبرى عند العرب، تقوم على خدمتها كاهنات إناث. ما تزال الكعبة موجودة اليوم، وتُعدّ أقدس الأماكن في الإسلام». لم تختفِ سلطة الأمّ الكبرى حتّى عندما تمّ استبدال كاهناتها بكهنة ذكور، إذ أنّ سدنة الكعبة هم «بنو شيبة»، أي أبناء المرأة العجوز، و«المرأة العجوز» هو لقب شائع متداول من ألقاب الإلهة الكبرى. في رابط آخر أوضح، ما يحرسه أولئك السدنة هو حجر عتيق أسود اللون، مُقدّس بنظر الله، يغطّيه قماش أسود يُسمّى «كسوة الكعبة». تحت تلك الكسوة، يحمل الحجر الأسود على سطحه علامة تُسمّى «انطباع أفروديت» -وهو شقّ بيضويّ يمثّل أعضاء تناسليّة أنثويّة- يقول عنه شاهد عيان: «إنّه رمزُ إلهةِ الحبّ الجنسيّ الحرّ، ويدلّ بوضوح على أنّ الحجر الأسود في مكّة، كان ينتمي إلى الأمّ الكبرى». من وجهة نظر عابدات الإلهة الكبرى، «السيّدة» ما تزال موجودة في حَجَرِها، وحجرها ما يزال قائماً في معبدها، لذلك، لم يهتممن في البداية لظهور أتباع جدد يخدمونها، ولا لإعطائها اسماً جديداً، فهي التي تحمل عشرة آلاف اسم.

إذن، لم تضطرّ المرأة لقطع كلّ روابطها مع الأمّ الأولى عند قبولها بديانة الإله - الأب الجديد، ممّا قدّم بلا شكّ دعماً للباترياركيّة أثناء صراعها لترسيخ هيمنتها.

هناك أسباب أخرى لنجاح العقائد المتمحورة حول الذكر باجتذاب النساء، خلال محاولة كلّ منها بسط هيمنتها. في صراعها من أجل الاعتراف بها، وترسيخ موقعها، تقتنص الإيديولوجيّات كلّ من يأتون إليها، وتسخّرهم لمصلحتها. ليست صدفة أنّ أوّل من آمن بمحمّد هي زوجته، وكذلك الحال بالنسبة لبوذا، فقد كانت النساء سبّاقاتٍ للانضمام إلى تلك المؤسّسات التي تعرض عليهنّ فرصة ودوراً مركزيّاً. لن يدهشنا كيف قامت خديجة -سيّدة الأعمال الأربعينيّة اللّامعة، وسليلة قبيلة قريش التي تتزعّم مكّة- بتوظيف ذلك الراعي الأميّ المصاب بالصرع، الذي لا يزيد عمره عن خمسة

وعشرين عاماً، ولا لماذا اتّخذته زوجاً وشجّعت رؤاه. حوليّات الديانة اليهوديّة حافلة كذلك بنساء قويّات الإرادة، حتّى في أقسى ظروف الإرهاب والمعاناة والخسارة. من أشهرهنّ أمّ المكابيّين، التي وقفت إلى جوار أبنائها السبعة وحثّتهم على الصمود، وهم يخضعون للتعذيب واحداً تلو الآخر، ثمّ يُحرقون أحياء حتّى الموت في مذبحة عام 170ق.م. يتّفق المؤرّخون على أنّ مجريات الأحداث كانت ستقضي على إله اليهود قضاء مبرماً، لولا «دماء الشهداء المكابيّين... التي أنقذت اليهوديّة». بالمثل، لم تقدّم المسيحيّة الباكرة دوراً للمرأة فحسب، بل أداة لمقاومة هيمنة الذكر حين تختار أن تصبح عروساً ليسوع، وتتخلّص بالتالي من الخاطبين الأقلّ شأناً. آلاف الشابّات ساهمن ببناء كنيسة الربّ بأجسادهنّ ودمائهنّ وعظامهنّ، حين فضّل الآباء والأزواج والخاطبون الغاضبون موتهنّ في لهيب النيران أو بين أنياب الوحوش أو تحت حدّ السيف، على حياة يرفضن فيها واجباتِ المرأة وقَدَرها.

ما قامت به بقيّة النساء، لا يقلّ أهميّة عن فطنة الشهيدات العذراوات الشجاعات. لقد سخّرت المرأة وقتها، ونقودها، وبيتها، وحماسها، وأطفالها، لمصلحة الآباء المؤسّسين المتخبّطين، حتّى القدّيس بولس -الذي أصبح فيما بعد مبشّراً عنيداً بدونيّة النساء- اضطرّ للاعتراف بفضل ليديا بائعة الأرجوان في فيليبي بعد أن ساعدَته. في الواقع، كلّ الكنائس الأولى في روما وغيرها، هي بيوت تبرّعت بها الأرامل الثريّات، كما أنّ كلّ المجتمعات المسيحيّة الأولى التي تذكرها «أعمال الرسل»، كانت تجتمعات تقام في بيوت النساء: «الكنيسة في بيت كلوي، في بيت ليديا، في منزل مريم أمّ مرقص، في بيت نيمفا، في بيت بريسكا...إلخ». الأهمّ من ذلك كلّه كما يشرح لنا أحد اللاّهوتيّين البارزين، أن المناصب والأعمال في الكنيسة الأولى كالتعليم، الصلاة، قراءة النصوص المقدّسة، الإشراف على طقوس القربان، تنظيم التبرّعات، وتوزيع المؤمنين على فروع الإيمان... إلخ، لم تكن ممنوعة على النساء بل على العكس، ادّعت المسيحيّة الباكرة على لسان مؤسّسيها بأنّها حرّرت المرأة من خضوعها التقليديّ، ومنحتها

المساواة الجنسيّة التامّة مع الرجل. «في المسيح»، يكتب القدّيس بولس، «لا يوجد قيد ولا حريّة، لا ذكر ولا أنثى».

بدورها، قطعت البوذيّة في البداية للمؤمنات الإناث وعداً مختالاً بالمساواة، يتمثّل بـ «الحقائق الثلاث»: كلّ شيء هو معاناة، كلّ شيء زائل، ولا وجود للروح. تلك الحقائق كانت متاحة للنساء وللرجال على السواء، كما أضاف بوذا أنّ الحياة أو «الشكل»، هي صفة واحدة فقط من بين اثنتين وعشرين صفة تؤلّف الشخص. بالتالي، جنسه غير مهمّ، سواء كان ذكراً أم أنثى. كما في المسيحيّة، آمنت ببوذا بطلاتٌ ضربن أمثلة نموذجيّة على الحماس والنقاء والإيمان السامي: «وضعت سوبها فكرة البوذا موضعَ التطبيق، عندما أغراها أحد الأشقياء بالتوغّل في الغابة، من ثمّ حاول إغواءها. ردّت سوبها بتبشيره بعقيدة البوذا، لكنّ الشقيّ لم يرَ إلّا جمال عينيها، وتَجَاهلَ كلماتِها السامية. لذلك، كي توضّح له أنّ الحياة الداخليّة لا علاقة لها لا بجمالها ولا بجنسها، قلعت سوبها عيناً من عينيها الجميلتين وأعطتْها له، فآمن على الفور».

بين الباترياركيّات كلّها، يفاجئنا الإسلام بموقفه من المرأة. القمع الشديد الذي خضعت له النساء لاحقاً باسم الإسلام (الحجاب، العزل، بتر الأعضاء التناسليّة المعروف بختان الإناث)، نفّذه النظام ذاته الذي كان أكثر حريّة وإنسانيّة فيما مضى. في المجتمعات ما قبل الإسلاميّة على سبيل المثال، ورثت النساء حقّ اختيار أزواجهنّ. أجل، أزواجهنّ بصيغة الجمع، لأنّ «حقّ الأمّ» القديم كان ما يزال قائماً في الحواضر والقبائل العربيّة، كما تشرح المؤرّخة النسويّة نوال السعداوي: «قبل الإسلام، كان بمقدور المرأة أن تمارس تعدّد الأزواج، وأن تتزوّج أكثر من رجل واحد، وعندما تحبل، ترسل بطلب أزواجها كلّهم. تجمعهم حولها، ثمّ تختار والداً لطفلها، ولا يحقّ للرجل أن يرفض». عندما ترغب المرأة بطلاق أحد أولئك الأزواج الاحتياطيّين، كانت تغيّر اتّجاه خيمتها بكلّ بساطة، في إشارة إلى أنّ بابها لم يعد مفتوحاً أمامه.

لا بدّ أنّ الأجيال اللّاحقة من النساء المسلمات، قد اعتبرت تلك

القصص الفولكلوريّة والذكريات عن الحريّة، مجرّد مزحة ثقيلة أو خيال محض، لكن لا دليل أوضح على أنّها كانت حقيقيّة، من قصّة زواج النبيّ محمّد مؤسّس الإسلام، فعندما أرادته خديجة زوجاً لها، أرسلت إليه مع امرأة أخرى تعليمات حول كيفيّة التقدّم لخطبتها، وهو ما فعله.

ما يبهرنا أكثر من حقّ الاختيار الجنسيّ الحرّ ذاك، هو كيف كانت المرأة في صدر الإسلام تحمل السلاح بكلّ تلقائيّة، وتقاتل في المعارك الضارية جنباً إلى جنب الرجل. أمّ سليم بنت ملحان هي بطلة مُكرَّمة وقائدة في الحرب، تسلّحت بمجموعة من السيوف والخناجر ربطتها حول بطنها وهي حبلى، وقاتلت في صفوف محمّد وأتباعه. في معركة أخرى شرسة ضدّ البيزنطيّين، ظهر فارس طويل يتلثّم بالسواد شديد البأس، قاتل مع المسلمين ونُسِب إليه الفضل بقلب مجريات المعركة لمصلحتهم. بعد النصر، تبيّن أنّ البطل الذي مانع الكشف عن هويّته بشدّة، لم يكن إلّا الأميرة العربيّة خولة بنت الأزور.

حتّى خسارة الحرب لم تنل من روح خولة! عندما أسرها الروم في معركة صحورا بالقرب من حمص، استنهضت همم الأسيرات الأخريات بتحدٍ مشبوب بالعاطفة: «يا بنات حمير وبقيّة تبّع، أترضينَ أن تكنّ لهؤلاء الأعداء، ويكون أولادكنّ عبيداً لهم؟ أين شجاعتكنّ التي تتحدّث بها عنكنّ أحياء العرب؟!». يقال إنّ امرأة تدعى عفراء بنت غفار الحميريّة، ردّت عليها ردّاً ملتهباً: «صدقتِ والله يا بنت الأزور، نحن والله في الشجاعة كما ذكرتِ، وفي البراعة كما وصفتِ، غير أنّ السيف يحسُن فعله في مثل هذا الوقت، ولقد دهَمَنا العدوُّ على حين غرّة، وما نحن إلّا كالغنم دون سلاح». آنذاك، أمرت خولة النساء بأن يتسلّحن بأوتاد الخيام، ورتّبتهنّ في مجموعة متراصّة، ثمّ قادتهنّ إلى النصر والحريّة. «ولمَ لا؟!» يعلّق راوي الحكاية، «إن كانت خسارة المعركة تعني العبوديّة؟».

محاربة أخرى من محاربات الإسلام، كان لسانها حادّاً كسيفها، هي عائشة المكرّمة. رغم أنّها كانت أصغر زوجات النبيّ الاثنتي عشرة، وتزوّجت محمّداً الكهل حين كانت في التاسعة فقط من عمرها، ثمّ ترمّلت

قبل أن تبلغ الثامنة عشرة، لكنّها اشتهرت بذكائها وشجاعتها ورفضِها الانصياعَ للخضوع المطلوب من الزوجات المسلمات الصالحات. لم تكن تتردّد عن الاعتراض على كلام محمّد أو تصويبه، كما كانت تجادله في اللّاهوت أمام أتباعه الذكور البارزين بمنطق متّقد وذكاء حادّ، لدرجة أنّ النبي أمر أصحابه ذات مرّة: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميراء». بلغ من شجاعتها أنّها اعترضت على إرادة النبيّ متعدّد الزوجات، عندما سانده ربّه شخصيّاً بالوحي على الفور: حين رغب النبيّ باتّخاذ زوجة جديدة، أيّدته آية قرآنيّة يسمح الله بموجبها لنبيّه بأن يتزوج ما يشاء من نساء، عندها علّقت عائشة بغضب: «ما أرى ربّك إلا يسارع في هواك!».

ماذا سيفعل الإله - الأب أيضاً؟! وكيف على المرأة أن تتصرّف؟! عائشة، التي كانت شابّة في الثامنة عشرة حين مات محمّد، نضجت شخصيتها المتمرّدة، وأصبحت سيّدة بارزة ذات سلطة سياسيّة قويّة، أثّرت تأثيراً هامّاً على تطوّر المسلمين وتقاليدهم. رغم ذلك، ظلّ التحدّي الذي طرحَتْه قائماً، كما أصبح حرجاً وأكثر حساسيّة في السنوات اللّاحقة.

مهما كانت الاحتياجات التي لبّتها الباترياركيّات الجديدة وهي تنمو ترسّخ وتنتشر، فهي ليست احتياجات الجنس الأنثويّ. تلك كانت مغريات! لا بدّ من تقديم مغريات بلا شكّ، كي تبتلع المرأةُ الطُعمَ الإيديولوجيّ دون أن تكتشف الشصّ ولا الثقل الرصاصيّ السامّ في أسفل الصنّارة. ليس ممكناً فرض أيّ نظام من تلك الأنظمة، أيّاً كان، على النساء دون موافقتهنّ. لا بدّ في مرحلة ما، في كلّ قبيلة ومدينة وعِرق، من الحصول على موافقة النساء على ما يبشّر به أنصار الإله الجديد المتحمّسون. يا حسرة! عندما قُدِّم لهنّ العرض المغري الأوّل بما فيه من حريّة وفعاليّات، من منهنّ كانت تعرف بماذا تورّطِ نفسها هي وبنات جنسها، طيلة ألفي عام قادم؟! في جعبة التاريخ المليئة بالنكات والحيل، أي مفارقة كانت أكبر من رؤية المرأة تعتنق وتوسّع الأنظمة الجديدة، التي سرعان ما ستهاجم استقلاليّتها الفرديّة، وتسحق شخصيّتها، وتقوّض السبب الأساسيّ لوجودها؟!

سقوط المرأة

في تلك اللحظة المجهولة في التاريخ، عندما اكتشف الإنسان سرّ الإنجاب، حُكِمَ على المرأة بالسقوط من عَظَمَتِها الإلهيّة. عندما رقّى الرجل نفسه إلى رتبة إله، لم يكتفِ بإعادة المرأة إلى «حجمها» البشريّ الطبيعيّ، بل نجح أيضاً بإخضاعها إلى مستوى وجوديّ أدنى. كلٌّ على طريقتها، أصرّت العقائد الخمس الرئيسيّة (اليهوديّة، البوذيّة، الكونفوشيوسيّة، المسيحيّة، الإسلام) على دونيّة المرأة، وأمرتْها بالانصياع لقيمٍ وضوابط تهدف إلى ترسيخ هيمنة الرجل.

كيف حصل ذلك؟

بوذا، يسوع، وغيرهما من الأنبياء، علّموا أتباعهم أن يحبّوا النساء، خصوصاً محمّد الذي كان مشهوراً بتفسيره المتحمّس للوحي الذي يوحيه له ربّه، بأنّ المرأة هي أعظم هديّة قدّمها الله للرجل. نظريّاً، لم يحظر على النساء في البداية قطفُ الثمرات الروحيّة للأديان الجديدة. بوذا مثلاً، أسّس عقيدة منهجيّة تنصّ على أن المرأة قادرة كالرجل بالضبط، على تدمير «القيود الخمسة» التي ترتكبها البشريّة الخطّاءة، وأن تحقّق الاستنارة. في المسيحيّة والإسلام، أدّى التركيز على روح الفرد إلى إسباغ قيمة خاصّة على الطفل وعلى أمّه بدورها، كما علّم محمّد أتباعه أن يحترموا النساء الجديرات بذلك، ولم تفقد المرأة ذلك الاحترام بعد وفاته. زبيدة، الملكة البهيّة في حكايات ألف ليلة وليلة، أنقذت بلادها في الحياة الحقيقيّة من حربٍ أهليّة، حين رفضت الأخذ بثأر ابنها القتيل. حفاظها على السلام، بالإضافة إلى عملها الرائد في مجال الهندسة المدنيّة (دعمت إنشاء تسعمئة كيلومتر من شبكات الريّ المتواصلة على طريق الحجّ، بين العراق ومكّة) جعلاها بطلة قوميّة.

ربّما ينجو بعض أفراد الباترياركيّة من تهمة العداء للنساء، لكنّ مفتاح البلاء العظيم الذي حلّ بهنّ، يكمن في طبيعة النظام بحدّ ذاته. الدين التوحيديّ ليس مجرّد دين، بل علاقة قوّة. فكرة «الإله الأحد» مبنية على

الأولويّة والهيمنة، فهو أسمى من بقيّة الآلهة جميعهم، وأتباعه يهيمنون على غير المؤمنين به. على النقيض منه، يتنافس الكلّ على الصدارة في بانثيون الآلهة المتعدّدة، حتّى زوس ملك الخالدين قد يتحدّاه ابنه الغيور، أو زوجته الغاضبة، وربّما يتغلّبان عليه. لقد هلّل العالَم القديم لأساطير ومعتقدات كثيرة، وآلهة ذكور وإناث، وأشباه آلهة عديدين، تعايش الحكّام معهم جميعهم في كلّ أرجاء ما بين النهرين، مصر، الهند، روما، واليونان. الإسكندر المقدونيّ -كعادته- قدّم بلده كمثال على الحكمة بأرقى أشكالها، عندما أصرّ على أنّه لا يمكن لأيّ دين أو إله مهما كان، أن يهيمن على الحقيقة منفرداً.

غيّرت الباترياركيّات كلّ ما سبق، لأنّ الإيمان الحقيقيّ بإله وحيد، سيترافق حكماً مع عبء فرضه على الآخرين، بالإضافة إلى أنّ الادّعاء بامتلاك الحقيقة الحصريّة، خلق للمرّة الأولى المفاهيمَ المُحافِظة، والتعصّب الأعمى، والاضطهاد. المؤمنون المتحمّسون المولودون ولادة ثانية في دينهم الجديد، يجب أن يُدَمِّروا كلّ خصومهم بلا رحمة، كما جاء في العهد اليهوديّ: «كلّ من لا يبحث عن الربّ إلهِ إسرائيل يجب أن يموت، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة». اضطهد اليهودُ القبائلَ الأخرى وأصنامها البغيضة التي تتحدّى إلهَهم الواحد، وبالمِثل اضطهد المسيحيّون اليهودَ في العصور التالية. الإسلام بدوره شنّ حرباً على اليهوديّة والمسيحيّة كليهما، وحرّضت تعاليمه على ارتكاب إبادة جماعيّة نفّذتها حشود المؤمنين المتعطّشين للدماء، الذين قَتلوا أو قُتِلَوا، سعداء في الحالتين لأنّهم سيربحون الجنّة التي قُدِّمت لهم. «السراسين»[4] انضمّوا بدورهم إلى اليهود على قائمة أعداء المسيحيّين، وأُبيدوا جميعهاً باسم الربّ، آمين.

4- Saracen لقب استخدمه الكتّاب اللاتينيّون والإغريقيّون في الحقبة الكلاسيكيّة المتأخّرة للإشارة إلى سكّان إقليم البتراء وإقليم الصحراء العربيّة الرومانيّين. بدأ المسيحيّون باستخدامه في القرون اللاّحقة للإشارة إلى قبائل شبه الجزيرة العربيّة كلّها، ومن ثمّ توسّع المفهوم أكثر مع البيزنطيّين الذين استخدموه للإشارة إلى أيّ مسلم في دولة الخلافة، وانتقل مع الصليبيّين إلى أوروبا. المترجمة

بوصفها نوعاً من علاقات القوّة، خلقت العقيدة التوحيديّة نظاماً هرميّاً: الإله الأحَد يسود على بقيّة الآلهة، القويّ يسود على الضعيف، والمؤمن يسود على غير المؤمن. بالإضافة إلى ذلك، المفهوم الجديد عن العلاقة الشخصيّة بين الرجل وبين الله -باعتبار أنّ الله قرّر أن يخلق الرجل على صورته ومثاله- أدّى إلى نشوء فكرة «الإله - الأب» كمفهوم مترسّخ في كلّ الباترياركيّات. لذلك، تكبّد الرجال معاناة مضاعفة، كأعداء وكخاضعين: الشريعة الباترياركيّة في سفر الجامعة نصّت على «الخبز والإصلاح والعمل للخادم»، وعلى قمع دائم للأبناء.

بأيّ حال، تعرّض الرجال للاضطهاد بموجب أسباب أخرى لا تتعلّق بكونهم ذكوراً، إلّا أنّ طبيعة النظام الباترياركيّ بحدّ ذاتها، قدّمت لهم فرصة لتحسين أوضاعهم، والقفز من مرتبة وضيعة إلى أخرى أسمى على سلّم الأهميّة الهرميّ، كما سمحت لأعداء الإيمان السابقين باعتناق الدين الجديد، وهو ما فعله أغلبيّتهم، فحصدت أديان الإله - الأب نجاحاً ساحقاً حول العالم. وهكذا، مضت الحياة. الشباب أصبحوا عجائز، الأبناء أصبحوا آباء، والخدم أصبحوا رؤساء لأقرانهم، حتّى العبيد حصلوا على حرّيتهم أحياناً.

الخيارات السابقة على اختلافها، لم تكن متاحة للنساء. أن تكوني امرأة تحت مظلّة التوحيد الباترياركيّ، هو حكم مؤبّد ببقائك كائناً من الدرجة الثانية، لأنّك مصابة بإعاقة جوهريّة طاغية غير قابلة للشفاء، وهي أنّكِ لست ذكراً. ينتصر التفكير الذكوريّ هنا، عبر تقديم مبرّر يستند إلى «القياس المنطقيّ» التالي: إن كان الله ذكراً، والمرأة ليست ذكراً، إذن، مهما كان الله فالمرأة لا تحمل صفاته. لخّص القدّيس أوغسطين ذلك بصراحة: «لأنّ المرأة ليست صورة الربّ، أمّا الرجل فهو وحده صورة الربّ». بما أنّ الرجل يقف تحت الله مباشرة في الهرميّة الباترياركيّة، كذلك المرأة التي دُفِعَتْ دفعاً إلى الأسفل، ستقف تحت الرجل. أيّ رجل هو عمليّاً فوق مستوى المرأة، الأب فوق الأمّ، الزوج فوق الزوجة، الأخ فوق الأخت، والحفيد فوق الحفيدة.

في كلّ منظومة من الأديان الجديدة، حرّر الله الرجلَ من العبوديّة، وجعله شريكاً له في الأبديّة، أمّا المرأة فلم تُدعَ أبداً إلى تلك المؤسّسة السماويّة. كلّ رجل يمكنه أن يرتقي إلى Paterfamilia «ربّ عائلة»، أمّا المرأة فتبقى حبيسة دونيّتها السرمديّة. بأسلوبه الواضح المعهود، لخّص النبيّ محمّد الوضع، وبيّن العقوبات الباترياركيّة التقليديّة التي تنتظر التابعات العاصيات: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ».

تحت مظلّة الإله - الأب، الرجل فقط هو من يحقّق حرّيّته الكاملة، وسلطتَه كراشد. على النقيض تماماً، المرأة محكومة بالخضوع خضوعاً مزدوجاً لله وللرجل، كما في رسالة القدّيس بولس الأولى لأهل كورنثوس: «فإنّ الرَّجُلَ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُغَطِّيَ رَأْسَهُ لِكَوْنِهِ صُورَةَ اللهِ وَمَجْدَهُ. وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَهِيَ مَجْدُ الرَّجُلِ» (كورنثوس الأولى، 7:11)، «وَلأَنَّ الرَّجُلَ لَمْ يُخْلَقْ مِنْ أَجْلِ الْمَرْأَةِ، بَلِ الْمَرْأَةُ مِنْ أَجْلِ الرَّجُلِ» (كورنثوس الأولى، 9:11). بالتالي، هيمنة الذكر لا تعني دونيّة المرأة فحسب، بل تفرضها فرضاً. كيف وصل هذا المطلب إلى كلّ بيت، وكلّ امرأة؟! الخطوة الأولى هي استئصال كلّ آثار تفوّق المرأة في الماضي، أي شنُّ إبادة جماعيّة على عبادة الإلهة الأمّ وعلى المؤمنات بها، والقضاءُ على حقّ المرأة بأن تحكم أو تسود. يروي لنا مقتطع مقتضب في سفر أخبار الأيّام الثاني، كيف تتمّ تلك الإبادة بتفاصيلها: «حَتَّى إِنَّ مَعْكَةَ أُمَّ آسَا الْمَلِكِ خَلَعَهَا مِنْ أَنْ تَكُونَ مَلِكَةً لأَنَّهَا عَمِلَتْ لِسَارِيَةٍ تِمْثَالًا، وَقَطَعَ آسَا تِمْثَالَهَا وَدَقَّهُ وَأَحْرَقَهُ فِي وَادِي قَدْرُونَ... إِلاَّ أَنَّ قَلْبَ آسَا كَانَ كَامِلًا كُلَّ أَيَّامِهِ» (15:16، 15:17).

كانت تلك واحدة فقط من سلسلة هجمات على الأمّ الكبرى، ومعابدها، ونصوصها المقدّسة، وشعائرها، وعابداتها، وكلّها مذكورة بالتفصيل في

العهد القديم والعهد الجديد، فالمسيحيّة حذت حذو اليهوديّة، وأعلنت منذ البداية أنّ الإلهة الكبرى «سَوْفَ تُهْدَمُ عَظَمَتُهَا، هِيَ الَّتِي يَعْبُدُهَا جَمِيعُ أَسِيَّا وَالْمَسْكُونَةِ» (سفر أعمال الرسل، 19:27).

لقد قاومت النساء بلا شكّ. خلال ألف عام بعد تلك الأحداث التي رواها العهد القديم، أوشك محمّد أن يدفع حياته ثمناً لإصراره على أنّ «الله الأحَد» يجب أن يحلّ محل «السيّدة»، «ملكة السماوات»، و«أمّ الحياة والموت»، عندما هجمت على بيته عصبة غاضبة من أتباع الإلهة الكبرى، لكنّ الوحي أسعفه في اللحظة المناسبة، فأعلن أنّ ثالوث الإلهات القديمات العزى ومناة واللّات (الإلهة الكبرى في تجلّيها الثلاثيّ) ما يزال قائماً جنباً إلى جنب الإله الجديد. لذلك، ظلّت الإلهة الكبرى موجودة، لكن فقط إلى أن استجمع محمّد قواه، فألغى الوحي السابق وجدّد هجومه على الأمّ الكبرى.

آنذاك، حملت نساء كثيرات السلاحَ لمقاومة الاستبداد والطغيان. أشهرهنّ الزعيمة العربيّة هند، المعروفة بـ«هند الهندات»، وهي امرأة استثنائيّة تزعّمت معارضةَ قبيلة قريش القويّة والغنيّة، ضدّ فَرْض الإسلام. في ذروة حملتها تلك، وقعت معركة بدر عام 624م، التي اشتبكت فيها هند وجهاً لوجه مع محمّد شخصيّاً، وفيها قُتِلَ أبوها وأخوها وعمّها. بعدها، شنّت حرب عصابات للانتقام من عدوّها. أخيراً، بعد أن حوصِرَتْ، وتضاءلت قوّاتها، أُجبِرَتْ على الاستسلام واعتناق الدين الجديد. في ذروة مجدها العسكريّ، لم تكن هند مجرّد قائدة، بل كاهنةُ «سيّدةِ النصر» التي تستثير حماس النساء بأغاني المجد والانتصار، لكنّ أخبار هذه المرأة الفريدة اللّامعة انقطعت، بعد أن أقسمت على الخضوع لإرادة الله.

في موقفه من الإلهة الكبرى وعابداتها، لم يرضَ محمّد بأقلّ من «الإبادة التاريخيّة للعنصر الأنثويّ»، على حدّ تعبير المؤرّخة المسلمة فاتنة. أ. صبّاح. رغم ذلك، لم يتحقّق نصر الإله الأب، ولا بدّ من أن يؤمن الرجال والنساء جميعهم بدونيّة المرأة، وبأنّ موقعها الطبيعيّ هو تحت الرجل على كلّ الأصعدة. بالتالي، شنّت باترياركيّات الإله الواحد حملة

أسطوريّة هستيريائية قاسية، هدفت إلى إخضاع النساء وتعزيز خضوعهنّ، لخّص القديس أمبروز جوهرها بقوله: «حوّاء قادت آدم إلى الخطيئة، وليس العكس». إذن، من الصواب ومن العدل، أن تقبل المرأة بمن قادتْه للخطيئة سيّداً وربّاً. «واجب» المرأة غير المحدود، المتمثّل بدفع ثمن خطيئة حوّاء، وجد مكاناً له في الإسلام الذي زاد عليه بإعلان الإمام الغزاليّ أن «حوّاء عندما أكلت من الثمرة المحرّمة، عاقبها الله تعالى بثماني عشرة عقوبة»، من بينها الطمث، المخاض، الانفصال عن عائلتها، الزواج من غريب، والحبس في منزلها. بالإضافة إلى هذا، من بين ألف فضيلة، لا تتمتّع النساء إلّا بواحدة فقط، أمّا الرجال فقد حباهم الله بـ 999 الباقية، مهما كانوا خطأة.

لعلّ خرافة آدم وحوّاء هي الجزء الأقوى، والأشدّ تأثيراً، في بروباغاندا الأعداء خلال تاريخ الحرب الطويلة بين الجنسين، كما أنّها تخدم غاية أخرى أخبث، وهي موضعة الرجل في صدارة النظام الكونيّ. في كلّ أديان الإله الأب، سواء كانت اليهوديّة أم المسيحيّة أم الإسلام، خلق الله الرجلَ أوّلاً، ومن ثمّ خلق المرأة، بُصنعها من جزء هامشيّ وغير ضروريّ من أضلاع الرجل، أي أنّها وُلِدَت من الرجل كما يولَد الطفلُ من أمّه. إنّها واحدة من محاولات لا تعدّ ولا تحصى، قام بها الرجل الغيور من الرحم لاغتصاب قدرة المرأة على الولادة. هنا، يعكس الله البيولوجيا بحيلة سريعة، ويقلب الطبيعة رأساً على عقب بولادة طفله – الرجل، في تحدٍّ لسيرورة التطوّر الحقيقيّة التي يظهر فيها الرجل والمرأة معاً، وفي تحدٍّ للحياة التي تلد فيها المرأة الرجل. الله يستحوذ الآن على كلّ قوى الحياة الجديدة، فكلّ الأديان التوحيديّة تصرّ على أنّه وحده الخالق، ووحده من ينفخ الحياة في الجنين، مستعملاً رحم المرأة بكلّ بساطة بمثابة «وعاء» يضع فيه المضغة، وفقاً للتعبير الإسلاميّ.

لا ينتهي عمل الأديان الباكرة هنا. ترافق الاعتقاد بأنّ المرأة أدنى من الرجل، بقناعة أخرى مفادها أنّ تلك الدونيّة متأصّلة فيها ولا مفرّ منها. شعر اليهود أنّ الزوج واقع تحت رحمة انحطاط المرأة المتأصّل، لذلك خوّله إلهُه باتّخاذ ما يلزم ضدّها كلّما «اعْتَرَاهُ رُوحُ الْغَيْرَةِ وَغَارَ عَلَى امْرَأَتِهِ» (سفر العدد 5:14)، سواء كان لديه دليل على خيانتها أم لا. سيجرّها إلى

الكنيس، وهناك يسلّمها للكاهن الذي يكشف رأسها في عمليّة رمزيّة تهدف إلى إذلالها، من ثمّ يجبرها على شرب «ماء اللعنة المرّ» الممزوج بالغبار من أرض المعبد، ويلعنها «بِأَنْ يَجْعَلَ الرَّبُّ فَخْذَكِ سَاقِطَةً وَبَطْنَكِ وَارِمًا» (سفر العدد، 5:21). الآن، وقد أخذ الرجل بثأره، سيتلقّى دعماً غير محدود من إلهه: «فَيَتَبَرَّأُ الرَّجُلُ مِنَ الذَّنْبِ، وَتِلْكَ الْمَرْأَةُ تَحْمِلُ ذَنْبَهَا» (سفر العدد، 5:31). رسول الإسلام بدوره، أكّد له ربّه أنّ المرأة آثمة، فقال: «اطّلعتُ في النار، فرأيتُ أكثر أهلها نساء».

تحت حكم الإله الأب، أصبح الرجل هو الحَكَم، والمثال النموذجيّ الأسمى للعِرق البشريّ، أمّا الأنثى فهي مجرّد أداةٍ معطوبة، ووعاءٍ ناقل صمّمه الإله كي يحمل الرجل. تحت وطأة بروباغاندا كهذه، لا بدّ أنّ بعض الرجال عانوا صعوبة شديدة بتقبّل أنّ حبيباتهم لسن سوى «أوعية» تحمل «جحيم الشهوة»، على حدّ تعبير القدّيس أوغسطين. حضُّ النساء على القبول بالوصيّة التوراتيّة التي تأمرهنّ بمخاطبة أزواجهنّ بـ «البعل» (السيّد) حصراً، أو بـ «آدون» Adon (الربّ) كما يفعل العبيد، واضح أيضاً في تشديد النصوص المكتوبة جميعها تشديداً هائلاً، على صمت المرأة وطاعتها وخضوعها الكليّ المطلق لزوجها، كما في هذا المقطع الغاضب من كاما كالبا Kama Kalpa الهندوسيّة:

«على الأرض، لا إله للمرأة إلّا زوجها. أعظم عمل من بين جميع الأعمال الصالحة التي تقوم بها، هو ابتغاء إرضاء زوجها، من خلال طاعته طاعة تامّة، سواء كان مشوّهاً أو مسنّاً أو بذيئاً أو فاسقاً أو حادّ الطباع أو غبيّاً أو أعمى أو أصمّ... خُلِقَتِ المرأة كي تطيعه، في كلّ مرحلة من مراحل حياتها».

الخضوع ليس تمريناً روحانيّاً بحتاً، اقرؤوا مثلاً في «نصيحة إلى الزوجة»، هذا التمرين الغروتسكيّ عن طاعة «السيّد الربّ»، «ضمن كتاب «الوسادة» اليابانيّ الذي يعود تاريخه إلى القرن الثامن عشر:

«أهمّ شيء هو الاحترام الذي تبديه المرأة لزوجها... عليها أن تتقمّص أيّ هيئة تزيد متعته، دون أن تتمنّع عن أيّ شيء. إن كان يفضّل الصِبية الصغار، عليها أن تقلّدهم بالجثوّ على ركبتيها كي ينكحها من دبرها. عليها ألّا تنسى

أنّ الرجل لا يدرك طبيعة شرج المرأة المرهفة، وأنّه سيحاول اختراقه بعزم كعادته. لذلك، من الأفضل أن تحضّر نفسها ببطء، وأن تستعمل مرهم سيزيشومي «sizishumi».

لا تنتهي واجبات الزوجة اليابانيّة هنا، مهما كانت حالتها بعد ما سبق: «عليكِ دائماً أن تصفي عضو فحولته بأنّه ضخم، ورائع، وأكبر من أيّ عضو آخر، أكبر حتّى من عضو والدك الذي كنتِ ترينه عندما يذهب عارياً إلى الحمّام. عليكِ أن تضيفي أيضاً: تعال واملأني، آه يا أعجوبتي! وأن تضيفي إطراءً آخر مشابهاً».

الخضوع الأعمى، والاستسلام الأبله، هما الطريقة الوحيدة الممكنة في عيني الباترياركيّة كي تكفّر المرأة عن وجودها. القرآن يذكر صراحة أنّ المرأة الفاضلة الوحيدة هي الأمّ، وأنّ المرأة عندما تحبل من زوجها تربح ما يعادل مكانة الشهيدة في الجنّة، كما أنّ مخاضها ومعاناتها على سرير الولادة، وعنايتها بطفلها، تشفع لها من نار جهنم. المرأة، التي كانت مقدّسة ذات يوم بسبب قدرتها الغامضة على خلق الحياة، تُختزَل الآن إلى مجرّد رحم، وبعد أن كانت أمّ الكائنات جميعها، تتحوّل إلى وعاء بحت. الإلهة الكبرى، «تلك التي لها ألف عشيق»، مُسِخَتْ إلى فوهة تناسليّة صاغرة، مجبرة على الإذعان لأيّ قضيب شرس.

في تناقض غريب ضيّق، الإصرار على الوظيفة الإنجابيّة للمرأة لا يحمل أيّ مضامين تتعلّق بجنسانيّتها. لقد أُنكِرَتْ أيّ متعة يمكن أن تحصل عليها المرأة من خلال العمليّة الجنسيّة، تماماً كما أُنكِر دورها في عمليّة التكاثر. في الواقع، «كلّما كانت معلوماتها عن الجنس أقلّ، كان الوضع أفضل» كما يردّد آباؤها والأوصياء عليها. وهكذا، قُلِبَت طريقة أخرى من طرق التفكير السابقة المتمركزة حول المرأة رأساً على عقب، وأُزيحتِ القيمةُ العظمى من المرأة البالغة الفخور بالخصوبة، إلى جهل العذراء. الآن، الطفلة – العروس، الأنثى التي لم تفسد أخلاقها بعد، التي لم تصبح امرأة بالغة بعد، هي النوع المفضّل من النساء. غشاء البكارة، وهو غشاء صغير أثريّ، يتوضّع عميقاً في مهبل المرأة بسبب عمليّة التطوّر، تحوّل إلى أغلى ممتلكاتها، وتحوّلت معه

العذريّة إلى انتقام، عندما أدرك كلّ ذكر باترياركيّ يافع أنّ «حقّه الإلهيّ» يتمثّل في مهبل طازج خرج لتوّه من مصنع الربّ، وفي غشاء بكارة لم يُمسّ محميّ في أعماقه، وكأنّه هدية ملفوفةٌ طهارتها مضمونة. انقلبت العذريّة إلى فيتيشيّة قويّة، لدرجة أنّ الحفاظ عليها إلى الأبد أصبح المعيار المثاليّ الجديد. القدّيس جيروم، أحد الآباء المؤسّسين للمسيحيّة، حاول جاهداً إقناع الأهل بأن ينذروا بناتهم للرهبنة ما أن يوُلَدن، أمّا القدّيس مارتن دي تورز، فلطالما قارن «حقول العذريّة الطاهرة التي لم تُمسّ» مع «حقل الزواج الذي تمزّقه الخنازير وقطعان الزنا». من جهة أخرى، واجهت الكنيسة المسيحيّة منذ نشوئها مشكلة خاصّة مع جنسانيّة المرأة. «أن تعانق امرأة»، كتب القدّيس أودو دي كلوني في القرن الثاني عشر الميلاديّ، «يكافئ أن تعانق كيساً مليئاً بالروث»، فافتُتِن المسيحيّون الأوائل بمجاز «كيس الروث» ذاك! «لو شُقَّت أحشاء المرأة» أعلن الراهب روجر دي كاين، «سترى أيّ قذارة يخفي جلدُها الأبيض. إن غطّينا قطعة من القماش القرمزيّ الفاخر بكومة من الروث القذر، هل سيكون أحدهم من الحماقة بحيث يحبّ الروث كرمى للقماش؟!»، ولكن... المسيح وُلِد من امرأة! لم يتوصّل المسيحيّون إلى حلّ لهذه القضية المحرجة، إلّا بعد العديد من المجالس الكنسيّة المطوّلة، لكن لم يلاحظ أحدهم على ما يبدو، الفكاهةَ السوداء الكامنة في الجدل حول كيفيّة اختراق البذرة المقدّسة لبكارة مريم العذراء، ولا كيف خرج يسوع الطفل من رحمها دون أن يمزّق تلك البكارة برأسه الإلهيّ. هناك شيء واحد مؤكَّد، وهو أنّ ربّنا يسوع المسيح، ابنُ الله، مخلّصُ البشريّة، لا يمكن أن يولَد من كيس خراء. بالتالي، لا بدّ للآباء المؤسّسين للكنيسة من الدفاع عن طهارة مريم كي يحموا طهارة ابنها، فأعلنوا أنّ العذراء المباركة مريم بقيت عذراء، لا قبل ولادة المسيح فحسب، بل بعد ولادته أيضاً. كما أنّها لم تتأثّر بالمخاض المدمّى القذر، بل خرج المسيح من بطنها معزولاً عزلاً تامّاً، عن أي تماس مع أحشائها القذرة المقرفة. ما سبق ليس تشويهاً مارسته العقيدة المسيحيّة فقط، النزعة الوسواسيّة الباترياركيّة بتملّك واستعمال مهبل طاهر لم يُلطَّخ، والانبثاقِ من مهبل بالصفات ذاتها، موجودة أيضاً عند

كلّ من بوذا، أفلاطون، كيتزالكواتل[5]، مونتيزوما[6]، وجنكيز خان، الذين ادّعوا جميعهم أنّهم وُلِدوا من عذراوات، تماماً مثل المسيح.

مع اختزال المرأة إلى كائن غير ناضج، شغل الرجل نفسه بمشكلة ضبطها، و«تنظيمها»، وهذا يُترجَم دائماً إلى مصادرةِ كلّ الحريّات التي امتلكتها المرأة الراشدة سابقاً، واعتقالِها في مرحلة مراهَقة أبديّة معتمدة على الرجل، كي تلبّي متطلّباته الباترياركيّة جميعها. الكونفوشيوسيّة، التي انتشرت بسرعة من الصين إلى الشرق الأقصى بعد وفاة مؤسّسها كونفوشيوس الملقّب بـ K'ung-Fu-Tsze (أي الملك المعلّم) عام 478ق.م، هي حالةٌ نموذجيّة عمّا سبق. خلال مرحلة النظام الإقطاعيّ في الصين آنذاك، اعتاد الناس على الاحتفال سنويّاً بمهرجان الربيع، وفيه يلتقي رجال ونساء من مختلف القرى ضمن الغابة، حاملين النبيذ والمآكل اللذيذة، من ثمّ يتسلّون بلعبة جنسيّة قديمة، معروفة حتّى في بريطانيا الشكسبيريّة. تتحوّل تلك العلاقات الجنسيّة غير المعقّدة إلى زواج في حالة واحدة فقط، هي ظهور علامات الحمل على الفتاة في الخريف، بشرط رغبتها بالحصول على زوج. حقّ الفتاة بالاختيار، من بداية العمليّة إلى نهايتها، واضح في هذه الأغنية التي تردّدها الصينيّات منذ حوالي 800ق.م، في مقاطعة تشن:

في الأرض الخلاء ينمو العشب / مبلّلاً بالندى الكثيف / كان هناك رجل وسيم / عيناه صافيتان وجبينه وضّاء / التقينا صدفة / وأشبعتُ رغبتي / التقينا صدفة / وكنّا سعيدَين معاً.

يذكر التاريخ الصينيّ أيضاً نساء عديدات من الطبقة الحاكمة، كالإمبراطورة «وو - تشاو» من سلالة تانغ التي عاشت في القرن السابع للميلاد. أصبحت وو - تشاو خليلة للإمبراطور منذ كانت في الثالثة عشرة من عمرها، وحكمت الصين لأكثر من نصف قرن، كما نصّبت نفسها إلهةً

5- يعني اسمه «الثعبان ذو الريش»، وهو إله قويّ حظي بشعبيّة واسعة في أمريكا الوسطى قديماً. المترجمة

6- إمبراطور الأزتك من عام 1502 حتّى 1520م. حدث أوّل اتّصال مع المستعمرين الإسبان في عهده، وقُتِل أثناء المعارك معهم. المترجمة

عَليّة في عام 696م. الكثير من النساء الصينيّات عملن كتاجرات وبائعات ومزارعات وصناعيّات، كما فعلت النساء حول العالَم في كلّ مكان وزمان. ولكن، عندما ابتدع «الحكيم العظيم» كونفوشيوس العلاقاتِ الخمس الأساسيّة التي تؤلّف برأيه «نظامَ الانسجام الطبيعيّ» (العلاقة بين الرجل وزوجته، بين الأب وابنه، بين الأخ الأكبر وأخيه الصغير، بين الصديق وصديقه، بين الحاكم ووزيره)، استثنى المرأة من تلك العلاقات جميعها، ما عدا الأولى. إنجازُ الباترياركيّة يتلخّص في نجاحها بخلق نظام كهذا، تُقصى فيه المرأة بأمر إلهيّ عن كلّ ما هو مهمّ، وللأبد. العقائد التوحيديّة جميعها قائمة على مبدأ واحد، هو أنّ الرجل والمرأة أصبحا ضدَّين متقابلَين، وكأنّهما وجهان لعملة واحدة، ومن هنا تبدأ جذور عدم المساواة بالنسبة للمرأة. بوجود الذكور الذين يجسّدون مجموعة من الصفات أيّاً كانت، وينسبون إلى أنفسهم -بتواضع!!- كلّ القوى والفضائل، ستصبح النساء حتماً وفق التعريف السابق أضداداً لهم، ومخلوقات تنتمي إلى مرتبة أدنى: المرأة ضعيفة والرجل قويّ، المرأة جبانة والرجل شجاع، المرأة غبيّة والرجل ذكيّ. تعاليم زرادشت لخّصت ذلك التضادّ الثنائيّ ببراعة:

«الروحان البدئيّان اللتان تكشفان عن نفسيهما للبصر كالتوأم، هما الصالح والطالح. وفي الفكر، هما الكلمة والفعل. ما بينهما، يعرف الحكيم كيف يختار الصحيح، أمّا الأحمق فلا يعرف». بترجمة كلامه إلى مصطلحاتنا البشريّة، تقول الحكمة العربيّة: «الرجل جنّة، والمرأة جحيم». هذا التأثير أدّى إلى تحويل عِرق النساء بأكمله إلى جماعة منبوذة للأبد، وهي أضخم وأقدم جماعة مهمّشة عبر التاريخ. تعداد الإعاقات التي فُرِضَت على النساء باسم إله ذكوريّ زائف يدّعي أنّه أبٌ محبّ، بالكاد يكفي لوصف ما سبّبْه من شلل وضرر.

جُرِّدَت المرأة من حقّها باختيار زوجها

في الصين والهند والبلدان الخاضعة للأديان التوحيديّة، حيث قامت الإلهة الأمّ سابقاً باختيار عشّاقها العديدين بملء إرادتها، تحوّلت المرأة الآن

إلى مشارك سلبيّ في عمليّة الزواج، يختارها الزوجُ، ويقوم الوصيُّ عليها -وهو ذكر بكلّ تأكيد- بتزويجها.

حُرِمت المرأة من الأمان ضمن الزواج

أصبح الطلاق امتيازاً من امتيازات الرجل الحصريّة -تماماً كحريّة الاختيار- يُطبَّق وفق مشيئته، كما في الشريعة الإسلاميّة على سبيل المثال. الاختراع الآخر الذي حرم المرأة من الأمان، ومن أيّ فرصة بالشراكة المتكافئة ضمن الزواج، كان تعدّد الزوجات.

أُجْبِرَت المرأة على البقاء في منزل الزوجيّة

مُنِعَتِ المرأة من التواصل مع العالم الخارجيّ، وأصبحت رهينة الإقامة الجبريّة ضمن المنزل، وهو ما عزّزته الأديان الشرقيّة بفرض الحجاب، والعزلِ ضمن أقسام مخصّصة للإناث حصراً داخل البيت، والبرقع، والحريم أو «الزنانه» كما يسمّى في إيران، وكأنّ النساء دجاجاتٌ في قفص! في الغرب، عُزِلَت المرأة تماماً عن كلّ الفعّاليّات العامّة. القوانين الإيرلنديّة مثلاً، منعت مشاركة المرأة في العمليّات العسكريّة اعتباراً من مطلع القرن السابع للميلاد، وقضت بذلك على تقاليد كلتيّة عمرها ثلاثة آلاف عام على الأقلّ، تبجّل النساء المحاربات.

المرأة ضحيّة للقوانين الباترياركيّة

ما تُسمّى بـ «الشرائع الإلهيّة»، هي في الواقع قوانين تعبّر عن إرادة الرجل. في حمّى التشريعات الجديدة التي اكتسحت العالَم، تحوّل الرجل إلى «مالك» للأشياء جميعها، بمن فيها المرأة وأطفالها. خسرت المرأة حقوقها بالمِلكيّة وبالوراثة، بل حتّى حقّها في التحكّم بجسدها، وحقّها في ذريّتها. في قضية صينيّة مشهورة تعود إلى القرن التاسع الميلاديّ، ورثت إحدى النساء سبعة أعشار عزبة والدها عندما توفّي، بشرط أن تتولّى العناية بأصغر المنتفعين من الوصيّة، وهو شقيقها الصغير. تدخّلت سلطات الولاية على

الفور لنقض الوصيّة، فتركت للابنة ثلاثة أعشار فقط لا غير، إضافة إلى عبء تربية الصبيّ الذي استولى على ما اقتُطِعَ من حصّتها، بصفته الوريث الشرعيّ.

لم تُحرَم المرأة من حقوق الإنسان فحسب، بل ومن إنسانيّتها أيضاً

تحوّلت المرأة إلى ما-دون-إنسان، أي إلى كائن ذي مرتبة أدنى بالتعريف، وأصبحت محكومة دائماً وأبداً بالمقارنة السلبيّة مع «القاعدة»، وهي الذكر المثاليّ الكامل، المخلوق كصورة تامّة عن ذكرٍ آخر لا يضاهيه أحد، هو إلهه العليّ. في الإسلام، المرأة هي «كائن مبتور» على حدّ قول المؤرّخة فاتنة أ. صبّاح، التي تضيف: أشعر بالغثيان كلّما سمعتُ العبارة الافتتاحيّة الممجوجة تلك، «منذ القرن السابع للميلاد، أعطى الإسلام للمرأة مكانة مميّزة...». الرجل وحده يفسّر الرسالة القرآنيّة على أنها إيجابيّة بالنسبة للنساء.

في اليابان، بينما تتقبّل المرأة زوجها الذي يغتصبها من شرجها بالتهليل، ينبغي عليها أيضاً أن تترك ابنتها الرضيعة -وفقاً لكتاب الوسادة ذاته- مرمية على الأرض دون عناية، طيلة ثلاثة أيام، وثلاث ليال، «لأنّ المرأة هي الأرض، والرجل هو السماء»، وهذا هو القانون الذي «يهب الرجلَ لا المرأة، الحقَّ بأن تكون كلمته هي العليا، وأن يتّخذ جميع القرارات... بين يدي الرجل، المرأة هي مجرّد أداة يجب أن يكون خضوعها تامّاً، ومستمرّاً إلى أن تموت».

أين المفرّ إذن، بالنسبة للمرأة؟! كيف لها أن تنجو من تلك الهجمة الشرسة المستمرّة، التي تقودها شهيّة الرجل للتملّك، وحبّه للتدمير؟!

الإله الأب الجديد الذي ظهر في الشرق، خلال تلك الألفيّة الحاسمة التي يتوسّطها ميلاد المسيح، كان مختلفاً أشدّ الاختلاف عن أسلافه الفالوسيّين، رغم أنّه لا يقلّ عنهم تسلّحاً بالعدوانيّة الهوجاء والنزعة الهوسيّة. إنّه ليس الرعد، ولا يقيم بعيداً فوق الغيوم التي تكلّل قمم الجبال القصيّة. الله الآن يتجسّد في كلّ من يتمتّع بالسلطة شخصيّاً، سواء كان كاهناً أم قاضياً أم ملكاً، وكذلك في والد كلّ امرأة وفي أخيها وعمّها وزوجها. لقد أصبح موجوداً في منزلها وفي سريرها، والأهمّ، أصبح موجوداً داخل رأسها.

ينبغي على الإله الباترياركيّ أن يدافع عن نفسه في محكمة التاريخ، ضدّ جرائم كثيرة ارتكبها بحقّ النساء. لقد هاجم عبادة الإلهة الكبرى، ودمّرها، واستولى على ما يخدم غاياته منها، واختزل الأمّ الأرض إلى عروس – طفلة، وانتهك عذريّتها. جنسانيّة المرأة قُلِبَتْ رأساً على عقب، أو تمّ إنكارها كليّاً، واختُزِلَ جسدها إلى وعاء جنسيّ صرف يخضع لمشيئة الربّ، يملكه زوجها الذي أصبح بحدّ ذاته إلهاً، من واجبها تمجيده وإطاعته.

في أوّل، وأقـوى فعل من أفعال «التمييز العنصريّ»، و«الفصل العنصريّ» عن سابق إصرار وترصّد في تاريخ البشريّة، تمّ تحويل النساء إلى untermenschen أي إلى رتبة منفصلة من الكائنات الدونيّة. الأسوأ من ذلك كلّه، أنّ العالَم أجبر المرأة على الإيمان بدونيّتها وانحطاطها. بلا شكّ، لم تستسلم كلّ النساء بلا استثناء إلى القصف الإيديولوجيّ المتواصل الذي انتهجته الأنظمة الباترياركيّة الجديدة، ولم تكن كلّ تلك الأنظمة متينة عصماء كما يعتقد من أسّسها. أحكم الإله الباترياركيّ قبضَته ببطء، والفجوة التي نشأت بين ما تريده السلطات وبين ما يفعله البشر على أرض الواقع، أفسحت مجالاً للمناورة أمام النساء اللواتي يمتلكن الذكاء والموارد، كان أوسع ممّا تظهره السجلّات التاريخيّة التقليديّة. مقاومة النساء كانت بالضرورة محليّة، وفرديّة، وقصيرة الأمد، لأنّ الإيديولوجيّات الناشئة خلال صراعها على الهيمنة، لعبت بسعادة على وتر نقلِ المعركة إلى أرض ما زالت المرأة حتّى يومنا هذا تشعر بأنّها هشّة ومكشوفة فيها، وهي «الجسد الأنثويّ». هوجِمَت المرأة بشراسة، في نهديها، ووركيها، وفخذيها، وخاصّة في «فرْجها الذي لا يشبع».

خسرت نساء كثيراتٌ المعركة، دون أيّ أمل بالخلاص.

«جنّة المرأة تحت قدمي زوجها»

• مثلٌ بنغاليّ

خطايا الأمّهات

– ثلاثة لا تشبع: الصحراء، القبر، ومهبل المرأة.

• مَثَلٌ عربيّ

– جسدُ المرأة قذر، وهو ليس قناة للقانون.

• بوذا

– نحن نواجه خوفاً وجوديّاً من المرأة. الرجال يعانون من رهاب عميق الجذور، هو رهاب الخصاء الذي يتظاهر برعب يسبّبه الرحم.... تلك المخاوف شكّلت طبقاتٍ من خرافة «الشرّ الأنثويّ»، التي تبرّر قروناً طويلة من إبادة النساء.

• أندريا دوركِن

عندما جعل الرجل من نفسه إلهاً، حوّل المرأةَ إلى ما –دون– إنسان. «المرأة ليست سيّدة نفسها»، يجادل مارتن لوثر، «لقد صنع الله جسدَها بحيث ينتمي للرجل، كي تنجب الأطفال وتربّيهم». في خطّة العالَم الكبرى من وجهة نظر الذكر المؤمن بالعقائد التوحيديّة، المرأة هي مجرّد آلة لإنجاب الأطفال، لا تملك حقوقاً، وليس لديها احتياجات مهما كانت. «فلتُنجبِ الأطفال حتّى الممات» ينصحُ لوثر المؤمنين، «هذا ما خُلِقَت المرأة من أجله». مع ذلك، لم تصبح النساء مقبولات في عيون صنّاع الرأي

الباترياركيّين، رغم اختزال الجنس الأنثويّ بأكمله ضمن الوظيفة المبدئيّة المتمثّلة بالإنجاب. على العكس تماماً، الآن وقد انحطّت إلى ما دون إنسان، أصبحت «أشدّ الحيوانات غروراً وعناداً». إنّها الوحش الذي وُلِد في غفلة عن منطق الإله الأب، وهدّد وجود الرجال وترصّد لياليهم لآلاف وآلاف السنين. نجم عن ذلك حملة كراهية استهدفت الطبيعة الحيوانيّة للمرأة، بدأت مع ظهور اليهوديّة واستمرّت إلى بدايات العصر الحديث، وهي حقيقة راسخة لا يختلف عليها أحد في تاريخ النساء.

تاريخ النساء ليس مؤلّفاً من تتالي أحداث خارجيّة، تتقدّم خطيّاً إلى الأمام. الحروب، الحكّام، الإمبراطوريّات... إلخ، كلّها ظهرت واختفت خلال فترة زمنيّة قصيرة نسبيّاً، وكان تأثيرها على حياة النساء أقلّ من تأثير تابو الطمث مثلاً، أو من قتل المواليد الإناث. صاغت هاتان الثيمتان التجربةَ اليوميّة للمرأة، أكثر بكثير ممّا فعلتْه التواريخُ والوقائع والمعارك، لأنّهما خلقتا أنماطاً دوريّة مستمرّة ثابتة، تكرّرت عبر الأجيال. الهجوم على أجساد النساء هو نتيجة من نتائج فرض العقائد التوحيديّة الباترياركيّة، ليس له بداية أو نهاية معيّنة، وعاملٌ رئيسيّ يحدّد تاريخ كلّ امرأة عبر الزمن. إنّه يميّز، ويرسّخ، انحطاطَ النساء إلى ليل طويل من القمع الإقطاعيّ والاضطِهاد الغروتسكيّ. رغم ذلك، السقوط المتسارع إلى أعماق هاوية البؤس الجسديّ، هو وحده القادر على توليد العزم المطلوب، كي نتسلّق ببطء إلى مصافّ الإنسانيّة الكاملة مرّة أخرى.

لماذا كانت أجساد النساء أرضَ المعركة الرئيسة في الحرب بين الجنسين؟! الإجابة كامنة في صلب السعي الذكوريّ للهيمنة، فمن خلال تحويل المرأة إلى كائن منفصل مختلف أدنى مرتبة، وبالتالي إلى تابع شرعيّ، جعل الرجالُ النساءَ أوّل وأكبر جماعة مهمّشة في تاريخ الأعراق. مع ذلك، من المستحيل عزلُ المرأة تماماً عن حياة الرجل. لم تضطرّ أيّ طبقة اجتماعيّة، أو طائفة، أو أقليّة خاضعة، إلى أن تتعايش تعايشاً حميماً مع مضطهِدها كما فعلت النساء. اضطرّ الذكر المهيمن ثقافيّاً، إلى السماح بتواجد النساء في بيته ومطبخه وسريره، ولن يكون سيّداً مطلقاً في تلك

المجالات على اختلافها، إلّا إن قبلت المرأة بانحطاطها. بما أنّ المرأة ليست دونيّة بطبيعتها، إذن لا بدّ من قصفها بأدبيّات هائلة، دينيّة واجتماعيّة وبيولوجيّة، ومؤخّراً بإيديولوجيّات سيكولوجيّة، تفسّر سبب دونيّتها وتؤكّدها. كي تصدّق المرأة أنّها كائن أدنى، ما هو الأفضل من استهداف جسدها بالتعاليم الدينيّة، والحكايات الفولكلوريّة، والنكات، والعادات؟! بتدمير الموقع الأساسيّ الذي تتمركز فيه ثقةُ الإنسان بنفسه وإحساسُه بذاته، وبإغراقه بالخزي الجنسيّ وبالاشمئزاز الماديّ، حقّق الرجال مبتغاهم من خلال شعور المرأة بعدم الأمان وبالاتّكاليّة. لا يمكن إنكار الطبيعة الحقيقيّة للهجوم العالميّ المنظَّم المتفاقم ضدّ المرأة خلال القرون الماضية، ولا إنكار غايته. كلّ ذكر باترياركيّ شارك بتحقير الجنس الأنثويّ، انخرط في فِعل وحشيّ لإجبار النساء على الخضوع والاستسلام، لا يقلّ شناعة عن الاغتصاب الجماعيّ الذي تتباهى به قبائل ماندَروكو في أمريكا الجنوبيّة، التي يفتخر رجالها بأنّهم: «روّضنا نساءنا بموزة».

تلك التقاليد، والأدبيّات الضخمة، والترسانة الهائلة من الأسلحة الموجّهة ضدّ النساء، دليلٌ على مستوى عالٍ من القلق يعتري الرجل، كما أنّها في الوقت ذاته مؤشّر على مقاومة النساء القويّة. بما أنّ المرأة هي «حيوان عنيد»، لذلك يتجلّى انعدامُ منطقها وهمجيّتُها كأوضح ما يكون، في رفضها الانصياعَ أو الخضوعَ للدونيّة. العنف ضدّ المرأة، واستمرار تحقيرها، شاهدان على استمراريّة سلوكيّاتها الممنوعة وثباتها، وهي السلوكيّات التي تطلّبت كلّ تلك الضوابط في المقام الأوّل. ترسانة الضوابط القانونيّة والاجتماعيّة، هي أيضاً مؤشّر على مسبّبات قلق الرجل. في الواقع، لا وجود لجزء من جسد المرأة لم يسبّب الهلع، أو الخوف، أو الغضب، أو الرعب.

تشريح المرأة مرعب، بكلّ عضو من أعضائها، من رأسها وحتّى أخمص قدميها. شَعرها الكثيف قد يثير الشهوات برأي التلمود اليهوديّ، الذي سمح للرجل اعتباراً من عام 600ق.م، أن يطلّق زوجته إن ظهرت على الملأ مكشوفة الشَعر. القدّيس بولس مضى أبعد من ذلك، فأوصى المسيحيّين بحلاقة شعر المرأة التي تدخل الكنيسة حاسرة الرأس.

وجه الأنثى كان فخّاً آخر من فخاخ ڤينوس، يتصيّد أولئك الذكور الذين لا حول لهم ولا قوّة. في مقطع لاهوتيّ غريب يعود تاريخه إلى القرن الثالث للميلاد، اعتبر ترتوليان –وهو أحد الأباء المؤسّسين للكنيسة– أنّ «تَفتُّحَ العذراواتِ» مسؤول عن سقوط الملائكة. «إذن، ذلك الوجه الخبيث، الذي يجعل الأحجار تسقط من عليين، حتّى من الفراديس، يجب أن يبقى مغطّى».

خلف وجهها، تخفي المرأة أقوى وأخبث أسلحتها: لسانها. هناك مَثَلٌ معروف في كلّ ثقافات العالَم تقريباً، يصرّ على أنّ «الزوجة الوحيدة الصالحة، هي تلك الصامتة». طيلة قرون عند الإغريق في آسيا الصغرى، كان نعتُ أيّ امرأة بأنّها «ذاتُ لسان» سيقوّض فرصها بالزواج. القبائل المنغوليّة حرّمت على نسائها طيلة آلاف السنين نطقَ مجموعة كبيرة من الكلمات، يُسمح فقط للرجال باستعمالها. إلى الغرب منهم، اعتبر المسلمون أنّ أسوأ رذائل المرأة، هي أن تكون «شَدَقَة»، أي ثرثارة.

هوسُ الساميّة بثرثرة النساء ظهر باكراً، منذ فجر اليهوديّة، إذ نقرأ في شرائع موسى: «على النساء البقاء صامتات». هذه الوصيّة تكرّرت دون تعديل في الوصايا المسيحيّة على لسان القدّيس بولس، الذي أمر النساء جميعهنّ بـ«الصمتِ والخضوع التّام». إخراسُ النساء كشرط لازم لخضوعهنّ، لم يقتصر على الشرق الأدنى والشرق الأوسط. في ديانة الشنتو اليابانيّة، تكلّمت المرأة أوّلاً عندما خُلِقَ العالَم، لذلك أنجبت وحشاً. الرجلُ الأوّل، زوجها، فسّر ما حصل على أنّه رسالة من الآلهة، مفادها أنّ الرجل هو من يجب أن يتولّى الحديث دائماً، وهكذا كان.

في مطلع العصر الحديث في أوروبا، اتّخذ اضطهاد النساء اللواتي رفضن الصمتَ، منحى وحشيّاً شرساً باستخدام آلة تُسمّى «لجام السليطة». في شمال إنجلترا مثلاً، من القرن السابع إلى القرن السابع عشر للميلاد، خضعت النساء «سليطات اللسان الوقحات» إلى التعذيب التالي: تُساق المذنبة في الشوارع مربوطة بحبل، ورأسها محشور في آلة «لجام السليطة»، وهي أشبه بقفص من الحديد يغطّي الرأس والوجه، له لسان حديديّ يُحشَر في فمّ المرأة ويسبّب النزيف. بالإضافة إلى ذلك، هناك عقاب آخر بانتظار

سليطات اللسان، وهو «منصّة التوبة»، التي تتألّف من كرسيّ خشبيّ مثبّت بنهاية عارضة طويلة على حافّة النهر، تُغَطَّس المذنبة بواسطته مراراً وتكراراً في الماء أو الوحل أو القاذورات، إلى أن تغرق أحياناً.

على الأقلّ، عُدَّ رأسُ المرأة مستقرّاً لأيّ «عقل» قد تملكه، أمّا باقي جسدها، من عنقها وحتّى أخمص قدميها، فكان «ملعب الشيطان»، أو كما يشرح الإسلام: «كلّما دخلت المرأة إلى الحمّام، رافقها الشيطان».

من خلال السيطرة على جسد المرأة، وجد الرجال أنفسهم وجهاً لوجه أمام نتيجة غير مباشرة، لكنّها منطقيّة: لا يمكن ائتمان المرأة بالسيطرة على نفسها. المرأة لا تستطيع التحكّم بنفسها أبداً، لأنّها مجرّد وعاء فارغ ينحرف على هواه، لا تحرّكه إلّا العضلات النابضة بين فخذيها، كما يشرح لنا المقطع المهين التالي عن المرأة العربيّة في القرون الوسطى:

«النساء شيطانات، هكذا خُلِقنَ، ولا أحد يمكنه الوثوق بهنّ كما يعرف الجميع. إنّهن لا يتورّعن عن مضاجعة العبد إن غاب السيّد. إنّ اتّقدت رغباتهنّ ذات مرّة، سيقمن بالألاعيب، ولن يفكّرن إلّا بالقضيب المنتصب إن اشتعلت فروجهنّ».

الأدب العربيّ حافلٌ بذلك النوع من جنون الارتياب، الذي يستثيره خوف من «عضو المرأة الذي لا يشبع». المفردة العربيّة التي تدلّ على عضو المرأة التناسليّ هي «الفَرْج»، والتي تعني الشقّ أو الأخدود أو التصدّع، أي أنّه أشبه بفوهة صغيرة لكنّ الرجل قد يختفي فيه دون أثر. «لقد رأيتُ فَرْجَها!»، يتحسّر عاشق مرتعب في «الروض العاطر» –وهو أحد أبرز الأعمال الإيروتيكيّة العربيّة في القرن الخامس عشر– ويتابع: «لقد انفتح كأنّه فَرْجُ فرس عند اقتراب الفحل»... وهي ليست أسوأ مخاوف الذكر العربيّ على ما يبدو، إذ يحذّر المؤلّف قرّاءه من أنّ «بعض الفروج مسعورة بالرغبة والشبق، تهجم على عضو الذكر ما إن يدنو منها». عضو المرأة التناسليّ المصاب بسُعار الجماع «يشبه رأس أسد! آه أيّها الفَرْج! كم يموت الرجال على بابك!». الخوف المستعرّ من المهبل الجشع، بلغ أبعاداً وبائيّة في البلدان العربيّة، بالكاد تخفيها الشريعة الإسلاميّة التي تبيح

تعدّد الزوجات، لأنّها تضعنا أمام مفارقة بنيويّة بين شهوةِ المرأة التي لا ترتوي، ومطالبتِها بالاكتفاء بربع زوج.

طوّرت الثقافات الأخرى بدورها نسختها الخاصّة عن «المهبل مصّاص الدماء»، أو «بوّابة الشيطان»، فظهرت فانتازيات أصيلة تتعلّق بالخصاء، كما في المشهد التالي الأشبه بمشهد من أفلام ديزني عمّا يخسره الصِبية، والذي كتبه في القرن الخامس عشر الراهب الدومنيكانيّ صائد الساحرات، جايكوب سبرينجر في ألمانيا:

«ماذا عن أولئك الساحرات اللواتي يقمن أحياناً بجمع أعداد كبيرة من الأعضاء التناسليّة الذكريّة، عشرين أو ثلاثين منها في آن واحد، يضعنها كلّها في عشّ طائر أو في صندوق مغلق، حيث تتحرّك تلك الأعضاء من تلقاء نفسها كأنّها حيّة، وتأكل الذرة والشوفان، كما يروي شهود كثيرون».

من المثير للاهتمام أنّ ثيمة الممارسات الجنسيّة التي لا تُعدّ ولا تُحصى، والتي تهدّد المرأةُ الشبقة من خلالها هيمنةَ الذكر بـ «مهبلها الذي لا يرتوي»، ليست ابتكاراً حصريّاً خاصّاً بالأديان الباترياركيّة الشرقيّة. تشرح لنا إحدى قصص شعب النافاجو في نيو مكسيكو مثلاً، لماذا يجب أن يسود الرجال على النساء:

أغاظ الرجل الأوّل زوجته بأنّها لا تهتمّ إلّا بممارسة الجنس فقط، ممّا أدّى إلى نشوب جدال بينهما، وادّعت الزوجة أنّ النساء قادرات على العيش من دون الرجال. لذلك، كي يثبت الرجال وجهة نظرهم، عبروا النهر إلى الضفّة الأخرى، ثمّ أحرقوا الزوارق التي حملتهم. مع مرور السنين، أصبحت النساء أضعف، لأنّهن بحاجة إلى قوّة الرجل من أجل الحصول على الطعام، كما أنّهنّ جُنِّن من الشهوة، ونتيجة قيامهنّ بإمتاع أنفسهنّ بأنفسهنّ، أنجبن وحوشاً.. الرجال مارسوا الاستمناء بدورهم، لكن لم ينتج أيّ سوء عن ذلك. بعد أن مات الكثيرون، وبعد معاناة عظيمة، استسلمت النساء وتوسّلن إلى الرجال كي يقبلوا بهنّ مجدّداً، وهو ما كان، بعد أن اتّفقوا جميعهم على أنّ الرجل يجب أن يكون السيّد القائد، بما أنّه ينتمي إلى الجنس الأقوى».

الجنس الأقوى؟! قرون وقرون من التشدّق العنيد بهذه الخرافة، لم

تكشف إلّا عن زيفها، عن الخوف الموروث من الضعف الذي تسبّبه المرأة للرجل، دون أن تعانيه هي. قوّة تلك البروباغاندا التاريخيّة، التي تحوّلت في بعض الأماكن إلى حملة معادية للنساء، تجعل الأرضَ عالَماً الرجلُ فيه هشٌّ وخاضعٌ لاستبداد الرغبة الأنثويّة، أمّا المرأة فتبقى قويّة لا تضعف. أثناء ممارسة الجنس، تتفتّح المرأة أمّا الرجل فيذبل. الرجل يخترق المهبل بصلابة، منتصباً، في أوج قوّته، ثمّ يخرج منه ذاوياً مُتعَباً متهدّلاً. على العكس منه، تتلقّى المرأة جوهر الذكر وأفضل ما فيه، لذلك يكون مهبلها في آن واحد مصدراً ومُستَقَرّاً لطاقة متجدّدة لا تنقطع، أمّا طاقة القضيب فهي محدودة وغير كافية ولا تدوم. بعد أن يعطي المرأةَ كلّ ما لديه، سيتجرّد الرجلُ من ذكورته على يديها، ولن يقوى على استجماع فحولته متى شاء. لا عجب إذن أن يكره المخلوق الذي يسلبه قوّةً، لا يستطيع أيّ من آلهته إعادتها إليه!

وهذا ليس كلّ شيء، فالذكر يتعرّض إلى مخاطر هائلة تنجم عن «شقّ المرأة» المتوحّش، لأنّ اختراق «مسكن الشيطان»، و«إطعام الحيوان ما بين فخذي المرأة» لا يهدّدان جسدَ الرجل فحسب، بل روحه أيضاً. خلال تلك الفترة، تبلورت إلى الوجود فكرة ما لبثت أن ترسّخت في التيّار الدينيّ السائد، تمثّلت بانشغال هستيريائي بجسد المرأة، واعتباره بؤرة للتلوّث والأمراض ونقل العدوى إلى الرجال.

ما هي الجذور التاريخيّة لتلك الحملة المخرِّبة، المستمرّة، ضدّ أجساد النساء، قلعةِ الذات؟ الجواب على هذه المعضلة يحيلنا إلى قضيّة أساسيّة، هي الدم. أثناء الطمث، لا يجعل الجسدُ الأنثويّ صاحبَته ما -دون- إنسان فحسب، بل يحوّلها إلى ما هو أسوأ من الحيوان. من بين جميع عناصر الجسد البشريّ، الدم هو العنصر الأقوى المرتبط بالقوّة وبالخطر. يكفي أن نلقي نظرة على تحريم شربه أو أكله، بدءاً من الشريعة اليهوديّة، مروراً بمعتقدات قبائل «سُوْ»[1]، وانتهاء بالهندوسيّة. الطمث هو دم غامض، خطير، قذر، ومُهدِّد:

1- Sioux قبائل من السكّان الأصليّين، تعدّ من أوائل الشعوب التي استوطنت أمريكا الشماليّة. المترجمة

«المرأة الحائض هي من أعمال الإبليس أهريمون. ممنوع عليها أن تتطلّع إلى النار المقدّسة، أو أن تغتسل بالماء، أو أن تحدّق إلى الشمس، أو أن تتحدّث إلى رجل».

تابو الطمث الذي وصفه الحكيم الفارسيّ زرادشت في المقطع السابق، يعني أنّ المرأة طيلة ربع حياتها كراشدة، ولأسبوع كامل من أصل أربعة أسابيع، ستوصَم بالعار وتُعزَلُ بعيداً، وتتحوّل إلى معاقة تُحظر عليها المشاركة في حياة المجتمع القديم. نظام الفصل العنصريّ هذا أوضح ما يكون في المجتمعات البدائيّة، كشعب كامانو كافِه في بابوا – غينيا الجديدة: عندما تحيض الفتاة للمرّة الأولى، تُحبَس في كوخ مظلم دون طعام لمدّة أسبوع، وتُلقَّن أنّها تشكّل خطراً على نفسها وعلى الآخرين. إن فشلت باتّباع المحرّمات الطقوسيّة، سيسبّب كلٌّ من دمها وجسدها الإقياءَ للرجل، ويجعلان دمه أسود، ويسمّمان لحمَه، ويقضيان على ذكائه، من ثمّ تعتلّ صحّته رويداً رويداً إلى أن يموت. هذه المعتقدات والتابوهات موجودة في كلّ المجتمعات البدائيّة، وتتّخذ صيغة تعبّر غالباً عن طبيعة الصراع بين المهيمِن والخاضع. سكّان أمريكا الأصليّين الذين استوطنوا داكوتا، يعتقدون أنّ «واكان» wakan (تتُرجَم إلى القداسة أو السُلطة) المرأةِ الحائض تُضْعِفُ «واكان» قوى الذكر جميعها، سواء في الحرب أو في السِلم.

مهما كانت صيغة التابو، قوّته تدلّ على ترافق لغز الطمث البدائيّ مع مستوى عالٍ من الخوف والتهديد. الطمث خطير، ولا يمكن التحكّم به، وأي امرأة تنتهك التابو قد تعرّض نفسها إلى موت عنيف مفاجئ. في المجتمعات التي تطوّرت تحت مظلّة التنظيم الباترياركيّ المتزمّت، تابو الطمث كان خفيّاً، لكنّه لا يقلّ صرامة عمّا رأيناه في بقيّة المجتمعات، لأنّ آلهة الشرق الأوسط التي تتحدّث بلسان اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، شديدة القسوة. في اليهوديّة، انكبّ رجال الدين على النصوص التوراتيّة كسِفر اللّاويّين، ووصموا المرأة بأنّها نجسة niddah طيلة اثني عشر يوماً تبدأ قبل الطمث وتنتهي بعده، كما فرضوا عقوبات شرسة عليها أثناء هذه المرحلة. استناداً إلى كتاب الشريعة المقدّسة شولخان أروتش Shulchan

Aruch، ظلّت المرأة اليهوديّة الحائض «النجسة» ممنوعة حتّى أواخر عام 1565 للميلاد من: النوم في سرير واحد مع زوجها، تناول الطعام مع عائلتها أثناء الوجبات، التواجد في الغرفة ذاتها مع شخص آخر، إشعال شموع السبت، دخول الكنيس، وأن تلمس زوجها أو أن تناوله أيّ شيء. في لمسة ختاميّة، أشبه برؤية استباقيّة لمستقبل اليهود، توجّب على النجسة أن تلبس ثياباً خاصّة، في إشارة إلى حالتها المعزولة البغيضة. على أرض الواقع، هذا يعني أنّ المرأة ليست «فرداً»، بما أنّها تُجرَّد من كلّ حقوقها الإنسانيّة بشكل ممنهج مستمرّ، كما يشرح حاييم بِرمانت: «عُدّتْ بمثابة الفساد الأقصى، بمثابة حضور نازٍّ متقيّح يمشي على قدمين... ولا يمكن لأحد أن يدنو منها كي يستفسر عن صحّتها، لأنّ أنفاسها تصبح مسمومة، ونظرتها مؤذية، وهي تلوّث حتّى الهواء من حولها».

اقتبست المسيحيّة والإسلام عن اليهوديّة الكثيرَ ممّا يتعلّق بالطمث، وبذلك تحوّل التابو القَبَليّ البدائيّ في فلسطين، إلى شريعة دينيّة. الأديان الثلاثة حرّمت صراحة أيّ اتّصال جنسيّ بين الرجل والمرأة أثناء «مرضها»، ورسّخ القرآن ذلك التحريم باكراً من خلال الآية: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ». من الجدير بالذكر أنّ النبيّ محمّداً كفرد، حاول التصدّي للهجوم الذي يستهدف النساء في منبع ومستقرّ أنوثتهنّ، فكان يكرم زوجته الحائض أمام أصحابه، ويأخذ سجّادة الصلاة من يدها، بل ويشرب معها من كأس واحدة قائلاً: «إنّ حيضتك ليست في يدك، ولا في كأسك»، كي يعلّم أتباعه أنّ الحائض ليست خطيرة ولا مُعدية، بل هي المرأة ذاتها التي تأكل وتشرب وتتبرّز، لكنّ محاولته تلك باءت بفشل تاريخيّ.

موضوع الدم، هو مسألة رئيسيّة في صراع الباترياركيّات للتحكّم بأجساد النساء. المرأة لا تحيض شهريّاً فحسب، منذ بداية البلوغ إلى مرحلة متأخّرة من حياتها كراشدة، بل إنّ كلّ طور من أطوار حياتها كامرأة، وكلّ انتقال من طور إلى آخر (بدء الطمث، افتضاض العذريّة، الإنجاب)، يترافق مع سيلان دمها بكلّ ما فيه من علامات مرعبة قويّة، مرتبطة مع الموت والحياة. كلّما

كان الخطر أعظم، أصبح التابو أقوى. أطوار الحياة تلك، حرّضت نشوءَ مجموعة متداخلة، ووحشيّة غالباً، من الخرافات والمعتقدات والعادات، طمست حَمولتُها من المخاوف الثقافيّة الاهتمامَ بالمرأة كفرد، رغم أنّها سبب تلك المخاوف، ومحورها.

منذ فجر أديان الإله الواحد، وحتّى مطلع القرن العشرين، تركّزت مقاربةُ التجربة الجنسيّة الأولى للعذراء على مهبلها فحسب، بوصفه «موضع الشرور»، لا على صاحبته. الاختراق الأوّل للمهبل هو الأخطر، لذلك لا بدّ من حماية الرجل، الذي يُضطرّ أثناء تمزيق بكارة الأنثى إلى إيلاج أشدّ أعضائه عرضة للأذى، في أعماق ما يسمّيه سفرُ اللّاويّين «ينبوع دمها». اجتهدت الباترياركيّات طوال قرون عديدة في درء ذلك الخطر: «من مصر القديمة، إلى تلك العبادات الباقية في الهند وإيران... يُطلَب من العذراء قبل إتمام الزواج، الجلوسُ على فالوس إله الشمس الذهبيّ، كي تتمزّق بكارتها وتنزف، فيتحوّل دم البكارة ذاك -الذي يُعتبَر نجساً- إلى مقدّس، ولا يجرؤ أيّ رجل محترم على الزواج بفتاة لم تتبع ذلك الطقس». بدلاً من الفالوس، يمكن استخدام «أداة بشريّة»، لأنّ فضّ بكارة الفتاة يُعَدُّ «عملاً وضيعاً في أجزاء عديدة من الشرق». الذكور، خاصّة أولئك الذين ينتمون إلى الطوائف العليا، يقومون بـ«اختراق العروس بواسطة قضيب حديديّ، أو يأمرون عبداً أسود بفضّ عذريّتها، عوضاً عن تلويث أنفسهم بذلك الفعل». في مجتمعات أخرى -خاصّة في شمالي أوروبا- يدرَأ الخطرَ عن العريس رجلٌ أكبر سنّاً، تهبه مرتبته وقوّته وعدم اهتمامه شخصيّاً بالعروس حمايةً من «شرّها». الذكر البديل قد يكون والد العريس، أو عمّه، أو أخاه الأكبر، أو سيّده الإقطاعيّ، وإن كان العريس فرداً من تنظيم عسكريّ، يؤول الحقّ بافتضاض بكارة العروس -أي «حقّ السيّد» Droit du seigneur كما يُطلَق عليه- إلى القائد المسؤول عنه. الكَرَم تجاه الرفاق في تلك الحالات يُلغي الاعتبارات الزوجيّة، في الطقس المعروف ضمن الجيش العثمانيّ قديماً باسم «فتح الخزانة»، أُجبِرَت عروس عذراء ذات مرّة على مضاجعة مئة رجل من كتيبة زوجها في ليلة واحدة. في العديد من بلدان آسيا الصغرى،

تُستَعمل مفردة مشتقّة من مفردة «ثيّب» العربيّة، للإشارة إلى العذراء التي تمرّ بتلك الطقوس الهمجيّة أثناء فضّ بكارتها، وتهرب من عريسها مصدومة. بعد خوض تجربة كهذه، سواء ترافقت مع «حقّ السيّد» أم لا، لا عجب أنّ معظم أولئك السيّدات لم يبقين على قيد الحياة.

بطبيعة الحال، السجلّات التاريخيّة التي تسرد ما سبق من وجهة نظر المرأة، نادرة ومتفرّقة. الأنثى التي لا يهيّئها أحدٌ لما ينتظرها، ولا تعرف الرجل الذي ستتزوّجه، فضلاً عن أنّها بالكاد تجاوزت مرحلة الطفولة، ستُصدَم حتماً عند المرور بتجربتها الجنسيّة الأولى. وصفت إحدى الضحايا مجريات ما يحدث، وهي السيّدة الأرستقراطيّة اليابانيّة ني -جو. في عام 1271 للميلاد، قام والدها بإهدائها للإمبراطور غوفوكاساكا وهي في الرابعة عشرة من عمرها. لم تدرِ ني- جو بما يحصل إلّا عندما استفاقت، لتجد غوفوكاساكا في غرفتها صباحاً. «عامَلَني بلا رحمة»، كتبتْ في مذكّراتها، «لدرجة أنّه لم يعد لديّ ما أخسره، وكرهتُ نفسي».

العنف الجنسيّ، وليس ذاك الذي يحدث ضمن إطار الزواج «الآمن» فقط، كان تجربة شائعة مرّت بها معظم النساء عبر التاريخ. أمومة المرأة مُبجَّلة، لكنّ ما يجعلها أمّاً هو عمليّة مُحتَقرة. المرأة التي تُعرَّف بجنسها وتُؤسَر في إطاره، تُعاقَب على جنسانيّتها بتقنيّات متنوّعة، تهدف دائماً إلى التحكّم بكلّ طرق الانتفاع من الجسد الأنثويّ، من ثمّ التخلّص منه.

الزواجُ القسريُّ

على امتداد العالَم المعروف، رسّخت التشريعات والأعراف الاجتماعيّة سلطةَ الأب، وحقّه بتزويج ابنته إلى من يشاء، وخوّلته اتّخاذَ كلّ ما يلزم لفرض قراره. عندما رفضت إليزابيث باستون عريساً غنيّاً لأنّه عجوز مشوَّه، حبسها والدها في غرفة مظلمة دون طعام، في عزلة مطلقة، كي يجبرها على القبول. كان يضربها مرّة أو مرّتين في الأسبوع، «وأحياناً مرّتين في اليوم الواحد، كما شجَّ رأسها في موضعين أو ثلاثة»، لكنّ إليزابيث تشبّثت بموقفها وانتصرت، وتزوّجت زواجاً سعيداً مرّتين لا مرّة واحدة، ممّا جعلها إحدى أثرى سيّدات

إنجلترا في القرون الوسطى. لم تكن الأخريات محظوظات مثلها. في إيرلندا خلال الفترة نفسها، تطلّب الأمر ثلاثة رجال لجرّ فتاة مسكينة واحدة هي إيزابيلا هيرون، طيلة نصف ميل إلى باب الكنيسة، حيث أشبعها والدها ضرباً وأجبرها على الدخول.

الآباء ليسوا المجرمين الوحيدين: في خطبة كاثرين ماكِنْكي في الكنيسة ذاتها، ضربتْها أمّها بعارضة السرير المصنوعة من السنديان، من ثمّ انهال والدها عليها بالضرب حتى سقطت أرضاً.

الطفلةُ - العروس

في أوروبا عموماً، كان من المتعارف عليه تزويج الفتاة بعمر الثانية عشرة، رغم أنّه سنّ يافع للزواج ولبدء العلاقة الجنسيّة. في الهند، لم يضطرّ الآباء للتعامل مع بنات متمرّدات كإيزابيلا وكاثرين، لأنّ النظام الباترياركيّ هناك حرص على تزويجهنّ قبل أن تدرك الفتاة أصلاً أنّها امرأة. منذ أقدم العصور وطيلة فترة الاستعمار البريطانيّ، توجّب على الطفلة - العروس أن تسعى للإنجاب بعد تسعة أشهر من البلوغ (سنّ البلوغ في شبه القارّة الهنديّة يبدأ عموماً في الثامنة أو التاسعة)، إذ يتمّ تزويجها قبله بوقت طويل، كما أنّ الزوج الحصيف سيمارس معها الجنس بانتظام قبل أن تبدأ دورتها الطمثيّة، كي يستغلّ «ثمرتها الأولى».

ضمن تلك الظروف، قَبِلَ الذكرُ الهنديّ غالباً بـ«قطاف محصوله». زواج الطفلات في الهند هو نمط معقّد من إبادة الإناث، إذ تموت ملايين الطفلات سنويّاً أثناء الولادة، أو بسبب أذيّات الجهاز التناسليّ. في عام 1921، أجرت الحكومة البريطانيّة إحصاء رسميّاً في الهند، كشف عن وفاة ثلاثة ملايين ومئتي ألف عروس - طفلة، خلال الأشهر الاثني عشر السابقة فحسب، في ظروف وثّقها أطباء الجيش البريطانيّ كما يلي: أ) العمر تسع سنوات، يوم بعد الزواج، الفخذ الأيسر مخلوع، الورك محطّم تماماً، الأنسجة ممزّقة. ب) العمر عشر سنوات، لا تقوى على الوقوف، نزف غزير، تهتّك شديد في الأنسجة. جـ) العمر تسع سنوات، ممزقّة ومُنتَهَكة إلى

درجة يتعذّر معها الإصلاح الجراحيّ. زوجها متزوّج من امرأتين غيرها، ما تزالان على قيد الحياة، ويتحدّث الإنجليزيّة بطلاقة. د) العمر سبع سنوات، تعيش مع زوجها، ماتت ميتة مأساويّة بعد ثلاثة أيّام. هـ) العمر حوالي عشر سنوات، زحفت إلى المستشفى على يديها وركبتيها، غير قادرة على الوقوف منتصبة منذ تزوّجت....

إذن، يملي المنطق كما يصرّ الحكماء، على أن يقتنص الرجالُ الفتياتِ وهنّ يافعات، قبل أن تقضي عليهنّ «أمراض» النساء تلك. «تتزوّج باكراً، وتموت باكراً... هذا هو شعار المرأة الهنديّة»، أو كما يقول المثل الهنديّ: عُمر الزوجة يساوي موسمي مونسون.

عروسٌ للبيع

ضمن تلك الظروف، قد تكون الثروة من نصيب الزوجة الصغيرة، بعد أن تمرّ بزواج بغيض همجيّ قصير. على هامش الزواج القسريّ في أوروبا في بدايات الحقبة الحديثة، نقرأ عن عمليّة «بيع العروس» المثيرة للفضول، التي يتمّ من خلالها بيعُ الوريثة اليافعة الفتيّة إلى من يدفع السعر الأعلى، في مزاد علنيّ بحت. معظم التشريعات آنذاك سمحت للمرأة نظريّاً بأن تمتلك الأراضي، أو أن ترثها، أو أن تبيعها، أو تهبها، لكنّ المرأة عمليّاً كانت تقضي حياتها تحت وصاية ذكر، قد يكون الأب أو الزوج أو سيّدهما الإقطاعيّ، لأنّ الوريثة هي ببساطة جزءٌ من أملاكه.

عام 1185م، أمر الملك هنري الثاني في إنجلترا بإحصاء الوريثات جميعهنّ في المملكة، وكأنّهنّ قطيع خراف، مهما كانت ممتلكاتهنّ صغيرة. «المدعوّة أليس دو بوفو، أرملة توماس، هي ضمن هديّة مولانا. إنّها في العشرين من عمرها، ولديها ابن واحدٌ كوريث، عمره سنتان. أرضها تساوي 5 جنيهات و6 شلنات و8 بنسات، مع رأس مال مكوّن من محراثين، مئة خروف، بغلين للفلاحة، خمس خنزيرات، خنزير ذكر واحد، وأربع بقرات». أليس دو بوفو تلك كانت «حقلاً محروثاً»، ولا تُعَدّ هدفاً جذّاباً لمتصيّدي الجوائز بوجود وريثها الحيّ. العذراء التي لم تُمسّ كانت الأغلى، فقد

بيعت رضيعة مثلاً بعمر ثلاثة أشهر لقاء مئة جنيه، وعندما اجتازت مرحلة الطفولة بسلام وبلغت سنّاً يؤهّلها للزواج، صارت تساوي 333 جنيهاً. المثال التالي يوضّح ما يعنيه كلّ ما سبق بالنسبة للنساء: عام 1225م، وهبَ الملكُ جون الليدي مارغريت الشابّة، أرملةَ وريثِ إيرل ديڤون، كجائزة إلى رئيس المرتزقة فالْك دو بروتيه. الزواج بين سيّدة إنجليزيّة وبلطجيّ فرنسيّ، صعق المؤرّخ ماثيو دو باريس آنذاك باعتباره فضيحة، فكتب: «النبالة تتّحد مع الوضاعة، التقوى مع الفسوق، الجمال مع العهر». تحمّلت مارغريت مأساتها تسع سنوات، إلى أن تبخّرت حظوة زوجها في البلاط الملكيّ، ممّا مكّنها من إلغاء الزواج. عندها، توجّه دو بروتيه مباشرة إلى روما، كي يقدّم شكوى للمطالبة باسترجاع طليقته، لكن في إشارة واضحة من السماء كما علّق الناس آنذاك، مات دو بروتيه قبل أن ينظر البابا في قضيّته.

التحكّم بالأعضاء التناسليّة

من بين الأمور المُهينة التي لربّما فرضها دي بروتيه على زوجته، جهازٌ بربريّ يُدعى «حزام العفّة». هذا الاختراع الهمجيّ انتقل من البلدان الساميّة إلى أوروبا على يد الصليبيّين، على إثر الحملات الصليبيّة التي استهدفت الأرض المقدّسة منذ مطلع القرن الحادي عشر للميلاد. ككلّ الأدوات والتقنيّات المماثلة التي استُخدِمَتْ للتحكّم بالأعضاء التناسليّة للمرأة، حزام العفّة كان مُذلّاً ومرعباً أكثر بكثير ممّا يوحي به اسمه الحماسيّ. يتألّف من مشدّ حديديّ أو فضيّ، يضغط بقوّة على جسد المرأة، مع قطعة حديديّة تمرّ بين ساقيها وتغلق المسافة ما بينهما بإحكام، فيها شقّان ضيّقان تحيط بهما أسنان حادّة، يسمحان بتصريف فضلات الجسم. عندما ترتدي المرأة حزام العفّة، لن تستطيع غسل أعضائها التناسليّة أبداً، وستصبح أسيرة الرائحة العفنة نظراً لأنّ القطعة المعدنيّة ما بين الساقين تعيق خروج البول والبراز ودم الطمث، وتحبس الفضلات تحتها، كما أنّ الحزام يعيق الحركة. لم يحظَ استعماله بجماهيريّة واسعة، لكنّنا نستشفّ مقدار الاهتمام الشعبيّ بـ«ميكانيك» التحكّم بالأعضاء التناسليّة من خلال الشهرة الفوريّة التي

حصدها رئيس كنيسة بادوا في العصور الوسطى، عندما اخترع جهازاً حديدياً مشابهاً يغطّي النصف السفليّ بأكمله من جسد المرأة. في القرن السادس عشر، سجّل رئيس دير برانتوم في يوميّاته أنّ باعة الحديد في السوق عرضوا «دزّينة من المصائد لإغلاق أعضاء المرأة». التنقيبات الأثريّة اللّاحقة، خاصّة في ألمانيا، أكّدت أنّ المرأة كانت تُدفَن وهي تلبس حزام العفّة أحياناً.

التحكّم بالأعضاء التناسليّة الأنثويّة وفق تلك الطريقة، هو اختراع شرقيّ قديم للغاية، انتقل متأخّراً إلى أوروبا. أوّل ما يقوم به مالك العبيد هناك، كان إدخال حلقة معدنيّة واحدة أو أكثر في الأشفار الكبيرة لكلّ العبدات الإناث، منعاً لحصول حمل غير مرغوب به، أو انتهاكِ خدماتهنّ الجنسيّة. التحكّم بأعضاء العبدات -الخاضعات أصلاً خضوعاً مضاعفاً للسيّد- كان أقرب إلى الاغتصاب أو التعذيب، كما يوضّح المقطع التالي: «في الحريم السودانيّ، وبعد أن يفضّ السيّد بكارتها، تتمّ حماية المرأة من الخصيان الشبقين بواسطة قطعة من غصن بامبو طولها 12 إنشاً، تُحشر في المهبل حتّى ثلثه تقريباً، وتُثبّت بحبل على البطن والفخذين، مع غطاء منسوج من القشّ في الأمام يغطّي الفَرْج».

الجديد في الأديان الباترياركيّة، كان استخدام أنماط أقسى من التحكّم بالأعضاء التناسليّة الأنثويّة، وتوسيعها لتشمل النساء جميعهنّ، من خلال تقنيّة تفضح إصراراً واعياً على التعامل مع «مشكلة» جنسانيّة المرأة، تتمثّل بتدميرها كليّاً.

بترُ الأعضاء التناسليّة الأنثويّة

كما مع حزام العفّة، بترُ الأعضاء التناسليّة الأنثويّة يتنكّر باسمه المتداول، وهو «ختان الإناث». الذي يتمّ فيه بتر واستئصال الأعضاء التناسليّة الظاهرة عند الأنثى كليّاً، ولا يشبه استئصال القلفة عند الذكر. انتشرت هذه العمليّة الفظيعة انتشاراً واسعاً في الشرق الأوسط بعد ظهور الإسلام، ووصلت إلى إفريقيا حيث ما تزال تُمارس إلى يومنا هذا، ولا شيء يبرّر بقاءها إلّا الجهل العامّ المطبق.

يتمّ البتر كالتالي: في طقس خاصّ بالنساء، تردّد امرأة تتخصّص بهذا النوع من العمليّات «لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله» و«أبعد الله عنك كلّ الشرور»، ثمّ تباشر عملها على الطفلة التي يتراوح عمرها ما بين الخامسة إلى الثامنة، مستعملةً حجراً مسنوناً أو شفرة حديديّة أو شظيّة زجاج. في المرحلة الأولى، تستأصل البظر كاملاً مع غلافه، من ثمّ تسلّخ الشفرين الصغيرين، ومعظم الأجزاء الداخليّة للشفرين الكبيرين. بعدها، تقرّب الشرائح الجلديّة الباقية بعضها من بعض، وتخيطها بواسطة أشواك، ممّا يسدّ مدخلي المهبل والإحليل تماماً، عدا فوهة صغيرة جدّاً تبقى مفتوحة باستخدام شظيّة خشب صغيرة أو ساق نبتة، تسمح بتصريف البول ودم الطمث. «تشهد» الأمّ والضيفات الإناث على حدوث العمليّة، ويتحسّسن الجرح بأصابعهنّ، فضلاً عن تغطيته بالرماد والتراب لإيقاف النزيف. أخيراً، تُربَطُ ساقا الفتاة معاً من الورك إلى الكاحلين طيلة أربعين يوماً، كي تلتئم شرائح الجلد المشدودة دون أن ينفتح الجرح. تكون الطفلة صاحية خلال كلّ ما سبق، وتقوم قريباتها الإناث بتثبيتها أرضاً كي لا تهرب.

تخيّلوا تلك العمليّة التي تجريها عجوز ضعيفة البصر، بيدين مرتجفتين، في خيمة سيّئة الإنارة أو على أرض كوخ طينيّ، وتخيّلوا مضاعفاتها: النزيف، الإنتانات، تمزّق الإحليل أو المثانة أو الشرج، خرّاجات الفَرْج، والسلس البوليّ، فضلاً عن أنّ المساعدة الطبيّة لن تُطلَب، إلّا إن أعاقت الندبةُ المتشكّلة على الفرْج المشيَ. قد تحدث اختلاطات متأخّرة مع تقدّم الفتاة في العمر، كاحتباس دمّ الطمث (أحد الأطباء الفرنسيّين العسكريّين أجرى ذات مرّة عمليّة لفتاة من جيبوتي في السادسة عشرة، لاستخراج 3.4 ليتر من دم الطمث الأسود المتعفّن المحتبس)، والألم الشديد أثناء الجماع أو الولادة.

بأيّ حال، لا يمكن أن تحدث الولادة أو الجماع الأوّل دون آلام مبرّحة، لأنّ عمليّة التقطيب (التي يسمّيها أولئك الذين لم يمرّوا بها بـ«الختان»، ببساطة!) مصمّمة عمداً للتقليل من قدرة جسد المرأة على تقبّل القضيب. يصف أحد الخبراء طقوسَ ليلة الزواج في الصومال، حين يقوم الزوج بجلد

زوجته بالسوط، من ثمّ يستعمل خنجره لـ «فتحها»، ويجامعها مراراً وتكراراً جماعاً مطوّلاً خلال الأيّام الثلاثة التالية، بهدف «صنع فوهة»، ومنع الندبة من الانغلاق مجدّداً. في صباح اليوم التالي للزفاف، يضع الرجل خنجره المدمّى على كتفه، ويتمختر هنا وهناك وسط استحسان الناس، أمّا الزوجة فتبقى في السرير دون حراك، للحفاظ على الجرح مفتوحاً.

إن نتج عن الجماع حمل، قد تضطرّ المرأة لإجراء «جراحة» بدائيّة ثانية، من أجل توسيع فوهة المهبل، لأنّ الفتحة الأولى بالكاد تكفي لدخول القضيب. عادة، تُترَك الحامل وشأنها أثناء المخاض، دون أيّ تدخّل إلى أن تلد أخيراً، بغضّ النظر عن التمزّقات التي ستصيب العجان. إن كان من الضروريّ حتماً توسيع الفتحة كي يخرج الطفل، ستُخاط مجدّداً بعد الولادة مباشرة. مع نسبة الخصوبة العالية، ونسبة وفيّات المواليد العالية، قد تتكرّر عمليّة الولادة تلك اثنتي عشرة مرّة، وأحياناً أكثر.

الحلّ النهائيّ

بتر الأعضاء التناسليّة الأنثويّة كان ولا يزال ممارسة خطيرة، لكنّها محليّة، أمّا العنف الجنسيّ الأقصى الذي يمارس ضدّ النساء، فليس محدوداً بزمان أو مكان: القتل. في ظلّ الباترياركيّة، الولادة كأنثى هو حكم بالسجن المؤبّد، إلّا أنّ الكثيرات لم يعشن لتلقّيه، نظراً لأنّ الولادة كأنثى في الزمن الغابر قد تكافئ حكماً بالإعدام أحياناً. قتل المواليد الإناث انتشر كالوباء، فمنذ ظهور أقدم السجلّات التاريخيّة وحتّى اليوم، ولادة الأنثى في الهند أو الصين أو البلدان العربيّة، أو على الأصحّ في أيّ مكان ما بين المغرب وشانغهاي، كانت بحدّ ذاتها تهديداً في غاية الخطورة على حياتها.

في الصين ما قبل الثورة، وطيلة آلاف السنين، اشتملت الاستعداداتُ لعمليّة الولادة على صندوق من الرماد يوضع إلى جانب سرير الأمّ، لخنق الأنثى ما إن تولَد. في الهند، اختلفت أساليب قتل الفتيات الصغيرات، وتنوّعت بتنوّع الأمكنة: الخنق، التسميم، إلقاء الطفلة في البحر، تركها في الغابة، رميها لأسماك القرش في تقديمة للآلهة، أو إغراقها في الحليب

مشفوعة بالصلاة كي تولَد من جديد، لكن كذكر هذه المرّة! في عام 1808، عثرت اللجنة السياسيّة البريطانيّة على ستّة منازل فقط لا غير في ولاية كوتش بأسرها، لم يقم الآباء فيها بقتل البنات جميعهنّ بعد ولادتهنّ مباشرة.

في كلّ تلك الحالات، ماتت الضحيّة بأمر والدها. لا مستقبل للفتاة إلّا الزواج والأمومة، بالتالي، سيتكبّد والدها مصاريف مدمِّرة إن نجح بتزويجها، أو على العكس، سيواجه الخزي والعار إن فشل. الدوطة الضخمة ليست عذراً كافياً يبرّر مذابح الفتيات الصغيرات في الهند، وتفشّيها كالوباء. هناك، تُلقى خطايا الأمّهات على عاتق بناتهنّ، ويتجلّى إنجاب الأنثى بأخبث صوره كمخاض عبثيّ بالنسبة للمرأة. قتلُ البنات كان جزءاً من حملة مُنظَّمة مُمنهجة مستمرّة، تهدف إلى تخفيض أعداد الإناث في العالَم، تذرّع الباترياركيّون خلالها بتكاليف الدوطة، وكثرة عدد الأفواه التي ينبغي إطعامها. عذرهم لم يكن منطقياً حتّى في ذلك الزمن القديم، فالقرآن يقول بلا مواربة: «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ» و«عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ».

حاولت الباترياركيّة إلغاءَ حقّ المرأة بأن تُولَد، وامتلكت ما يكفي من السلطة لإخراجها من العالَم نهائيّاً. في أغلب البلدان، كان الرجل هو السيّد والحارس والوصيّ الوحيد على النساء، أمّا المرأة فليس أمامها رحمة ولا مفرّ. لم يحفظ التاريخ إلّا شذرات يسيرة عن ملايين النساء المجهولات، اللواتي قضين نحبهنّ تحت أقدام أو سياط أو قبضات أو هراوات رجالهنّ. مركزهنّ الاجتماعيّ لم يضمن لهنّ الحماية بالضرورة، الدم الملكيّ لم ينقذ الأميرة الروسيّة دولغوروكي عندما أمر زوجها إيڤان الرابع (إيڤان الرهيب) بإغراقها، لأنّها عجزت عن إرضائه.

اقتبس إيڤان تلك التقنيّة غالباً من جاره السلطان العثمانيّ، ففي الإمبراطوريّة العثمانيّة، توضع الإناث غير المرغوب بهنّ في كيس مملوء بالحجارة، ثمّ يتمّ رميهنّ من الحرملك إلى البوسفور. المرأة هناك كانت «شيئاً» يمكن التخلّص منه بعد استعماله، لكن حتّى في الغرب الذي يتباهى بالأخلاقيّات المسيحيّة وبتفوّقه على «الأتراك الشبقين»، ظلّت قيمة النساء متدنيّة طيلة الحقبة الحديثة الباكرة. بالإضافة إلى ذلك، إن فشلت المرأة في

وظيفتها الوحيدة المتمثّلة بإنجاب الأطفال، ستصبح حياتها بلا قيمة على الإطلاق، على عكس الرجل الذي يتمتّع بقيمة أعلى لا تتأثّر بأيّ إساءة يرتكبها. القصّة التالية التي رواها المؤرّخ جيوفري دي تورز، عن امرأة فرنسيّة في بدايات العصور الوسطى، وعن عشيقها القسّ لُوْ مان، توضّح ما أعنيه: «القسّ الذي يمارس الفسوق مع امرأة حرّة من عائلة محترمة، قام بقصّ شعرها وألبسها ملابس الرجال، ثمّ أخذها إلى مدينة أخرى، آملاً أن يصرف الأنظار عن شبهة الزنا إن أقاما بين الغرباء. بعد فترة، اكتشف أقارب المرأة ما حدث، فهجموا كي يثأروا لشرف العائلة... دفنوا المرأة حيّة، لكن بما أنّ دافعهم هو الطمع، لذلك طالبوا القسّ بدفع فدية. عندما عرف الأسقف آيثاريوس ما حصل، أشفق على القسّ، وأنقذه من موت محتّم بدفع عشرين شلناً ذهبيّاً فداء له».

على ما يبدو، لا غنى عن القسّ، بينما تلغي خطيئةُ المرأة الجنسيّة وجودها ككائن بشريّ. الخطيئة ليست القضيّة الحقيقيّة هنا، وليست السبب المباشر لتدمير حياة المرأة. بعد أن تلوّث جسدها بالجنس المحرّم، لم يعد ممكناً أن تلبّي متطلّبات وظيفتها كأمّ وزوجة. دون وظيفة، ستفقد قيمتها، ومن الأسهل التخلّص منها كأيّ جارية في الحريم العثمانيّ، فضلاً عن أنّه لا يجوز السماح لها بالتحوّل إلى برهان حيّ، عن أنّ المرأة يمكن أن تكون فرداً حرّاً خارج الإطار الذي يرسمه لها المجتمع الباترياركيّ.

أكرّر أنّ الوظيفة هنا هي المفتاح الرئيس. المرأة غير المقيّدة بسلسلة التراتبيّة الهرميّة بين الزوج وأطفاله، هي تهديد خطير لاستقرار المجتمع، وتهديد لنفسها أيضاً. الأسوأ من هذا وذاك، كما في قصّة العشيقة الفرنسيّة التي حرمتْها خطيئتُها من الرحمة، ستصبح المرأة عديمة الفائدة بالنسبة لجميع من حولها. خطوة واحدة فقط لا غير، فصلتِ المرأةَ في تلك الأزمنة الصعبة عن الاقتناع بأنّ من الأفضل لها... أن تكون ميتة!

تلك الفكرة تبطّن الشعائر الهندوسيّة في طقس سوتي suttee (أو ساتي sati)، الذي تُحرَق فيه الزوجة بعد موت زوجها. هذا المعتَقد الذي يدعمه القانون الهندوسيّ، ينصّ على عدم وجود سبب تحيا الزوجة من أجله

بمفردها بعد وفاة زوجها. الشريعة الهندوسيّة تعلن بصراحة: «لا يوجد واجب فعليّ معروف للزوجة الصالحة بعد وفاة سيّدها، إلّا إلقاء نفسها في النار ذاتها». الفارق الوحيد هو أنّ الزوج الميت لن يشعر بنيران المحرقة، أمّا الزوجة التي ما زالت على قيد الحياة، فستخضع للترهيب والتخدير، من ثمّ توثق بجانبه كي تموت ميتة شنيعة بإحراقها حيّة، بعد أن تجاوزت «فترة صلاحيّتها»، وانتهت الغاية من وجودها. وصف شاهد عيان من القرن الثامن عشر، شعائرَ طقس سوتي في البنغال:

«قريب المتوفّى الذي قام بإضرام النار في المحرقة... قاد الأرملة ستّ مرّات حولها... ثمّ تمدّدت المرأة إلى جانب جثّة زوجها، واضعة يداً تحت عنقه واليد الأخرى فوقه. رُمِيَتْ عليهما أوراق جوز الهند اليابسة ومواد أخرى، إلى أن تشكّلت كومة ضخمة صُبَّ السمن الذائب على ذروتها، ووضعت شبكة من أغصان البامبو فوقها. قُرِّبَت الشعلة من الكومة فاستعرت النار فيها على الفور، وعندها أخذ الناس بالصراخ، وأصبح من المستحيل سماعُ المرأة لو تأوّهت أو استغاثت، ومن المستحيل أيضاً أن تتحرّك أو أن تقاوم لأنّ البامبو يثبّتها وكأنّه عتلات مكبس. اعترضنا على طريقتهم باستعمال البامبو، وأكّدنا أنّه يُعدّ بمثابة منع بالقوّة للمرأة من النهوض والهرب عندما تمسّها النار. أجابونا بأنّ البامبو ضروريّ، كي لا تتداعى المحرقة وتسقط. لم نستطع أن نتحمّل المشهد أكثر، وغادرنا، ونحن نحتجّ بصوت عالٍ على الجريمة، مرتعبين ممّا رأيناه». الغضب العارم -رغم أنّه صادق تماماً، وهو العزاء الوحيد لصاحبه العاجز- يمثّل ردّ الفعل النموذجيّ الذي يبديه الرجل الأوروبيّ تجاه العادات والممارسات الشرقيّة. من الجدير بالذكر، أنّ شاهد العيان لاحظ كم كانت الضحيّة هادئة ومستكينة. هذا الاستسلام فائق الأهميّة بالنسبة لحرمة طقس سوتي، ويتحقّق بدمج الترهيب العنيف والتخدير في يوم المحرقة، مع التلاعب الإيديولوجيّ بالمرأة طيلة حياتها، إذ تُلقَّن الضحيّة منذ الطفولة أنّ الأرملة المخلصة (وهو المعنى الحرفيّ لمفردة sati) تربح خمسة وثلاثين مليون عام من النعيم السماويّ لها ولزوجها، أمّا المتمرّدة فتُرمى إلى حضيض دورة التقمّص، وتعود إلى الحياة

مجدّداً بأقذر وأبغض هيئة. فضلاً عن ذلك، عادة الهنود بتزويج الفتيات في سنّ مبكّرة جدّاً، يعني أنّ معظم أولئك الأرامل لسن مخوّلات باتّخاذ القرار. هناك تقارير لا تعدّ ولا تُحصى، عن إحراق أرملة - طفلة في العاشرة أو التاسعة أو الثامنة من عمرها، وأحياناً أصغر.

سخط الأوروبيّين الأخلاقيّ على طقس سوتي، لا يتماشى كثيراً مع تاريخ أوروبا بالتخلّص من النساء. مذكّراتُ شاهد العيان السابقة كُتِبَتْ عام 1798م، أي بعد عقد أو اثنين من حملة إحراق «الساحرات» الأوروبيّات وهنّ على قيد الحياة. الساحرات، تماماً مثل أرامل سوتي، كنّ نساء غير مرغوب بهنّ، مشوّهات، أرامل غالباً، أو كائنات منبوذة تشكّل تهديداً لسلطة النظام الباترياركيّ.

السجلّات التاريخيّة تبرهن على أنّ المرأة في كلّ زمان ومكان، لم تكن بمأمن من العنف الجنسيّ الأقصى، المتمثّل بالإصرار على أنّ جسدها موجود فقط من خلال علاقتها بالرجل، أي من أجل متعته وذريّته. ما إن تخرج المرأة عن ذلك الإطار الذي يبرّر وجودها، أيّاً كان السبب، حتّى تتحوّل إلى فائض ضمن المؤسّسة في أحسن الأحوال، هذا إن لم تُعتبَر مجذومة، أو منبوذة، أو حتّى مجرمة. بكلّ الأحوال، يعرف المجتمع وآباء الكنيسة كيف يتدبّرون أمرها!

«انظروا جيّداً إلى خطايا البنات!». المثال الأكثر تطرّفاً عن المرأة - الشيء، التي من الممكن التخلّص منها حرفيّاً بعد استعمالها، هي العاهرة، فريسة الرجال المشروعة. تظهر العاهرة إلى الوجود بسبب شهوة الرجل، لكنّها تُعاقَب على الاستسلام لها! من خلال جسدها، تمثّل العاهرة التوتر الجنسيّ الأبديّ بين المتعة والخطر. مهنتُها، هي ساحة المعركة التي يتصارع فيها كلّ من شبق الرجل، وبغضه للمرأة. تربح الشهوة، ثمّ يربح البغض، وهكذا دواليك، في نمط لا يتغيّر من الاستخدام والاستغلال منذ أقدم العصور. يكفي أن نتصفّح التاريخ بسرعة، كي نكتشف كم تدهور وضع العاهرات خلال الألفيّة الفاصلة ما بين صعود الإله - الأب، وولادةِ الدولة الحديثة. في مفارقة واضحة، عندما تزايد قمع الأمّهات والزوجات والنساء

«الفاضلات»، وأصبحن خاضعات لسلطة تعسفيّة تعاقبهنّ عقوبات صارمة على أيّ خطأ، تدهورت بالمثل أحوال شقيقاتهنّ غير الشرعيّات. يشهد على ذلك تزايد قسوة العقوبات التي فُرِضَت على «العاهرات والقحبات»، خلال القرون ذاتها التي خرجت فيها معظم البلدان من طور البربريّة، وخفّفت العقوبات القضائيّة على معظم الجرائم الأخرى. القانون الذي سنّه القوطيّون عام 450 للميلاد، هو أحد أقدم القوانين الجنسيّة المعروفة، وينصّ على جلد العاهرة أمام عامّة الناس، وشقّ أنفها كعلامة على العار. في القرن الثاني عشر للميلاد في إنجلترا، عرّف المرسوم الذي أصدره الملك هنري الثاني العاهرةَ بأنّها مخلوق فاسد وغير أنثويّ، وعاقبها بالعقوبة السابقة ذاتها، كما حظر عليها اتّخاذ عشيق تحت طائلة عقوبة أشدّ، هي دفع غرامة ماليّة، وحبسها ثلاثة أسابيع، وتعذيبها لمرّة واحدة على «منصّة التوبة» السالفة الذكر، قبل أن تُطرَد من المدينة. بعد مئتي عام، إبّان فترة حقبة الملك إدوارد الثالث، فُرِض على العاهرة -تماماً مثل «النجسة» عند اليهود- ارتداء شارة خاصّة أو غطاء رأس معيّن، كـ «علامة مشوَّهة تدلّ على القذارة، كي تبدو مقزّزة أكثر».

أخيراً، عندما أحكمت البيوريتانيّة قبضتها على أوروبا، بلغت العقوبات التي تُطبَّق على النساء حدّاً غير مسبوق من الوحشيّة والساديّة، واستخدم الجلّادون كلّ ما في جعبتهم من طرق التعذيب. يبيّن المقطع التالي بعضاً من تلك العقوبات، التي نُفِّذَت أمام الملأ:

- ماري كَرسنيرِن، عاهرة شابّة... قُطِعَتْ أذناها، ثمّ شُنِقَت.

- آنا بيلستايِنِ من نورمبرغ، قُطِع رأسها بالسيف وهي واقفة، لأنّها مارست الجنس مع أب وابنه... وكذلك مع واحد وعشرين رجلاً وشابّاً، بالتواطؤ مع زوجها.

- أورسولا غريمِن، عاهرة، مالكة مبغى ومديرته، قوّادة... وُضِعَت على عمود التشهير[2]، وطُبِّقَت عليها عقوبة الجلد القصوى، ثمّ وُسِم خدّاها كلاهما، وطُرِدَت من المدينة.

2- Pillory عمود خشبيّ يحمل لوحاً عريضاً من الخشب في أعلاه، فيه فتحات للرأس واليدين، يثبّت المتّهم عليه أثناء تعذيبه أمام الملأ. المترجمة

- مجدولين فِشرين... خادمة عزباء... أنجبت طفلاً من أب وابنه، قُطِع رأسها بالسيف كخدمة.

«الخدمة» أو الفضل المذكور هنا في هذه اليوميّات الشخصيّة التي كتبها فرانز شميدت، الجلّاد العامّ في نورمبرغ منذ عام 1573 إلى 1617م، كان الموت «الرحيم» بقطع الرأس، عوضاً عن أهوال الشنق التقليديّ البطيء. بلا شكّ، لا بدّ أن الضحيّة -أو أحد المحسنين- قد دفعت له مبلغاً ضخماً لقاء «معروفه» ذاك، الذي يُعدّ أقصى رحمة ممكنة بوجود حشد من المواطنين المحترمين المهلّلين، الذين جاؤوا خصّيصاً للاستمتاع بمشاهدة عذابها. تلك المرأة البائسة التي لا نعرف عنها أكثر من اسمها و«جرائمها»، تجسّد كلّ مجدليّات العالَم اللواتي وجدن أنفسهنّ خارج دور الزوجة والأمّ، وتحوّلن إلى منبوذات في صيغة كلاسيكيّة من صيغ الإباحيّة: الموت من أجل الجنس.

عانى الرجال بدورهم في ظلّ تلك القوانين القاسية، وتلطّخت جنسانيّتهم حتماً بسبب ارتباطها مع جنسانيّة «الحيوان» الأنثويّ. قيام الرجل بالواجب المطلوب منه، يعني أن يحرم نفسه من الممارسة الجنسيّة بهدف المتعة، كما أنّ المرأة باعتبارها زوجة وأمّاً وابنة وعشيقة، صادرت عواطف الرجل دائماً بتأثير الأوامر التي تفرض عليها كراهيّته، والخوف منه، والخضوع له. الرجال الذين فشلوا بلعب الدور المطلوب منهم، دفعوا الثمن بطريقة أخرى. ملاحقة الرجال المثليّين جنسياً موثّقة في كتب أخرى بالتفصيل، ولن نتطرّق إليها هنا. يكفي أن نذكر أنّ الرجال الذين انتهكوا الحدود الجنسيّة الصارمة التي تفرض عليهم علاقة حصريّة مع الجنس الآخر، وتمرّدوا -كما فعلت النساء- على تعاريف الباترياركيّة، تلقّوا نصيبهم من العقاب الشديد. خلال ذروة عصر الرعب في أوروبا، كان الرجال المتّهمون بالمثليّة الجنسيّة يُجلبون عندما تُساق امرأة - ساحرة إلى المحرقة، ويُربَطون بين قطع الحطب والأغصان اليابسة حول قدميها، ومن ثمّ تُضرم النار. بأي حال، لم يدفع الذكر حياته دائماً ثمناً لمثليّته الجنسيّة، أمّا المرأة فلم تمتلك فرصة للنجاة من محرقة الكراهيّة التي استهدفت الجنس الأنثويّ برمّته، ولا للنجاة

من الرغبة العارمة بالتدمير والتحقير التي رافقت تلك الكراهيّة. الطبيعة الساديّة والجنسيّة للعقوبات التي فُرِضَتْ على النساء، لا تخفى على أحد. القاضي جيفريز السيّئ الصيت، وهو أحد أركان الدولة في إنجلترا في القرن السابع عشر، لخّص تلك الحقيقة عندما أصدر حكماً بالجَلد على عاهرة: «أيّها الجلّاد، أعهد إليك بأن تعتني بهذه السيّدة عناية خاصّة. اجلدها بقوّة! يا رجل! اجلدها بقوّة إلى أن يسيل دمها. إنّه عيد الميلاد، وسترتجف السيّدة برداً عندما تخلع ملابسها، لذلك أريد منك أن تدفئ كتفيها جيّداً».

الجنس، الخطيئة، المعاناة... هذه الثيمات البارزة في حياة العاهرات، تظهر أيضاً في حياة أخواتهنّ المتزوّجات. العاهرات والزوجات لسن «شيطانات وملائكة» كما تصوّرهنّ البروباغاندا الباترياركيّة، ولا جنسَين نقيضَين، بل وجهان لعملة واحدة. في كلٍّ من المجموعتين، خضعت المرأة للتعريف التأديبيّ الضيّق ذاته لجنسانيّتها، وكذلك إلى القيود التي تحدّ من تحكّمها بتلك الجنسانيّة. نتيجة التقريع الإيديولوجيّ والعقاب الجسديّ المتواصلين، اختارت بعض النساء الخضوع، وهو النموذج المفضّل آنذاك لكسب الاحترام، بينما اختارت نساءٌ أخريات التمرّدَ. كيف وجدت المرأة القوّة والمعرفة، كي تقاوم التحقير الذي تتعرض له، وكي تكتشف أنّها تملك المقدرة على صياغة تعاريفها الخاصّة، وبالتالي أن تتعالى على تعاريف الرجال؟



درسٌ صغيرٌ

– قسماً بالله! لو كتبتِ النساءُ القصصَ كما يكتب القساوسة مواعظهم، لكتبنَ عن خبث الرجال أكثر بكثير ممّا يمكن لنسل آدم أن يتداركه.

• تشوسر، حكاية زوجة باث

– يجب ألّا تتعلّم المرأة القراءة والكتابة، إلّا إذا كانت ستصبح راهبة، لأنّها معرفة تسبّب أذى هائلاً.

• فيليب دي ناڤار

– اجمعي كلّ ما يتيسّر لكِ من شذرات المعرفة الصغيرة، واعتبريها كنزاً عظيماً.

• كريستين دي بيزان

بالنسبة لأجيال لا تعدّ ولا تُحصى من النساء، استبداد الإلهِ – الأب وأعداءِ النساء بدا مطلقاً وأبديّاً، لكن مع دنوّ الألفيّة الأولى من عمر المسيحيّة من نهايتها، انفتحت كوّة للأمل في موقع لم يتوقّعه أحد، يتوضّع في صميم النظام الحديديّ بحدّ ذاته. الأنظمة الباترياركيّة كانت صارمة متحجّرة، لكنّ الناس رجالاً ونساء اعتادوا تدريجيّاً على الحياة ضمنها. وابلُ القوانين التي تحظر العلاقات الجنسيّة انعكس سلباً على الرجال، لأنّ الحظر انطبق عليهم أيضاً، لا على النساء فحسب. في بدايات العصور الوسطى، كان المسيحيّون

ممنوعين من ممارسة الجنس أيّام الأحد والأربعاء والجمعة، وخلال صوم الأربعين، وقبل عيدي الفصح والميلاد، وقبل المناولة... إلخ، وكذلك عندما تكون المرأة حاملاً أو حائضاً أو مرضعاً. إنّه حظر قاسٍ بلا شكّ، إن أخذنا بعين الاعتبار تكرار الحمول (دون أن ننسى أنّ موانع الحمل كانت محرّمة أيضاً). في أيّام الثلاثاء المباحة، كان على الزوجين أيضاً مراعاة القوانين التي تنظّم الوضعيّات الجنسيّة: وضعيّة «المُبشِّر» مقبولة، أمّا وضعيّة «الكلب» فمرفوضة رفضاً قاطعاً. يصعب علينا تصديق أنّ الناس آنذاك التزموا تماماً بكلّ القوانين والمحرّمات، دون أن يخرقها البعض من الجنسين كليهما، حتّى إبّان ذروة هستيريا الكنيسة ضدّ الجنس.

لن تنجح الحملات التي تستهدف جنسانيّة النساء نجاحاً مطلقاً، ما دام الرجال والنساء يحبّون، ويشتهون بعضهم بعضاً. فضلاً عن ذلك، لم تقبل النساء جميعهنّ بجعلهنّ ضحايا للبيولوجيا، ورفضت العديد منهنّ تعلّم الدرس الذي ينصّ على أنّ المرأة كائن ثانويّ. هذا الرفض القويّ لتعاليم آباء الكنيسة الأوائل، انبثق من داخل الكنيسة بحدّ ذاتها في القرن السادس عشر، في تعاليم القدّيسة تيريزا دي آڤيلا، التي تزعّمت المعارضة ضدّ الإصلاح الدينيّ البروتستانتيّ: «عندما كنتَ في هذا العالَم يا ربّ، لم تبغض النساء، بل وجدتَ فيهنّ إيماناً أقوى، وحبّاً لا يقلّ عن محبّة الرجال... ليس صائباً أن ننفي العقول التي تتحلّى بالفضيلة والشجاعة، حتّى ولو كانت عقول نساء».

نستنتج من كلام تيريزا، أنّ انطلاق تحدٍّ ناجح ضدّ تحقير النساء، والتأكيدَ على قيمة عقولهنّ، يتطلّبان اللقاء مع سلطة الذكور وجهاً لوجه، بمعنى أنّ المرأة يجب أن تجد مدخلاً إلى عمليّة صياغة التعاريف والمعاني، ولا بدّ أن تتعلّم القراءة والمناظرة وأن تدرس، فالجهل انحطاط والعلم سلاح! لذلك، انتقلت المعركة إلى ميدان التعليم، الذي يحظى بأهمّية محوريّة حتّى في يومنا هذا، ومن دونه لن تتمكّن المرأة من اقتحام المجال المخصّص تقليديّاً للرجل، أي المجال الفكريّ. لا ننكر أنّ المرأة حظيت دائماً بمجال خاصّ بها، مستمدّ من الفضاء الأنثويّ الذي تخلقه العادات والطقوس المشتركة بينها وبين بنات جنسها. السجلّات التاريخيّة المتعدّدة التي تغطّي

بدايات الحقبة الحديثة، تكشف عن وجود مجتمعات سريّة خاصّة بالنساء حصراً، في إفريقيا وفي أجزاء مختلفة من أوروبا الشرقيّة، مارسن فيها طقوساً تتعلّق بالخصوبة أو بالجنس، وتحوّل العديد منها إلى طقوس علنيّة. خلال العصور الوسطى في أوكرانيا مثلاً، نقرأ كيف تجتمع القرويّات أثناء الأعراس، ويضربن عرض الحائط بكلّ القوانين التي تفرض سلوكاً محتشماً على الزوجة، إذ يشمّرن عن تنانيرهنّ حتّى الخصر في طقس أنثويّ حماسيّ يُدعى «إحراق شَعر العروس»، ثمّ يقفزن فوق لهيب النار المستعِرة. أيّ رجل يخاطر بالتطفّل عليهنّ، يقوم بذلك على مسؤوليّته الخاصّة.

في مدينة شلَسفيغ في ألمانيا خلال الحقبة ذاتها، أيّ رجل قاطع نساءَ قريته خلال شعائر المسيرة التي يقمن بها احتفالاً بالمواليد الجدد، عوقِبَ بملء قبّعته بروث الخيول، وإجباره على اعتمارها من جديد. في جزر تروبرياند، يحقّ للمرأة أن تهاجم الرجل الذي يقتحم حقلها وهي تعمل.

الطقوس السابقة، التي نجد ما يشبهها في كلّ أنحاء العالَم، تكشف بوضوح عن ثيمة العداء للرجل، التي تترافق غالباً مع نشاطات فاحشة أو إيروتيكيّة، لكنّها طقوس يحرسها الأزواج ويشرّعها المجتمع، فقد تمتّعت النساء بفضاء أو حريّة خاصّة بهنّ كـ«جماعة» في معظم الثقافات، رغم أنّ الحريّة ذاتها تُنكَر عليهنّ كأفراد. في تاريخ سكّان أستراليا الأصليّين مثلاً، عاملَ الرجالُ النساءَ بوحشيّة. كانوا يغرزون الرماح في ذراعيّ المرأة المذنبة، أو يكسّرون جمجمتها، أو يقطعون أجزاء من لحم مؤخّرتها، لكن جنباً إلى جنب هذا الاضطهاد البربريّ، يتعايش طقسٌ غير معروف في أيّ مكان آخر في العالَم، هو «جِيليمي» Jilimi أي مخيّم العازبات:

«هنا تعيش الأرامل اللواتي قرّرن ألّا يتزوّجن مرّة أخرى، والزوجات الهاربات من عنف أزواجهنّ، والنساء المريضات، أو الزائرات القادمات من أمكنة أخرى، وكلّهن برفقة أطفالهنّ الصغار. في الواقع، أيّ امرأة تريد أن تعيش حرّة من صراعات المجتمع غيريّ الجنس، تجد ملجأً في جيليمي. المتزوّجات اللواتي يعشن مع أزواجهنّ، يتجمّعن هنا نهاراً لتبادل الأحاديث وترتيب الزيارات وشؤون العائلة، وكلّ ما يتعلّق بذلك من شعائر وطقوس.

جيليمي محرّم على الرجال جميعهم، والذين يضطرّون غالباً لاتّباع طرق طويلة ملتويّة، كي يتفادوا المرور بالقرب من المخيّم».

في أنماط سلوكيّة أخرى تقاوم النساء من خلالها سلطةَ الرجال، يمكن للمرأة أن تتحدّى زوجها تحدّياً صريحاً، كما تفعل نساء قبيلة سان بوش في جنوب إفريقيا: «يحقّ للنساء فقط عزفُ الناي. يمكنهنّ أن يغادرن القبيلة، إن دفعتهنّ الأرواح لتحدّي مجموعة أخرى في مسابقة للعزف... يهَبْن أنفسهنّ كليّاً للموسيقى طيلة ثلاثة أو أربعة أيّام، يعزفن الناي، ويرقصن، ويمارسن الجنس مع المضيفين الذكور، وتُقام الولائم لهنّ إلى أن ينفد الطعام تماماً. من ثمّ، يرجعن إلى قبيلتهنّ وهنّ يعزفن الناي، ولا يجرؤ أيّ رجل على اللحاق بهنّ».

أبدت النساء الأوروبيّات والآسيويّات في العصور الوسطى، اهتماماً حقيقيّاً بأخبار أخواتهنّ الإفريقيّات، وتعاطفن معهنّ بسبب «ظروف حياتهنّ البربريّة البدائيّة»، رغم أنّ المرأة الإفريقيّة آنذاك كانت عموماً أوفر حظّاً من النساء في بقيّة أرجاء الكوكب «المتقدّمة». ابن بطّوطة، وهو تاجر مسلم عفيف، زار مالي في القرن الرابع عشر، وفُجِعَ برؤية النساء العازبات يلتقين عاريات الصدور في السوق المحليّة، وباكتشاف الحياة الاجتماعيّة الحرّة التي تعيشها المتزوّجات. آنذاك، كانت مالي تعيش عصرها الذهبيّ، تحت حكم مَنسا موسى، أعظم أباطرتها على الإطلاق. في إفريقيا عموماً، كلّ التقاليد القَبَليّة القديمة -الأقرب إلى الأصل، وإلى الطبيعة- احترمت حقوق المرأة، وخوّلتها بحريّة سبق أن أصبحت مجرّد ميثولوجيا في بقيّة أرجاء العالَم. لا توجد بقعة في إفريقيا إلى الجنوب من الصحراء الكبرى، أُجبِرَت فيها المرأة على ارتداء الحجاب، أو خضعت للعزل أو لتقييد حريّتها الجنسيّة، لأنّ كلّاً من سيرورة التغيّر ذات الإيقاع البطيء، واستمراريّة التقاليد العتيقة، كانت حليفتها. «عيد الملح» هو أحد الاحتفالات الطقوسيّة الكبرى المخصّصة حصراً للنساء، استمرّ الاحتفال به إلى زمن الاستعمار الكولونياليّ، وكان هيرودوت أوّل من ذكره في القرن الخامس.

تبوّأت المرأة الإفريقيّة مرتبة متقدّمة، نظراً لأنّها تدير كلّ مراحل عمليّة

حصاد الملح، فضلاً عن دورها المركزيّ في إنتاجه وتسويقه وتجارته. ذكور قبيلة أودوك مثلاً، لا يهتمّون بالدوطة ولا ببيع العرائس، ويقولون إنّهم لن يبيعوا أختهم لقاء عنزة أو اثنتين، حتّى ولو كانت هي نفسها عنزة. تقاليد شعب أشانتي جعلت المرأة سيّدة الرجل، لأنّ الدَين الأعظم الذي يحمله على كاهله هو دَينه تجاه أمّه، فالأمّ هي التي تخلق من دمها ولحمها كلّ رجل وكلّ امرأة. بمقارنة ابتهاج الأفارقة بولادة البنت، وحرّيةِ المرأة الإفريقيّة بالغدو والرواح كما يحلو لها، ولقاء أصدقائها في السوق لتبادل الأحاديث -وهو ما لم يُعجِب ابنَ بطّوطة- واضطلاعها بالدور المركزيّ في حياة أسرتها وقبيلتها، مع حرمان المرأة الأوروبيّة والآسيويّة من كلّ ذلك، لا بدّ عندها أن نتساءل أيٌّ من المجتمعات الثلاثة هو «البدائي» حقّاً.

تمتّعت المرأة الأرستقراطيّة، خاصّة في أوروبا، بدرجة أعلى من الحرّية مقارنة مع عموم النساء، وقامت باستغلالها أحياناً إلى أبعد مدى. خلال حقبة الملك هنري الثالث في إنجلترا (1207-1272)، انفجرت إيزابيلا كونتيسة آروندِل غاضبة بوجه الملك، في تحدّ غاضبٍ لقراره بتزويج إحدى الأميرات الخاضعات للوصاية كما يشاء، من ثمّ انسحبت من قاعة العرش دون أن تنتظر سماحه لها بالمغادرة، ودون أن تطلب إذنه في المقام الأوّل كما جرت العادة. سيّدة أخرى، هي إيزابيلا دي أنغولِم، أرملة الملك جون (أي زوجة أبي الملك هنري)، كتبت إليه من فرنسا رسالة بدأتها بـ«ابني الأعزّ ملكِ إنجلترا»، سردت فيها كيف «طوّرتْ» ترتيباته لتزويج ابنتها ذات العشر سنوات إلى أحد أفراد الأسر الملكيّة، بأن تزوّجت هي شخصياً من العريس. الملك هنري لم يكنْ ندّاً للنساء القويّات، ولا حتّى اللواتي يُفتَرض بهنّ إبداء طاعة مطلقة. شقيقته إليانور، التي زُوِّجَتْ في التاسعة من عمرها إلى الإيرل - مارشال[1] الإنجليزيّ كنوع من التحالف بين الأسرتين، أعلنتْ بعد أن ترمّلت في السادسة عشرة عن علاقتها برجل تحبّه، كي تحبط زواجاً

1- رتبة من رتب الفروسيّة والنبالة في إنجلترا، كان حاملها مسؤولاً في العصور الوسطى عن الإسطبلات والخيول الملكيّة، وتعدّ الرتبة الثامنة من حيث الترتيب بين ألقاب النبالة. المترجمة

ثانياً يدبّره لها الملك. رغم التهديدات التي تلقّتها، ورغم تلطيخ سمعة «مغتصِبها»، اضطرّ الملك هنري إلى أن يرافقها بنفسه إلى الكنيسة ويزفّها إلى حبيبها، في مراسم الزواج التي عُقِدت عام 1238م، حفاظاً على الشرف الملكيّ. بلا شكّ، لم تحظَ النساء جميعهنّ بامتيازات الطبقة الأرستقراطيّة، فضلاً عن أنّ مفهوم السلطة بحدّ ذاته تغيّر مع خروج أوروبا من العصور المظلمة، مبتعداً عن اغتصاب الحُكم بالقوّة كما في السابق، وأصبح العلم هو الطريق السريع للحصول على النفوذ. من وجهة نظر النساء، تفوّق القلم على السيف، لأنّه يناسب اليد الأنثويّة، مهما كان حجم صاحبتها أو عمرها أو مهنتها أو جنسيّتها. بعد فرض العقائد التوحيديّة أصبحت المرأة حرّة –ويا للمفارقة!– بدخول عالم المعرفة الأرحب، لكن خلف أسوار المجتمعات المنغلقة. المثال الأقرب إلينا هو أديرة الراهبات في أوروبا الغربيّة، لكن يجدر بالذكر أنّ الأخويّات الدينيّة النسائيّة ظهرت في بدايات البوذيّة والهندوسيّة والإسلام. رابعة العدويّة (712–801م) كانت متصوّفة مشهورة، وعالمة بأمور الدين، قضت طفولتها في العبوديّة ثمّ فرّت إلى الصحراء، حيث رفضت كلّ عروض الزواج، وكرّست نفسها للصلاة والتعبّد والدراسة. رابعة هي الأشهر بين المتصوّفات، لكنّها ليست الوحيدة، لأنّ الصوفيّة أعطت النساء جميعهنّ فرصة باكتساب كرامة قدسيّة كالرجال على حدّ سواء.

من ناحية أخرى، إنجاز رابعة مبنيّ على تقليد عريق من تعليم النساء، والدراسة، والنشاطات الفكريّة، يعود بجذوره إلى فجر التاريخ. هناك أساطير عديدة تعزو ولادة اللغة إلى المرأة أو الإلهة، في صياغة طقسيّة لواقع أنّ كلمات الأمّ هي أوّل ما يسمعه الطفل البشريّ. في الهند، نقرأ أسطورة الإلهة الڤيديّة ڤاك: اسمها يعني «اللغة»، وهي تجسّد ولادة الكلام، وتُصَوَّر على أنّها فم الأمّ الذي ينجب كلمةً حيّةً. الصلاة الهندوسيّة الموجّهة إلى ديڤاكي، أمّ كريشنا، تبدأ بـ: «يا ربّة اللوغوس، يا أمّ الآلهة، أيّتها الخالقة، الذكيّة، يا أمّ العلوم، يا أمّ الشجاعة». في الأساطير الأخرى، لم تخترع المرأة اللغة فحسب، بل طريقة تدوينها أيضاً، كما تشرح عالمة الاجتماع

إليز بولدنغ: «كارمنتا استنبطت اللغةَ اللّاتينيّة من الإغريقيّة، ميدوسا أعطت الأبجديّة لهرقل، الملكة إيزيس أعطت الأبجديّة للمصريّين، أمّا الكاهنة - الإلهة كالي فقد اخترعت الأبجديّة الهندوسيّة».

العديد من الحضارات القديمة بجّلت المرأة المتعلّمة، وإنجازاتها الفكريّة. في مصر القديمة مثلاً، عاشت طبقة من الناسخات - الكاهنات الإناث تحت رعاية الإلهة سشات، إلهة الأبجديّة وربّة «بيت الكتب». في الڤيدا الهنديّة توجد صلاة خاصّة بالابنة المتعلّمة، كما أنّ النصوص الڤيديّة القديمة تضمّ إشارات مرجعيّة عديدة تبجّل النساء المتعلّمات والشاعرات والمتنبّئات، اللواتي سُمِحَ لهنّ بعرض علومهنّ ومهاراتهنّ في المناظرة على الملأ أثناء بعض المناسبات. لاحقاً في اليونان، عبقريّة بعض المدرّسات والفيلسوفات حظيت بإعجاب منقطع النظير من قبل الرجال المعاصرين لهنّ (لكن ليس بإعجاب التاريخ!). فيثاغورس مثلاً، الذي يعرفه كلّ طفل وطفلة في المدرسة، تتلمذ على يد أستاذة هي أريستوكْليا، وتزوّج من ثيانو التي كانت عالمة رياضيّات بارزة وأستاذة في الفلسفة عندما التقيا، وتأثّر بامرأة ثالثة هي ابنته دانو، التي انشغلت بقضايا تعليم النساء. تُذكَر ديوتيما مُدرِّسةُ سقراط بين نساء تلك الحلقة، والذي تتلمذ هو وأفلاطون على يد أستاذةٍ أخرى لا مثيل لها، لُقِّبَتْ بـ «سيّدة أثينا الأولى»، وهي أسبازيا من مدينة ميلتوس. مثل دانو، شغلت أسبازيا نفسها بقضيّة تعليم النساء، واستغلّت كونها غير إغريقيّة كي تجابه بشجاعة القوانين التي تحبس المرأة في المنزل، فضلاً عن أنّها كانت تزور النساء في بيوتهنّ، وتشرف على تعليمهنّ شخصيّاً.

القوانين الصارمة فشلت بحظر التعليم الخاصّ، بل على العكس، أسهمت بتشجيعه أحياناً. تقاليدُ الكتابة الأنثويّة الراقية في اليابان، هي مثال كلاسيكيّ على القوانين الباترياركيّة التي تعمل لمصلحة المرأة، لا ضدّها. في بلاط الإمبراطور اليابانيّ، شُمِحَ للرجال فقط باستخدام اللغة الصينيّة الأكاديميّة، بينما فُرِضَت اللهجة المحليّة اليابانيّة على النساء، تحت طائلة العقوبة أو السخرية منهنّ أو وصمهنّ بالعار. «المفارقة الجميلة» هنا، لم تَفُتِ المؤرّخين اللّاحقين: «كتبت عشراتُ النساء أدباً راقياً ما يزال موجوداً حتّى اليوم، أمّا

الرجال فلم تنتج لغتهم الصينيّة المتفوّقة سوى أدب مصطنع ضعيف، يُقرَأ فقط على سبيل الاطلاع التاريخيّ». بلغتها الأمّ، كتبت الليدي موراساكي أوّل رواية في العالَم «حكاية جنجي»، وهي من أعظم الروايات التي ما زالت متداولة اليوم. القرن الحادي عشر الذي كُتبتْ فيه الرواية، يمثّل العصر الذهبيّ لإبداع النساء اليابانيّات، حين كان تعليم المرأة آنذاك مطلباً مُلحّاً، لا وصمة عار.

لم تقتحم الليدي موراساكي عالم الكتابة إلّا بعد أن مات زوجها، وأدخلها والدها إلى البلاط كي تسلّي الإمبراطور. قصّتها، توضّح لنا وجود تناقضات عميقة في الأمور التي يطالب الرجالُ بها المرأةَ لمصلحتهم، لكنّها تنقلب لمصلحتها بشكل ما أو بآخر. الأديرة الأوروبيّة كانت نموذجاً صريحاً للاستبداد الباترياركيّ، بطقوسها البغيضة التي تحاكي كلّاً من مراسم الزفاف ومراسم الجنازة في آن واحد (تتلقّى الراهبة المبتدئة نذورها وهي ترتدي ثوب الزفاف باعتبارها «عروس يسوع»، من ثمّ تقام لها شعائر الجنازة لأنّها «ماتت» بالنسبة للعالم خارج الدير). مع ذلك، كانت الأديرة السبيلَ الشرعيّ الوحيد المتاح أمام بعض النساء للهرب من ديكتاتوريّة الزواج القسريّ، والأمومة الإجباريّة المترافقة معه، كما أنّ العذراء التي تعتزل العالَم وتعيش حياة ملؤها التأمّل والسكينة والدراسة، كانت تعمّر ضعفَ شقيقاتها المتزوّجات، وأحياناً ثلاثة أو أربعة أضعاف، إذ تذكر سجلّاتُ الأديرة راهباتٍ عمّرن ثمانين أو تسعين عاماً، وأحياناً مئة عام. واقع إنجاب الأطفال آنذاك يلخّصه المزمور 116، الذي تردّده النساء أثناء الولادة: «اكتنفتْني حبالُ الموت، أصابتني شدائدُ الهاوية، كابدتُ ضيقاً وحزناً، وباسم الربّ دعوتُ: آه يا ربّ، نجِّ نفسي».

داخل الدير، يمكن للمرأة أن تصون كلّاً من جسدها وروحها، وهذا مثال مدهش على قيامها بقلب العوائق إلى مصدر للقوّة، فقد استغلّت الكثير من النساء الاعتكافَ في الدير كـ «منصّة يقفزن منها إلى الحريّة»، على حدّ تعبير ماري ريتر بيرد[2]. الاعتزال في الدير ينبع من مفهوم الاشمئزاز الباترياركيّ القاسي من جسد المرأة، والذي يفرض إنكار ذلك الجسد وتغطيته وعزله،

2- مؤرّخة أمريكيّة وناشطة في مجال حقوق المرأة والدفاع عنها، ألّفت العديد من الكتب حول دور المرأة في التاريخ. توفّيت عام 1958م. المترجمة

بأسلوب أشبه بالرجل المسلم عندما يقيّد حريّة قريباته الإناث، سواء بعزلهنّ في قسم خاصّ بهنّ أو بفرض الحجاب عليهنّ.

منطقياً، المرأة التي ترفّع عن جسدها القذر من خلال الفعل المتعالي المسمّى «تضحية العذراء»، ستربحُ تقدير الذكور المعاصرين لها، الذين يفترضون تلقائياً بأنّ نبذ النشاط الجنسيّ الغيريّ هو أسمى تضحية في العالم. بتأكيدها الصارم على أنّ أجندتها الشخصيّة خالية من الجنس، تخلّصت المرأة المتدينة من الازدراء الذي يحيط بالنساء النشيطات جنسيّاً، وأكسبتْها حالتُها العصماء تلك سطوةً أشبه بالسحر، وهي الورقة التي ستلعبها الملكة إليزابيث الأولى بثقة ونجاح في إنجلترا في القرون اللّاحقة.

برفض الزواج، ترفض الراهبة كذلك كلّ الأدوار المرتبطة بالأمومة وتدبير المنزل. يجدر بنا تفحّص «تضحيتها» تلك على ضوء صورة الزوجة في القرن الثالث عشر «التي سمعت رضيعها يبكي فركضت إليه، لتجد القطّة تأكل اللحم المقدّد، والكلب يعبث بالجلد المدبوغ، والكعكة تحترق في الفرن، والعجل قد رضع كلّ الحليب، والقِدر تحترق، وزوجها مسترخٍ يغنّي». عندما تتحرّر من الأعباء، تصبح المرأة حرّة كي تركّز على نفسها، حتّى ولو أفنت حياتها سابقاً في واجبها التقليديّ المتمثّل بالاهتمام بالآخرين، إذ لجأت العديد من المتزوّجات بدورهنّ إلى حياة الأديرة بعد أن كبر أطفالهنّ، في نموذج مبكّر عن الطلاق باتّفاق الشريكين في عصرنا الحاليّ. بعد اتّباع السبيل الوحيد المتاح للتهرّب من الزواج (الذي يمثّل الطرف الثاني من القبر)، تحقّق الراهبةُ استقلالها الذاتيّ المشروع، وتتحكّم بمقوّمات نجاحها، لا في عزلة الدير فحسب، بل في العالَم أجمع.

على عكس الصورة السائدة عن حياة العزلة التي تعيشها الراهبة، «منازل النساء» كانت عاملاً مهمّاً سمح للمرأةِ التي تديرها بالانتقال إلى الحياة العامّة وتولّي المسؤوليّة، وبالتالي إحداث تغيير في المجتمع. ما بين بريجيت التي أسّست أوّل جمعيّة نسائيّة في إيرلندا في القرن الخامس الميلاديّ، وبريجيت السويديّة التي أسّست أوّل أخويّة نسويّة (The Brigetines) عام 1370، نجد سلسلة لم تنقطع من نساء تمتّعن بقدرات تنظيميّة فريدة، وحافز قويّ لاستغلال

الامتيازات التي يوفّرها لهنّ موقعهنّ بعيداً عن سيطرة الرجال. سعت بعضهنّ من ذوات الذكاء التكتيكيّ الحادّ إلى السلطة التي تترافق مع الدِين، مثل رايدغَند ملكة الفرانك، التي أسّست دير الصليب المقدّس في بواتيه في القرن السادس، من ثمّ تحايلت على الأسقف لتعيينها شمّاساً للكنيسة.

تزعّمُ المجتمعِ النسويّ فتح آفاقاً هامّة للسلطة السياسيّة، دير راهبات كيلدير في إيرلندا مثلاً يُذكَر بامتنان لأنّه «أطفأ نار الحرب»، بعد أن توسّطت مؤسِّسُه بنجاح المفاوضاتِ بين الممالك المتحاربة. بدورها، أعادت كاثرين دي سيينا شخصيّاً البابويّة إلى روما عام 1375م. إذن، الراهبة على حدّ قول ماري ريتر بيرد، كانت أكثر من مجرّد شخصيّة دينيّة: «كانت الراهبات أيضاً سيّدات أعمال مميّزات، وطبيبات وجرّاحات متألّقات، ومدرِّسات عظيمات، وسيّداتِ إقطاعيّاتِ أدرن أملاكاً شاسعة ضمنت لهنّ اكتفاء ذاتيّاً، إضافة إلى إدارة الفعاليّات العديدة اللّازمة لإنتاج البضائع، والفصل في الخلافات كما يفعل القضاة والمحامون اليوم، والإسهام في كلّ فنون الحياة الاجتماعيّة».

على النقيض ممّا توحي الصورة السابقة المجملة عن كفاءة النساء، لم تتمتّع كلّ الأديرة ولا كلّ الراهبات بتلك القدرات والإمكانيّات الاقتصاديّة. صورة الدير الأوروبيّ خلال ألف عام من تاريخه، هي صورة معقّدة تضمّ جوانب قاتمة ولحظات يائسة. التعليمات الشبقة المتحمّسة التالية التي وجّهها القدّيس جيروم إلى راهبة مبتدئة، تعطينا فكرة عن الجوّ النتن السائد في الأديرة آنذاك، والناجم عن الفشل بإلغاء الرغبة الجنسيّة الطبيعيّة بشكل تامّ: «لا تدعي العريس يداعبك في غرفتك... عندما يأخذك النوم، سيأتي من خلفك ويمدّ يده عبر ثقب الباب... وعندها ستنهضين وتقولين: سئمتُ الحبّ». الاستثارة الجنسيّة المفرطة تلك، موثّقة في إحدى الفضائح الجنسيّة التي كثيراً ما طالت مجتمعات النساء: عاشت رئيسة الدير بِنِدِيتا كارليني في عصر النهضة، وأُدينَتْ في الثالثة والثلاثين من عمرها بتهمة فرض أفعال سحاقيّة على راهبة صغيرة، من خلال تقمّصها ملاكاً ذكراً هو سبلِنديتِللو. أمضت كارليني الأربعين عاماً الباقية من حياتها سجينةً في زنزانة انفراديّة

ضمن الدير، لا تأكل سوى الخبز والماء «بضع مرّات أسبوعيّاً»، ولا يُسمَح لها بالخروج إلّا كي تحضر القدّاس أو تُجلَد بالسوط، إلى أن ماتت.

قصّة كارليني هي تذكير ضروريّ بأنّ الرزانة المبجّلة التي ينبغي على «عروس المسيح» التحلّي بها، لا تتحقّق بسهولة، وأنّ الشهوة قد تتأجّج إلى درجة مميتة أثناء حياة العزلة. بعد أن ماتت رايدغَند، غضبت إحدى الراهبات لأنّها لم تُنتَخب في مكانها، فشنّت هجوماً مسلّحاً على الدير، وأسرتِ الرئيسةَ الجديدة في معركة أسفر عنها موت راهبات أخريات. أرسل أحد الإقطاعيّين المحليّين قوّة مسلّحة حرّرت الرئيسة المُنتَخَبة، لكنّ الراهبة المعتدية استمرّت بتلطيخ سمعة رئيستها باتّهامات كاذبة تتعلّق بالزنا وممارسة السحر والقتل، ولم تصمت إلّا بعد تهديدها بعقوبة الإعدام.

رغم تلك الأحداث، ورغم أنّ البروباغاندا البروتستانتيّة لاحقاً حوّلت نشاط الراهبات إلى مغامرات جنسيّة أشبه بما تكتبه صحف الفضائح اليوم، فإنّ مجتمعات النساء كانت مميّزة دائماً بنشاطها الفكريّ، لا الجنسيّ. لم تكن كلّ الراهبات مُميّزاتٍ بلا شكّ، لكن لم تهمل أيٌّ منهنّ أسسَ التعليم الخاصّ، ولذلك كانت أديرتهنّ -بالإضافة إلى أديرة الرهبان الذكور- قبسَ الضوء الوحيد في العصور المظلمة، حين انطفأت أنوار العلم في أرجاء القارّة الأوروبيّة. المعارف التي حافظت عليها الراهبات حيّة اشتملت على الفنون والعلوم المعروفة كلّها، دون أن ننسى براعتهنّ في اللغات. في ختام قصّة حبّهما المأساويّة، هنّأ بيتر أبِلار بمرارة راهباتِ دير باراكليت لأنّهن كسبن إلواز[3] إلى صفوفهنّ، لأنّها «ليست ضليعة باللاّتينيّة فحسب، بل وبالإغريقيّة والعبريّة أيضاً. إنّها المرأة الوحيدة على قيد الحياة التي وصلت

3- بيتر أو بيار أبلار هو فيلسوف ولاهوتيّ فرنسيّ لامع (1079-1142) من مؤسّسي جامعة باريس، أصبح مدرّساً لإلواز عام 1113، ونشأت بينهما علاقة حبّ، انتهت بزواجهما سرّاً عام 1118 بعد ولادة طفلهما، بناء على إصرار فولبير عمّ إلواز. بعد ذلك أودع أبلار زوجته في الدير المذكور «حرصاً على سلامتها»، وعندما علم عمّها بما حدث ثار غضبه معتقداً أنّ أبلار وجد وسيلة للتخلّص من إلواز بجعلها راهبة، فأرسل مجموعة من الرجال هاجموا بيته وقاموا بإخصائه. عندها انضمّ أبلار إلى صفوف الرهبان في دير القديس دينيس، وأجبر إلواز فعلاً أن تصبح راهبة بدورها ضدّ إرادتها. المترجمة

إلى هذا المستوى من التبحّر فِي اللغات الثلاث، وهو ما مدحه القدّيس جيروم على أنّه نعمة لا تُضاهى».

إلـواز التي تُلقَّب بـ«إلواز الجميلة» La Belle Héloïse، ليست الوحيدة في حقل اللغات رغم أنّها كانت امرأة فريدة من نوعها. هيرايد من لاندسبورغ، كانت رئيسة دير للراهبات في القرن الثاني عشر، تركت للأجيال 324 مخطوطة تضمّ منمنمات لا مثيل لها. قبلها بقرنين، هروتسفيتا من غاندِرشايم، خلال حياة العزلة الحافلة بنشاط لم ينقطع، دخلت التاريخ على أنّها أوّل شاعرة ألمانيّة، وأوّل كاتبة ألمانيّة، وأوّل كاتبة مسرحيّة في أوروبا كلّها. امرأة أخرى مدهشة هي هيلدغارد من بينجن، التي رُميَت في الدير منذ أن كانت في السابعة عام 1105، وعاشت كي تصبح رئيسة للراهبات كما أسّست عدداً من الأديرة، إضافة لكونها مستشارة سياسيّة للملك هنري الثاني، والملك فريدريك بارباروسا، وللبابا. هيلدغارد هي متصوّفة ورؤيويّة، تميّزت بأعمالها في مجال الطبّ، التاريخ الطبيعيّ، علم المعادن، الكوزمولوجيا، واللّاهوت، كما كانت موسيقيّة موهوبة ألّفت أوّل أوبرا في أوروبا فضلاً عن الترانيم، وتركت إرثاً موسيقيّاً مؤلّفاً من 74 قطعة. ككاتبة، ألّفت الأشعار، والسيرة الذاتيّة، ومسرحيّات الألغاز، وظلّت تعمل بنشاط إلى أن توفّيت في الثمانين من عمرها.

إنجازات هيلدغارد ومثيلاتها، لم تقدّم الكثير لتحسين حياة جنس النساء على الصعيد الفكريّ، لأنّ الرأي السلبيّ حول ذكاء المرأة كان سائداً في كلّ مكان، حتّى بين أغبى الذكور، ولم يضعف مع مرور الزمن بل على العكس، عندما تراجع الرعب الجنسيّ الذي تسبّبه المرأة، حلّت مكانه خرافة أسوأ، هي أنّ دماغها ضعيف كجسدها. هذه الفكرة ليست جديدة، وإنّما نتيجة منطقيّة متمّمة للاعتقاد السائد بأنّ المرأة مجرّد وعاء جسديّ، أو حاضنة لا تتحلّى بملكَة التفكير. تلك الفكرة الصفراويّة التي تنصّ على أنّ تدنّي القدرات العقليّة متأصّل في النساء، ظهرت باكراً في كتابات الباترياركيّة المُوثَّقة. بوذا مثلاً، ردّاً على تابِعِه المخلصِ آناندا الذي سأله: «كيف علينا أن نتصرّف يا ربّ، فيما يخصّ النساء؟!»، قال وهو على فراش الموت: «النساء

مليئات بالشهوة يا آناندا، النساء حسودات يا آناندا، النساء غبيّات يا آناندا. هذا هو السبب في أنّه لا مكان للنساء في الاجتماعات العامّة، وأنّهن لا يُدِرْن الأعمال ولا يكسبن عيشهنّ من أيّة مهنة».

ليس سهلاً دحرُ تعصّب عتيق كهذا، خاصّة بعد أن اكتسب زخماً جديداً في بدايات الحقبة الحديثة، من خلال مذهب الملاحظة و«التفكير المنطقيّ» الجديد: المرأة لا تملك إلّا دماغاً صغيراً، دماغ المرأة عبارة عن «عصيدة» وليس «لحماً» كدماغ الرجال، التعليم يجفّف أحشاء المرأة، والتفكير يصيبها بالجنون. بعض من تلك المقولات، التي ألقت بظلالها المزعجة على موقف العلم من النساء لاحقاً، نشأت تاريخيّاً من تجدّد الاهتمام بالطبّ والكيمياء والجراحة: المرأة تمتلك رحماً جوّالاً[4]، جمجمتها أصغر، والعناصر التي يتركّب منها جسدها أضعف.

تعزّزت تلك المقولات بسبب طبيعة الحياة اليوميّة للمرأة التي اقتصرت معارفها على العمل اليدويّ الشاقّ، أو المهن الهامشيّة (العمل الزراعيّ، التطريز... إلخ، وفقاً لثقافتها وللطبقة الاجتماعيّة التي تنتمي إليها)، وعلى النميمة، والقصص الفولكلوريّة، وكان رأسها فارغاً حرفيّاً من أي شيء يفيد العقل. المحامي الذي كتب في أواخر القرن السادس عشر أنّ «كلّ امرأة متزوّجة، هي بمثابة رضيعة»، لخّص حقيقة الوضع آنذاك.

الزواج بحدّ ذاته كان عدوّاً لتطوّر المرأة فكريّاً، وليست مصادفة أنّ هيلدغارد المتألّقة هربت من الزواج القسريّ! ظاهرة الأديرة بمجملها، خاصّة في بدايتها، بثّت شعاعاً من الضوء في تاريخ سجن النساء ضمن الأنظمة التي أنكرت عليهنّ حقّهن بالتعليم، من ثمّ حكمت عليهنّ بأنّهن جاهلات ميئوس منهنّ. المرأة محرومة من التعليم، ورهينة جهلها بكلّ ما يتعارض مع إرادة الإله – الأب، والرجل – الزوج، اللذين صاغا قرارهما المشترك بعناية فائقة في إعلان حوّاء عن خضوعها لآدم، على لسان الشاعر جون ميلتون:

4- اعتقد الأطباء والفلاسفة في العصور القديمة أن الرحم ليس ثابتاً في مكانه، بل يتجوّل هنا وهناك في جسد المرأة ويسبّب لها أمراضاً عديدة، على رأسها الهيستريا، وأفضل علاج له هو تثبيته بالحمل. المترجمة

يا صانعي[5]، ويا آمري، ما تطلبه / سأنفّذه أنا دون اعتراض، كما أمَرَ اللهُ / الله هو القانون، وأنت قانوني. «ألّا تعرفي أكثر» / هو أسعد معارف المرأة، وجائزتها.

بنات حوّاء موجودات في حضيض المنظومة أصلاً، وبعد حبسهنّ في هذه التركيبة، لم تحظَ غالبيّة النساء بفرصة للحصول على أيّ نوع من التعليم. لم تنفتح أمامهنّ السبل الكلاسيكيّة المتاحة أمام الرجل، الذي قد يرتقي في مراتب الكهنوت انطلاقاً من مدارس «الصِبية العاقّين» التي يؤسّسها القساوسة، ولا يمكن للإقطاعيّ أن يأخذ امرأة تحت جناحه ويدرّبها كي تصبح سكرتيرة أو وكيلة، ولا يوجد حتّى يومنا هذا اعترافٌ ولو سطحيّ بالمأساة التي لحقت بالنساء جرّاء حرمانهنّ من التعليم، ولا أحد يذكر مثلاً جايد الغامضة شقيقة شكسبير. لقد دفعت المرأة آنذاك ضريبة باهظة بسبب حرمانها من التعليم، جهلها لم يرسّخ دونيّتها فحسب، بل عرّضها لخطر التحرّش والتعذيب والموت الخسيس. الخوف من قذارة المرأة وجسدها الغامض، ومن عقلها الضعيف الذي يسهل التأثيرُ عليه، ومن الشرور الهمجيّة الناجمة عن غبائها المستعصي... كلّها مخاوف اتّحدتْ في منعطف تاريخيّ قاتل، وأطلقتْ أسوأ حملة من حملات إبادة النساء في التاريخ، وهي ملاحقة الساحرات في أوروبا، من ثمّ في أمريكا.

منذ أقدم الأزمان، عندما ظهر السحر للمرّة الأولى في تلك البحيرة السوداء التي تمثّل مخاوف الذكر اللّاواعية، ساد إجماع عامّ على أنّه من اختصاص النساء حصراً. في القرن التاسع، أصدرت الكنيسة الكاثوليكيّة مرسوماً وصفت فيه الساحرات كالتالي: «نساء خبيثات يعبدن الشيطان، وتغريهنّ أوهامُه وفانتازياته، اعترفت بعضهنّ بأنّهن ركبن الوحوش ليلاً مع الإلهة ديانا برفقة أعداد لا تُحصى من النساء الأخريات، وقطعن مسافات شاسعة». السبب في أنّ السحر يُمارس من قبل الإناث حصريّاً، ولماذا تصبح النساء ساحرات، واضحٌ بالنسبة لأيّ ذكر «يستخدم عقله»: «لا يرجع السبب

5- إشارة إلى أنّ حوّاء صُنِعت من ضلع آدم. المترجمة

إلى ضعف جنسهنّ، بل لأنّ معظمهنّ عنيدات ميئوس منهنّ... أفلاطون صنّف المرأة في مرتبة تقع ما بين الرجل وما بين البهيمة. نرى بوضوح أنّ أحشاء المرأة أكبر من أحشاء الرجل، الذي تكون شهوته أقلّ عنفاً. من ناحية أخرى، رأس الرجل أكبر، ولذلك يمتلك دماغاً وعقلاً أكبر من عقل المرأة»... لا تعليق!

تدافعَ من يطلقون على أنفسهم لقب «الخبراء»، لدعم الرأي السابق الذي صرّح به القاضي الفرنسيّ جان بودان، وهو أحد أبرز المفكّرين الأوروبيّين و«أكبرهم» دماغاً، عندما قال إنّ المرأة «تمتلئ شهريّاً بالأخلاط[6] الفائضة، والدم الميلانخوليّ» (لاحظوا كيف تطفو ثيمة اللعنة الشهريّة الخبيثة، والدم الخَطِر، في سياق جديد يدين المرأة). القضيّة الرئيسيّة هنا إذن، كانت الدماغ لا الجسد، كما أعلن قادة حملات صيد الساحرات في أوروبا، أي المفتّشون الدومنيكانيّون الألمان، وشرحوه بالتفصيل في دليلِ صائد الساحرات المعروف بكتاب «مطرقة الساحرات» **Malleus Maleficarum**، وهو كتالوج مشهور عن الساديّة والوحشيّة: «النساء بطبيعتهنّ أكثر سذاجة، ويمكن التأثير عليهنّ بسهولة، وقد ينبذن الإيمان بسبب عيب مبدئيّ في ذكائهنّ. الرجال بطبيعتهم أقوى فكريّاً من النساء، لذلك يقاومون مثل تلك التأثيرات». الرجل الذي سيصدّق هذا الادّعاء، سيصدّق أيّ شيء آخر!

سخرية الموقف تنبع من أنّ اعتمادَ ما سبق أساساً للحلّ النهائيّ للقضاء على مشكلة الساحرات، يعني أنّ الساحرة ليست جاهلة ولا غبيّة. الصورة النمطيّة القديمة عن الساحرة بأنّها عجوز خرفة، أو خفّاش هَرِم شرّير، نفتها الأبحاث الحديثة التي أظهرت أنّ الساحرة مستقلّة ذاتيّاً، تتحلّى بالإرادة والعزم، وشابّة علاوة على ذلك. ربّما كانت شخصيّة هستيريائية، أو وسواسيّة أحياناً، لكنّ المرأة التي عوقبتْ عموماً بسبب «جهلها المطبق»، امتلكتْ ذخيرة خاصّة بها من المعارف التي تشمل الدين، الكيمياء،

6- نظريّة وضعها أرسطو من ثمّ طوّرها أبقراط، وبقيت راسخة لأكثر من ألفي عام، تنصّ على أنّ جسم الإنسان يتكوّن من أربعة سوائل (أخلاط) هي الدم والبلغم والصفراء والسوداء، يجب أن تبقى بحالة توازن تامّ، من أجل الحفاظ على الصحّة. المترجمة.

الخيمياء، علم النباتات، الفلك، العلوم الطبيعيّة، وعلم الأدوية. دراية الساحرة بالأعشاب الطبيّة والسموم مثلاً، فاقت مستوى معلومات أيّ طبيب ذكر في ذلك العصر. السحر هو مهنة، وفرع قديم من فروع المعرفة، ولذلك لا بدّ من دراسته، كما كان من الضروريّ أيضاً الاعتماد كليّاً على الذاكرة في العصور السابقة لانتشار التعليم، وتوافرِ الموادّ المكتوبة مجّاناً. دون شكّ، وصلت بعض النساء إلى مستوى عالٍ من الكفاءة والمهارة، فتلاعبنَ بالناس، وحضّرنَ جرعات نجحت بتحريض الإجهاض أو الحمل أحياناً، وكلما ازدادت مهارتهنّ كان رضا الزبون أكبر، وتنامت براعتهنّ بالتهرب من قبضة السلطات، كما هو حال جميع من يخرقون القواعد المفروضة بنجاح. على عكس الصورة النمطيّة التاريخيّة إذن، لم تكن الساحرة الحقيقيّة جاهلة أميّة، بل المرأة الجاهلة آنذاك هي من تعرّضت لخطر اعتبارها ساحرة. المرشّحة المثالية في تلك الحالات تشبه المشرّدة المريضة التي طرقت ذات يوم باب إليزابيث ووكر، وهي زوجة أحد القساوسة، ومُحسنة سخيّة. كانت المشرّدة «مغطّاة كليّاً بالجرب والقمل، لا تسترها إلّا بضع خُرَق، وتجهل كلّ شيء عن المسيح وكأنّها وُلِدت وترعرت في لابلاند[7] أو اليابان». بالنسبة إلى صائد الساحرات، الجهل بحدّ ذاته سيحوّل المشرّدة إلى وحش ينبغي القبض عليه، لكنّ إليزابيث آوتها وعالجتها وعلّمتها القراءة والكتابة، من ثمّ زوّجتها من فلّاح غنيّ حسن الخُلُق. رغم أنّ إليزابيث متديّنة، لكنّها كانت واسعة الأفق، تؤمن أنّ «السود والآسيويّين وكذلك البيض، ينحدرون جميعهم من نسل آدم». للأسف، تلك العصور شهدت القليل من أمثال إليزابيث، والكثير من النساء المعرّضات للخطر. إلينور شُو، هي فتاة في الحادية والعشرين من عمرها، شُنِقَتْ بتهمة السحر في نورهامبتون عام 1705. نقرأ في الاتّهام الذي وجّهته إليها المحكمة، اتّهاماً صريحاً لوالِديها كذلك بأنّهما «لم يرغبا، أو على الأقلّ، لم يستطيعا تربية ابنتهما بأيّ شكل، وتركاها تدبّر أمرها بنفسها منذ أن كانت في الرابعة عشرة».

ربّما يمثّل اضطهاد الساحرات أوّلَ حالة من حالات الاستخدام الثابت

7- Lapland منطقة تقع في أقصى شمال فنلندا. المترجمة

للعنف كسلاح سياسيّ، وآخرَ سكرات الموت بالنسبة للعصور الوسطى المحتضرة، والانتقام الأخير في جعبة الباترياركيّة العتيقة السوداء ضدّ من تشذّ عن قواعدها، أو تتمرّد عليها. المخطّط الأوّليّ الذي يهدف إلى إخضاع النساء لسلطة الله والرجل، طُبّق بشكل قاصر على أرض الواقع على الرغم من خطوطه العامّة المُتقَنة، وحملة مطاردة الساحرات المسعورة تشهد على اضطراب المجتمعات التي ترزح تحت وطأة رعب غير مبرّر من الإناث الزائغات، وعلى أمل تلك المجتمعات اليائسة باسترجاع القواعد الباترياركيّة الصائبة الطبيعيّة.

هل هي الصدفة التاريخيّة البحتة، التي جعلت حملات إبادة النساء على أيدي صيّادي الساحرات، تتزامن مع سطوع نجم النساء في السياسة حول العالم؟ المراجعة السريعة للتاريخ ستكشف ما يلي:

962م: أصبحت آدِلايد ملكةَ إيطاليا، والإمبراطورةَ الرومانيّة المقدّسة.

1010م: وُلِدت الأميرة الساكسونيّة آيلجيفو، التي حكمت ثلاثة بلدان باعتبارها خليلة كنوت الدانماركيّ، ووصيّة شرعيّة على عرش النرويج، وأمّ الملك هارولد (قدمِ الأرنب) الإنجليزيّ.

1028م: توِّجتْ زوي إمبراطورةً شرعيّة للإمبراطوريّة البيزنطيّة. في اليمن، توّلت الملكة أسماء العرش، من ثمّ تلتها كنّتها الملكة أروى، متجاوزة السلطان المُكرَّم الذي لم يعترض على الوضع.

1105م: وُلِدت مليساند.

1136م: وُلِدت آغنس في كورتناي. منذ طفولة مليساند إلى وفاة آغنس عام 1185، اعتلتْ كلّ منهما عرش مملكة القدس إبّان الحملات الصليبيّة، وكانتا حريصتين على توسيع المملكة وتحقيق ازدهارها، طيلة قرن كامل.

1226م: أصبحت بلانش دي كاستيل وصيّة على ابنها القدّيس لويس، وهيمنت على السياسة الأوروبيّة طيلة ربع قرن.

1454م: وُلِدَت كاترينا كورنر، التي أصبحت لاحقاً ملكة قبرص.

1461م: وُلِدتْ آن دي بيجو أميرة فرنسا، التي أصبحت لاحقاً ملكة البوربون، والحاكمة الفعليّة لفرنسا في عهد أخيها الضعيف تشارلز الثامن.

1477م: وُلِدَت آن دي بريتاني، التي حكمت مملكتها بنفسها منذ أن كانت في الحادية عشرة. لاحقاً، بزواجها من مَلكَين فاشلين، أصبحت حاكمة فرنسا أيضاً.

1530م: وُلِدت غراين ماهول (غرايس أومالي) الأميرة الإيرلنديّة التي قادت جيوش بلادها وأسطولها البحريّ، ضدّ الاجتياح الإنجليزيّ.

1560م: وُلِدَت أمينة، الملكة النيجيريّة وقائدة الجيوش، التي أصبحت محاربة باعتبارها وريثة لوالدها، ورفضت كلّ عروض الزواج، كما احتلّت مناطق شاسعة من البلاد المجاورة لها.

1571م: وُلِدَت الأميرة الفارسيّة نورجهان، التي أصبحت لاحقاً إمبراطورة الهند المغوليّة، وحكمت وحدها نيابةً عن زوجها المدمن على الأفيون.

1582م: وُلِدَت نزينغا، ملكة أنغولا وإندونغو وماتامبا. دام حكمها لأكثر من نصف قرن، وتصدّت بنجاح للاستعمار البرتغاليّ.

كانت كلّ أولئك النساء حاكمات فعليّات، وليس مجرّد «قرينات» مَلكيّات، كما لم تمثّل أيٌّ منهنّ حالة فريدة من نوعها في تاريخ شعبها خلال النصف الأوّل من الألفيّة الثانية. معظمهنّ ينحدرن من بلاد كان دور المرأة فيها كحاكمة موجوداً مسبقاً، وأهميّتها السياسيّة راسخة. آيلجيفو مثلاً تنتمي إلى سلالة طويلة من الملكات الساكسونيّات، مثل بيرثا (توفّيت عام 616م)، وإيدبيرغ، وسينثرين (حوالي القرن الثامن للميلاد)، ولا ننسى آيثلفلايد الشهيرة: «ابنة الملك ألفرد، وسيّدة مِرشيا[8]» كما كانت تُلقَّب. أعادت

8- Mercia مملكة قديمة في وسط إنجلترا، ظهرت في القرن السادس على الحدود بين المستعمرات الأنجلوساكسونيّة الجديدة شرقاً، والمناطق الكلتيّة غرباً. المترجمة.

بناء أسوار تشيستر، وبنت مدناً حصينة جديدة أبرزها وارويك وستافورد. حاربت في ويلز، وقادت جيشها الخاصّ لاحتلال ديربي، واستسلمت لها مدينة ليستر دون قتال. حتّى شعب يورك البعيدة أقسموا على الخضوع لها قبل وفاتها في حزيران عام 918م.

من خلال قيامها بتوحيد إنجلترا، وحكمها كملكة شرعيّة، آيثلفلايد هي إحدى النساء الإنجليزيّات اللواتي تركن بصمة لا تُمحى على مسار التاريخ العالميّ. بالمثل، تنتمي الإمبراطورة البيزنطيّة زوي إلى سلالة طويلة من النساء، اللواتي لم يؤمنّ على الإطلاق بوجوب خضوعهنّ للرجال. الإمبراطورة آيرين التي سبقتها، وصلت إلى السلطة عام 780م، وحافظت على عرشها بأن سملت عيني ابنها وسجنته.

طول أعمار أولئك النساء مدهش! الملكة آيديلايد مثلاً عاصرت خمسةً من ملوك إيطاليا، وتزوّجت اثنين منهم. ليس صعباً أن نستنتج أنّ الاستمراريّة التي حافظت عليها قدّمت لها مزايا سياسيّة، وكانت ضروريّة أيضاً كي ترسّخ حكمها.

ربحت الأميراتُ والملكات بعض الفوائد للجنس الأنثويّ عموماً، خلال ما عُرِف بـ «عصر الملكات». تداعى كلٌّ من الإصرار على دونيّة المرأة، واشتراط العقيدة عليها بأن تخضع للرجل، بسبب وجود نساء في كلّ أرجاء العالَم اختارهنّ الله لتبوّء المنصب الدنيويّ الأرفع، وكان نجاحهنّ في الحكم دليلاً إضافيّاً على تفضيل الربّ لهنّ كما فسّره الناس. في درس أخير، علّمت الملكة الحاكمة كلّاً من الرجال والنساء أنّه لا وجود لنظام باترياركيّ صلد مُطلَق، وأنّ الأنظمة جميعها تحوي ثغرات ومنافذ تتيح للمرأة الواثقة من نفسها اقتناصَ اللحظة الحاسمة، سواء في التاريخ الوطنيّ أو الشخصيّ. للأسف، كانت الملكاتُ الاستثناء، لا القاعدة. كلّ منهنّ هي مثال هامّ بحدّ ذاته، لكنّها لم تكن نموذجاً تحتذيه أخواتها اللواتي لا يتمتّعن بامتيازاتها.

لاحقاً، أدّت سلسلة من الأحداث المتتالية إلى حصول تغيّرات بطيئة في العالَم بمجمله، وبسببها لم تعد المرأة بحاجة إلى اعتلاء عرشٍ كي تحظى

بالمكانة في عيني الرجل. ظاهرة «الحبّ النبيل[9]» التي انتشرت في أوروبا مع بدايات الحقبة الحديثة، بدأت كردّ فعل مناهض لتحقير الجنس الأنثويّ الذي تفرضه الباترياركيّة، ولحملة الكنيسة العدائيّة ضدّ النساء. «الحبّ النبيل» بجّل المرأة، وشدّد على قيمة العواطف الرومانسيّة لا الدينيّة، ومجّد العلاقات الجنسيّة التي تكون المرأة فيها صاحبة الأمر والقرار:

أريد أن أضمّ فارسي / عارياً بين ذراعيّ في المساء / وأريده أن يبلغ النشوة / عندما يضع رأسه على نهديّ / يا صديقي الساحر والجميل والصالح / متى أضمّك بكلّ قوتي؟ / وأستلقي إلى جوارك لمدّة ساعة / وأقبّلك قبلات العشق؟ / تعرف أنّني سأبذل كلّ شيء / كي تحلّ مكان زوجي / لكن فقط إن أقسمت لي / أنّك ستنفّذ كلّ ما أرغب به.

بياتريس دي دياز، الشاعرة الريفيّة من القرن الثاني عشر، التي كتبت أغنية الحبّ والشهوة هذه إلى عشيقها التروبادور، كانت مثالاً لنساء كثيرات آنذاك، رفضن تعريفَ أجسادهنّ على أنّها مقرفة، وأيَّ تدخّل في حقّهنّ باتّخاذ القرار. في هجوم مباشر على مفهوم الجسد الأنثويّ الضعيف، أرست ملكاتُ الحبّ النبيل مثل إليانور دي آكيتاين قيمةً أعلى للمرأة، من خلال تمجيد الفضائل الروحانيّة كالإخلاص والديمومة. هذا الهجوم لم يكن مجرّد لعبة من ألعاب البلاط، بل تحدٍّ صريح لسلطة الرجال، يشهد على ذلك قيام الزوج الغاضب أحياناً بقتل العشيق التروبادور، مدفوعاً بغضبه من «تودّد» زوجته، دون أن يملك دليلاً على ارتكابها الزنا أو أيّ تصرّف ينافي الحشمة. لذلك، كان من الأسلم أن تعتمد «ملكات الحبّ» في الموسيقى والشِعر على النساء التروبادورات اللواتي نشرنَ مهنتهنّ في أرجاء أوروبا، أو على شاعرات مثل ماري دي فرانس، التي أثّرت بعبقريّتها الغنائيّة وأساليبها الشعريّة على الأدب الأوروبيّ كلّه.

9- أو الحبّ الفروسيّ أو «الكورتوازيّ» Courtly love: مجموعة من الأدبيّات والسلوكيّات التي تمدح النبالة والشهامة والفروسيّة، تتمحوّر حول علاقات الحبّ بين الفرسان وسيّدات البلاط الملكيّ المتزوّجات غالباً. بدأت في فرنسا في القرن الحادي عشر. المترجمة

مع بدايات عصر النهضة، أصبح الموقف تجاه النساء ألطف، وابتعدت المقاربات الجديدة عن الإساءة الهستيرياتيّة السابقة. لأوّل مرّة في التاريخ، ظهر كاتب مناصر للنسويّة هو هينريتش كورنِليوس أغريبا ڤون نِتشايم، الذي جادل ضدّ هيمنة الرجل المستندة إلى العقيدة اللّاهوتيّة. في كتابه ذي العنوان المستفزّ «عن نبالة وتفوّق الجنس الأنثويّ» 1505م، تحدّى بصراحة سلطة الإنجيل وترسيخها لدونيّة المرأة: «آدم يعني الأرض، أمّا حوّاء فهي الحياة. آدم هو نتاج الطبيعة، أمّا حوّاء فهي من خلقها الله. لقد وُضِع آدم في الجنّة لهدف واحد لا غير، هو خَلْقُ حوّاء».

جمهور ڤون نتشايم لم يكن أصمّ، وضمّ رجالٌ آخرون من ذوي السلطة والمكانة أصواتهم إليه دفاعاً عن المرأة، وعن حقّها في المشاركة بغنيمة التعليم والأفكار الحضاريّة الجديدة. النبيل الإيطاليّ كاستليوني، وهو دبلوماسيّ وكوزموبوليتانيّ ألّف كتاباً شهيراً هو «المتودِّد»، لخّص روح عصره بجملة واحدة: «فضائل العقل ضروريّة للنساء، تماماً مثل الرجال».

مع انتشار التعليم كالنار في الهشيم (مقارنة بزحفه البطيء في العصور السابقة)، التقطت نساء كثيرات القلمَ للمرّة الأولى، بكلّ ما يحمله من قوّة التعريف، ولا عجب! فهناك مسائل عديدة تنبغي تسويتها. في المقتطفات التالية من كتابات أبرز المؤلّفات الفرنسيّات في القرن السادس عشر، نلاحظ أنّ الزواج القسريّ، بل الزوج شخصيّاً، كان الضيم الذي ركّزت عليه أقلام النساء آنذاك:

– قبّلها الرجلُ العجوز، وكأنّه حلزون يزحف على وجهها الفاتن.

– لا يشبه الرجال، وإنّما الوحوش. رأسه ضخم ثقيل، عنقه قصير للغاية، يستند إلى كتفين محدودبتين بائستين. تنبعث من كرشه أبخرة كريهة، تخرج من فمه المسودّ الغائر العَفِن.

– ما إن يدخلوا المنزل حتّى يوصدوا الباب بالمزلاج، من ثمّ يأكلون بلا أناقة. في السرير، يلبسون قلنسوات عملاقة سماكتها إصبعان، وقمصاناً تغطّي السرّة مثبّتة بدبابيس صدئة، وجوارب صوفيّة سميكة تصل إلى منتصف

الفخذ. يضعون رؤوسهم على وسائد دافئة، تنبعث منها روائح الشحم الذائب، ويصاحب نومهم سعال وانفلات الفضلات التي تلوّث الأغطية.

المقتطف الأخير، بما فيه من مترادفات زاخرة بالحياة، كتبته امرأة مشهورة بموهبتها الأدبيّة هي لويز لابيه المتألّقة: شاعرة غنائيّة ملمّة باللغات، وموسيقيّة، وفارسة، ورئيسة «مدرسة الأسود» للكتّاب، تربّعت على عرش الإبداع بوصفها أعظم شاعرة غنائيّة فرنسيّة في عصرها. إذن، خلال فترة وجيزة من دخولها إلى عالَم الأدب، أظهرت المرأة مواهب متنوّعة مدهشة، وقوّة فكريّة مذهلة. كريستين دي بيزان كانت من أبرز المفكّرات الرائدات في القرن الخامس عشر، وهي عالمة إيطاليّة برعت في التاريخ، والفلسفة، والسيرة الذاتيّة، والشِعر. رغم أنّها كُرِّمت من قبل الملوك وحقّقت نجاحاً باهراً آنذاك، فإنها لم تتنصّل من إخلاصها لجنسها، بل حاولت دائماً أن تُذكّر بإنجازات المرأة في العصور السابقة، ودافعت بلا كلل أو ملل عن النساء المعاصرات وأولئك اللواتي عشن في العصور الغابرة، ووقفت بوجه الرجال المعادين للنسويّة الذين هاجموها شخصيّاً، كما هاجموا الجنس الأنثويّ عموماً.

انصبّ اهتمام كريستين على الدفاع عن حقّ المرأة بالتعليم، فجادلت بحماس ووضوح لإثبات وجهة نظرها، ممّا جعل الأجيال اللّاحقة تترجم كتابتها وتقتبسها: «لو جرت العادة على إرسال الفتيات الصغيرات إلى المدرسة، وتعليمهنّ الموضوعاتِ ذاتها التي يدرسها الصِبية، لتعلّمن بالمقدار نفسه، وفَهِمن كلّ ما يتعلّق بالفنون والعلوم. في الحقيقة، ربّما فهمنها أفضل! أجساد الإناث أرقّ من أجساد الذكور، وذكاؤهنّ متّقد أكثر... لا شيء يعلّم مخلوقاً يتحلّى بالعقل والمنطق، كما يفعل تعدّد التجارب وتنوّعها».

هدوء كلماتها الواضحة، يتناقض مع حدّة خصومها الغاضبين. عنفُ الصراع الذي وجدت كريستين نفسها تخوضه، هو بحدّ ذاته دليل على أهميّة قضيّة تعليم المرأة، لأنّها ليست قضيّة نظريّة أكاديميّة، بل إعادة رسم لخطوط المعركة. في السابق، كان الانقسام بين المتعلّم والجاهل بمثابة

فرق بين الحاكم والمحكوم، لكنّه تحوّل الآن إلى انقسام بين الجنسين. مع الانتقال إلى الحقبة الحديثة، أصبح التعليم هو السبيل الأسرع إلى الحريّة والمستقبل، واكتسبت الدراسة أهميّة جديدة ما بعد العصور الوسطى، فلم تعد مجرّد تأمّل سلبيّ، بل توظيف للقدرات الفكريّة بغية تفكيك «الآلة الكونيّة» التي صنعها الله، واكتشاف طريقة عملها. أتباع المذهب الإنسانيّ الجدد، بعد أن غمرتهم بهجة اكتشاف الإنسان لذاته، أمضوا أوقاتهم بالتفكير في مسألة «الرجل، ذلك الاختراع العظيم!»، ولم يقاربوا بالحماس نفسه مسألة المرأة التي قد تقترب منهم حاملة «مفتاح رانش»، كي تشاركهم بتفكيك الآلة الكونيّة.

بما أنّ المرأة ظلّت ممنوعة من دخول الحيّز العامّ، لذلك لجأت إلى حلّ بديل هو العمل الخاصّ. بما أنّ جنسها أيضاً كان يُعاب دائماً بسبب غبائه، لذلك كان الحلّ المنطقيّ الوحيد المتاح هو أن تسعى إلى العلم... لكنّ العقليّة الذكوريّة لن تكترث بمنطق النساء هذا، ولن تأخذه على محمل الجدّ. انصبّ الفكر والجهد الذكوريّ عوضاً عن ذلك على إثبات وترسيخ جهل المرأة الفاضح، الذي يخدم غاية ثانويّة هي إثباتُ التشخيص المبدئيّ القائل بأنّ «الكتب تدمّر دماغ المرأة، وهي لا تملك منه أصلاً إلّا القليل!».

عندما اخترع الصينيّون الكتابة، خلقوا بالتوازي معها طبقة المندرين كي تشرف عليها، وتمنع وقوع سلاح المعرفة الفتّاك بين أيدٍ غير مقدّسة. في تقليد تاريخيّ أجوف، استنبطت كلّ المجتمعات الغربيّة ابتداء من مطلع الألفيّة الثانية، تكتيكاً خاصّاً بها لمنع تسرّب «المعارف الحديثة» إلى جنس النساء ذي المرتبة الأدنى. «الإصلاح» البروتستانتيّ لم يقم بالكثير من الإصلاح على مستوى النساء، ولم يجلب عصر النهضة معه «ولادةً جديدة» لأولئك المولودات أصلاً في الأجساد الأنثويّة «الخطأ». نزعة المذهب الإنسانيّ الجديد قلبت مفهومَ الخَلق الأصليّ، الله خلق الرجلَ على صورته ومثاله في الماضي، أمّا الآن فقد أصبح الرجل مشغولاً بتحويل نفسه إلى إله. بالتالي، كان لا بدّ من إجراء بعض «الترميم» للمرأة كي تصبح شريكة تليق بالرجل الجديد. هذا لا يعني أن تسعى خلف غاياتها الفكريّة الخاصّة،

بل أن تدرس كي تصبح قرينة مثاليّة. لذلك، طغت فكرة «التأهيل» بسلاسة على تحقيق الإنجازات الشخصيّة، كما أنّ «تعديل» المرأة لنفسها كي تتلاءم مع متطلّبات الزوج الصارمة، أصبح أهمّ غاياتها. ما هي قيمة تعليم النساء إزاء كلّ ما سبق؟!

معارضة تعليم النساء -حتّى بعد انبلاج «فجر النهضة» العظيم- ارتكزت على قناعة سائدة، هي أنّ المرأة لا تملك مكاناً ولا وظيفة ولا مستقبلاً ولا أملاً خارج إطار الزواج. المرأة لن تستفيد من التعليم في الدور الذي خصّها به كلّ من الله والطبيعة، ولا فوائد اقتصاديّة تُرجى منه، لأنّها لن تكسب عيشها أبداً بقوّة دماغها، بل على العكس، تعليمها قد يترافق مع خسائر اقتصاديّة مباشرة. المرأة المتعلّمة تغادر سوق الزواج متى شاءت، وإن تزوّجت، سيكون زواجها فاسداً منذ البداية. المؤرّخ الفرنسيّ أغريبا دوبينيه، لم يكن أوّل أبٍ في القرن السادس عشر يتعاطف بحرارة مع رغبة بناته بالدراسة مع أخوتهنّ الذكور، لكنّه خشي في الوقت ذاته من العواقب السلبيّة، فالبنت «ستبغض أعمال المنزل، وستكره الزوج الأقلّ منها ذكاء»، وبالتالي ستدبّ الخلافات بينهما.

على ما يبدو، خطرُ التعليمِ يتمثّل بأنّه يرقّي المرأة إلى مستوى أعلى من مستواها المُفترَض. معظم ردود الأفعال العنيفة تجاه المرأة المتعلّمة، تهدف إلى إعادتها إلى ذلك الثقب الأسود مرّة أخرى. إيسوتا نوغارولا، عالمة الكلاسيكيّات الإيطاليّة، التي لُقِّبت في الثامنة عشرة من عمرها بـ «إيسوتا الإلهيّة» بسبب عبقريّتها، حظيت بسنتين لا غير كي تتمتّع بثمرات عملها، قبل أن تتعرّض إلى تذكير وحشيّ بجنسانيّتها: في عام 1438م، اتُّهِمتْ زوراً هي وأختها العالمة المشهورة جينيڤرا بالفحشاء وزنا المحارم. نتيجة لذلك، أفلست نوغارولا، وهربت من مدينة ڤيرونا، وعاشت بعد ذلك في منزل أمّها، مكرّسة نفسها كليّاً لدراسة النصوص المقدّسة في عزلة مطلقة. بالمثل، أُدينَتْ نساء أخريات -كالشاعرة الهنديّة ميرا باي في القرن السادس عشر- بتهمة تحدّي القوانين والأعراف الاجتماعيّة، نتيجة انتقالهنّ إلى الحيّز العامّ، وأُجبِرَتْ بعضهنّ بالقوّة على العودة إلى الحيّز الخاصّ،

مثل نينون دي لانكلو التي حُبِسَت في دير فرنسيّ في القرن السابع عشر، لأنّ دراستها للفلسفة الأبيقوريّة تنمّ عن «انعدام احترامها لِلدين». الراهبة الإنجليزيّة ماري وورد التي حاولت إنشاء مؤسّسة لتعليم النساء (وهي واحدة من أبكر المحاولات لإنشاء كليّة نسائيّة) عانت مصيراً أسوأ على يد الكنيسة الكاثوليكيّة، إذ حُبِسَت في زنزانة ضيّقة بلا نوافذ، رُفِعَت منها جثّة متعفّنة لراهبة ماتت للتوّ، وكادت ماري تموت بدورها نتيجة لذلك. قبل أن تُسجَن، اعتادت ماري على السفر من مكان إلى مكان طلباً للعلم، وهذا بحدّ ذاته جسّد نقطة إشكاليّة في عصر يرتاب بالمرأة التي لا يرافقها رجل، مثلما يرتاب من رجل لا يخضع لسيّد. عندما تحاول المرأة نقل ثمرات دراستها الخاصّة إلى الحيّز العامّ بوصفها مُدرِّسة أو مبشِّرة، متحدّية الحظر الذي تفرضه عليها النصوص المقدّسة، فربّما تتلقى عقاباً وحشيّاً: «كامبريدج، ديسمبر 1653: وصلت شكوى إلى العمدة وليام بيكرِنغ عن امرأتين تقومان بالتبشير... استفسر عن اسميهما، وعن اسم زوجيهما، فأجابتاه أنّ يسوع المسيح هو زوجهما الوحيد، وهو من أرسلهما. عند سماعه هذا، غضب المحافظ ونعتهما بالعاهرتين، وأمر الشرطة بجلدهما في السوق إلى أن تسيل دماؤهما... عرّى الجلّاد كلّاً منهما إلى الخصر، وثبّت أيديهما على عمود الجَلْد، من ثمّ نفّذ أمر العمدة... إلى أن تمزّق لحمهما».

كلّ ما سبق هي حالات فرديّة بلا شكّ، لكنّ التأثير التراكميّ لإنكار حقّ المرأة بالتعليم والدراسة والمشاركة بمعارفها، بل وحتّى حقّها بالتفكير، كان خطيراً. انحطاط أديرة الراهبات تزامن مع ازدهار مدارس اللغات والجامعات (المحظورة على المرأة بالطبع)، التي سيطرت على المعارف سيطرة حصريّة منذ تأسيسها. في قضيّة مشهورة عام 1322، مَثُلَت معالِجةٌ شعبيّة تدعى جاكوبا فيليبي أمام المحكمة، بناء على شكوى تقدّمت بها كليّة الطبّ في باريس، اتّهمتها بـ«الممارسة غير المشروعة للطبّ». شهد ستّة أشخاص على أنّ فيليبي نجحت بعلاجهم، بعد أن فشل الأطباء المتخرّجون من الجامعة بذلك، لكنّ شهادتهم سُخِّرَتْ لإدانتها، لا لتبرئتها.

في بداية العصر الحديث، خُنِقتْ أيّ فرصة بالتعليم قد تحظى بها المرأة

في العالَم الجديد الشجاع، لأنّ تدهور الأديرة حرمَ الفتيات الصغيرات المجتهدات من مكان يقصدنه لتحصيل العلم، ومن طريقة للتهرّب من الأزواج والأطفال والحفاضات والأعمال المنزليّة، فضلاً عن عدم وجود حلقة من النساء الكهلات المتعلّمات يقمن بالتدريس. المعارف الحديثة ليست للنساء! من مفارقات الخروج من العصور المظلمة إلى عصر النهضة والعلم، أنّ المرأة تحرّرت من بعض أسوأ المخاوف المتولّدة عن جهل الرجل، لكنّها وقعت في أسر غيرها. لم تعد توصَم بأنّها فَرْج شهوانيّ أو مهبل خبيث لا يرتوي يتصيّد الرجال، لكنّها لم تحظَ باحترام يفوق اعتبارها «مسخاً عديم الرأس» يستهزئ به العامّة، ويُقدَّم في معارض المسوخ الشهيرة في القرون الوسطى. «لا تصبح المرأة أسوأ عندما تتعلّم» كما نادت كريستين دي بيزان، لكن إلى أن يقتنع العالَم بذلك، كلّ ما استطاعت المرأة فعله كان أن تعتني بزوجها وبيتها وأطفالها... وأن تنتظر!

عندما يقرأ المرء عن ساحرة اختبأت، عن امرأة مسكونة بالشياطين، عن حكيمة تبيع الأعشاب، أو حتّى عن أمّ رجل مميّز... أعتقد أنّنا على أعقاب روائيّة ضائعة، أو شاعرة مقموعة، أو جاين أوستن خرساء مغمورة، أو إيميلي برونتي فقدت عقلها في السهوب، أو تشرّدت وجابت الشوارع مجنونة من العذاب الذي تسبّبه موهبتها. في الواقع، سأتجرّأ وأضيف سريعاً أنّ من كتبت العديد من الأشعار دون أن تغنّيها، كانت امرأة.

• ڤرجينيا وولف

الجزء الثالث

الهَيمنة والمُهيمِن

أوه، تعالي وكوني زوجتي! قال النسر للدجاجة
أحبّ أن أحلّق في الأعالي، لكنّني
أريد أن تبقى زوجتي للأبد في العشّ!
قالت الدجاجة: لا أستطيع الطيران،
ولا أرغب بتجربته،
لكنّني سأفرح لرؤية زوجي يحلّق في السماء!
تزوّجا، وصاحا: آه! هذا هو الحبّ! حبّي!
وجلست الدجاجة، بينما حلّق النسر، وحده.

• شارلوت بركنز جيلمان: «نعمة زوجيّة»

عملُ المرأة

– لا يهمّني التاريخ الرسميّ الحقيقيّ... ولا نزاعات الملوك والباباوات والحروب والهمجيّة. في كلّ صفحة، هناك رجال لا ينفعون لشيء، لكن لا وجود للنساء على الإطلاق.

• جاين أوستن – دير نورثانجر

– عملت النساء دائماً وباستمرار، في كلّ مكان وزمان، في كلّ أنماط المجتمعات، وفي كلّ بلدان العالم، منذ بداية التاريخ البشريّ.

• هيذر غوردون كريمونسي

– سألنا امرأةً إفريقيّة، لماذا يمشي زوجها دون اكتراث بينما تحمل هي الحمولة بأكملها؟ فأجابتنا: «وماذا سأفعل إن ظهر أسد، وكان زوجي هو من يحمل الأغراض كلّها؟!». استفسرنا منها كم مرّة صادفت أسداً، وكمّ مرّة تحمل هي الحمولة كلّها، وماذا ستفعل لو ظهر لها أسدٌ وهي تحملها؟

• يوميّات مبشّر إنجليزيّ

في عام 1431، أُدينَتْ جان دارك في فرنسا بتهمة ارتداء ملابس الرجال،

وماتت على المحرقة. بعد عقد من الزمن، دُحِرت الصين من ڤيتنام التي كانت قنبلة موقوتة، وبدأ المهندسون المعماريّون والحجّارون ببناء سور زيمبابوي العظيم. في أواسط القرن، دُحرَ الإنجليز من فرنسا، قدّم غوتنبرغ أوّلَ كتاب مطبوع إلى أوروبا، وسارع العلماء من مختلف الجنسيّات للانضمام إلى جامعة تمبوكتو، مفخرةِ إمبراطوريّة سونغاي المزدهرة. بدأ البرتغاليّون ينظرون بعين الحسد والطمع إلى تألّق القارّة الإفريقيّة، ورفع العصرُ شعار التوسّع الإمبرياليّ في كلّ مكان. في أمريكا الجنوبيّة، احتلّ الإنكا الممالك الصغيرة لإشباع آلهتهم الجشعة، بينما قضى الأتراك العثمانيّون على الإمبراطوريّة البيزنطيّة وأسّسوا إمبراطوريّتهم الخاصّة، كما أطاح إيڤان الثالث بالمنغوليّين وتوّج نفسه كأوّل قيصر روسيّ.

مع نهاية القرن، سجّل التاريخ اكتشاف كولومبوس للعالم الجديد، وبعد أقلّ من عشرين عاماً، انطلقت أوّل شحنة من العبيد الإفريقيّين إلى أمريكا. الرحلات الاستكشافيّة الأخرى (ماجلان، ڤاسكو دا غاما... إلخ)، ترافقت مع حملات استكشاف داخليّة على الأرض، ومع النهضة والإصلاح البروتستانتيّ، ونشأت أوّل مستعمرة كولونياليّة دائمة في جيمس تاون، ڤيرجينيا، التي كانت بمثابة نقطة استقرار في العالم المضطرب. اكتسح البرتغاليّون إفريقيا بسرعة، ودمّروا كلّ حضاراتها. سقطت إنجلترا بيد البيوريتانيّين وأعداء المَلَكيّة، وقُتِلَ ملكها. في الهند، تداعت الحضارة المغوليّة العظيمة مع وفاة الإمبراطور أورنجزيب عام 1707. إلى الأبعد منها شرقاً، نجح المانشو بتأسيس آخر سلالة عظيمة في الصين.

خلال كلّ تلك التقلّبات، في كلّ مكان من العالم، اعتنت المرأة بأطفالها، حلبت قطعانها، حرثت حقلها، غسلت الثياب، طبخت، خبزت، نظّفت، خاطت، اعتنت بالمرضى، واست المحتضرين، ومشت في جنازات الموتى... تماماً كما تفعل بعض النساء الآن في هذه اللحظة، في مكان ما من العالم. هذه الاستمراريّة الاستثنائيّة التي لم تنقطع، من بلد إلى بلد، ومن عصر إلى عصر، هي أحد الأسباب التي جعلت عمل المرأة غير مرئيّ: صورة المرأة التي ترضع طفلها أو تحرّك قِدر الطعام أو تكنس الأرض، هي صورة

مألوفة تماماً كالهواء الذي نتنفّسه، لم تستقطب اهتمام العلماء قبل الحقبة الحديثة. قامت النساء بأيّ عمل ينبغي إنجازه، سواء في كواليس الحياة الزاخرة بالنشاطات التي عاشها الملوك والبابوات، أو في كواليس الحروب والهزائم والاستكشافات والطغيان. نسجت المرأة العاملة النسيج الحقيقيّ للتاريخ، دون أن يحظى عملها بحقّه من التقدير حتّى الآن.

حياة المرأة، وعملها المُغْفَل الذي يُعتبَر أمراً مفروغاً منه، متشابهان للغاية ويتضافران لإبقاء إنجازات المرأة غائبة عن سجلّات التاريخ. حرصت الوثائق الرسميّة مثلاً على تسجيل الإنتاج السنويّ للفلّاح من اللحوم، الحليب، البيض، الحبوب... إلخ، لكنّها لم توثّق قط مقدار إسهام زوجته بذلك. القضية أصلاً لم تكن مطروحة على الإطلاق، لأنّ الزوجة تنتمي إلى زوجها وفق القانون وبناءً على موافقتها أيضاً، بالتالي يملك زوجها جهدها وثمرات عملها. فكرة سجلّ مستقلّ لعمل كلّ منهما، ستثير الضحك بلا شكّ! توثيق نشاط النساء في سوق العمل كان نادراً، ولم يسجّل إلّا الحالات الاستثنائيّة، كالأرملة التي تطلب إذناً رسميّاً لمتابعة العمل في تجارة زوجها المتوفّى مثلاً، أو الزوجة التي هربت أو هجرها زوجها، والتي تضطرّ إلى إعالة نفسها. تاريخ النساء يجب أن يقتنص بسعادة تلك اللحظات النادرة التي يعثر فيها مثلاً على مسح للأملاك تمّ بطلب من الأسقف، دُوِّنَ فيه اسم مالكة مبغى مزدهر هي بارنِل بورتجوا، جنباً إلى جنب سمسارها ذي الاسم الأنيق نيكولاس بلَكروز عام 1290، أو سيّدة أخرى جريئة هي إيفا جيفارد من ووترفورد، إيرلندا، قامت في القرن الرابع عشر بالتسلّل ليلاً إلى حظيرة خراف، وجزّت صوف عشرين منها، ثمّ غزلتها وباعتها لحسابها الخاصّ. بارنا وإيفا هما الاستثناء وليس القاعدة، الاستثناء لا من حيث الجهد أو الطاقة أو المهنة غير التقليديّة، بل بسبب توثيق اسميهما في السجلّات الرسميّة. الاستقصاء التاريخيّ السريع يكشف لنا أنّ عمل النساء، على تنوّعه ومقداره وأهميّته، لم يحظ عموماً بالتقدير الذي يستحقّه، كما أنّ المرأة بحدّ ذاتها قلّلت من أهمّيّته.

ببساطة، تابعت المرأة عملها على مرّ الزمن، مهما كان نوعه. لم

تعترض قط على عملها في الحقل والبيت والمصنع، إضافة إلى العبء الأساسيّ الملقى على كاهلها، والمتمثّل بالحفاظ على بقاء الجنس البشريّ واستمراريّته. لم تحتجّ بأنّ دورها كزوجة وأمّ وربّة منزل، يتطلّب أشكالاً أخرى من العمل تتفاوت في طبيعتها ومقدارها، منزليّة، اجتماعيّة، طبّيّة، تربويّة، جنسيّة، وعاطفيّة. كلّما كانت ظروف المعيشة أصعب، اضطرّت المرأة أن تكدح أكثر لتأمين قوت عائلتها وخلق البيئة الأفضل لها. في المستعمرات الأمريكيّة مثلاً، تحمّلت المرأة أعباء وواجبات تعتمد على خبرتها وصبرها، فاقت ما قام به زوجها. عمل الرجال كان شاقّاً لا ينتهي: استصلاح الأراضي، قطع الأشجار، تنظيف التربة من الجذور العملاقة الأشبه بالصخور... إلخ، لكنّ الإعياء الذي يصيبهم في آخر النهار كان ثمناً عادلاً برأيهم لقاء عدم اضطرارهم للقيام بالغسيل، الغزل، الحياكة، الخياطة، وتحضير الخبز على طريقة الهنود فوق الجمر، من ثمّ تمليح الأسماك، تنظيف الأرضيّات، زراعة الحديقة بكلّ النباتات التي جلبوها معهم من أوروبا لاكتشاف أيّ منها سيعيش ويزدهر، تتبيل لحم الديك الروميّ القاسي الذي يصطادونه من الغابات بالبصل وعشبة البارو[1]، تحذير الأطفال من مخاطر النباتات السامّة، إعطاء التعليمات للخادمة، تعليم الصبيّ كيف يقرأ ويكتب، كتابة الرسائل إلى الأهل في الوطن مذيّلة بعبارة «نحن نتدبّر أمرنا جيّداً»، وهي العبارة التي حملتها معظم رسائل المستعمرين الأوائل.

حاولت النساء الرائدات آنذاك، أن يزرعن «حدائق إنجليزيّة» تضمّ كلّ الأزهار والأعشاب المألوفة التي تنبت في الوطن. من محاولتهنّ المؤثّرة تلك، نستشفّ استمراريّة ما بين العمل الذي لا ينتهي في العالم الجديد مع ذاك في العالم القديم، انطلقت مع بدايات النشاط البشريّ ودامت طيلة التاريخ. اكتشف المؤرّخون والأنثروبولوجيّون مؤخّراً «سرّاً»، لم تجهله أيّ امرأة: «عمل النساء الرائدات في المستعمرات كان دقيقاً، مستمرّاً، متنوّعاً، وصعباً. لو جمعنا كتالوجاً عن أنماط العمل الأولى، سنجد أنّ المرأة كانت

1- نبتة عشبيّة مزهرة تستخدم لإعطاء طعم حلو، فضلاً عن فوائدها الطبيّة العديدة. المترجمة

تقوم بخمسة أمور، أمّا الرجل فلا يقوم إلّا بواحد». لعلّ ذلك «الأمر الوحيد»، كان الإشراف على النساء!

على ضوء ما سبق، من الصعب أن نقتنع بالخرافة الراسخة التي تنصّ على أنّ «المرأة العاملة» هي مشكلة خاصّة بالقرن العشرين. السجلّات التاريخيّة الأولى كالنقوش الأثريّة مثلاً، تكشف عن وجود غسّالات، طبيبات، أمينات مكتبة، قابلات، حلّاقات، خيّاطات... إلخ في أرجاء الإمبراطوريّة الرومانيّة. حظيت أخواتهنّ الإغريقيّات بدرجة أقلّ من الحريّة، خاصّة المتزوّجة التي كانت حبيسة فعليّاً في gynaeceum أي «جناح النساء» في منزل زوجها، وهو ما يرمز إليه طقس كئيب من طقوس الزفاف آنذاك، يتمّ فيه كسرُ وإحراق محور العربة التي تقلّ العروس الإغريقيّة من بيت والدها إلى بيت عريسها. لم يثنِ ذلك المرأة في اليونان عن العمل ممرّضة، وبائعة أعشاب طبّيّة، وصانعة أكاليل... إلخ. في القرن الأوّل الميلاديّ، أكّد الكاتب أثينايوس وجود ثلاثة آلاف عازفة ضمن طبقة «هتايراي[2]»، أمّا القرن الرابع في أثينا، فقد سجّل اقتتالَ أرباب العمل الرجال في الشوارع، بهدف اقتناص خدمات العازفات والمغنّياتِ، نتيجة نقص أعدادهنّ. تُعَدّ النساء المذكورات محظوظات، على الرغم من متطلّبات عملهنّ آنذاك. في بقيّة أرجاء العالم، سادت صورة كلاسيكيّة هي المرأة المثقلة بأشدّ الأعمال انحطاطاً وإثارة للتقزّز في مجتمعها. في القطب الشماليّ مثلاً، المرأة هي من تقوم بمضغ جلود الطيور النيّئة بهدف تليينها لاستعمالها في خياطة الملابس الداخليّة، كما تقوم بتجهيز جلود الطرائد الأكبر من خلال «تعطينها» كي يسهل كشط الشعر والدهون المتعفّنة، من ثمّ تنقعها في البول، وتفركها بمخّ الحيوانات لتطريتها. بالنسبة إلى شاهد عيان، كان ذلك «أقذر عمل في تاريخ البشريّة، وهو عمل لا تقوم به إلّا النساء». هذا العمل المقرف لا غنى عنه من أجل بقاء

2- Hetairae طبقة من المحظيّات الراقيات المحترفات المستقلّات في اليونان القديمة، حرصن بالإضافة إلى جمالهنّ على تحصيل الثقافة وتنمية مواهبهنّ، وتمتّعن بحريّة واستقلاليّة أكثر من بقيّة النساء عموماً في اليونان، وكذلك بالمكانة والثروة. المترجمة

القبيلة، دون جلود لن تتوفّر الأحذية ولا السترات ولا البناطيل، ولا القِرَب لحفظ الماء والطعام، ولا زوارق الكاياك ولا الخيام، ولا ننسى أنّ تحضير الجلود يتطلّب دقّة وإبداعاً ومزجاً بين خبرات عديدة، لكنّ أيّاً ممّا سبق لم يُكسِب المرأةَ التقديرَ أو الاحترام، كما لم يُعْفِها من واجبات العمل الأخرى.

فانتازيا «الجنس الأضعف» التي ظهرت ما بعد الحقبة الرومانسيّة، هي خرافة أخرى تنسفها على الفور فيالق النساء المصريّات اللواتي بنين الأهرامات، أو الحجّارات اللواتي بنين المعابد في مملكة ليديا كما كتب هيرودوت، أو العاملات في شقّ الأقنية في بورما، أو في حفر الأرض في الصين. في روسيا وبقيّة المشرق عموماً، وظيفة «الحمّال» عُدَّتْ من اختصاص المرأة التي لا تتوانى عن حمل أوزان ضخمة، ففي قبائل الأسكيمو مثلاً قد تحمل على ظهرها صخرة تزن 300 باونداً. أحد المبشّرين الذين زاروا المناطق الكرديّة، صُعِق عندما رأى امرأة تريد أن تعبر ممرّاً جبليّاً وعراً برفقة حمارها المحمّل، فما كان منها إلّا أن رفعت حمولة الحمار على كتفها وساقته أمامها، رغم أنّها تحمل أصلاً ما يعادل مئة باوند، بالإضافة إلى مغزلها اليدويّ الذي ظلّت تغزل عليه دون انقطاع: «غالباً ما كنتُ أرى نساء أشبه بالوحوش المحمّلة، ينزلن عبر الممرّات الجبليّة الوعرة واحدة تلو الأخرى، وهنّ يغنّين ويغزلن... يحملن سلالاً عملاقة على الظهر، وأحياناً أطفالهنّ أيضاً، ويقطعن معبر إشتازين المرعب في رحلة تستغرق أربعة أيّام، بهدف بيع العنب في الجهة الأخرى من الجبال وشراء الحبوب».

المقتطف السابق يلقي الضوء على ملمح آخر ثابت مشترك بين جميع النساء حول العالم، تلخّصه قصيدة إنجليزيّة قديمة كما يلي: «عمل الرجل ينتهي مع غروب الشمس / عمل المرأة لا ينتهي أبداً». عمل الرجل خارج المنزل يبدأ مع انبلاج الفجر، لكنّه ينتهي حكماً مع حلول الظلام. أمّا بالنسبة للمرأة، فاختراع الضوء الصناعيّ الأوّل في الكهف ما قبل التاريخ كان له تأثير مغاير، هو تمديد يوم عملها إلى ما لا نهاية، وفيما بعد أصبحت التسلية التي تمثّل استراحة حقيقيّة في نهاية يوم العمل، امتيازاً من امتيازات الذكور بالدرجة الأولى.

الغَزْل، خاصّة في العصور التي سبقت اختراع آلة الغَزْل الميكانيكيّة، كان مستمرّاً بلا نهاية، وتحوّل إلى مجاز يعبّر عن الجهد المتواصل المتكرّر المستمرّ غير المثمر، الذي يعني عموماً «عملاً خاصّاً بالمرأة». الرجل آنذاك كان ينفر مرتعباً من فكرة إمساك المغزل بيده، كما ينفر اليوم من فكرة عمليّة تغيير الجنس الإجباريّة مثلاً. حتّى إيراسموس المتنوّر، تشبّث بصرامة بوجهة النظر تلك: «في الحقيقة، المغزل هو أداة للنساء جميعهنّ، ومناسب جدّاً لمنع الكسل». لم تكن بعض النساء ممنونات قط من هذا الاستغلال البنّاء الحكيم لساعات الراحة (عفواً: الكسل!)، وعندما فُرِضَ عليهنّ العمل في المصنع في بدايات الحقبة الصناعيّة في أوروبا، ارتفع صوت أولئك البائسات بالشكوى، كما في هذه الأغنية القصيرة المريرة التي ردّدتها غازلات الحرير في فرنسا أثناء العصور الوسطى: نحن نغزل الحرير دوماً / رغم أنّنا لا نستطيع ارتداء ثياب لائقة / سنبقى عاريات فقيرات دائماً / جائعات عطشانات دائماً / يعطوننا القليلَ من الخبز / القليل في الصباح، وأقلّ بكثير في المساء.

حظيت الفتيات في المدن بتعليم أفضل، مقارنة مع ملايين النساء الريفيّات اللواتي لم يعشن أفضل من حيوانات المزرعة، ولم يوثّق أحد معاناتهنّ. وصفُ حياة المرأة الريفيّة عموماً كما في المقطع التالي، كان يتمّ على بُعد مسافة آمنة من ذلك المخلوق المرعب الذي أنجبته الحياة: «في هذه المنطقة الجميلة، نجد أنفسنا مضطرّين للقول إنّ الجنس الأنثويّ يُعامَل بهمجيّة. تُجبَر النساء على العمل في الحقول والأراضي بوصفهنّ يداً عاملة زراعيّة، فيتشوّه جمالهنّ. معظمهنّ غير جذّابات، حرقتهنّ الشمسُ، وخرّب العمل والتعرّق أجسادَهنّ وملامحهنّ. يمتلئ وجه الفتاة هنا بالتجاعيد قبل بلوغها الثامنة عشرة، ويتهدّل نهداها، وتصبح يداها خشنتين، ويحدودب ظهرها».

في كلّ المجتمعات، عانت الفلّاحات اللواتي لا يملكن أرضاً من الشقاء، كما أنّ الحياة اليوميّة طحنت الرجال بدورهم وكأنّهم حيوانات. عندما طاف الفيلسوف جان دي لا برويير في أرجاء فرنسا ما قبل الثورة،

أفزعه ما رآه: «في الريف كلّه، الإناث والذكور أشبه بحيوانات متوحّشة سوداء، تغطّيها الكدمات، وتحرقها الشمس... وهم مرتبطون بالأرض التي يحرثونها ويحفرونها». تلك المخلوقات تصدر «ضجّة» أشبه بالكلام، كما علّق بسخريّة، من ثمّ تنسحب ليلاً إلى «الأقبية، حيث تعيش على الخبز الأسود والماء والدرنات».

ملاحظات جان دي لا برويير تساعدنا على تفنيد مفهوم خاطئ آخر من مفاهيم القرن العشرين، وهو وجود «عمل للرجال» مقابل «عمل للنساء»، في تقسيم جندريّ للقوى العاملة قديماً كما نفهمه اليوم. في الواقع، كانت هناك أعمال من المستحيل أن يمارسها الرجل، كالغَزْل مثلاً، لكن من النادر وجود عمل ترفض زوجته أو ابنته القيام به، كما يؤكّد تحليل اقتصاديّ معاصر: «قبل الثورة الزراعيّة والثورة الصناعيّة، اضطلعت المرأة بالأعمال جميعها، ولم تُستثنَ من القيام بأيٍّ منها، مهما كانت شاقّة أو مجهِدة. في الحقول، في المناجم، في المصانع، في المتاجر، في الأسواق، في الطرقات والورشات، وحتّى في منزلها، كانت المرأة مشغولة بمساعدة زوجها، تحلّ محلّه إن غاب أو مات، وتسهم من خلال عملها بتأمين دخل إضافيّ للعائلة». على أرض الواقع، هذا يعني تعاوناً أصيلاً غير مشروط بين الرجال والنساء والأطفال، الذين عمل بعضهم مع بعض بطرق متنوّعة، انقرضت لاحقاً أو فُسِّرت تفسيراً خاطئاً بعد أن أصبحت المجتمعات «أكثر تقدّماً». في حوليّات مسافر إلى إقليم فينيستير[3]، نقرأ وصفاً دراميّاً للمجتمع المحليّ المنهمك تلقائيّاً بأداء العمل اللّازم لبقاء أفراده جميعهم:

«خلال العواصف، في الظلمة الحالكة حين يثور الموج... يهبّ سكّان المنطقة جميعهم إلى العمل، نساء ورجالاً، صبية وبنات. يقفون عراة على الصخور الزلقة، مسلّحين بالأوتاد والأدوات، ينحنون فوق المضائق كي يجمعوا هبات البحر، قبل أن تجرفها الأمواج مجدّداً».

بطريقة ما أو بأخرى، ربّما تعلّم تلك المجتمعاتُ البدائيّة القرنَ العشرين

3- شبه جزيرة صخريّة تقع على الشاطئ الغربيّ لإسبانيا. المترجمة

شيئاً ما عن ممارسة العمل العادل حقّاً، لكنّ المساواة التي حظيت بها المرأة التي تجمع الأعشاب البحريّة، تنحصر فقط بالقفز عارية فوق الصخور الخطيرة، في «حفلة عمل» عند منتصف الليل. ربّما تسلّت قليلاً، لكنّها لم تحصل على ما هو أهمّ: المال. السجلّات الباقية عن أجور العمّال، تكشف أنّ المرأة تلقّتْ أجراً أقلّ بكثير من الرجل، أو لا شيء على الإطلاق أحياناً، نظراً لأنّ مفهوم الرجل «ربّ العائلة المسؤول وحده عن كسب لقمة عيشها»، كان وجهة النظر السائدة آنذاك. خلال القرن السابع عشر في إنجلترا، كان أجرُ العامل الذكر يساوي ثمانية بنسات «دون طعام أو شراب»، أمّا المرأة فتحصل على ثلاثة أرباع المبلغ لا غير، أي ستّة بنسات. الحاصدُ الذكر كان يكسب خمسة بنسات «مع طعام وشراب»، أمّا الحاصدة فتكسب ثلاثة بنسات فقط، والنسبة بين أجريهما هي النسبة ذاتها بين أجور الذكور والإناث اليوم حول العالَم.

سيتفاقم انعدام المساواة الجوهريّ ذاك، إن خسرت العائلة سباق البقاء ضمن شروط الحياة المجحفة، لأنّ الرجل –الفرد الوحيد القادر عمليّاً على الحصول على وظيفة– كان يهجر زوجته وأطفاله في أغلب الأحيان، ويتركهم يتدبّرون أمرهم بأنفسهم. تغصّ سجلّات الكنائس الأوروبيّة في القرون الوسطى بتضرّعات محزنة ترفعها «إناث فقيرات لا عزاء لهنّ» أو اللواتي «لا يملكن مأوى منذ عيد تقدمة يسوع الأخير»، أو «مشرّدة مع أطفالها العاجزين»، لأنّ الحصول على سكن مرتبط غالباً بعمل الرجل، وبالتالي ستفقد عائلته مأواها إن خسر عمله. إلينور وليامز من وورسيستر في إنجلترا، هي واحدة من أولئك البائسات، تشرّدت بلا مأوى بعد أن هجر زوجها الأرضَ التي كانا يعملان فيها، وغادر إلى «وجهة مجهولة». اعتبرت إلينور نفسها محظوظة لأنّها لا تعيل إلّا طفلاً واحداً فقط، وأعلنت أنّها قادرة على «العمل الشاقّ من أجل سعادة طفلها» ومستعدّة للقيام به شرط حصولها على مأوى. إنّها مثال على العائلة التي يعيلها أحد الوالدين بمفرده، ممّا يعني أنّها ستواجه صعوبة كبيرة بإيجاد بيت، فضلاً عن استغلالها في العمل الطويل بأجر لا يكاد يذكر، وهو المصير ذاته الذي يترصّد الكثير من النساء الوحيدات اليوم.

لا عجب إذن أنّ الفتيات العازبات اللواتي سُمِحَ لهنّ بالعمل خارج المنزل، سخّرن أجورهنّ لتلافي مصير إلينور. في سجل كاتب للعدل يوثّق عقود الزواج في الريف، سجّلت فتاة فرنسيّة في الفترة ذاتها فخرها بحصيلة عملها كخادمة، وهي حصيلة مميّزة بالفعل إن أخذنا بعين الاعتبار أجرها الزهيد: «جين ڤالنس، ابنة عامل في المزرعة، جمعت من عرق جبينها دوطة مؤلّفة من ثلاثين جنيهاً، كسبتها خلال السنوات التي أمضتها بالعمل خادمة في مدينة بريود، إضافة إلى ثوب صوفيّ جديد، سترة صوفيّة من تلك التي يلبسها الفلّاحون، فراش من القشّ، لحاف من الصوف الأبيض، وصندوق من خشب الصنوبر له قفل ومفتاح».

الخدمة في المنازل لم تكن عملاً هيّناً مربحاً، وهو ما نقرأه بوضوح في مذكّرات صامويل بِبيس[4] المخزية، الذي مدح نفسه بإعجاب وتباهى بطباعه الوحشيّة. مثلاً، عندما لاحظ أنّ الخادمة جاين «لم ترتّب شيئاً ما كما يجب»، قال مُطوِّر الأسطول البحريّ: «تناولتُ مكنسة وضربتُها إلى أن صرختْ بأعلى صوتها، ممّا أزعجني». في حادثة أخرى، عندما تلكّأت الخادمة بغسيل الثياب بعد أن شتّت أخوه انتباهها، أمرَ ببيس زوجتَه بضرب الفتاة إلى أن «انزعج الجيران جميعهم من بكائها»، ثمّ حبسها في القبو طيلة الليل. باعترافه الشخصيّ، بِبيس كان زوجاً فظّاً متسلّطاً، سجّلت «المذكّرات» تذمّره الذي لا ينقطع وهو يبحث دون رحمة عن أخطاء زوجته في تدبير المنزل «بطريقتها القذرة الرخيصة». استشاط غضباً ذات مرّة عندما أحرقت يدها وهي تتبّل الديك الروميّ، بعد أن اشترت طيراً كبيراً لا يتّسع له الفرن، وكذلك عندما قدّمت للضيوف على مائدة يوم الأحد شواءً غير ناضج، وعندما أعدّت تتبيلة فخذ خروف حلوة جدّاً بالنسبة إلى ذوقه.

4- Samuel Pepys (1633–1703) كان عضواً في البرلمان الإنجليزيّ ووزيراً للبحريّة، طوّر الأسطول البحريّ الإنجليزيّ إلى مستويات عالية من الجاهزيّة والتقدّم. كتب مذكّراته الشهيرة عندما كان شابّاً، وفيها يسرد مغامراته الجنسيّة مع عشيقاته وتحرّشه بالخادمات وزوجات أصدقائه وصديقات العائلة، إضافة إلى تقديم صورة عن الحياة اللندنيّة آنذاك. المترجمة

يذكر بيبس بصراحة في مذكّراته كيف «استغلّ الفرصة دائماً» للصراخ على زوجته، متذرّعاً بأيّ حجّة... لكن كيف كانت إليزابيث[5] المسكينة ستتعلّم تدبير المنزل؟! لقد ماتت أمّها وهي صغيرة، وأمضت طفولتها القصيرة بالتنقّل مع والدها في أرجاء فرنسا. عندما تزوّجت في الخامسة عشرة، اكتشفت أنّ بيبس يبخل عليها بمصروف المنزل، وينفق ما يحلو له على ملذّاته الشخصيّة. كانت تضطرّ مثلاً لتقاسم كأس من البيرة، وقطعة لحم خنزير مقدّد، مع خادمتها أثناء الغداء، بينما يتلذّذ زوجها ورفاقه بوليمة من ثمانية أصناف، ويحشون بطونهم إلى حدّ التخمة. عندما اشتكت إليزابيث من الملل، خاصّة أنّها حبيسة المنزل لا يسمح لها زوجها بمرافقته في لندن المليئة بالمباهج، حرص بيبس على خلق عمل لها: «إبقاء المنزل قذراً، والقيام بكلّ ما في وسعي لجعلها تنشغل بتنظيفه طيلة الوقت»، وغضب عندما لم يَرُق لها الحلّ!

بتأثير التقاليد اليهوديّة – المسيحيّة التي تميل إلى حبسِ النساء في المنزل، والحدِّ من تواصلهنّ مع العالم الخارجيّ، خلقت المجتمعاتُ الغربيّة قَدْراً هائلاً من الأعمال المنزليّة يتوجّب على المرأة أن تقوم بها. في الأرياف، بعيداً عن المراكز الحضريّة الكبرى، كانت نشاطات المرأة أكثر تنوّعاً رغم أنّها لا تبدو لنا ممتعة اليوم، وتحوّلت إلى عمل جماعيّ تقوم به المرأة مع أطفالها وصديقاتها. في الجزر المحيطة بهاواي مثلاً، يقع على عاتق المرأة البولينيزيّة أن تبني سدوداً هناك كي تحبس الأسماك في الحيود المرجانيّة، ممّا يضمن توافر الطعام دائماً. وصف أحد شهود العيان ما رآه هناك، وشهادته تطابق قول د. إتش. لورنس: «لا مغزى للعمل إن لم يجذبك كما تجذبك لعبة»: «قبل شروق الشمس، تنطلق النساء بالزوارق فوق الأمواج الهادرة، يعبرن المضائق الصغيرة، وينزلن إلى الشاطئ حيث يضعن أطفالهنّ على الرمل في ظلّ أشجار النخيل، من ثمّ ينطلقن للعمل في المياه الراكدة ضمن البحيرات الصنعيّة الصغيرة. يقطعن أجزاء من المرجان لاستخدامها في إغلاق مداخل المضائق، حريصات على ألّا يخدشن أنفسهنّ، لأنّ بعض

5- إليزابيث مارشال دو سانت ميشيل (1640–1669). المترجمة

أنواع المرجان سامّة. بعدها يبدأ المرح والانتعاش، فيسْبَحن ويغطسن ويتلذّذن بأكل السمك وجوز الهند».

المرأة البولينيزيّة لم تكن الوحيدة التي عاشت في مجتمع يدعم الحياة خارج المنزل (وهي بحدّ ذاتها حريّة كبيرة لم تنعم بها الكثير من نساء الغرب)، في أستراليا، تقضي النساء والفتيات الأبوريجينيّات النهار بطوله في الماء عندما يشتدّ حرّ الصيف، يصطدن الأسماك، ويجمعن الدرنات المائيّة، كما ينعمن أيضاً بالمرح والاسترخاء. في بورما، تكدح المرأة في حقول الأرزّ مع أو بدون مساعدة زوجها (الذي لا يعوّل على عمله أصلاً)، مع ذلك تجد متّسعاً من الوقت للتمتّع بالطبيعة الدافئة الخصبة، وقضاء الوقت مع غيرها من النساء، وتذوّق الفرحة بنجاحها ونضجِ محصولها، كما أنّها تنفق ما تحصل عليه بالطريقة التي تراها ملائمة.

رغم ذلك، عمل المرأة الحقّ -برأي كلّ من الرجال والنساء على السواء- هو العناية بزوجها وبيتها، ممّا يعني الكدح الطويل الذي لا ينتهي، والنشاطات التي تتطلّب مهارة، كما توضّح صورة المرأة اليهوديّة النموذجيّة: «تَطْلُبُ صُوفًا وَكَتَّانًا وَتَشْتَغِلُ بِيَدَيْنِ رَاضِيَتَيْنِ»، «وَتَقُومُ إِذِ اللَّيْلُ بَعْدُ وَتُعْطِي أَكْلًا لأَهْلِ بَيْتِهَا وَفَرِيضَةً لِفَتَيَاتِهَا. تَتَأَمَّلُ حَقْلًا فَتَأْخُذُهُ، وَبِثَمَرِ يَدَيْهَا تَغْرِسُ كَرْمًا»، «تَشْعُرُ أَنَّ تِجَارَتَهَا جَيِّدَةٌ. سِرَاجُهَا لاَ يَنْطَفِئُ فِي اللَّيْلِ»، «زَوْجُهَا مَعْرُوفٌ فِي الأَبْوَابِ حِينَ يَجْلِسُ بَيْنَ مَشَايخِ الأَرْضِ. تَصْنَعُ قُمْصَانًا وَتَبِيعُهَا، وَتَعْرِضُ مَنَاطِقَ عَلَى الْكَنْعَانِيِّ»، «تُرَاقِبُ طُرُقَ أَهْلِ بَيْتِهَا، وَلاَ تَأْكُلُ خُبْزَ الْكَسَلِ» (سفر الأمثال 31: 13، 15، 16، 18، 23، 24، 27).

الغَزْل، الحياكة، الزراعة، عمل إضافيّ هنا وهناك، إدارة المنزل، دعمُ زوجها في عمله «الصعب» المتمثّل بجلوسه بين الشيوخ، تجنّبُ الكسل والنوم الزائد...إلخ، تتماهى تلك المرأة الكنعانيّة تماهياً مدهشاً مع نظيرتها الإنجليزيّة بعد ثلاثة آلاف عام، والتي حدّد السير أنطوني فيتزهيربرت واجباتها في «دليل عمل» عام 1555، شرح فيه بالتفصيل كلّ ما ينبغي أن تقوم به الزوجة، وسماه -في سخرية غير مقصودة- «كتاب الأزواج»:

«أوّلاً، عليها أن ترتّب المنزل جيّداً، ثمّ تحلب البقرة، وتترك العجول ترضع، تُصفّي الحليب، تجهّز طحين القمح والمَلْت[6] من أجل عجنه وتخميره... تصنع الزبدة والجبنة عندما يحين موعدها، تطعم الخنازير صباحاً ومساء... تجمع البيض الذي تضعه الدجاجات والبطّات والإوزّات... وعندما تفقس الصيصان، عليها أن تحرص على إبعادها عن الغربان والقراد». ما سبق ليس إلّا الجولة الأولى، فالأعمال الموسميّة بالانتظار: «آذار هو الوقت المناسب كي تعتني الزوجة بحديقتها، وهو موعد بذار الكتّان والقنّب». عندما تنمو النباتات، ينبغي على الزوجة أن: «تقتلع الأعشاب الضارّة، تقصّ سيقان الكتّان والقنّب، تنقعها، تغسلها، تجفّفها، تدقّها، تفصل الألياف بعضها عن بعض، تمشّطها، تفتلها إلى خيوط، تغزلها، تلفّها في بكرات، وتنسجها». من القماش الذي تحصل عليه، تقوم ربّة المنزل بـ«خياطة الشراشف، أغطية الطاولات، المناشف، القمصان، الألبسة الداخليّة، وغيرها من الضروريّات». إن امتلك زوجها خرافاً، عليها أن تكرّر كلّ ما سبق باستخدام الصوف، لكنّ عملها لن ينتهي، لأنّ السير أنطوني فيتزهيربرت يستعرض بصرامة انشغالَ الذكر الباترياركيّ النموذجيّ بمخاطر «كسل المرأة»: «في هذه الأثناء، قومي بأعمال أخرى»، فمن مسؤوليّات الزوجة كما يقول:

«أن تغربل الحبوب، أن تحضّر المَلت، أن تجهّز القشّ وتجمعه، أن تغسل الأواني والملابس، أن تطحن القمح، وأن تساعد زوجها بملء عربة الروث والسماد، وحراثة الحقل، وتحميل القشّ والحبوب وما شابه، وأن تذهب إلى السوق كي تبيع الزبدة، الجبنة، الحليب، البيض، الدجاج، الديكة، الإوزّ، الصيصان، الخنازير، وكلّ أنواع الحبوب، ثمّ تشتري مستلزمات منزلها، وتقدّم لزوجها كشفاً حقيقيّاً عمّا كسبته وما أنفقته».

بعد إنجاز كلّ ما سبق، على الزوجة أن تبقى ساهرة طيلة الليل! منطقيّاً، مقابل كلّ سوبر – امرأة في العصر التيودوريّ، لا بدّ من وجود أخرى

6- Malt يحضّر بتخمير حبوب الشعير بطريقة خاصّة، تمهيداً لاستخدامها في صناعة المشروبات الكحوليّة وغير الكحوليّة، والحلوى والمعجّنات. المترجمة

ضعيفة تتذمّر لمجرّد سماع المطلوب منها، فضلاً عن تلك الماكرة التي تقرّر أنّ الحياة أقصر من أن تقضيها بملء العربات بالروث! نموذج السير فيتزهربرت مستمدّ على ما يبدو من الحكايات الخياليّة لا من أرض الواقع، لكنّ ما طرحه كان المعايير القياسيّة المثاليّة المطلوبة من النساء جميعهنّ في ذلك العصر، وهي معايير يبدأ تدريبهنّ عليها منذ الطفولة، بغضّ النظر عن مستوى نجاحهنّ بإنجازها. «التعليم الجيّد» بالنسبة للفتاة، يعني أن تتقن قبل بلوغها الخامسة عشرة كيف تغزل، وتنسج، وتخيط، وتصنع كلّ أنواع الألبسة، كما لا بدّ من تعليمها «قواعد الحساب الأربع» كي تعرف كيف تدير نقود زوجها، وهو ما نصحت به حتّى الكتيّبات الصارمة التي تحظر تعليمها القراءة والكتابة. أحد الآباء الإيطاليّين في عصر النهضة، طبّق الفكرة القديمة القائلة بأنّ تعلّم القراءة مضيعة للوقت بالنسبة للفتاة، إلّا إن كانت ستصبح راهبة، فقدّم شرحاً مفصّلاً مدروساً عن كيفيّة إبقائها مشغولة بحيث لا تجد وقتاً لتصفّح كتاب: «عَلِّمْها أن تقوم بكلّ أعمال المنزل، كيف تخبز الخبز، تنتف ريش الديكة، تغربل الحبوب، تطبخ، تغسل، ترتّب الأسرّة، تغزل، تحوك حقائب فرنسيّة، تطرّز، تخيط الكتّان والصوف، ترفو الجوارب... إلخ، كي لا تبدو حمقاء خارجة لتوّها من البريّة عندما تُزوِّجها».

«إلخ» في هذا المقتطف من تعاليم باولو دي سيرتالدو، تحاكي جملة السير فيتزهيربرت «وغيرها من الأعمال». من الواضح أنّ العمل المطلوب عندما تتحوّل الفتاة إلى امرأة، لا ينتهي على الإطلاق، وإن أخذنا بعين الاعتبار أنّ السنّ القانونيّ لتزويج الفتاة في أوروبا كان اثني عشر عاماً –وهو حدّ بقي مقبولاً إلى القرن التاسع عشر– لا بدّ أنّ طفولتها كانت حافلة بالمشاغل. بأيّ حال، احتاجت المرأة آنذاك إلى كلّ ما يتوافر لها من تدريب، كي تتأقلم مع ما ينتظرها في المستقبل. في الحقبة ما قبل الصناعيّة، اضطرّت كلّ زوجة وكلّ أمّ، إلى الجمع بين عدد من المهارات المختلفة، التي تحوّل كلّ منها إلى اختصاص قائم بحدّ ذاته فيما بعد، وإلى لغز بالنسبة للرجال أيضاً.

تحضير الأطعمة والمشروبات

يجب أن تكون ربّة المنزل قادرة على ذبح خنزيرها بيدها، وعلى تقطيعه بأناقة كي تملّحه. لن تأكل عائلتها الخبز إلا إذا كانت هي خبيرة بكلّ مراحل تحضيره، بدءاً من بذر القمح إلى حصاده، تنقيته، غربلته، طحنه، تخزينه، عجنه، وخَبْزِه.

كانت المرأة أيضاً مسؤولة في مختلف البلدان عن تخمير البيرة والسيدر[7] في شمالي أوروبا، وعن صناعة النبيذ في جنوبها. في إفريقيا، المرأة في قبائل كيساما في أنغولا هي من يتسلّق أشجار النخيل لقطف محصولها، وتحضير بيرة البلح الفاخرة.

صناعة مستلزمات المنزل

قبل ظهور البقاليّات، وباعتبار أنّ الأسواق قد تكون بعيدة جدّاً أو باهظة الأسعار، توجّب على المرأة أن تتعلّم كيف تصنع كلّ ما يلزمها ويلزم بيتها: الفخّار، الستائر، وسائد السرير، الأراجيح الشبكيّة، البُسط، الشموع، الأوعية... إلخ، وأن تتعلّم خياطة الثياب أيضاً، بدءاً من الرباط الذي يُلَفّ به بطن الرضيع، إلى المعطف الذي يرتديه زوجها فوق ثيابه.

في نهاية المطاف، استحوذ الرجال على خياطة المعطف تحت مسّمى «خياطة الأزياء»، رغم أنّهم لم يتحمّسوا يوماً لرفو الثياب، أو ترقيعها، أو تعديلها، أو استغلال بقايا الأقمشة، أو رفو الجوارب.

التطبيب، التمريض، القبالة

في العصر الذي كان جميع أفراد العائلة، كباراً وصغاراً، يعيشون فيه معاً، كانت المرأة غالباً إمّا حاملاً، أو مرضعاً، أو أنّها تتعافى بعد الإجهاض أو ولادة جنين ميت، فضلاً عن احتمال وجود فرد مريض من أفراد العائلة في أيّ وقت. توافر بلا شكّ اختصاصيون بالطبّ والتمريض والقبالة آنذاك، لكنّ

7- Cider مشروب كحوليّ يُحضر بتخمير عصير التفّاح. المترجمة

الاختصاصي قد يكون مشغولاً، أو موجوداً في مكان بعيد عندما تحتاجه العائلة، أو أنّ أجوره باهظة، لذلك دفعت الحاجةُ النساءَ إلى اكتساب بعض الخبرات في تلك المجالات، كي يتأقلمن مع ظروفهنّ.

آن هتشنسون[8] هي مثالٌ عمّا سبق، يتذكّرها التاريخ على أنّها امرأة متديّنة راديكاليّة تحدّت سلطةَ الكهنوت في أمريكا، وبشّرت برسالتها الدينيّة في بوسطن خلال القرن السابع عشر، بعد أن هالها عدد النساء اللواتي تحرمهنّ أعباؤهنّ من حضور قدّاس يوم الأحد. كانت تلخّص العظات، و«تنقل صوت الربّ» مباشرة إلى البيوت، حيث كانت مشهورة أصلاً بين نساء المستعمرة بسبب خبراتها في التمريض والقبالة.

ضمّت المستعمرة قابلة متخصّصة بين نسائها –وهي مثال حقيقيّ عن المرأة العاملة الباسلة– جاءت إلى أمريكا مع الأسطول المؤلّف من ثماني سفن عام 1630. من غير الممكن معرفة أيٍّ من السفن الثمانية ستحتاج إلى خدمات القابلة، لذلك عندما دخلت امرأة في طور المخاض على متن أربيلا في أحد الأيّام، أطلقت السفينة رشقة من طلقات المدافع كإشارة لسفينة جويل البعيدة التي تقلّ القابلة، كي تطوي أشرعتها وتتمهّل. عندما لحقت بها أربيلا أخيراً، شمّرت القابلة المقدامة عن تنّورتها وربطتها حول ساقيها، من ثمّ نزلت عن السفينة إلى الزورق الذي أقلّها فوق مياه المحيط الأطلسيّ المرعبة، وتسلّقت السفينة الأخرى لتوليد الطفل. مهارة تلك القابلة تعادل شجاعتها بلا شكّ، لأنّ الأمّ بقيت هي ومولودها على قيد الحياة. أمّا في المستعمرة، حيث تتزوّج الفتيات قبل بلوغهنّ الثامنة عشرة، وحيث «من النادر أن ترى امرأة لا تحمل طفلاً في بطنها وآخر في

8- Anne Hutchinson (1591–1643) قائدة روحانيّة بيوريتانيّة مؤثّرة في مستعمرة ماساشوستس، تحدّت تحكّم الذكور بالسلطة الدينيّة، والتقسيم الجندريّ للسلطة، ونظّمت النساء في مجموعات شكّلت تهديداً لقادة المستعمرة. انتقلت إلى بوسطن عام 1634، حيث أصبحت مبشّرة تبشّر بفلسفتها الدينيّة الخاصة، فضلاً عن عملها كقابلة وكمداوية بالأعشاب، وكان لها أتباع كثيرون. حوكمت بتهمة الهرطقة، وعوقبت بالإقامة الجبريّة في منزلها، ثمّ بالنفي من المستعمرة. المترجمة

حضنها» كما علّق أحد السكّان، لا تستطيع قابلة واحدة أن تتعامل مع كلّ حالات الولادة.

قصّة آن هتشنسون، المرأة التي جمعت بين المواهب الروحانيّة الفريدة، والخبرات العمليّة الممتازة، توضّح لنا أيضاً تمازج الظروف السيّئة والجيّدة التي أحاطت منذ فجر التاريخ بعمل المرأة كربّة منزل. العديد من الحضارات، كالهند مثلاً، تكلّف المرأةَ بالإشراف على الآلهة المقدّسة الخاصّة بعادات وطقوس الدين الذي يتبعنه. الأمّ اليهوديّة تُكرَّم في وليمة يوم السبت، تحضّرها بتفان وورع، متّبعة التعاليم الدينيّة بدقّة. المرأة الإنجليزيّة، مهما كانت متواضعة، كانت بدورها «ملكة العيد» في بيتها. مع ذلك، أسهمت هؤلاء النساء بنشاطات أقلّ تبجيلاً، أو قمن بها وحدهنّ. مهمّة غسيل الثياب مثلاً كانت عبئاً ثقيلاً، بسبب عدد القطع التي لبسها كلّ من الرجال والنساء والأطفال آنذاك: القمصان، القلنسوات، المناديل التي تُربَط حول العنق، الوشاح الذي يرتديه الرجال (ما زال المحامون الإنجليز يلبسونه اليوم)، القبّات التي توضع لفساتين النساء، القطع المخرّمة التي تغطّي صدر الفستان، المعاطف القصيرة، المرايل، فضلاً عن المناشف والشراشف والخرق المستعملة لتنظيف الأواني. الغسيل ليس عملاً يقوم به من يشمئزّ من القذارة: عندما وصل المستعمرون الأوائل إلى أمريكا، توجّب على النساء فوراً أن ينقعن الملابس الكتّانيّة القذرة و«القطع الصغيرة» التي جلبوها معهم في ماء البحر، بينما وقف الرجال حولهن مسلّحين بالبنادق. لا يشرح لنا التاريخ إن كانت البنادق ضروريّة لصدّ هجمات السكّان الأصليّين المعادية، أم لقتل أيّ مخلوق قد يقفز من القذارة المتراكمة طيلة أشهر على الثياب!

لم تتمتّع ربّة المنزل بترف أن تكون نيّقة تشمئزّ من القذارة، خاصّة أنّ مسؤوليّة تنظيف وتطهير البيت تقع على عاتقها، وهو ما له جانب لطيف أيضاً، لأنّ المرأة في كلّ أرجاء العالَم صنعت الصوابين المعطّرة ومساحيق التنظيف. المرأة الأمريكيّة كانت رائدة صناعة فراشي الأسنان من جذور نبتة الخطميّة، واستعملتها مع ما يشبه المعجون الذي حضّرته بمزج جذور

السوسن المطحونة، مع الطبشور، وزيت البرغاموت أو زيت اللاڤاندر. رغم ذلك، طغت الجوانب البغيضة على تلك المشرقة. في العصور الوسطى مثلاً، كان من عادة الناس أن يفرشوا أرضيّات منازلهم بالقشّ والأسَل، بعد خلطها مع النباتات العطريّة كإكليل الجبل والسذاب والمردقوش الحلو، لكن ماذا عمّا كانوا يخبّئونه تحت تلك السجّادة النباتيّة عاماً بعد عام؟! على حدّ قول إيراسموس: «بيرة، وشحوم، وشظايا، وعظام، وبصاق، وفضلات قطط وكلاب، وأشياء مقرفة أخرى».

الأسوأ من هذا وذاك، هو اضطرار ربّة المنزل إلى التعامل بشكل دائم مع فضلات أفراد أسرتها التي لا تنقطع. وظيفة جمع الفضلات البرازيّة ليلاً من الشوارع العامّة وتحميلها في العربات، كانت من اختصاص الرجل (تقوم بها في الهند طبقة المنبوذين الذين لا يجوز لمسهم)، لكن في المنزل -سواء الكوخ أو القصر- كانت المرأة هي من تفرغ المباول، وتتخلّص من البراز، وتشطف المراحيض وتعطّرها قبل استعمالها من جديد، فضلاً عن نظافتها الشخصيّة، فقد توجّب عليها مثلاً أن تغلي الفوط النسائيّة -أو «الخُرق» كما كانت تسمّى- حتّى مطلع القرن العشرين. بالتالي، في منزل مليء بالنساء، معظمهنّ لن يعمّرن أكثر من أربعين عاماً، غسيل الفوط القماشيّة كان واجباً مستمرّاً أبديّاً.

كلّ تلك الواجبات تُعَدُّ نوعاً من التدريب القيّم بالنسبة ليد عاملة لا تنتمي إلى المنزل، لكنّها صُنِّفت دائماً على أنّها من واجبات الزوجة حصراً. «الواجب الزوجيّ» يضمّ أيضاً كلّ المهمّات التي تؤدّيها الزوجة لزوجها، جسديّاً وجنسيّاً، بما فيها تلك المقرفة، وهي مسؤوليّتها وحدها. مهما كان الرجل فقيراً، لن تستقيم حياته بدون شخص أدنى منه مرتبة، كما يوضّح المقتطف التالي الذي يصف حياة الفلّاحين الصعبة في أوڤرنيه البدائيّة في فرنسا:

«تأوي الزوجات إلى الفراش بعد الرجال بوقت طويل، وينهضن قبلهم. إن تساقط الثلج ليلاً، يتوجّب على إحداهنّ أن تجرفه لفتح طريق إلى النافورة. أحياناً تضطرّ المرأة إلى أن تغوص حتّى خصرها في الثلج، وهي

تروح جيئة وذهاباً كي تفتح ممرّاً لبقيّة النساء. يعتقد الرجل هناك أنّ ذهابه إلى النافورة بنفسه هو أمر معيب، وسيزدريه أهل القرية لو قام بذلك. هؤلاء الرجال الريفيّون الجبليّون هم أكثر من يحتقر المرأة، وهم أبغض القبائل الهمجيّة شبه البربريّة وأشدّها وضاعة. يعتبرون المرأة عبدة، وُلِدَتْ للقيام بكلّ المهمّات التي يترفّعون هم عنها».

لا ننكر أنّ عمل الزوجة المذكور هنا يلبّي حاجاتها، فالماء لا يلزمها لتنظيف مخاط زوجها فحسب، وإنّما من أجلها هي وأطفالها أيضاً، لكنّ مهمّاتها تنحدر إلى مستويات أشدّ وضاعة في بعض الأحيان. من بلاد كنعان القديمة إلى فرنسا، ومن اليابان إلى البيرو، واجب الزوجة الكلاسيكيّ كان الطقس الشعائريّ الذي قامت فيه مريم المجدليّة –في إشارة رمزيّة لا تخفى على أحد– بغسل قدمي يسوع المسيح، من ثمّ كرّره المسيح مع حواريّيه كمثال عن التواضع، وكأنّ العبد يغسل قدمي سيّده. كتابُ «فارس البرج» الفرنسيّ 1371، الذي ظلّ متداولاً في أوروبا طيلة قرون بعد موت مؤلّفه، يصرّ على طقس غسيل الأقدام باعتباره رمزاً يجسّد حبّ المرأة لزوجها. في الجهة الأخرى من الكرة الأرضيّة، يصرّ كتاب الوسادة اليابانيّ بالمثل أيضاً على أنّ غسيل الأقدام هو تحيّة لائقة تستقبل بها الزوجةُ زوجها العائد من السفر. يمكن لها أن توكل المهمّة إلى خادمتها، لكن عليها القيام بها بنفسها إن أرادت أن تكسب ودّ «سيّدها».

من أصابع القدمين وحتّى الرأس: ينبغي على الزوجة الصالحة أيضاً أن تمشّط شعر زوجها وتفلّيه، وأن تدلّك فروة رأسه. أثناء أدائها لهذه المهمّة، عثرت إليزابيث على ستّ عشرة قملة في رأس زوجها بيبس، ممّا يدلّ على أنّ قبّعته الأنيقة خبّأت تحتها أكثر بكثير من الحروب والفسوق. حلاقة شعر الزوج، تنظيف جسده في الحمّام، تدليكه، وتمسيد عضوه إلى أن يقذف («تدليك استرخائيّ» كما يُطلَق عليه اليوم، وتؤدّيه «الزوجات البديلات»)، كلّها كانت جزءاً من الواجب الزوجيّ الرسميّ. لا أحد سيحسد مثلاً الزوجاتِ في ولاية ميزور في الهند، حيث: «من المعتاد أن ترافق المرأة زوجها وأطفالها الذكور وأقاربها الذكور الأعزّاء عندما يلبّون نداء الطبيعة، كي تنظّف

مؤخّراتهم حين ينتهون. كلّ ما على الذكر قوله هو Meyn choonah hoon jowl (أنا خارج لأتبوّل)، وستكون إحدى نساء المنزل مجبرة على مرافقته».

لحسن الحظّ، لم تكن كلّ مهمّات الزوجة من هذا النوع الحميم الخاصّ. ترافق الزواج أحياناً مع درجة من الحريّة، هي ممارسة التجارة مع العامّة. المرأة التي تضع دجاجاتها مثلاً الكثير من البيض في أحد الأسابيع، لن تُعَدَّ زوجة صالحة إلّا إن أخذته وباعته في السوق لامرأة أخرى مثلاً، فقدت ما أنتجته دجاجاتها بسبب الغربان أو الثعالب أو اللصوص العابرين. بالتالي، اتّخذت الكثير من النساء التجارةَ مهنة يكسبن منها عيشهنّ، إمّا كخيار شخصيّ أو بسبب الظروف والحاجة. قيام المرأة حول العالم منذ قديم الزمان بالبيع والشراء، وبكلّ ما يتعلّق بالتجارة، يفنّد خرافة أخرى من خرافات القرن العشرين، تنصّ على أنّ النسوة المعاصرات هنّ أوّل من عمل خارج المنزل بأعداد كبيرة:

«عندما تحكّمت المرأة بمعظم مناحي التجارة، كانت أفضل من قام بذلك. في بعض البلدان، كنيكاراغوا مثلاً، لا تعمل المرأة بالتجارة فحسب بل تحتكرها احتكاراً مطلقاً. في التيبت، نظّم مجلسٌ نسائيّ شؤونَ التجارة. في أمريكا الشماليّة، تحكّمت النساء حصريّاً بتجارة الفراء حتّى القرن التاسع عشر. في كلّ من ميلانيزيا، نيو إنغلاند، نيوهانوڤر، في آسام، مانيبور، شبه جزيرة الملاي، جزر لوتشو، وبورما، تولّت النساء معظم تجارة التجزئة، وقسماً هامّاً من تجارة الجملة حتّى حقبة 1960».

إفريقيا، كانت المنطقة الأهمّ التي تبوّأت المرأة فيها عرش التجارة بلا منازع: «في الكونغو والكاميرون، كانت المرأة مسؤولة عن محطّات التجارة وعن الأسواق. في نيجيريا، أدار مجلسٌ نسائيّ ترأسه ملكةٌ، سوقَ إيبو الهامّ». هذه الآثار الشفهيّة الباقية من زمن الماترياركيّة المحليّة القديمة، تشير أيضاً إلى أهميّة الأسواق كسبب يدفع النساء إلى الاجتماع معاً، فيتبادلن الأخبار والنميمة، ويلتقين مع المعارف القدامى، كما أنّ الرسائل كانت تقطع مئات الأميال متنقّلة من سوق إلى سوق بفضل تعهّد واحد: «سأنشرها في السوق».

في بلدان الغرب الأقلّ تسامحاً، كرّست معظم النساء طاقاتهنّ للعمل داخل المنزل، وأصبحن محترفات في عدّة مهن تتطلّب مهارة يدويّة دقيقة، كصناعة

القفّازات الفاخرة أو مهاميز الخيول، مثل كايت العاشقة التي تغنّى بها الشاعر الفرنسيّ فرانسوا ڤيون في القرن السادس عشر. المدخل التقليديّ للمرأة إلى تلك المهن كان يمرّ بزوجها، كما توضّح القائمة التالية التي حفظت أسماء نساء من القرن السادس عشر في ألمانيا، سُمِحَ لهنّ بممارسة مهن معيّنة: «فراو نيس لانتونين: حدّادة. كاثرين، أرملة آندريا كريزمر: بستانيّة. كاثرين رِبستوكين: صائغة. آغنس بروماتين، أرملة هانز هيرتنغايم، سائقة عربة. كاثرين، أرملة هيل هنسل: تاجرة حبوب. إلزه ڤون أورتمبرغ، ابنة أوبرلن رولن: خيّاطة. كاثرين، أرملة هينريتش هيوزنبول: صناعة البراميل». بأيّ حال، تلك التراخيص لم تساوِ ثمن الورق الذي كُتِبَت عليه، لأنّها كانت في أفضل الأحوال قبولاً ممتعضاً بالمرأة في هوامش المهنة، لا يمنحها عضويّة تامّة مهمّة، ولا يسمَح لها بتبوّء منصب رسميّ في مجلس الحرفة (النقابة)، ولا بالمشاركة في اتّخاذ القرارات التي تنظّم المهنة. المرأة المشغولة لم تمتلك وقتاً للمناصب الفخريّة ولم تكترث بحرمانها منها، أمّا حرمانها من المشاركة باتّخاذ القرارات فقد أثار امتعاضها، كما يشهد تاريخ طويل من الإجراءات القانونيّة التي اتّخذتها، والعرائض المتكرّرة التي رفعتها. لقد عانت النساء ربّات المهن كثيراً من مختلف أشكال التميز ضدّهنّ، فقد اتُّهِمَتِ المرأة العاملة آنذاك -كما هو الحال اليوم- بأنّها تسرق الوظائف من الرجال الذين هم بأمسّ الحاجة إليها، كما كان أجرها للأسف أقلّ بكثير من نظيرها الذكر لقاء العمل نفسه، بحجّة أنّها لا تحتاج العمل كما يحتاجه الرجل، وأنّها أبطأ في العمل، وإنتاجها أقلّ، كما أنّها تأكل أقلّ من الذكر ولا تحتاج الكثير كي تعيش.

رغم ذلك، لم يمنع أيّ عائق المرأة من توجيه طاقاتها ومواردها إلى العمل النافع، ومن استغلال كلّ الفرص التي تتاح لها، كما أنّ أعداد النسوة العاملات المذكورات في السجلّات التاريخيّة في كلّ مكان، تكشف عن عمق الشرخ بين ما يدّعيه المجتمع، وما يحدث فعليّاً على أرض الواقع. المسؤولون في المدن ورؤساء النقابات الحرفيّة، الذين حاولوا جاهدين تضييق الخناق على النشاطات التي تمارسها «الزوجات والبنات والأرامل والعازبات»، كانوا يتحرّكون ضدّ قوّة لا يعرفون عنها شيئاً، ولا يَعون دورها

في الاقتصاد. لقد تعاملوا مع عمل المرأة دائماً على أنّه هامشيّ، سواء في حياتها الشخصيّة أو في مجتمعها ككلّ (فكرة أنّ المرأة تعمل للحصول على نقود تنفقها على أمور تافهة، هي فكرة قديمة للغاية)، لكنّ عملها كان في الحقيقة أساسيّاً لا غنى عنه، سواء من حيث إنتاجها الملموس (النسيج مثلاً)، أو إنتاجها غير المباشر من خلال دورها كزوجة وربّة منزل، والذي حرّر الرجل من الأعباء، وأتاح له الوقت لممارسة عمله المنتج.

الأرملة التي تخلّصت من أعباء الواجبات الزوجيّة، غالباً ما حقّقت نجاحاً هامّاً في مهنتها، بعد أن أصبحت قادرة على تدبيرها بالأسلوب الذي تراه مناسباً. أعداد «سيّدات الأعمال» الذكيّات النشيطات -كأخواتهنّ الراهبات في القرون السابقة- تشهد أيضاً على أنّهن لم يقبلن بالحكاية القديمة نفسها عن دونيّة المرأة، أو أنّهن نجحن بطريقتهنّ الخاصّة بالتوفيق بينها، وبين كونهنّ متفوّقات على الرجال من حولهنّ.

أليس تشيستر على سبيل المثال، هي سيّدة أعمال إنجليزيّة مميّزة عاشت في أواخر القرن الخامس عشر، عملت بتجارة الصوف والنبيذ والحديد والزيت، ووصلت بتجارتها إلى بلدان بعيدة كإسبانيا والفلاندرز. لم تخضع أليس إلّا للربّ، وعندما شيّدت له مذبحاً ضخماً وصليباً كبيراً في كنيستها المفضّلة، كان ذلك أيضاً بمثابة استثمار حصيف للمستقبل. لم تحقّق كلّ النساء نجاحاً في التجارة بلا شكّ، مارغريت راسل من كوفنتري في ميدلاندز، إنجلترا، سلبتْها عصابةٌ من رجال مدينة سانتاند ما قيمته ثمانمئة جنيه من البضائع، فأفلست. مصير آغنس دي هاجمن التي عملت كصانعة بيرة في شروزبوري كان أسوأ، إذ انزلقت وسقطت في حوض المزيج الساخن وهي تصبّ الليكور فيه، فعانت من حروق شديدة وواسعة ماتت على إثرها. ذُكِرَتْ هذه الحادثة في سجلّات التحقيق بأسباب الوفيّات المشبوهة في تشرين الثاني 1296، وكملاحظة هامشيّة بغيضة، بيعت البيرة رغم أنّها كانت بكلّ تأكيد ممزوجة بشَعر وجلد ولحم آغنس، ودرّت فائدة مقدارها بنسين ونصف البنس للتاج البريطانيّ. كلتا الحادثتين هما مثال على الأخطار التي جابهتها المرأة دائماً، عندما خرجت من منزلها الآمن إلى العالم الخارجيّ.

العديد من النساء خرجن وعملن في شتّى المهن، لا في التجارة والبيع والشراء فحسب. شهدت تلك الحقبة نساء عملن في مهن تخصّصية متنوّعة، خاصّة الطبّ، اقتداء بطبيبة أمراض النساء تروتولا، رائدة القرن الحادي عشر، والتي أسّست بالتعاون مع زميلاتها من «سيّدات ساليرنو»، أوّل مركز للدراسة العلميّة غير خاضع للكنيسة في القرون الوسطى. كانت بعض نظريّاتها راديكاليّة أيضاً، فقد اقترحت مثلاً أنّ العقم قد ينجم عن أسباب تتعلّق بالذكر، لا بالأنثى فقط. عملها الأبرز «أمراض النساء»، كان مرجعاً لم يُكتَب ما يتفوّق عليه طيلة أجيال عديدة، رغم أنّه نُسِبَ لاحقاً إلى مؤلّف ذكر، قد يكون زوجها أو أحد زملائها الأطبّاء. واجهت الطبيبات دائماً صعوبات وتهميشاً مماثلاً، في عام 1220 مثلاً، استحدثت جامعة باريس -إحدى أعرق المدارس الطبيّة في العالَم- معاييرَ جديدة تهدف إلى منع أيّ امرأة من الانضمام إليها، ومنع أيّ طبيب من العمل ما لم يتخرّج منها. في عام 1485، أصدر تشارلز الثامن ملك فرنسا مرسوماً ألغى فيه حقّ المرأة بالعمل كجرّاحة. كلا الإجراءين يشهدان على وجود عدد كبير من الطبيبات المختصّات أو مَن يسعين للحصول على التدريب، وأنّهنّ أصبحن بالتالي مشكلة ينبغي التخلّص منها. بأيّ حال، استطاعت المرأة أن تلتفّ على الحظر: يمكنها أن تتقدّم بطلب للحصول على ترخيص فرديّ استثنائيّ، أو أن تتعلّم من النساء الأخريات كـ «سيّدات ساليرنو»، أو أن تتتلمذ على يد الجرّاحين / الحلّاقين[9] الذين لا تشترط الجامعة حصولهم على ترخيص، أو أن تنتقل إلى منطقة أكثر تسامحاً.

بالاعتماد على مزيج من هذه التكتيكات، مع الحذق والشجاعة التي لا تلين، نجحت بعض النساء في أحلك الأوقات بإثبات أنّ الطبّ لم يكن قط

9- خلال القرون الوسطى، لم تكن مهنة الجراحة مخصّصة للأطباء وإنّما للحلّاقين، الذين يقومون بإجراءات متنوّعة تتراوح ما بين الفصادة إلى بتر الأطراف والعناية بالجنود المصابين في المعارك، إضافة إلى عملهم المعتاد بقصّ الشعر والحلاقة. يجدر بالذكر أنّ الجامعات آنذاك لم تقدّم تدريباً في مجال الجراحة، باعتبارها عملاً يدويّاً لا يليق بالطبيب. لاحقاً، عندما تحوّلت الجراحة رسميّاً إلى مهنة طبيّة، ظلّت حتّى مرحلة متأخّرة اختصاصاً من الدرجة الثانية مقارنة مع الطبّ السريريّ، لا يرتادها إلّا الأطباء الأقلّ كفاءة. المترجمة

مجالاً يسيطر عليه الرجل وحده. ما بين 1389–1479 في فرانكفورت وحدها على سبيل المثال، كانت هناك خمس عشرة طبيبة مرخّصة، بينهنّ ثلاث طبيبات يهوديّات متخصّصات بـ «الكِحَالة»، أي طبّ العيون العربيّ. في القرن الخامس عشر، قدّمت الطبيبات الألمانيّات أطروحات طبيّة للحصول على درجات أعلى في الجامعات. في القرن السادس عشر، طوّرت قابلة / جرّاحة سويسريّة تقنيّة جديدة للعمليّة القيصريّة، التي لم تتطوّر مطلقاً على أيدي الجرّاحين الذكور منذ زمن يوليوس قيصر الذي تُنسَب إليه.

تلك الجرّاحة / القابلة هي ماري كولينيه من بيرن[10]، التي كانت أيضاً أوّل من استعمل المغناطيس لاستخراج شظيّة حديديّة من عين مريض، وهي تقنيّة ما تزال مطبّقة إلى اليوم. ذلك الابتكار الجديد نُسِب أيضاً إلى زوجها، رغم أنّ السجل الوحيد الباقي عن العمليّة كان ذاك الذي دوّنه بيده، وهو يراقب ماري أثناء إجرائها.

في إيطاليا، قلّدت بعض الجامعات فرنسا بمنع النساء من دخولها، لكنّ جامعة بولونيا في القرن الرابع عشر عيّنت دوروتيا بوتشي خلفاً لوالدها في منصب أستاذة الطبّ والفلسفة الأخلاقيّة. في قرار شهير آخر يصبّ في مصلحة النساء أيضاً، عيّنت الجامعةُ ذاتها ماريا دي نوڤيلا ذات الخمسة والعشرين عاماً بمنصب أستاذةٍ ورئيسةٍ لقسم الرياضيّات بآن واحد، وكذلك أوّل امرأة اختصاصية بالتشريح وهي أليساندرا جيلياني[11]، التي توفّيت عام 1326، ممّا يشهد على أنّ تعيين النساء كأستاذات في جامعة بولونيا كان

10- Marie Colinet (1560–1640) كانت قابلة وجرّاحة، وهي أوّل من استعملت الحرارة لتوسيع الرحم وتحريضه خلال الولادة. أغلب المراجع تذكر أنّ العمليّات القيصريّة آنذاك كانت تنتهي بوفاة الأمّ، لكنّ كولينيه أجرت بنجاح أربعين عمليّة حافظت خلالها على حياة كلّ من الأمّ والطفل، دون أن يرد شرح التقنيّة المطوّرة بالتفصيل. المترجمة

11- Alessandra Giliani (1307–1326) أوّل امرأة تتخصّص بتشريح جسم الإنسان، وتشريح الجثث. درست الفلسفة ومبادئ الطبّ في جامعة بولونيا منذ عام 1323، وكانت مسؤولة عن تشريح الجثث الذي يتمّ مباشرة أمام الطلّاب والأطباء في قاعة الجامعة. المترجمة

تقليداً عريقاً. من خلال إجرائها تجارب لا تحصى، طوّرت أليساندرا طريقة ثوريّة لتفريغ دم الجثّة واستبداله بمادّة صباغيّة ملوّنة، ممّا يسهّل دراسة جهاز الدوران بالتفصيل. «لقد استنزفها عملها»، هكذا رثاها خطيبها المفجوع عندما توفّيت في التاسعة عشرة.

إسهامات المرأة في الطبّ كانت قبساً متألّقاً، حجبتْ نورَه تحدّياتٌ عدائيّة كثيرة. المهنة الوحيدة التي سُمِح للمرأة أن تحتكرها في بدايات الحقبة الحديثة، كانت تلك التي لا يمكن للرجال القيام بها، لأنّها تتطلّب جسداً أنثويّاً ونهدين ومهبلاً، لاستيفاء متطلّبات العمل بدقّة. يُتَرجم هذا على أرض الواقع إمّا إلى التمثيل، أو إلى الدعارة، ولا يدهشنا أنّهما تداخلا على مرّ التاريخ.

مهنة التمثيل حقّقت نصراً للمرأة، لأنّها كسرت باعتلائها خشبة المسرح سلسلةً طويلة من القيود التاريخيّة الصارمة في العديد من البلدان. عادة، كان الممثّلون الذكور هم من يقومون بتمثيل الأدوار النسائيّة، في تقليد يعود بجذوره إلى عصر الدراما الذهبيّ عند الإغريق. لم يكن الانتقال إلى المشاركة الأنثويّة سهلاً بلا شكّ، أوّل الممثّلات على مسرح لندن هنّ فرقة فرنسيّة جوّالة سبّبت شللاً في المدينة، وأثارت فضيحة على مستوى البلاد. نقل اللّاهوتيّ البيوريتانيّ البارز وليام برين بغضب ما حدث:

«بعض النساء الفرنسيّات، أو الوحوش بالأحرى، حاولن خلال تشرين الثاني 1629 تقديم مسرحيّة فرنسيّة على خشبة المسرح في بلاكفراير. إنّها محاولة وقحة، شائنة، غير أنثويّة، وسوقيّة، إن لم نقل داعرة، احتجّ الناس عليها بشدّة».

لم يكن هذا رأي برين فحسب، فقد فشلت الممثّلات الفرنسيّات بكسب رضا جمهرة نقّاد الدراما في لندن، وقام الجمهور بقذفهنّ بالتّفاح، وإنزالهنّ عن خشبة المسرح.

ما يؤذي أكثر من بضع تفّاحات طائرة بأيّ حال، كان الربط الفوريّ –والمستمرّ حتى اليوم– ما بين مهنة التمثيل النسائيّة الجديدة، وما يروّج له تقليديّاً على أنّه أقدم مهنة في تاريخ البشريّة، أي الدعارة. الممثّلة التي تعيش

حياة مستقلّة، ولا تتزوّج إلّا إن ناسبها الزواج، وتكسب مالها الخاصّ الذي تنفقه على نفسها، وتعرض جسدها أمام عينيّ أيّ وضيع عابر يدفع بنسين على باب المسرح... أليست عاهرة؟! عندما تكون الممثّلة متّقدة العاطفة، وذات إرادة حرّة، ومستبدّة، كالممثلة التي كانت معروفة في لندن بأنّها عشيقة إيرل روشستر -لكنّها لم تَدِن بالحبّ إلّا لنفسها في الواقع- ألن تَثْبُت عليها تهمة الدعارة؟! «عشيقة» إيرل روشستر، وهي إليزابيث باري المشهورة، مثّلت أكثر من مئة دور رئيسيّ على خشبة المسرح خلال حياتها الفنيّة، وهي حقيقة لم تصرف انتباه العامّة قط عن حياتها الجنسيّة التي كانت حيويّة ومتنوّعة على حدّ سواء. في مسرحيّة «ملكات متحاربات»، اندمجت السيّدة باري بدورها لدرجة أنّها طعنت منافستها الحقيقيّة السيّدة بوتل بالسكّين في ظهرها، فسبّبت لها أذى جسديّاً خطيراً، لكنّ كلّ ما رآه الجمهور كان «شجاراً في بيت سيّئ السمعة»، وعاهرتين تتقاتلان على زبون!

إليزابيث باري وغيرها من ممثّلات الجيل الأوّل، كنّ نساء اقتحمن الحدود، تماماً كشقيقاتهنّ الأمريكيّات اللواتي تجرّأنّ على «السفر غرباً» قبل قرنين من الزمن. النساء الأخريات اللواتي اقتحمن الحدود الفنيّة خلال فترة الإصلاح الإنجليزيّ، جنباً إلى جنب باري ومنافساتها وزميلاتها، هنّ من نجحن للمرّة الأولى بكسب أجر لقاء ما قامت به المرأة مجّاناً دائماً: العمل الفكريّ. بين ملايين النساء اللّواتي مارسن مهنة الكتابة، أو رغبن بذلك، يسطع اسم آفرا بِن. إنّها ليست أوّل امرأة كاتبة في الحقبة الحديثة، فقد سبقتها العديدات إلى ذلك، بمن فيهنّ الشاعرة الأمريكيّة التي لا تُضاهى آن برادستريت، التي كتبت الشعر في ظروف المستعمرة الكولونياليّة القاسية، وبوجود ثمانية أطفال لديها. آفرا بِن هي بلا منازع أوّل امرأة تكسب عيشها من مهنة الكتابة، إذ إنّها باعت كتبها وعاشت من ريعها خلال مسيرتها الإبداعيّة التي دامت قرابة عشرين عاماً. أفرا بِن، تلك المرأة الشجاعة المتألّقة، الحاكمة السابقة، والجاسوسة السابقة، والرحّالة حول العالم، احتلّت المسرح الذي كان في السابق مجالاً حصريّاً يقتصر على الذكور فقط. كتبت عشر مسرحيّات في حقبة 1680 فحسب، إضافة إلى قصائد

طويلة ملحميّة عديدة، كما ترجمت خمسة أعمال عن الفرنسيّة، وكتبت خمس روايات، ممّا يؤهّلها أيضاً لاعتبارها أوّل روائيّة إنجليزيّة. وبالطبع، نعتها الناس أيضاً بالعاهرة!

بما أنّ لقب «العاهرة» كان يستعمل جزافاً لوصف نساء لا يبعن أجسادهنّ لقاء المال، لذلك لم يكن مهيناً حقّاً بالنسبة إلى «بنات اللعبة» الحقيقيّات. نِل غوين دوقة بورتسماوث، عندما أغاظتها إحدى عشيقات الملك تشارلز الثاني الأخريات ونعتتها بالعاهرة، ردّت بصرامة: «بالنسبة لي، إنّها مهنتي، ولا أدّعي أنّني أفضل». رغم صرخات دعاة الأخلاق، ردّدت العديد من النساء حول العالم وجهة نظر نِل. تاريخيّاً، نشطت ملايين النساء في تقديم خدمات الدعارة لا كعاملات بائسات فقيرات فحسب، بل أيضاً كقوّادات: من بين عشرة مالكين لدور الدعارة على ضفاف نهر التيمز جنوبي لندن، ممن غرّمتهم المحكمة الكنسيّة عام 1505، أربعة منهم كنّ نساء يقمن بإدارة مباغٍ هي: Le Hert، Le Hertyshorne (Hartshorn كان نوعاً من المنشّطات الجنسيّة المعروفة آنذاك)، Le fflower delyce، Le crosse keyes.

الدعارة كانت مهنة تتغلّب المكاسب التي توفّرها على العقوبات المطبّقة عليها، كالتحرّر من القيود المفروضة على المرأة المتزوّجة المحترمة. بلا شكّ، لم تنظر الزوجات إلى الأمر هكذا، كما أنّ كلّاً من العاهرة والزوجة سخرت إحداهما من الأخرى، وأشفقت كلٌّ منهما على الأخرى المعذّبة المضطهدة، وما تلقاه على أيدي الرجال.

في حقبتنا الحاليّة التي ترزح تحت ضغوط المطالبة بالمساواة الجنسيّة والعدالة الاقتصاديّة، من السهل أن نخطئ الحكم على تجربة النساء بالعمل خلال الحقبة ما قبل الصناعيّة. عمل المرأة آنذاك كان شاقّاً، طويلاً، مرهقاً، لكنّه لم يكن ذا طبيعة استبداديّة متأصّلة، كما نستدلّ من أدوار النساء المختلفة، ومن قوّتهنّ وكفاءتهنّ. من خلال العمل، المرأة التي لم تملك حقوقاً قانونيّة ولا هويّة مستقلّة آنذاك، حصلت على منفذ دائم تستغلّ من خلاله قدراتها، وعلى مدى واسع من حريّة التنقّل والاستقلال الذاتيّ والمساواة والاستقلال الاقتصاديّ. تحكّم الرجالُ عموماً بالأرض، لكنّ

هذا لم يحرم المرأة من المشاركة الهامّة والفعّالة في الزراعة والحراثة... إلخ، كما أنّها تحكّمت بالمحصول، سواء باستغلاله على المستوى المصغّر (بيتها)، أو على المستوى الأكبر المتمثّل بتصريف الفائض بالمقايضة أو التجارة. في الواقع، الزوج والزوجة اللذان يعملان معاً في الحقل، كانا شريكين بطريقة لا يميّزها القانون الأجوف: المرأة هي مركز بيتها ومحور أسرتها ومحور عملها، ومن خلال هذا الدور الثلاثيّ المقدّس، استطاعت أن تكون فخورة وكفوءة وقويّة وحرّة. يبدو كلامي خيالاً جميلاً لا يُصدّق، لكنّه حقيقيّ، اختفى عند الدخول في عصر الآلة، ومُحيَ كأنّه لم يكن!



الثورة: ذلك المحرّك العظيم!

– كلّ ثورة تنطوي على بعض بذور الشرّ.

• إدموند بورك

– في كلّ بيت، قامت النساء والأطفال بصنع الذخيرة والطلقات والمحافظ والبسكويت، وهم يبكون وينوحون. في الوقت نفسه، حثّتِ النساءُ أزواجهنّ وأولادهنّ على القتال في سبيل الحرّيّة، دون أن يعرفن هل سيكتب لهم اللقاء مجدّداً أم لا.

• شاهد عيان على الاشتباكات الأولى في الثورة الأمريكيّة، ليكسِنغتون 1774

– بالنسبة لنا، مع الحرارة والعمل / ليس عَرَقنا فقط ما يسيل / الدم أيضاً يتقاطر على معاصمنا وأصابعنا / رغم ذلك، عملنا يتطلّب حركة أيدينا الدائمة.

• ماري كوليير «عملُ المرأة» 1739

– يجب ألّا نتهرّب من الثورات!

• بنجامين دزرائيلي

الزوج، البيت، العائلة... لمئات وآلاف السنين، ظلّت حياة المرأة

متمحورة حول هذا الثالوث المقدّس المستمرّ الأبديّ، الذي استنزفها كليّاً في نمط من الحياة المنزليّة الدائمة الآمنة التي لا تتغيّر. وُلِدت بعض النساء في تلك اللحظات المصيريّة التي لا تتغيّر فيها الأنماط فحسب، بل تنهار بعنف مدمّر، وتتلاشى معها الأنظمة الراسخة بكلّ ما فيها من معابد رصينة وقصور رائعة، دون أن تخلّف أثراً. عندها، واجهت المرأة عبئاً مضاعفاً يتمثّل بالتأقلم مع صدمة الجديد، والتمسّك في آن واحد ببقايا القديم. بإحدى ذراعيها ستحيّي الفجرَ الجديد، بينما تهدهد طفلها أو تحرث حقلها باليد الأخرى، فلا بدّ من توفير الغذاء والحبّ والدفء والمأوى والضوء والحياة حتّى في خضمّ الثورات، وفقاً لاستطاعة كلّ مقاتلة أنثى في «الجبهة» المنزليّة.

عندما سخّرت المرأة قلبها وعقلها من أجل القضيّة، لم تقف الواجبات المنزليّة عائقاً أمام نشاطها الثوريّ. في الحرب كما في العمل، كانت مقدرة المرأة على الإنتاج مميّزة، ولم يعقْها «ضعفُها» الجسديّ ولا «ضعفُ» مقدراتها العقليّة. كانت النساء على رأس الحراك الثوريّ في أمريكا منذ بداياته، واشتركن في الاشتباكات إمّا مباشرة، أو من خلال التيّارات الفكريّة المؤيّدة للاستقلال. أثناء تمرّد باكون[1] عام 1676، كانت ملازم أنثى هي أوّل من جمعت أتباعه معاً، وجابت الريف على حصانها بوصفها مبعوثته الشخصيّة. امرأة أخرى هي سارة غرِندون، تمّ استثناؤها بالاسم من مرسوم العفو اللّاحق بسبب «تشجيعها ودعمها للتمرّد الرهيب». امرأة ثالثة هي سارة، سيّدة درَموند من جايمس تاون، ڤيرجينيا، أظهرت الروح ذاتها التي ألهمت المرأتين المذكورتين، عندما ردّت على تهديدات الحاكم بإعدامها بسبب دورها بالتمرّد، بأن كسرت عصا أمام وجهه وقالت له بسخرية: «أنا لا أخشى قوّة الإنجليز أكثر ممّا أخشى غصناً مكسوراً». بعد هزيمة المتمرّدين، عزيمة سارة المشاكسة كانت حبل النجاة بالنسبة لأسرتها، لأنّها ظلّت تقدّم العرائض بقوّة وإصرار، إلى أن استرجعت عزبة

1- تمرّد مسلّح قام به سكّان مستعمرة ڤيرجينيا بقيادة ناثانيال باكون عام 1676م ضدّ حاكم المستعمرة وليام بيركلي، وكان أوّل تمرّد مسلّح في الولايات الشماليّة. المترجمة

درموند التي استولى عليها التاج البريطانيّ، وذلك قبل مئة عام من انقلاب التيّار ودحر الإنجليز نهائياً.

عندما اندلعت الثورة الأمريكيّة رسمياً، قدّمت شجاعة وعزيمة النساء الكثيرَ، وكان من واجب كلّ امرأة شابّة في المستعمرات أن تشجّع الرجال جميعهم على حمل السلاح، وأن تقرّع المتخاذلين. عدد 2 تشرين الأوّل 1775 من صحيفة نيويورك غازيت، حمل قصّة عن مجموعة من الفتيات الشابّات قمن أثناء «يوم التنجيد[2]» بتعرية أحد الموالين للإنجليز حتّى خصره، من ثمّ تلطيخه بالمولاس[3] والأعشاب والريش. تناقل التاريخ أيضاً حكايات عن نساء أتسن جمعيّات عسكريّة الطراز، وارتدين زيّ الجيش، أو «أظهرن شجاعة الرجال» في لحظات الخطر، فضلاً عن استنهاض همم الناس. إليزا ويلكنسون قدّمت مثالاً عن الأرملة الباسلة عندما وجّهت رسالة إلى الزوجات جميعهنّ كي تشجّعهن على إرسال أزواجهنّ للقتال، فقالت: «لو كان لديّ زوج يرفض أن يحارب من أجل قضيّة بلده، أعتقد أنّني سأبغضه من أعماق قلبي».

رغم الأهميّة الدعائيّة الواضحة لتلك النشاطات، فإنها لم تقنع النساء كلهنّ. سارة هودكنز ذات الخمسة والعشرين عاماً، هي أمّ لطفلين وُلِد أصغرهما مؤخّراً، لم تستطع أن تتأقلم مع غياب زوجها عندما تطوّع للقتال مع الميليشيات التي حاصرت بوسطن عام 1775، فكتبت له: «أبحث عنك كلّ يوم، لكنّني لا أسمح لنفسي بالاعتماد على شيء، لأنّني لا أجد شيئاً أصلاً إلّا المشاكل وخيبة الأمل». أرفقت سارة رسالتها بتحيّة متهكّمة إلى الضابط المسؤول عن زوجها: «قل له إنّني أحتاج بشدّة إلى رفيق سريره في هذه الليالي الباردة»، من ثمّ قرّعت زوجها لأنّه تركها هي وطفليها: «لديّ طفل

2- Quilting frolics مناسبة اجتماعيّة تجتمع فيها الفتيات والنساء لتنجيد اللحف، وقد يتمّ العمل جماعيّاً على لحاف واحد أحياناً. هذا التجمّع هو أشبه بحفلة للسمر واللهو، وتناول المأكولات، واللقاء، وتبادل الأخبار. المترجمة

3- مادّة سكّريّة كثيفة داكنة اللون أشبه بالدبس، تنتج كمادّة خام أثناء تحضير السكّر من قصب السكّر وغيره. المترجمة

جميل أصبح عمره ستّة أشهر، لكن لا أب له». بعد ذلك، بذلت أقصى ما في وسعها لإقناع زوجها بعدم التطوّع ثلاث سنوات إضافيّة، لأسباب تتوضّح لنا في المقتطف التالي من جريدة كونيتيكت كورانت، 8 أيلول 1777: «لماذا تضطرّ زوجات جنودنا البائسات في العديد من المدن، إلى قرع الباب تلو الباب كي يتسوّلن ضروريّات الحياة، لكنّهن يُطرَدن رغم الاتّفاق الرسميّ في المدن على إعالتهنّ؟!».

طفح كيل أحد الجنود المخلصين أخيراً! في عام 1779، النقيب صامويل غلوڤر، وهو محارب سابق في معارك برانديواين وجيرمان تاون وستوني بوينت، لم يدفع الجيش رواتبه طيلة خمسة عشر شهراً، قام بقيادة «أخوته الجنود» في عصيان مسلّح قبل أن يُردى قتيلاً، فاستعطفت أرملتُه «جمعيّة الإغاثة الأمريكيّة» قائلة: «أريد أن أطرح عليكم سؤالاً... كيف يشعر الرجل الذي يحدّق الفقر إليه وجهاً لوجه، ويُثقل الظلم كاهله هو وأسرته؟».

تدرك الزوجة أن موت زوجها لا يعني خسارة شريك حياتها وحبيبها وصديقها فحسب، بل معيلها الأساسيّ. من ناحية أخرى، موت الزوج هو فرصة للزواج مرّة أخرى، سارعت بعض الأرامل في المستعمرات إلى اقتناصها بسرعة مذهلة، حتّى قبل أن تبرد أسرتهنّ بعد غياب الفقيد العزيز. بالنسبة إلى الأمّ التي لديها أولاد في سنّ الخدمة العسكريّة، موت ابنها الغالي لا يُعوَّض، وهذه النقطة تحديداً أثارت خلافات وجدلاً واسعاً. في عائلة ليڤنغستون[4] الشهيرة، عبّرت إحدى العمّات عن رأيها بصراحة: «لا عجب أنّ السيّد جورج واشنطن كان ضعيفاً للغاية، لأنّ السادة لا يرسلون أبناءهم إلى الجيش»، وشجّعت ابن أخيها بحضور أمّه على الانضمام للجيش «سواء وافق والداه، أم لا». قلّل أحد المعلّقين من أهمّيّة الحادثة،

4- The Livingston عائلة هاجرت من إسكتلندا إلى نيويورك في القرن السابع عشر، وأنجبت العديد من الشخصيّات البارزة في التاريخ الأمريكيّ، كجيمس ليڤنغستون (1747-1832)، الذي قاد الفيلق الكنديّ الأوّل في الجيش الرديف أثناء اجتياح كندا عندما نشبت الثورة الأمريكيّة، وفيليب ليڤنغستون الذي وقّع على إعلان الاستقلال، ووليام ليڤنغستون الذي كان أحد مشرّعي الدستور. المترجمة

فكتب: «توتّرت الأجواء قليلاً بين السيّدتين». ما تخشاه السيّدة ليڤنغستون يلخّصه ما كتبه أحد قساوسة الجيش، عندما سجّل الكلمات الأخيرة لـ «شابّ مات متأثّراً بجراحه بعد معارك الثالث عشر من أيلول 1776»: «ألن ترسلَ بطلب أمّي؟ لو كانت هنا واعتنتْ بي، لتعافيت. آه يا أمّي! أتمنّى لو أنّني أستطيع رؤيتها. لقد عارضتْ انضمامي للجيش، وهأنذا، نادمٌ. هل تخبرها بأنّني آسف؟».

هذا لا يعني بالطبع التقليل من قوّة التزام النساء الأمريكيّات بـ «القضيّة المجيدة»، التي اعتمدت على دعمهنّ الفعّال في العديد من المناحي. موافقة النساء عام 1769 على مقاطعة البضائع الإنجليزيّة كلّها (الشاي، الكماليّات، الحرير، الساتان، والقماش الصوفيّ) لعبت دوراً في منتهى الأهمّيّة بالنسبة للمقاومة -بشكل ما أو بآخر، مقاطعة البضائع هي مقاومة بدورها- كما أنّ جهودهنّ نجحت بسدّ العجز الحاصل: نساء ميدل تاون، ماساشوستس، قمن بنسج 20522 ياردة من القماش عام 1769، أمّا نساء لانكاستر في بنسلڤانيا فقد تفوّقنّ عليهنّ بنسج 35000 ياردة خلال الفترة ذاتها.

أدرك الرجال الأمريكيّون أهميّة «السلاح النسويّ»، فخلال موجة ثانية من مقاطعة البضائع الإنجليزيّة، سجّلت الزوجات الصالحات في إيدنتاون، نورث كارولينا «أوّل نشاط سياسيّ للنساء الأمريكيّات في المستعمرات الأمريكيّة»، من خلال تنظيم إجماع رسميّ على تطبيق قرار الكونغرس، وهو ما هلّل له الرجال وبجّلوه وروّجوا له.

لم يكن نشاط النساء محصوراً بمقاطعة البضائع ولوازم الشاي. عندما اندلعت المواجهات، سُجِّلَتْ بطولات نسائيّة في صفوف الطرفين المتحاربين كليهما. بين البريطانيّين، خلّد التاريخ اسم الليدي هارييت أكلاند، زوجة جون دايك أكلاند، آمر سريّة رماة القنابل اليدويّة في معارك بورغوين في صيف 1777. عندما أصيب زوجها ووقع أسيراً، قادت زورقاً صغيراً وأبحرت عبر خليج هدسون ليلاً تحت نيران القنّاصة، وتمكّنت من اختراق دفاعات العدو إلى أن وقفت عند الفجر وجهاً لوجه مع الأعداء، وطالبت باستعادة زوجها. ما يدهشنا أكثر هو أنّها أبقته حيّاً خلال رحلة

العودة، واعتنت به حتّى تعافى من إصابته البليغة (رصاصة في البطن، ورصاصة في كلّ من ساقيه).

البارونة ريدسِل، هي زوجة قائد إنجليزيّ لا تقلّ عزيمة عن الليدي أكلاند. وصلت إلى أمريكا مع ثلاث بنات تحت سنّ الخامسة، لكنّها أصرّت على البقاء إلى جانب زوجها على الرغم من كلّ الصعاب. اضطرّت ذات مرّة إلى حماية بناتها بجسدها مباشرة كي تنقذ حياتهنّ، وأنقذتهنّ مرّة أخرى مع مجموعة من الإنجليز، حين حافظت على حياة الجميع طيلة ستّة أيّام دون طعام في قبو تغمره الفضلات، إلى أن وصلت النجدة.

اشتركت المرأة في القتال أيضاً. بطلة الجمهوريّين ماري لودفغ هايس، كسبتْ لقب «مولي السقّاءة» لشجاعتها في جلب الماء إلى رماة المدفعيّة في خضمّ المعركة. عندما أصيب زوجها، وهو جرّاح / حلّاق أصبح رقيباً في سلاح المدفعيّة، أخذت ماري مكانه خلف المدفع، فتحوّلت رباطة جأشها إلى أسطورة. مرّت قذيفة بين ساقيها ومزّقت معطفها، فما كان منها إلّا أن نظرت نحو الأسفل، وعلّقت بلا مبالاة «كم أنا محظوظة! لو مرّت القذيفة إلى الأعلى قليلاً لمزّقت شيئاً آخر!»، من ثمّ تابعت القتال.

مشاركة النساء الأمريكيّات الفعّالة بكلّ أطيافهنّ في الحرب، سواء كنّ من الطرف المعتدي أو المُعتدى عليه، تتناقض مع الدور الذي لعبته نظيراتهنّ الإنجليزيّات أثناء الحرب الأهليّة في القرن المنصرم. لو حلّلنا ذلك التناقض من أيّة زاوية، لاتضح لنا أنّ انهيار بعض الأنظمة والهرميّات، إضافة إلى الحريّات الأوسع في العالم الجديد، والتضامن بين النساء الذي لا غنى عنه من أجل استمرار الحياة في المستعمرات، كلّها اتّحدتْ معاً لخلق ظروف ازدهر فيها إسهام النساء، سواء كأفراد أو كجنس.

في الصراع الإنجليزيّ الدامي المؤلم، حين ثارت الأمّة بوجه الأمّة، تشكّلت شبكة من الولاءات العميقة المتناقضة غالباً، قرّرت الانحياز إمّا إلى الملك أو إلى البرلمان، كما أنّ خطوط المعركة فرّقت الآباء عن أبنائهم، والأصدقاء عن أعزّ أصدقائهم. بالتالي، لم تشجّع الظروف على ظهور مجتمع نسويّ. أحد الأمثلة الاستثنائيّة عن التضامن الأنثويّ الذي سار

على نحو سيّئ، لدرجة أنّه أحبط النساءَ عوضاً عن تشجيعهنّ، حدث عندما «لم يتجرّأ الرجال على المطالبة»، بينما تحرّكت النساء بعد اعتقال أربعة من البرلمانيّين المتطرّفين عام 1649. طيلة ثلاثة أيّام متتالية، طالب حشدٌ يقدّر بمئات النساء البرلمانَ بإطلاق سراحهم، لكنّ مطلبهنّ جوبه بالجنود المسلّحين الذين هاجموهنّ بالبنادق. في نهاية المطاف، فُضَّ الاعتصام بسبب اللوم الصارم الغاضب الذي وجّهه لهنّ البرلمان: «إنّ المسألة التي قدّمن التماساً من أجلها هي مسألة تحظى بالاهتمام على مستويات أعلى ممّا يعتقدن، والبرلمان أعطى جواباً لأزواجهنّ [أي أنّ البرلمان لا يخاطب إلّا الرجال فقط!]، وبالتالي تُطلَب منهنّ العودة إلى بيوتهنّ، والاهتمام بشؤونهنّ الخاصّة، والعناية بأزواجهنّ».

ردّت النساء لاحقاً بالتأكيد على ما يلي: «لقد خُلِقنا على صورة الربّ، ونحن نؤمن بالمسيح كما يؤمن به الرجال على السواء... لذلك نتعجّب ونتحسّر لأنّكم تعتبروننا وضيعات»، إنّما مع دخول العالم في حقبة الثورات، تلك الحادثة كانت مجرّد تذكير بأنّ المساواة التي قد تحظى بها النساء مع كلّ ثورة جديدة لا تشملهنّ جميعاً، وأنّ البعض منهنّ يُولَدْن مع امتيازات أكبر.

قد يُسحَقُ المجهود الجماعيّ للنساء، لكن لا غنى عنهنّ كأفراد، خاصّة بالنسبة إلى الملكيّين البائدين. «في الواقع، لم تكن المرأة نافعة كما هي الآن» كتب أحد أصحاب الأملاك الذين يتعرّضون للمضايقات إلى السير رالف فيرني[5]، فقد تحوّلت النساء الأرستقراطيّات إلى «جنديّات شجاعات» نيابة عن أزواجهنّ، وحملن السلاح دفاعاً عن مصالحهنّ وأملاكهنّ. من بين الأمثلة الكثيرة عن النساء البطلات، نقرأ عن الليدي ماري بانكس، التي صدّت عام 1643 هجوم القوّات التابعة للبرلمان على قلعة كورف. دافعت هي شخصيّاً عن الطابق العلويّ بأكمله، بمساعدة بناتها، والنساءِ اللواتي ينتظرن الحصول على الألقاب الملكيّة، وخمسةِ رجال، قاموا جميعاً بقذف الحجارة والجمر المشتعل والماء المغليّ، على المهاجمين الذين «فرّوا وهم يبكون».

5- Sir Ralf Verney (1613–1696) بارون وسياسيّ إنجليزيّ بارز، انتُخِبَ عدّة مرّات في مجلس العموم. المترجمة

لم تقتصر البطولة على نساء الطبقات العليا، رغم أنّ التاريخ لم يحفظ إلّا أسماء الأرستقراطيّات في معظم الأحيان. اشتركت العديد من «الجنديّات» في الحرب الأهليّة، خاصّة أثناء حصار مدينة لايم الاستراتيجيّة، وهي مدينة ساحليّة صغيرة تقع في مقاطعة الليدي بانكس ذاتها في دورسِت، إنجلترا. هناك، اشتركت المدافعاتُ عن المدينة في القتال مع الرجال أثناء النهار، وملأن أحزمة الطلقات، ورشقن الأعداء بالحجارة وبكلّ ما وقعت عليه أيديهنّ في الوقت المستقطع، من ثمّ تولّين الحراسة ليلاً، كي يحظى الرجال ببعض النوم استعداداً لمعارك اليوم التالي. خلّد شاعر محليّ جهودهنّ تلك، قائلاً إنّ «العاصفة الأخيرة» حقّقتْ ما هو أعظم من الإطاحة بالمَلَكيّة:

أغلب الناس يعلمون / أنّ الجنس الأضعف أصبح أقوى / يا حسرة! من يحرس لايم؟ / إنّها المرأة المسكينة / التي تسهر طيلة الليل، وتكدح طيلة النهار في المعركة / وتكشف أعداءنا من أصواتهم / عندما يتسلّقون تحصيناتنا.

مساواة المرأة بالرجل في القتال، تعني أيضاً أن تعاني مثله، فقد أصيبت الكثيرات في السنوات التسع التي دامت خلالها الحرب. روحهنّ المعنوية لم تكن عالية دائماً، على النقيض من إحدى السيّدات التي شوّهتها قذيفة أثناء حصار مدينة لايم، لكنّها رفضت أن يتعاطف معها أحد لأنّها خسرت مستقبلها، وأعلنت بحزم: «صدقاً، أنا سعيدة من كلّ قلبي لأنّني خسرتُ يدي فداءً ليسوع المسيح، وأنا مستعدّة من أجله لا لخسارة يدي الثانية فحسب، بل حياتي أيضاً». في القرن السابع عشر، لم يكن للمرأة الإنجليزيّة -سواء كانت أرستقراطيّة أو من عامّة الشعب- تأثيرٌ على مجريات الأحداث التي خوّلتها بتلك المساواة الخطيرة على صعيد المعاناة، ولا صوتٌ في أيّ مجلس، لا في قاعة المحكمة ولا حتّى في اجتماع الكنيسة من أجل تركيب مضخّة للرعيّة. لقد استُثنيَت تماماً من صناعة القرار، بغضّ النظر عن قوّة شخصيّتها وقدراتها، وحُكِم عليها بالخضوع للأدوار السلبيّة والتكتيكات الجانبيّة. لم تنتصر المرأة الإنجليزيّة على أيّ صعيد، رغم كلّ ما خسرته من أملاك وأزواج وأبناء وأصدقاء، وكانت مجرّد ضحيّة لحماس الرجال الثوريّ.

من موت ملكٍ إلى موت ملك ثانٍ، تطلّب الأمر قرناً ونصف القرن، وتكرار الاعتداء المزلزل على الحقّ الإلهيّ للملوك، قبل أن تُقبَل المرأة كشريك مبتدئ في لعبة الثورات الدمويّة. الأحداث في فرنسا، بدءاً من اضطرابات حقبة 1780 وصولاً إلى ما تلاها من تدهور مرعب، أبرزت السخرية السوداء الصريحة في مقولة إدوارد بولوير لايتون[6]: «لا تُصنَع الثوراتُ بماء الورد». نساء الثورة الفرنسيّة بعيدات كلّ البعد عن الأنوثة الأنيقة التي تقترحها العبارة، فكلّ عطور الشرق لا تكفي لتعطير أيديهنّ الملطّخة حتّى المرفق بدماء النبلاء الفرنسيّين. في فرنسا، وللمرّة الأولى في التاريخ، تحوّلت النساء إلى قوّة ثوريّة، وهذا ما مثّل بحدّ ذاته صدمة كبيرة من سلسلة صدمات هزّت الزمان والمكان. الدور البارز الذي لعبته المرأة أثناء الثورة الفرنسيّة، يدين نوعاً ما للمثال الناجح الذي قدّمته الثورة الأمريكيّة في العالَم الجديد، لكنّ أوضاع الشعب الفرنسيّ تحت حكم النظام القديم، سبق لها أن قوّضت العديد من الفروقات الهامّة بين الذكور والإناث، قبل وقت طويل من اندلاع المواجهات بين «اللّا مُتَسَرولين»[7] وبين الأرستقراطيّين. لا ديمقراطيّة أقوى من ديمقراطيّة التضوّر جوعاً! بعد أن ثار جنونهنّ كالرجال على حدّ سواء بسبب الجوع والإحباط واليأس، أسهمت الباريسيّاتُ بدور رئيس في القوى التي أدارت «محرّك الثورة العظيم»، من ثمّ دعمت استقرارها بأنهار من الدماء.

منذ بداية الأحداث، انقسمت النساء الفرنسيّات إلى ملائكة أو إلهات مُنتقِمات أو شيطانات مسعورات، وفقاً لوجهات النظر المختلفة. امرأة تلبس زيّ أمازونيّة هي من قادت الهجومَ على سجن الباستيل، وإن كان إسقاط القلعة الرمزيّة الخاوية التي تعبّر عن النظام المفلس، وتسنده في

6- Edward Bulwer-Lytton (1803-1873) روائي ورجل دولة إنجليزي تولّى مناصب عديدة. يقال إنّه أوّل من كتب عبارة «القلم أقوى من السيف»، وكذلك الافتتاحيّة الشائعة في الأدب: «كانت ليلة عاصفة مظلمة». المترجمة

7- Les Sans Culottes: حركة سياسيّة لعبت دوراً هامّاً في مجريات الثورة الفرنسيّة، أعضاؤها هم من الطبقة العاملة الذين يفضّلون ارتداء السروال الطويل، على ذاك القصير Culottes الذي يلبسه الأرستقراطيّون. المترجمة

آن واحد، هو مجرّد نصرٍ أجوف، فالأحداث في «يوم نساء السوق» كانت نقيضه. آنذاك، طافت النساء في الأسواق بحثاً عن الخبز، لكن عبثاً! من ثمّ، بلغ الشغب أقصاه عندما تبيّن أنّ الملك غادر المدينة أثناء الأزمة، فانطلقت ثمانية آلاف امرأة نحو ڤيرساي في الخامس من تشرين الأوّل 1789، وهو ما شكّل نقطة الختام في مصير الملك لويس السادس عشر، وزوجته ماري أنطوانيت، وبقيّة سلالة كابوت الملعونة.

لم تكن كلّ النساء في المسيرة ثائرات عديمات الرحمة، يخاطرن بحياتهنّ من أجل «القضيّة المجيدة». على سبيل المثال، قالت ممرضة اسمها جان ماران إنّ عصابة من أربعين امرأة أجبرتها على المضيّ في المسيرة، بعد أن ألقت النساء إليها بهراوة وهدّدنها أنّهنّ سيستعملنها ضدّها لو رفضتْ، على الرغم من كلّ ما تذرّعت به (لم تتناول فطورها، لا مال معها، ولا حتّى سُو[8] واحد)، وصرخن بها: «سيري! سيري! لن تحتاجي شيئاً!». كتيبة الأمازونيّات المرتجلة تلك لم تضمّ الباريسيّات فحسب، وإنّما الكثير من الرجال المجهولين المتنكّرين بأزياء نساء أيضاً، فضلاً عن أولئك الذين أجبرتهم الثائرات على تولّي القيادة.

ظهرت بين صفوف الثائرات تقسيمات واضحة (اعترفت بها النساء أنفسهنّ): بائعات السمك، بائعات البسطات، واللواتي يتاجرن بأشدّ البضائع انحطاطاً على الإطلاق: اللحم البشريّ! إذ وجدت عاهرات باريس قضيّة مشتركة تجمعهنّ مع السيّدات البرجوازيّات الأنيقات المهذّبات، اللواتي أثبتن بدورهنّ أنّهنّ قادرات على الصراخ كأخواتهنّ البائعات، وأنّهن عنيفات مثلهنّ.

كان غضب الغوغاء الأنثويّة مرعباً عندما انفلت من عقاله! اندفعت النساء نحو ڤيرساي، ولم يتوقّفن إلّا لنهب الدكاكين والخمّارات. هجمن أوّلاً على الجمعية الوطنيّة، التي وقف أعضاؤها تحت قيادة الكونت دي

8- Sou عملة فرنسيّة مندثرة، تعادل عشرون منها فرنكاً قديماً واحداً. المترجمة

ميرابو المهيب عاجزين أمام المذبحة. على عجل، تمّ تشكيل وفد توجّه إلى الملك في محاولة لاسترضاء قائدات الثورة، لكنّه فشل عندما لم تقدر ممثّلتهنّ –وهي بائعة أزهار من القصر الملكيّ– على الكلام، ولم تغمغم بأكثر من «سيّدي، نريد خبزاً» قبل أن يُغمى عليها، وتوجّب منعُ زميلاتها من شنقها على أسوار القصر. مع حلول الليل، وتساقط المطر بغزارة، توهّم الناس أنّ غضب المحتجّات قد خمد، لكن عبثاً! قبل انبلاج الفجر، احتلّت الثائرات القصر، مزّقن الحرّاس إلى أشلاء، ودمّرن الأجنحة الملكيّة بحثاً عن الملكة وهنّ يصرخن ويطالبن بكلّ قطرة من دمها النمساويّ البغيض. قبل انتهاء اليوم، عادت ماري أنطوانيت وأفراد أسرتها جميعهم إلى باريس –في آخر رحلة يقومون بها– بوصفهم سجناء الشعب، وعندها حكمت النساء الغاضبات عليهم بالموت.

بمراجعة الأحداث، يبدو أنّ الغضب كان طاغياً، لدرجة أنّ الحلّ السياسيّ لم يفلح بإخماده، وكان لا بدّ من انتهاك كلّ قوانين قداسة الأنثى –بل حتّى الأنوثة بحدّ ذاتها– انتهاكاً حرّاً وعلنيّاً ما أمكن. دُهشَ المحلّلون المعاصرون وارتعبوا، حين لاحظوا أنّ البرجوزايّات لم يحتجن دروساً لغويّة من بائعات السمك عندما طالبهنّ الأسقفُ بـ «النظام!» أثناء اقتحام الجمعيّة الوطنيّة، بل أجبنه على الفور: «لا يلزمنا نظامك الخرائيّ»، وهدّدنه بتحويل رأس أقرب رئيس دير إلى كرة في لعبة البولز[9]. في تلك الأثناء، العاهرات اللواتي لا يملكن احتراماً للنفس «يضحّين به من أجل القضيّة المجيدة»، خلقن نموذجهنّ الخاصّ عن التطرّف، من خلال السوقيّة المفرطة والتحرّر المطلق من المعايير السائدة، وهو ما سعت إليه النساء جميعهنّ بحماس في فوضى اللحظة. لاحقاً، في حادثة شهيرة غريبة، رسّخت عاهرات باريس سمعتهنّ كـ «فيلق هجوم الثورة»، بكلّ ما يحمله هذا الوصف من معنى: في تمّوز 1790، حاصرت عصابة من العاهرات المسلّحات بالبنادق فرقةً

9- Boules: مجموعة متنوّعة من الألعاب كانت شائعة في أوروبا قديماً، تقوم على دحرجة أو رمي كرة ثقيلة (تسمّى Boules بالفرنسيّة) أقرب ما يمكن إلى الهدف، وهو كرة أصغر حجماً تدعى jack. المترجمة

من الخيّالة الملكيّة، ثمّ أمرن الجنود بالهتاف «الموت للملك»، وتبجّحن قائلات: «نحن كلّنا لكم إن انضممتم للثورة». عندما رفض الجنود، بدأت فتاة يافعة شديدة الشقرة، لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، بالرقص أمامهم في الطريق، كما وصفها شاهد عيان: عرّت ثدييها، وأمسكتهما بين راحتيها، وهي تهزّ مؤخّرتها عمداً كالبطّة. اندفعت النساء الأخريات إليها على الفور، ونزعن ملابسها عنها، فكشفن عن أجمل جسد يمكن للمرء أن يتخيّله أمام عيون الخيّالة الذين احمرّوا خجلاً، من ثمّ صرخن: إن كنتم تريدون تذوّقها، اهتفوا «الموت للملك!» أوّلاً.

تُقرَأ هذه الحادثة وغيرها كأنّها تنقيح لتأمّلات إدموند بورك[10] الحزينة حول الثورة، على ضوء التجربة الأمريكيّة قبل عشرين عاماً: «بالنسبة للناس الذين سحقتهم القوانين، لا أمل يُرتجى إلّا باستحواذهم على السلطة. إن لم يقف القانون في صفّهم، سيصبحون أعداء له، كما أنّ الذين لديهم الكثير من الأمل، ولا شيء يخسرونه، يمثّلون خطراً دائماً». خلال تلك الحقبة الوجيزة التي لم تتكرّر مجدّداً، غصّت فرنسا بالنساء الخطرات، وخرج المجتمع عن نطاق السيطرة، وتخلّص من مبادئ الحكم التقليديّ دون أن يُوجِد لها بديلاً، فتمزّق من قمّته إلى قاعه كأنّه مجتمع حدوديّ مفتوح أمام الطَمُوحَات والشُجاعَات والقويّات. من بين أوائل النساء اللواتي ظهرن من اللّامكان واقتنصن أعلى المراتب التي لم تحلم بها أيّ أنثى آنذاك، كانت المغنّية تيرواين دي ميريكور، وهي شخصيّة مركّبة معقّدة: مغنّية فرنسيّة موهوبة تدرّبت على الغناء في لندن ونابولي، ومحظيّة ملكيّة جمعت ثروة في باريس ما قبل الثورة، قادت جموع النساء لاقتحام الباستيل مرتدية زيّ أمازونيّة، كما قادت «كتيبة أمازونيّات» لاحقاً في العام ذاته أثناء زحف النساء مجدّداً إلى الباستيل، وكذلك عند الهجوم على قصر تويليري بعد ثلاث سنوات عام 1792. دي

10- إدموند بورك Edmund Burke (1729–1797): سياسيّ ورجل دولة إيرلنديّ، وعضو في البرلمان الإنجليزيّ. كان داعية للفضائل والأخلاق في المجتمع، كما انتقد سياسات الحكومة البريطانيّة تجاه المستعمرات الأمريكيّة، ودعم حقّ المستعمرات بالحكم الذاتيّ رغم معارضته لاستقلالها التامّ. المترجمة

ميريكور لم تكن مجرّد جنديّة، فقد أسهمت بحماس في النقاشات الثوريّة بوصفها نجمة النوادي السياسيّة، فضلاً عن أنّها أسّست العديد من النوادي السياسيّة الخاصّة بالنساء، فجذبت «المواطِنات» الإناث المُحتَقَرات سابقاً إلى الجدل السياسيّ. لقد ضحّت بثروتها، وخاطرت بحياتها في سبيل قضيّة جاحدة في نهاية المطاف، إذ إنّها ساندت التيّارَ المعتدل إبّان مرحلة الرعب التي تلت الثورة، فخسرت شعبيّتها، وهاجمتْها نساءُ باريس الثائرات اللواتي اعتبرتهنّ بطلاتٍ في السابق، وأشبعنها ضرباً. أفقدتِ الصدمةُ دي ميريكور توازنها، وقضتْ ما تبقّى من حياتها في مصحّة عقليّة.

ليس سهلاً تحليل نضال تيرواين دي ميريكور، حتّى إبّان ذروة مجدها وأهمّيّتها. من وجهة نظر المعاصرين لها، كانت امرأة متحرّرة من كلّ القوانين والأعراف السائدة آنذاك، بل مجرّدة من الإنسانيّة. أثناء الهجوم على قصر تويليري مثلاً، استغلّت نفوذها لتحريض الغوغاء على صحفيّ انتقدها ذات مرّة، فشنقوه أمام عينيها، ولاحقتها سمعتها كمصّاصة دماء حتّى النهاية: إحدى جرائمها الأخيرة كانت ذَبْحَ فلمنغ الشاب، وهو أوّل من أغواها كما يُشاع. قطعتْ رأسَه بيديها، من ثمّ دخلت طوراً من النشوة الهوسيّة، فغنّت أناشيد الثورة وهي ترقص وسط بركة من الدماء. دي ميريكور ليست استثناء، سواء من حيث عدائها العنيف للنظام القديم أو حماسها لتدميره. «السلام سيعيقنا» كتبت مانون رولاند بحماس، «لن نتجدّد إلّا بالدم، بالدم فقط». مدام رولاند هي مفكّرة ثقّفتْ نفسها بنفسها، جابت الصالونات الثوريّة كما جابت دي ميريكور الشوارع، فصاغت وقولبَتِ السياسةَ الثوريّة والنظريّةَ الديمقراطيّة، من خلال الحوارات وعبر كتاباتها. رغم أنّها لم تنطلق من مبدأ المساواة التامّة مع زملائها الذكور -أصدرت مؤلّفاتها الراديكاليّة الأولى تحت اسم زوجها، كما بلغ نفوذها ذروته عندما تولّى زوجها منصب وزير الداخليّة عام 1792- لكن من المعروف أنّ رولاند هي عصبُ حزب جيروندين المعتدل. إذن، مهنتها تمثّل إحدى اللحظات التاريخيّة الأولى، التي طالبت فيها امرأة استناداً إلى مواهبها وحقّها الشخصيّ الشرعيّ بموقع محوريّ في مركز مؤسّسة سياسيّة كبيرة، وحصلت عليه.

من ناحية أخرى، لم تخدم هؤلاء النساء مصالحَ الرجال ببساطة من خلال النموذج الكلاسيكيّ لمعاناة المرأة. بمجاراة الاضطرابات والعنف الحاصل، ظهرت أفكار التيّار النسويّ -التي لا تقلّ ثوريّة عمّا يحصل- وبدأت بالازدهار، بعد أن كانت في السابق مجرّد ومضات فكريّة، تبعثرها ريح عشوائيّة هنا وهناك على سطح التيّار الفكريّ الإنسانيّ. في فرنسا وحدها، كانت «قضيّة النساء» قيد النقاش منذ سنوات طويلة، حيث ترسّخت قواعد الجدل النسويّ على يد نساء مختلفات، كالموهوبة ماري لوجار دي غورناي -ابنة مونتانيه بالتبنّي- وهي مدافعة شرسة عن حقّ المرأة بالتعليم، ومحاربة لا تلين ضدّ الأفكار التي ترسّخ دونيّة المرأة. تُعدّ دي غورناي ما قبل - نسويّة، بسبب استقلاليّتها المميّزة، ورفضها للأساليب الأنثويّة المبهرجة وللخضوع وللتملّق، خاصّة في كتابيها «مساواة الذكور والإناث» 1622، و«أحزان النساء» 1626. الآن، مع اندلاع الثورة الفرنسيّة، خرجت النسويّات علانيّة في المظاهرات وتحدّين وطالبن، واجتمعن معاً من أجل إيجاد صيغة سياسيّة، كما نقرأ مثلاً في «عريضة من نساءِ الطبقة الثالثة[11] إلى الملك»، التي جاء فيها:

«كلّ نساء الطبقة الثالثة وُلِدن فقيرات، وتعليمهنّ مُهمَلٌ أو بائس. في عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، يمكن للفتاة أن تكسب خمسة أو ستة سو في اليوم، وأن تتزوّج دون دوطة من حرفيّ تعيس، من ثمّ يعيشان حياة بائسة، وينجبان أطفالاً لا يقدران على إعالتهم. إن تقدّمت المرأة بالسنّ دون أن تتزوّج، ستقضي حياتها باكية بين أقاربها المباشرين الذين يبغضونها. للتغلّب على هذا البؤس يا سيّدي، نطلب منك أن تمنع الرجال من ممارسة المهن التي هي من حقّ النساء». إن أخذنا بعين الاعتبار أنّ المرأة كانت تعاني أشدّ المعاناة من استحواذ الرجال على المهن النسائيّة التقليديّة، علماً

11- قبل الثورة، كان المجتمع الفرنسيّ مقسّماً إلى ثلاث طبقات. الأولى (رجال الدين)، الثانية (النبلاء)، والثالثة (عامّة الناس). أحد أهمّ الفروق بينها هو التحصيل الضريبيّ، إذ أعفيت الطبقتان الأولى والثانية من الضرائب، بينما دفع العامّة مبالغ مجحفة. المترجمة

أنّ الرجل يكسب أجراً يومياً يعادل ثلاثين سو، بينما لا تحظى المرأة بأكثر من أربعة عشر أو خمسة عشر سو، يبدو لنا أنّ احتجاج «نساء الطبقة الثالثة» هادئ للغاية، وهو انطباع يعزّزه ما ختمن به العريضة: «نسألك يا سيّدي أن نتلقّى التعليم وأن نحصل على وظائف، لا لنستولي على سُلطة الرجال بل كي نكسب عيشنا».

الكتّاب الذكور كانوا أكثر جرأة، ولفتوا الأنظار إلى ما تعانيه المرأة من ظلم وبؤس. ماركيز دو كوندورسيه مثلاً، كتب منشوراً عنوانه «الطبقة الثالثة ضمن الطبقة الثالثة» قائلاً: «هل هناك دليل أقوى على سلطة العادات، حتّى على الرجال المتنوّرين، من تطبيق مبدأ التساوي في الحقوق لمصلحة ثلاثمئة أو أربعمئة رجل، وإغفاله في حالة اثني عشر ألف امرأة؟!».

بأيّ حال، يرجع الفضل برفع راية النسويّة الحقّة في فرنسا إلى امرأة صرخت: «أيّها الرجل، هل أنت قادر على تحقيق العدالة؟! المرأة هي من تطرح عليك السؤال». في بداية الثورة، أعلن مجلس الدستور الفرنسيّ حقوقَ الرجل، وفي أيلول عام 1791، ردّت عليه أوليمب دي غوج ردّاً خاطفاً نسوياً بكلّ ما في الكلمة من معنى، أسمته «إعلان حقوق النساء» كتبت فيه: «تُولَد المرأة حرّة، وحقوقها هي حقوق الرجل ذاتها... يجب أن يعبّر القانون عن الإرادة العامّة، وأن يشارك المواطنون جميعهم، رجالاً ونساء، بصياغته. يجب أن يكون القانون واحداً بالنسبة للجميع، وأن يتساوى المواطنون كلّهم رجالاً ونساء أمامه، وأن يحظَوا جميعهم بالفرصة ذاتها للحصول على الوظائف العامّة والمناصب والمهن، اعتماداً على مقدراتهم الشخصيّة فقط، دون الأخذ بمعايير أخرى سوى فضائلهم ومواهبهم». بيانها كان ثوريّاً حقّاً، بغض النظر عن مزاج عصرها! وهناك المزيد: رغم أنّ دي غوج لم تتلقَّ تعليماً أكثر من مدام رولاند، لكنّها نجحت بتحليل البؤس الاقتصاديّ المباشر الذي تعانيه النساء الفرنسيّات، وتوصّلت إلى لبّ المشكلة، فبيّنت أنّ معاناة المرأة بمجملها تتغذّى من حلقة مفرغة وتغذّيها بدورها، وهذه الحلقة المفرغة قوامها الحرمان. تدنّي أجور المرأة كما جادلت دي غوج، وحرمانها من الوظائف، سببهما حرمانها من التعليم، ممّا يجبرها على

الزواج المبكّر أو يرميها إلى حياة الشارع. الحرمان من التعليم يعطي الرجال ذريعة لرفض حقوق النساء السياسيّة، ومع الحرمان من الحقوق السياسيّة يصبح من المستحيل بالنسبة للمرأة أن تطالب بالإصلاح، أو الحقّ بالتعليم، أو تساوي الأجور، أو المساواة أمام القانون. أثبت تاريخ النسويّة لاحقاً، دقّة تحليلات دي غوج المبدئيّة!

ما سبق ليس مجرّد تنظير باهت. «يا نساء، انهضن!» صرخت دي غوج، «اعرفن حقوقكنّ!»، فضلاً عن أنّها فضحت سخرية الاستبداد الجديد الصريح، الذي يمارسه الذكور الثوريّون اللاهثون خلف مصالحهم: «الرجل – العبد ضاعف قواه... وما إن تحرّر حتّى ظلمَ شريكته. ما هي الفوائد التي كسبْتِها أيّتها المرأة من الثورة؟! ازدراء أكثر صراحة، فقط لا غير!». من خلال تأمّلاتها الساخرة لما يقوم به «المشرِّعون الحكماء»، حثّت دي غوج النساءَ جميعهنّ على «استخدام قوّة المنطق، لمجابهة ادّعاء الرجال الأجوف بالتفوّق».

المنطق هو ترف من النادر أن تتمتّع به الثورات، وفوقيّة الرجال ليست ادّعاء محضاً مهما كانت جوفاء. لم يكن لدى الثوّار نيّة لتصحيح وضع المرأة، ولا حتّى للاعتراف بمطالبها المستقلّة. «الآن، نحن نفتتح تاريخ الرجل»، صرّح الكونت دي ميرابو في بيانه الشهير عند انطلاق الاشتباكات، وهو ما أثبتته مجريات الأحداث فيما بعد. بعد أن أُثيرَت القضايا النسويّة، تمّ خنقها عمداً في مهدها بشكل ممنهج. من بوسعه أن يحزر ماذا كان سيحصل، لو نجت أيٌّ من أولئك النسويّات من المذبحة؟! انتماؤهنّ إلى الجنس الأنثويّ حرمهنّ من العضويّة التامّة في المجتمع، وطردهنّ منه بعنف: أوليمب دي غوج عجّلت بموتها، عندما احتجّت بشجاعة على إعدام الملك لويس السادس عشر بالمقصلة في كانون الثاني عام 1793. ماريون رولاند كانت ضحيّة محاكمة صوريّة لم يُسمَح لها خلالها بالدفاع عن نفسها، لكنّها واجهت موتها بكرامة وشجاعة وبطولة. «أنتم تحكمون عليّ بأنّني جديرة بالمشاركة في مصير الرجال العظماء الذين اغتلتموهم» قالت للقضاة، «وأنا سأبذل جهدي كي أكون شجاعة مثلهم».

دي غوج أسّست «نادي الحائكات» Club des tricoteuses السيئ الصيت[12]، ورولاند كانت تلميذة ڤولتير وروسو، وعدوّة ماري أنطوانيت اللدود. رغم أنّهما كانتا كلتاهما ثائرتين شرستين، لكنّهما تحالفتا مع الجيرونديّين المعتدلين عندما فرّقت الخلافاتُ المستعصية التجمّعَ الثوريّ. بسخرية أقرب للنبوءة، كتبت دي غوج في «إعلان حقوق النساء» أنّ المرأة يجب أن تحظى بالحقّ للترشّح إلى البرلمان طالما أنّها «تملك الحقّ بالإعدام على المقصلة»، وكانت تلك هي المساواة الوحيدة على أرض الواقع، التي حظيت بها رائدات النسويّة الفرنسيّات خلال حيواتهنّ القصيرة. بسبب عدائهما لروبسبير -الشيطان العبقريّ الذي يقف خلف المتطرّفين اليعاقبة- انتهت كلٌّ من دي غوج ورولاند على المقصلة في الشهر ذاته، تشرين الثاني 1793. معظم ضحايا حقبة العنف التالية للثورة من النساء، لم يشاركن بأيّ نشاط ثوريّ على الإطلاق، وهي واقعة محزنة من وقائع التاريخ. حياة لوسيل ديسمولان الشابّة مثلاً انتهت لأنّها كانت زوجة جيرونديّ بارز، على الرغم من استرحام أمّها المحموم لروبسبير (وهو عرّاب ابن لوسيل). ماتت أعداد لا حصر لها من الضحايا الشابّات المجهولات، «عشرين فتاة شابّة من بواتو» جُلِبْن إلى باريس كي تُقطَع رؤوسهنّ معاً، بسبب جريمة ضاعت من أوراق التاريخ. إحداهنّ كانت تُرضِع طفلها وهي تصعد إلى منصّة المقصلة، في مشهد تكرّر كثيراً في تلك الأيّام التي لم تكترث بقدسيّة الحياة البشريّة، سواء كانت مَلَكيّة أم من عامّة الشعب، سواء كانت الضحيّة أنثى أو ذكراً، يافعة أو عجوزاً، كلّ الرؤوس تبادلت القبلات في السلّة على حدّ تعبير دانتون[13] في طرفته السوداء الأخيرة. على الأقلّ، ميّزت النساءُ السياسيّاتُ العدوَّ. معارضة دي غوج ورولاند الغريزيّة لروبسبير التي

12- نادي الحائكات: يستعمل المصطلح كإشارة تاريخيّة إلى النساء الباريسيّات اللواتي جلسن إلى جانب المقصلة أثناء الإعدامات العلنيّة، وهنّ يقمن بالحياكة ما بين إعدام وآخر. المترجمة

13- جورج جاك دانتون (1759-1794) كان قائداً بارزاً للثورة الفرنسيّة في بداياتها، لكنّه اعتُقِل في أواخر حقبة الرعب التالية على خلفيّة اتّهامه بالفساد والإثراء من الثورة والتعامل مع جهات خارجيّة، من ثمّ تمّ إعدامه بالمقصلة. المترجمة

قادتهما إلى حتفهما، كانت لها مبرّراتها. عندما مُنِح حقّ التصويت للرجال جميعهم في ذلك العام، تمّ استثناء النساء منه بشكل خاصّ. رفعت النساء الجمهوريّات –وهنّ أكثر العضوات نشاطاً في نوادي ميريكور السياسيّة– عريضة إلى المجلس الثوريّ للمطالبة بالحصول على حقّ التصويت، فاكتشفن أنّ نشاطهنّ قد حُظِر، بعد أن انطلق روبسبير واليعاقبة في مهمّة محدّدة تستهدف إبعاد المرأة عن السياسة وإعادتها إلى البيت. شهر تشرين الثاني المصيريّ ذاك الذي انتهت فيه حياة كلّ من دي غوج ورولاند، شهد أيضاً قمع كلّ نوادي النساء السياسيّة. ابتداء من تلك اللحظة، انتهت مشاركة النساء الفاعلة في الحياة السياسيّة الفرنسيّة، واخْتُزِلَ فجرُ حرّيّة المرأة الوجيز ذاك إلى ذكرى عابرة. «آه يا حرّيّة!» صرخت ماريون رولاند على المقصلة، «كم جريمة تُرتَكب باسمكِ!»... الناطقون بالإنجليزيّة لا يدركون السخرية الراقية التي يتضمّنها ذلك الابتهال إلى الحرّيّة. «Liberté» أو الحرّيّة التي خلّدها ديلاكروا بشخصيّة ماريان في لوحته، هي أنثى بالطبع، لكنّها بطريقة ما أو بأخرى خلال مسيرتها إلى المساواة Egalité خسرت أمام آمِر الثالوث الحقيقيّ، أي الرجل بـ «أخوّته» Fraternité التي لا تتبدّل ولا تموت.

حقبة «حكم الرعب» في فرنسا، كما الاضطرابات المسلّحة في الولايات الأمريكيّة المستقلّة الجديدة، دامت فترة زمنيّة محدّدة. أولئك الذين كُتِبَ عليهم أن يعيشوا في تلك الأوقات العصيبة، لربّما استندوا إلى الأمل بأن يتجاوزوا الأزمة، ويشهدوا عالَم الإصلاح والترميم. الثورة الصناعيّة كانت أشدّ وطأة، لأنّها جائحة رهيبة اكتسحت العالَم القديم دون إنذار، ومثّلت حرباً حقيقيّة بين العوالم، رغم أنّها لم تأخذ أسرى ولم تترك ناجين. بالنسبة إلى سكّان المجتمعات الريفيّة التي يحيا معظمها بسلام على حالها دون تغيير منذ زمن الرومان، الثورة الصناعيّة هي كارثة حقيقيّة، أثّرت عليهم تأثيراً مباشراً قاسياً ودائماً: «خلال النصف الأوّل من القرن الثامن عشر، كانت إنجلترا ما تزال على حالها أثناء العصور الوسطى. هادئة، بدائيّة، ولا يزعجها هدير التجارة. فجأة، وكأنّها عاصفة رعديّة في سماء صافية، هجمت ضغوط الثورة الصناعيّة».

مؤرّخو القرن العشرين، الذين يستفيدون من ميزة إضافيّة هي تحليل الأحداث من منظور راجع، جادلوا أنّ سلسلة القوى التي اتّحدتْ لإطلاق عصر الآلة لم تكن مفاجئة، بل تطوّرت تدريجيّاً خلال فترة زمنيّة سابقة، وكان من الممكن قراءة إشاراتها. رغم ذلك، لم يتلقَّ المشاركون الغافلون في تلك الثورة تحذيراتٍ مسبقة حول النزعات الاجتماعيّة والاقتصاديّة آنذاك، ولم يكن بمقدورهم أن يتّخذوا إجراءات احترازيّة. على عكس غيرها من الحروب، ضحايا الثورة الصناعيّة ليسوا الرجال الأقوياء فقط، بل النساء والأطفال أيضاً، ذلك الفائض البائس الذي وظّفته، ووصمة عارها التي لن تُمحَى.

اعتمدت مصادر الطاقة الجديدة التي تطوّرت في إنجلترا خلال القرن الثامن عشر على الحديد والفحم والبخار، وأطلقت ثورةً تجاوزت تكنولوجيا المصنع. خلال فترة زمنيّة لا تُذكَر، حطّمت تلك القوى البنيةَ التقليديّة لحياة النساء، من خلال تفكيك ما كان سابقاً وحدةً لا تنفصم: الرجل / المنزل / العائلة. عَمَلُ الزوجةِ في الحقبة ما قبل الصناعيّة، جمع تلك العناصر الثلاثة معاً بسهولة، ووضع المرأة في مركز القوّة داخل عالمها الخاصّ، وضمن النطاق الأعمّ كفرد ذي أهميّة: «بعملها كمزارعة، كانت المرأة مسؤولة عن إنتاج الجزء الأكبر من واردات البلاد الغذائيّة، كما قامت بكلّ العمل المطلوب في مزارع الألبان، بدءاً من حلب الأبقار وانتهاء بصناعة الزبدة والجبنة. إضافة إلى ذلك، كانت مسؤولة عن زراعة الكتّان والقنّب، وطحن الحبوب، والعناية بالدواجن والخنازير، وبالبساتين والحدائق».

مع الانتقال من الاقتصاد الزراعيّ إلى الصناعيّ، من الريف إلى التمدّن، من المنزل إلى المصنع، خسرت المرأة مرونة حياتها السابقة، ومكانتها، وتحكّمها بعملها. عوضاً عن ذلك، مُنِحت «امتياز» المكانة الأدنى، والمهن التي تستغل جهدَها، والعبء المزدوج المتمثّل بالعمل المنزليّ والعمل المأجور، كما أُلقيتْ على عاتقها مسؤوليّة تربية الأطفال بمفردها منذ ذلك الحين. كلّ تغيّر من التغيّرات التي حملتها الثورة الصناعيّة، أثّر بحدّ ذاته تأثيراً سلبيّاً على حياة النساء، وباجتماع كلّ تلك العوامل معاً،

كانت النتيجة دماراً لم يتوقّعه أحد. على المستوى الأبسط، الانتقال من اقتصاد المنزل إلى اقتصاد المصنع دمّر المرأة العاملة، التي خسرت أوّلاً مرتبة «الشريكة»، بعد أن حُرِمتْ كزوجة من الفرصة بمشاركة زوجها في الإنتاج. قبل الثورة الصناعيّة، عملت المرأة جنباً إلى جنب الرجل في تناغم حميم: تحصد، تدرس الحبوب، تجمع بقايا المحصول، تحفر... إلخ. إحدى الصور المحوريّة في العصور الوسطى، التي تحوّلت إلى مجاز عن اعتماد الزوجين المتبادل أحدهما على الآخر في حياة متوازنة، كانت صورة الزوج الذي يسير خلف المحراث، وخلفه زوجته التي تبذر الحبوب. هذه الحياة الريفيّة البدائيّة التي دامت آلاف السنين، كانت بين أوائل ضحايا الثورة الصناعيّة.

الضحيّة التالية هي السُلطة التي تمتّعت بها المرأة سابقاً، بوصفها المسؤولة عن وحدة الإنتاج المنزليّ، وكذلك ما درّته عليها من مال. في الحقبة ما قبل الصناعيّة، لم تفرّق ربّة المنزل بين النشاطات المنزليّة وتلك التجاريّة، بل كانت تخمّر البيرة، تخبز، تحوك، تجمع البيض، تربّي الخنازير... إلخ، وتبيع كلّ ما يفيض عن حاجة منزلها. كلّما عملت بنشاط أكثر، وكلّما ازدهرت أعمالها الجانبيّة أكثر، جنت مزيداً من المال. كلٌّ من العمل خارج المنزل الذي تفرضه الزراعة، والعمل داخل المنزل، كان تشاركيّاً، ولا وجود لمفهوم الذكر المسؤول وحده عن إعالة زوجته وأطفاله. جميع أفراد العائلة ينتجون، فضلاً عن أنّ الزوجة تعمل الضعف وتنتج الضعف. على النقيض من ذلك، عندما تحوّلت الزوجة إلى يد عاملة مأجورة في المصنع، صارت تكسب أجراً أسبوعيّاً محدّداً أقلّ حتّى من أجور الأطفال، أي أنّه أقلّ بكثير من أجر الرجل، وذلك لأسباب بديهيّة من وجهة نظر ربّ العمل: أجور اليد العاملة النسائيّة المتدنيّة، تجعل وظيفة ربّة المنزل مربحة وجذّابة أكثر بالنسبة للمرأة، التي لن تغريها أجور المصنع الزهيدة بنبذ العناية بأطفالها (أي لن يغريها ما لا تستطيع دفع ثمنه: مربيّة لأطفالها، أو من يقوم مقامها). على النقيض من ذلك، قد يوظّف صاحب المصنع النساء حصراً، خاصّة المتزوّجاتِ المسؤولات عن إعالة عائلاتهنّ، لأنّهن برأيه

يقظات وهادئات أكثر من العازبات، ومُجبَرات على بذل أقصى جهودهنّ بغية تأمين ضروريّات الحياة.

نظام المصنع اختزل اليد العاملة وألغى إنسانيّتها، واعتبر العامل / العاملة مجرّد أداة يوظّفها لا أكثر، كما أنّه خلق منذ البداية تراتبيّة هرميّة بين من يستغلّهم، فالمرأة في كلّ مكان عملت أكثر من نظيرها الذكر، وعانت أكثر، وكسبت أجراً أقلّ. وجهة النظر السائدة بين أرباب العمل جميعهم آنذاك، هي أنّ المرأة «مستعدّة أكثر من الرجل لتحمّل العمل الجسديّ الشاقّ»، وتُعَدّ بالتالي استثماراً أفضل، لأنّها «خادمة مطيعة، وعبدة كفوءة لآلاتهم». «وحشيّة! قسوة!» كتب أحد المصلحين بانفعال ذات مرّة، «ربّما يعملن طوعاً، لكن فليساعدهنّ الربّ! أولئك النساء لا يتجرّأن على الرفض».

وهكذا، المرأة التي كانت سابقاً شبه مستقلّة من الناحية الماديّة، أصبحت الآن مشلولة اقتصاديّاً ومضطرّة للاعتماد على الرجل، ممّا أعاد إلى الواجهة مفهومَ دونيّة المرأة كصفة طبيعيّة في العالَم الحديث وعزّزه، فضلاً عن أنّ خضوع المرأة للرجل اتّخذ أبعاداً جديدة مع انتقالها للعمل في المصانع. الخضوع لسلطة الزوج أو الأب، هو أمر مختلف جذريّاً عن الخضوع للذكر في العالم الصناعيّ، حيث تؤول سلطة مالك المصنع الغائب إلى مراقب العمّال الوحشيّ العنيف، وتُمارَس من خلال استبداده يوميّاً. التقرير التالي حول المصانع الأولى في أمريكا، يكشف عن استعمال «السوط والضرب المبرّح» فيها:

«لقد اكتشفنا الكثير من الإناث اللواتي تعرّضن للعقاب الجسديّ. إحدى الفتيات، وهي في الحادية عشرة من عمرها، ضُرِبَت بهراوة خشبيّة إلى أن كُسِرَت ساقها. فتاة أخرى في مصنع للقطن، حطّم وحشٌ عديم الرأفة هو مراقب العمّال لوحاً خشبيّاً على رأسها... أصحاب المصانع يوظّفون غالباً مراقبين أجانب للإشراف على النساء والأطفال الأمريكيّين، ونأسف لأنّنا مضطرّون للقول إنّ الأجانب في هذا البلد، يوظّفون أحياناً مراقبين أمريكيّين كي يشرفوا على العمّال، ويطبّقوا قواعد المالكين الديكتاتوريّة في تلك المصانع».

بالنسبة إلى المرأة التي أُجْبِرَت على هجر العمل المتمركز في منزلها، كي

تنضمّ إلى روتين المصنع، كان النظام القاسي واحداً من صدمات عديدة: أوّلاً، ساعات العمل الذي لا يتوقّف، إذ يبدأ يوم المصنع النموذجيّ في الخامسة صباحاً وينتهي في الثامنة مساءً، وقد يبدأ في أوقات الذروة من الثالثة صباحاً ويستمرّ إلى العاشرة ليلاً دون أيّ أجر إضافيّ. عدد الساعات هذا لا يختلف كثيراً عنه في يوم ربّة المنزل، لكنّ الإيقاع القسريّ الرتيب للمصنع، وعدم وجود استراحات، جعلا من العمل فيه عذاباً عقليّاً وجسديّاً في آن واحد.

ثانياً، يُعَدّ أفقر بيت جنّة بالمقارنة مع المصنع، الذي تتراوح درجة الحرارة فيه ما بين 80-84 درجة مئويّة بشكل دائم بسبب الحرارة المنبعثة من الآلات، ولم يكن مسموحاً للعمّال أخذ استراحة كي يشربوا -حتّى جمعُ ماءِ المطر كان ممنوعاً- فضلاً عن إغلاق جميع النوافذ والأبواب، تحت طائلة غرامة تعادل شلناً واحداً تُفرَض على من يغامر بفتحها. من المثير للفضول أنّ الغرامة ذاتها، كانت مفروضة على أيّ نشاط جنسيّ مثليّ يُفتَضَح في مراحيض المصنع: «إن تمّ القبض على اثنين من عمّال الغزل معاً في دورة المياه، يُغرَّم كلٌّ منهما بشلن واحد».

قدّم شاهد عيان تقريراً عن تأثير ظروف العمل تلك على ضحاياها: «لا توجد ولو نسمة من الهواء النقيّ، ورائحة الغاز القذرة الخبيثة المقيتة، تتضافر مع تأثير الحرارة القاتل. تلك الكائنات التعيسة تستنشق الروائح السامّة، المختلطة مع البخار والغبار وزغب القطن المتطاير». عانى عمّال المصانع من الأمراض الرئويّة التي صُنِّفَتْ كلّها معاً تحت مسمَّى السلّ، رغم أنّ طبيعتها والأذيّات الناجمة عنها هي خاصّة بالمهنة. العاملون في المطاحن وصناعة السكّاكين مثلاً عانوا من ضيق التنفّس والسعال، والقشع المؤلّف من مخاط ممتزج بالغبار، ومن «التعرّق الليليّ، الإسهال، الدَنَف الشديد، إضافة إلى كلّ أعراض السلّ الرئويّ». السلّ الرئويّ هو مرض انتهازيّ يترصّد الأجساد الضعيفة، وكان عدوّاً لدوداً للعاملات في حياكة الدانتيل، المعتادات منذ الطفولة على ارتداء مشدّات خشبيّة قاسية تدعم الظهر، خلال عملهنّ الذي يتطلّب الانحناء المتواصل لساعات، رغم أنّها

تشوّه عظم القصّ والقفص الصدريّ، ممّا يجعل النساء اليافعات خصوصاً عرضة لأمراض الجهاز التنفسيّ.

العقابيل الصحيّة التي تحدث على المدى البعيد، والتي تعجّل بتحويل النساء الشابّات إلى «عجائز معاقاتٍ مشوَّهات، مُجبَرات على التقاعد في الأربعين من عمرهنّ» هي مجرّد جزء يسير من الأخطار التي واجهتها المرأة في المصنع. الأذيّات الناجمة عن العمل كانت شائعة في بدايات الثورة الصناعيّة، تتعرّض لها النساء أكثر من الرجال بسبب أزياء تلك الحقبة: أثواب فضفاضة، تنانير طويلة، معاطف قصيرة، مرايل... إلخ، فضلاً عن الشَعر الطويل. سجلّات المصانع حافلة بحالات كـ «ماري ريتشاردز، التي أصيبتْ بالشلل بعد أن عِلِقتْ تحت حزام آلة الغزل الميكانيكيّة».

على الرغم من كلّ ما سبق، العمل في المصنع قدّم خياراً أفضل بكثير من مهنة أخرى أشدّ خطورة وانحطاطاً فُرِضَتْ على النساء آنذاك، وهي العمل في مناجم الفحم. بالنسبة إلى شهود العيان الذين لا يملكون فكرة مسبقة عمّا سيرونه، لا بدّ أنّ منظر النساء الخارجات من فوهة المنجم بدا مشهداً من الجحيم: «مقيّدات بالسلاسل، يُجلَدن بالسوط، مربوطات بلجام كأنّهنّ كلاب تجرّ عربة، سوداوات، مبلّلات، شبه عاريات، يزحفن على أيديهنّ وأرجلهنّ، ويسحبن حمولات هائلة خلفهنّ. منظرهنّ مقرف، وغير طبيعيّ على الإطلاق!»، كما كتب «جنتلمان» روّعه ما رآه. لم يكن لدى عاملات المناجم لا الوقت، ولا الموارد، للقلق حول مظهرهن! عملهنّ شاقّ للغاية، وكثيراً ما أغمي على الفتيات الصغيرات من شدّة الإعياء، ما إن يتسلّقن إلى السلّة التي ترفعهنّ من قاع المنجم إلى سطح الأرض في نهاية مناوبة عملهنّ. إن حدث ذلك، ستُرفَع الفتاة ببساطة من السلّة، وتُرمى إلى قاع المنجم كي تلاقي حتفها! الأذيّات القاتلة الأخرى نجمت عن وزن عربات الحمولة التي اضطرّت النساء لجرّها، فالعربة التي تزن أكثر من ستمئة كيلو غرام ستسحق من تجرّها إن خرجت عن نطاق السيطرة. بيئة العمل اليوميّة بحدّ ذاتها كانت مرعبة، إذ توجّب على الفتيات الصغيرات أن يزحفن في أنفاق لا يتجاوز قطرها 16-18 إنشاً، بينما تزحف النساء البالغات في أنفاق

أكبر قليلاً يصل قطرها إلى ثلاثين إنشاً. خلال يوم العمل الذي يعادل أربع عشرة ساعة، تزحف النساء بالمجمل ما بين عشرة إلى عشرين ميلاً، دون أن تتاح لهنّ فرصة التوقّف أو مدّ أطرافهنّ ولو للحظة واحدة. في الشتاء، تروي فاني درايك العاملة في مناجم يوركشاير، اضطرّت للعمل ستّة أشهر والماء يغمرها إلى ربلتي ساقيها، ممّا سبّب تقرّحات في جلد قدميها وكأنّهما محروقتان. بِتي هاريس ذات السابعة والثلاثين عاماً من ليتل بولتون في مقاطعة لانكشاير المجاورة، قالت إنّ معاناتها تتلخّص بجرّ الحمولة بوساطة سلسلة وحزام يمزّقان لحم خاصرتيها، ويسبّبان ظهور الفقاعات المتقرّحة، وهو ما أزعجها فقط عندما كانت حبلى.

عمل المرأة في المناجم يزداد صعوبة مع تقدّمها في السنّ، خاصّة عند تكرار الحمل. «مع العمل الشاقّ» كما تقول عاملة المناجم الإسكتلنديّة إيزابيل هوغ، «تصبح الإجهاضات شائعة وشديدة الخطورة». إيزابيل ديلسون العاملة في مناجم الفحم في مقاطعة إيست لوثيان في إسكتلندا، أجهضت خمس مرّات، وأنجبت ابنها الأخير صباحَ يوم السبت، بعد أن انتهت للتوّ من مناوبة ليلة الجمعة. بيتي واردل، وهي عاملة مناجم أخرى، لم يحالفها الحظّ كديلسون، إذ وُلِد طفلها داخل المنجم، وكان عليها حمله ملفوفاً بتنوّرتها إلى سطح الأرض. «الحزام والسلسة، هما ما حرّض المخاض»، كما قالت.

ومع ذلك، استمرّت النساء بالكدح! نظراً لعدم وجود روافع في المناجم، توجّب على العاملات أن يحملن الفحم على ظهورهنّ لنقله إلى السطح. «أنا أقوم بأربعين إلى خمسين رحلة يوميّاً إلى سطح الأرض» قالت ماري دانكان الإسكتلنديّة، «ويمكنني أن أحمل ما يقارب مئة كيلو غرام في كلّ منها. بعض النساء قادرات على حمل ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذا الرقم، لكنّه أمرٌ مرهق للغاية». هذا يعني أنّ كلّ امرأة كانت تنقل حوالي 1.5–2 طن من الفحم يوميّاً، بأجر لا يتعدّى ثمانية بنسات. لا عجب أنّ المهندس المدنيّ الإسكتلنديّ روبرت بالد، كتب عن النساء اللواتي يخرجن من المنجم «وهنّ يبكين بكاء مرّاً» بسبب صعوبة العمل، وعن إحدى العاملات المتزوّجات «التي تنتحب تحت وطأة حمولتها الزائدة

متعثّرة في كلّ خطوة، وركبتاها تكادان تنقصفان تحتها»، والتي تكلّمت باسم العاملات جميعهنّ حين قالت له بصوت ظلّ يرنّ في أذنيه: «آه يا سيّدي، إنّها مهنة شاقّة للغاية! أتمنّى لو أنّ أوّل عاملة كسرت ظهرها، ولم تدخل أيّ امرأة بعدها منجماً للفحم».

مارغريت، دوقة نيوكاسل، شنّت في القرن السابع عشر هجوماً عنيفاً يهدف إلى تحقيق المزيد من الاحترام لحياة العمالة الأنثويّة في المناجم: «تعيش النساء كالخفافيش أو كالبوم، ويعملن كالوحوش، ثمّ يمتن كالديدان»، كما كتبت. إضافة إلى الكدح الشاقّ، والآمال المُجهَضة، والحياة المهدورة، عانت النساء المزيد والمزيد من العذاب. العديد منهنّ كنّ طفلات – عبدات يبدأن العمل في المناجم منذ سنّ الخامسة، كي يفتحن الأبواب من أجل مرور العربات المحمّلة بالفحم، «يرسلهنّ الأهل للعمل في سنّ أبكر من الصِبية... نظراً للقناعة الراسخة بأنّ الفتيات أكثر دقّة، وأكثر قدرة على أداء أعمال متنوّعة، على العكس من الذكور». لا خيار أمام المرأة إلّا تدمير حياة أطفالها من بعدها، وما يعنيه هذا لكلّ من الأمّ وطفلها يتوضّح من المقابلة التالية مع عاملة عمرها سبعة عشر عاماً، تعمل في مصانع الغزل والنسيج في شمالي إنجلترا منذ أن كانت في السابعة:

– بعد أن عملتُ ستّة أشهر تقريباً، تسلّل الضعف إلى ركبتيّ وكاحليّ، وأصبح أسوأ فأسوأ. بالكاد كنتُ قادرة على الوقوف صباحاً، يسندني أخي وأختي من تحت إبطيّ بدافع من طيبة القلب، ويركضان بي ميلاً كاملاً إلى المصنع، بينما أجرجر أنا قدميّ على الأرض من شدّة الألم. لم أكن قادرة على المشي، ولو تأخّرنا خمس دقائق فقط، سيمسك مراقب العمّال سوطه ويجلدنا إلى أن تغطّينا الكدمات الزرقاء والسوداء... تعافيتُ عندما أصبح عمري سبع سنوات وثلاثة أشهر.

– ألم يكن بمقدور والدتك الأرملة عدمُ إرسالكِ إلى المصنع؟

– كلّا.

– هل كانت حزينة لرؤيتك مريضة مشوّهة؟

- رأيتُها تبكي عدّة مرّات، وعندما سألتُها «لماذا تبكين؟» لم تجبني آنذاك، بل قالت لي فيما بعد إنّها كانت حزينة لأجلي.

حُكِم على الأطفال بساعات تعادل ما يعمله أهلهم، وبالمقدار ذاته من العمل أيضاً. العديد من التقارير تحدّثت عن عامل منجم الفحم الذي يُكسَر ظهره، بعد أن يرفع حمولة طفله فوق حمولته الخاصّة. «ذريّة العمّال الفقراء» تلك لم تعرف من الطفولة إلّا اسمها، وإذا فشل الأطفال بالإيفاء بمتطلّبات العمل غير المنطقيّة، تعرضوا إلى عقاب قد يكون وحشيّاً وساديّاً: الصبيّ «السيّئ» الذي يعمل في صناعة المسامير، يُعاقَب بدقّ مسمار في أذنه وتثبيتها إلى طاولة عمله، والطفلة «العاصية» تخاطر بأن تُجَرّ من شعرها طيلة الطريق إلى المصنع. ما بين الخوف من تكرار العقاب، والخوف من خسارة وظيفة الطفل وما تدرّه من دخل، كانت معظم العائلات عاجزة أمام من يستغلّون أبناءها. ذات مرّة، ضُرِب صبيّ صغير بهراوة خشبيّة طولها ثلاث ياردات تقريباً، وثخانتها خمسة إنشات، إلى أن تقيّأ دماً. فاق هذا احتمال أمّه، وروى الطفل ما حدث بعد ذلك: «توسّلتُ إلى أمّي ألّا تتقدّم بشكوى، وإلّا تعرّضتُ للضرب مرّة أخرى. في الصباح التالي، تسلّلتْ خلفي عندما ذهبتُ إلى العمل، وتوجّهتْ إلى مراقب العمّال الذي ضربني، ووبختْه بشدّة... ما إن غادرتْ حتّى ضربني مجدّداً لأنّني أخبرتُها، فذهب أحد العمّال الشباب باحثاً عنها، وروى لها ما حصل، فعادت إليّ. سألتني عن العصا التي ضربني بها المراقب، لكنّني لم أجرؤ على إخبارها. دلّها بعض الواقفين على الهراوة، فاختطفتها على الفور، وانهالت بها على رأس مراقب العمّال، وسبّبت له كدمة أو اثنتين».

قصّة كهذه، هي برهان على أنّ تجربة المرأة خلال الثورة الصناعيّة لم تكن استسلاماً محضاً مستمرّاً لأشكال العذاب والحرمان، كما أنّ الحياة ما قبل الصناعيّة لم تكن حياة ريفيّة ورديّة كما نظنّ. لم يحدث انتقال مفاجئ من اليوتوبيا الزراعيّة إلى المصانع الشيطانيّة السوداء، والنساء الريفيّات اللواتي وصفهنّ لا برويير بأنّهنّ «أشبه بالحيوانات المتوحّشة» يعشن ويعملن ويمتن في حفرة بالأرض، كنّ سيتفاجأن لو عرفن أنّ حياتهنّ تلك ستصبح فردوساً مفقوداً. بالمثل، لا يمكن إلقاء اللوم على نظام المصنع في كلّ ما جاء به

القرن من شرور. الانفجار السكّانيّ على سبيل المثال، نجم عن زيادة أعداد المواليد الذين يبقون على قيد الحياة ويتجاوزون مرحلة الطفولة بسلام، إضافة إلى انخفاض معدّل وفيّات النساء بعد الولادة، وبالتالي زيادة فترة الخصوبة النسبيّة. كلّ تلك العوامل أسهمت بالشرور المعاصرة آنذاك، سواء الاكتظاظ السكّاني في المدن أو الفقر المدقع، لكنّها كانت أيضاً عوامل من قوى الطبيعة القديمة بحدّ ذاتها، وليست اختراعاً جديداً.

جادل المؤرّخون كذلك أنّ الثورة الصناعيّة، رغم كلّ تلك المعاناة التي رزح تحتها أولئك الذين هزمتهم الآلةُ، كانت ثورة ضروريّة حتميّة من أجل بقاء المجتمع. «ذاك الذي لا يطبّق علاجاً جديداً، عليه أن يتوقّع شروراً جديدة»، كما حذّر فرانسيس بيكون، أحد أوائل فلاسفة علم الاجتماع في العصر الحديث. السيناريو البديل عن الكارثة التي تُجهَض، عوضاً عن سلسلة الأحداث المتلاحقة تلك، يؤطّره المؤرّخ تي. إس. آشتون بحزم:

«المشكلة الأساسيّة آنذاك كانت توفير الغذاء والكساء والعمل لأجيال من الأطفال، أكثر بكثير من السابق. إيرلندا واجهت المشكلة ذاتها، وفشلت بإيجاد حلٍّ لها، فخسرت حوالي خُمسَ تعدادها السكّانيّ في الأربعينيّات، بسبب الهجرة والمجاعات والأمراض. لو بقيت إنجلترا أمّة من الفلّاحين والحرفيّين، لواجهت المصير ذاته. حالياً، هناك في سهوب الصين والهند رجال ونساء ابتلاهم الجوع، يعيشون ظاهريّاً حياة أفضل بقليل من حياة القطعان التي تعمل معهم نهاراً، وتنام في مساكنهم ليلاً. تلك المعايير الآسيويّة، وتلك الحياة المرعبة غير المُمَكْنَنة، هي مصير أولئك الذين تتزايد أعدادهم دون المرور بثورة صناعيّة».

الجدل السابق يمدح الأحداث التاريخيّة التي حصلت، بهدف تحقيق نوع من التوازن مع النسخة المرعبة منها. من النادر أن يرحّب بمسيرة التطوّر أولئك الذين تسحقهم، المرأة التي أُجبِرَت على العمل خلف آلة ظهرت إلى الوجود بسبب ابتكارات الرجل التي لا يمكن الوقوف بوجهها، أصبحت محكومة بخدمة آلهة القوّة الجديدة لقاء أجر زهيد. بالتالي، الاختراعات هنا في هذه الحالة هي «أمُّ» الحاجة! مع هذا العمل، وبذلك الأجر، لا يمكن

للمرأة أن تبقى على قيد الحياة. المتزوّجات، وأولئك اللواتي في سنّ الزواج، أصبحن مقيّدات إلى سرير الزوجيّة بأصفادِ الدافع إلى البقاء الفولاذيّة، أمّا العازبات فدفعن لقاء وضعهنّ الشاذّ كلّ ما يملكنه، أو على الأصحّ، كلّ ما لا يملكنه: اجتاحت المتشرّدات الشوارعَ بأعداد غير مسبوقة، ففي شهر حزيران 1817 أنقذت أبرشيّة رغبي في ميدلاندس، إنجلترا، ثماني عشرةَ متشرّدة، منهنّ امرأة كانت تضاجع ثمانية ذكور في آنٍ واحد، أمّا سُلطات لندن فقد وثّقتْ تزايد معدّلات انتحار الإناث. اضطجعت الأخريات ببساطة، وانتظرن الموت! أحد الراغبين بشراء منزل قرب كنيسة القدّيس بولس، انتابه الفزع عندما اكتشف وجود جثث لثلاث نساء مُدنفات بشدّة داخل المنزل، إضافة إلى امرأتين وفتاة في السادسة عشرة على شفير الموت جوعاً متمدّدات داخل العليّة. لقد أُجبِرَت المرأة على الاعتماد على الرجل كثمن لبقائها على قيد الحياة، بينما بسط هو سيطرته على الطبيعة وعلى الآلة، في نموذج واسع متداخل من الهيمنة التي كان لا بدّ من تفكيكها لاحقاً.

كلّ ثورة هي ثورة فكريّة بالضرورة، لكنّ الابتكار لا يكافئ الإصلاح. ثورات القرن الثامن عشر، التي يختلف بعضها عن بعض اختلافاً جذريّاً في عدد من التفاصيل، تشترك كلّها بحقيقة بسيطة: كلٌّ منها كانت ثورة لفئة محدّدة لا لكلّ الناس جميعهم، كما أنّها أطاحت ببعض الأفكار فقط لا غير. من بين المفاهيم التي نجَت، كانت تلك الراسخة التي تنادي بتفوّق الرجال الطبيعيّ على النساء. عندما انتقل الرجالُ مع موجة التوسّع الكبرى كمخترعين وكبناةٍ للإمبراطوريّات، باحثين عن مجالات جديدة في البلدان الأجنبيّة، سافرت تلك الفكرة المسمومة معهم كأنّها وباء الطاعون. لم يفحصها ولم يوقفها أحد، وكانت أوّل ما تعهّد الرجل الأبيض بنشره في آفاقه الجديدة.



عصا الامبراطوريّة

– من يرى ڤيرجينيا / بالتأكيد سيجد / أرضاً للرجال.

• مايكل درايتون، «نشيد إلى رحلات ڤيرجينيا»، 1605

– لذلك ينبغي أن تذهب النساء مع الرجال إلى المستعمرات، كي تدوم المزارع أجيالاً، ولا تبقى خالية للأبد منهنّ.

• فرانسيس بيكون مخاطباً المجلس الملكيّ الإنجليزيّ حول مستعمرة ڤيرجينيا، 1609.

– «لا، لا، أرجوكم لا! يا إلهي! ليس المزيد من أولئك العاهرات الملعونات!»

• النقيب كلارك من الفيلق الأوّل، عندما رست سفينة تنقل المُدانات في ميناء سيدني، حزيران عام 1790.

– النساء هنّ نساء في كلّ مكان من العالَم، مهما كان لون بشرتهنّ.

• رايدر هاغارد، «مناجم الملك سليمان»، 1886

اغتصبتِ الثورة الصناعيّة الطبيعةَ، أمّا التوسّع الإمبرياليّ الذي حرّض نموّها وفتح لها أسواقاً جديدة، فقد اغتصب العالم كلّه. ما بين 1796–1818م، احتلّت بريطانيا كلّاً من سيلان، جنوب إفريقيا، الهند، بورما، وآسام،

ومع نشوب حرب الأفيون عام 1842، ضمّت الإمبراطوريّة البريطانيّة إليها هونغ كونغ، البنجاب، كشمير، أفغانستان، وسنغافورة.

الإمبراطوريّات ليست ثيمة بريطانيّة بحتة، الهولنديّون والفرنسيّون والإسبان والبرتغاليّون اندفعوا بدورهم إلى قضم العالم كأنّهم لاعبو كرة قدم، أمّا التوسّع الأمريكيّ غرباً فقد حاكى الثيمة الإمبرياليّة للآباء المؤسّسين، وأنشأ إمبراطوريّة داخليّة بين شواطئ القارّة، أعظم من بقيّة الإمبراطوريّات حول الكوكب.

مجموع تلك الأحداث صاغ شكلَ العالم الحديث، لكنّ صورة الذكر الإمبرياليّ العظيم، الذي يذرع رمل الزمن والمسدّس في يده، هي صورة ما تزال حيّة إلى يومنا هذا على الأصعدة كلّها، بدءاً من نظام الفصل العنصريّ في جنوب إفريقيا، إلى جنون التسلّح في أمريكا.

التاريخ الرسميّ، الأغاني، القصص، الميثولوجيا، والذاكرة، كلّها صوّرت الإمبراطوريّةَ على أنّها إنجاز بطوليٌّ من إنجازات الذكر. منذ أن اقتحم الإسكندر الأكبر آخر حدود العالَم المعروفة آنذاك، وبكى لعدم وجود المزيد ممّا يحتلّه، غُيِّبَتِ النساءُ عن حوليّات التاريخ. من بين أولئك الذين أبحروا في رحلة مايفلور Mayflower[1] التاريخيّة عام 1620، خُلِّدت أسماء الآباء الحجّاج في نقش على لوحة حجريّة في ميناء بلايماوث، دون أن يرد ذكر لأيّ من ثماني عشرة امرأة أبحرن معهم.

عندما توسّعت حدود الإمبراطوريّة أكثر فأكثر، على يد مغامرين شرسين كشخصيّات رديارد كيبلنغ، تفوح منهم رائحة «التبغ والدم»، لخّص الأدب الخياليّ الكلاسيكيّ وقوف الرجل ضدّ الصعاب، في تبجّح بطل ملحمة «مناجم الملك سليمان» التي كتبها رايدر هاغارد: «أنا واثق من عدم وجود امرأة واحدة في القصّة كلّها».

1- سفينة إنجليزيّة نقلت مجموعة من العائلات البيوريتانيّة، يُعرَف أفرادها اليوم بـ«الحجّاج» إلى العالَم الجديد عام 1620، ورست بعد رحلة دامت عشرة أسابيع في ماساشوستس. يحتفل الأمريكيّون سنويّاً في «عيد الشكر»، بذكرى وصولهم. المترجمة

أسماء الأماكن، بدءاً من بورت إليزابيث إلى ماريلاند، تشي بتأثير أنثويّ مؤكّد. كانت النساء حاضرات دوماً، ولعبن دوراً استعماريّاً بدءاً منذ زمن الإغريق، وهو دور أساسيّ لا غنى عنه من أجل ديمومة الإمبراطوريّة كما يصرّ فرانسيس بيكون. أوّل طفل إمبرياليّ وُلِدَ في مستعمرات أمريكا الشماليّة، كان أنثى حملت اسماً يليق بها: فيرجينيا دير Virginia Dare، أبصرت الحياة في جزيرة روانوك، في عيد صعود العذراء عام 1587. بالمثل، أوّل طفل أبيض يولَد في أستراليا كان أنثى اسمها ريبيكا سمول، أبصرت النور بعد فترة وجيزة من وصول الحملة الأولى عام 1788. رغم أنّها ابنة «إحدى العاهرات الملعونات»، اللواتي أثرن امتعاض النقيب رالف كلارك، لكنّ ريبيكا عاشت وكبرت وتزوّجت أحد المبشّرين، وأنجبت للبلد الجديد أربعة عشر أستراليّاً صغيراً.

المرأة حاضرة دائماً في تاريخ الإمبراطوريّات، لأنّ الرجل ببساطة عاجز عن تدبير أموره من دونها. من المستحيل نظريّاً قيام مستعمرة دائمة مستقرّة في أيّ مكان من العالم، دون وجود عاملات إناث. أوّل حاكم لمستعمرة كايب، وهو الكولونيل الهولنديّ ڤان ريبك، صُعِقَ عندما اكتشف عدم قدرة رجاله على العناية بالقطعان، أو صناعة الزبدة والجبنة، أو القيام بأيّ شيء بأنفسهم. لذلك، توجّبت إغاثته بـ «شحنة فوريّة من يتيمات روتردام وأمستردام»، لسدّ العجز. بتأثير من آراء فرانسيس بيكون، تداركت إنجلترا المشكلة منذ البداية، فقامت «شركة لندن» -المسؤولة عن تأسيس مستعمرة جيمس تاون في ڤيرجينيا- بإرسال «نساء شابّات صالحات للزواج» بشكل منتظم إلى العالم الجديد، كي «يُزْرَعن» هناك جنباً إلى جنب الرجال، مشترطة توافر صفات محدّدة فيهنّ: «عازبات، جميلات، متعلّمات، حصلن على توصية بإرسالهنّ إلى المستعمرة نظراً لأخلاقهنّ الحميدة». لا الجمال، ولا التعليم، ولا حسن التربية، أنقذ أولئك النساء من معاملتهنّ كبضاعة! بمجرّد وصولهنّ إلى ڤيرجينيا، تمّ بيع كلّ فتاة منهنّ لقاء مئة وعشرين باونداً من أفضل أنواع التبغ -أي ما يعادل خمسمئة دولار آنذاك- فأصبحن بالتالي مُلكاً للمستوطنين الذين اتّخذوهنّ زوجات، أو خادمات مدى الحياة.

لم تمتلك غيرهنّ من الفتيات حقّ تقرير مصيرهنّ، إذ تمّ جمع الفقيرات واليتيمات من شوارع لندن، وإرسالهنّ بحماس مشين للعمل تحت إمرة أسياد غرباء، في بلد بالكاد سمعن عنه. ستموت خمس من كلّ ستّ أسيرات قبل أن تصل السفينة إلى وجهتها، أمّا الناجيات فسرعان ما يسقطن ضحايا للبعوض والملاريا وحمّى المستنقعات في مستعمرة جيمس تاون ذات الموقع السيّئ، التي يموت فيها أعتى الرجال كالذباب بسبب الزحار المدمّي، أو الإعياء الحراريّ، أو الملاريا، أو التضوّر جوعاً في البرد القارس.

كلّما كانت ظروف البلد الجديد أقسى، تطلّب إشباع المجاعة للإناث جرائم أفظع. تمّ ترحيل النساء المُدانات إلى المستعمَرات الأستراليّة، حتّى أولئك اللواتي ارتكبن جرائم أسخف بكثير من تلك التي يُنفى الذكور بموجبها، إذ لا يتمّ ترحيل الرجل إلى أستراليا إلّا إن ارتكب جريمةً عقوبتها الإعدام، أو سلسلةً من الجرائم الوحشيّة المتكرّرة. كانت المجرمات الإناث آنذاك -كما هو الحال اليوم- قلّة، لا تزيد نسبتهنّ عن واحدة بين كلّ عشرة مُدانين. بالتالي، القضاة الإنجليز المهووسون بتنفيذ ما يمليه عليهم الواجب الإمبرياليّ لزيادة عدد النساء في المستعمرات، قاموا بترحيل المدانات جميعهنّ، حتّى من ارتكبت أبسط الجنح. الخادمة التي تستعير قفّازي سيّدتها، أو مشبك تزيين الشعر مثلاً، وجدت نفسها منفية بين المجرمين العتاة، كالنشّالين والقتلة وسارقي الجثث.

التخطيط لبرامج استقدام النساء «الفاضلات» إلى المستعمرات، أسهل بكثير من تنفيذه على أرض الواقع، كما أنّ الظروف كانت مواتية لاستغلاله. أحد موظّفي «شركة لندن»، انتحل صفة مبعوث شخصيّ للملك، لاصطحاب بنات الضبّاط من أجل «خدمة جلالته بإنجاب الأطفال في ڤيرجينيا»، بعد أن قفز «سعر» المرأة هناك خلال عامين فقط، من مئة وعشرين إلى مئة وخمسين باونداً من التبغ. تاجر آخر من تجّار اللحم البشريّ، وهو آر. إف. بْريد الذي يليق به اسمه، استجرّ من الحكومة البريطانيّة مبلغ مئة وخمسين جنيهاً للرأس، كي «يشحن ستّ عشرة أنثى محترمة تحت عمر الثالثة والعشرين» إلى هوبارت. المؤسّسات الخيريّة، وبتوصية من لجنة الهجرة اللندنيّة،

انتقت «الحالات التي تستحقّ مساعدة لنقلها»، وأرسلت الفتياتِ بالسفن تحت رعاية المقاول جون مارشال. عند الوصول إلى الوجهة المنشودة، تبيّن أنّ الشحنة التي طال انتظارها هي أبعد ما تكون عن معايير «الحالات المؤهَّلة»، فقد ضمّت بين صفوفها «عاهرات وفقيرات مُعدَمات» على حدّ قول النقّاد، لملمهنّ مارشال من شوارع لندن كي يستكمل العدد المطلوب في العقد. عندما صعدت «غير المؤهَّلات» إلى متن السفينة، لم يضيّعن الوقت، وأفسدن «المؤهَّلات»: «إدارة السفينة كانت متراخية، فعمّت مظاهر الفسوق والسُكر. تصرّفت النساء بأسلوب مقرف عند الوصول، وتسبّبن بزيادة أعداد العاهرات، وزيادة انحلال أستراليا، لا زيادة تحضّرها».

حاولت جمعيّات الهجرة النسائيّة التدخّل لتحسين الوضع، لكنّ مشكلة نقص أعداد النساء في المستعمرات لم تُحَلّ. ظلّت معاناة الرجال الأستراليّين قائمة حتّى عام 1879، كما توضّح الإعلانات التالية في صحيفة ماتريمونيال كرونيكل Matrimonial Chronicle، المكرّسة كليّاً للراغبين بالزواج:

– رجل شابّ في الريف يريد زوجة، لديه منزل، ودخل سنويّ مقداره خمسمئة جنيه.

– صاحب أملاك في مقاطعة مانورا يريد زوجة، لديه أرض شاسعة وخراف.

– شابّ من كوينزلاند يبحث عن زوجة... يجب أن تتقن السيّدةُ القراءةَ والكتابة، كي تساعده في عمله.

النساء الإمبرياليّات مطلوبات في مهامّ تتعدّى العمل اليدويّ، وأوّلها الإنجاب، خاصّة أنّ معدّل وفيّات المواليد تضاعف في كلّ مكان، بسبب المناخ القاسي والأوبئة والأخطار. زوجة المحترم صامويل سيوول في ماساشوستس، أنجبت له أربعة عشر طفلاً خلال أربعة عشر عاماً من الزواج، لكنّه بدأ بعد أربعة أشهر فقط لا غير من وفاتها، بالبحث عن عروس جديدة «شابّة قادرة على الإنجاب». وقع على عاتق النساء أيضاً الإيفاءُ بمتطلّبات واجباتهنّ الجنسيّة غير المعلنة، ورسمُ إيقاع الحياة، والحفاظ على المعايير،

وتهذيب الرجال. الحكومة البريطانيّة، بعد أن راعها عدد أفراد الحكومة الإداريّة في المستعمرات الذين وقعوا ضحيّة «الارتباط بالنساء المحليّات»، قامت برفدهم بسفن مليئة بـ«الوردات الإنجليزيّات». سرعان ما تخلّصت «الوردات» من الخليلات المحليّات، بالاستعانة بسلاح مزدوج من الإيمان المسيحيّ والكاربوليك أسيد[2]، وهو ما أثار إعجاب الرحّالة البارون ڤون هبْنَر، فكتب: «إنّها المرأة الإنجليزيّة، الشجاعة، المخلصة، المثقّفة، المُدرَّبة، المسيحيّة، حارسة العشّ الزوجيّ، التي صنعت كلّ ذلك التغيير بضربة واحدة من عصاها السحريّة».

وُظِّفتِ المرأةُ الإنجليزيّة عمداً كسلاح في يد الإمبراطوريّة، بغية الحفاظ على نقاء عِرق السيّد الأبيض، ومنع الزواج المختلط. حتّى وجود الأخت برأي الإمبرياليّين القدامى، ينقذ الشبّان الصغار من الإدمان على الكحول، ومن العار (أي ممارسة الجنس مع النساء المحليّات). المرأة الإنجليزيّة، ببشرتها البيضاء الورديّة، بشبابها ورقّتها، ببراءتها وعصمتها، لخّصت كلّ قيم «إنجلترا والوطن والجمال»، التي ضحّى الرجال بحياتهم من أجلها.

مهمّة الحفاظ على الضمير الأخلاقيّ للعرق الأبيض، لم تشغل الموظّفين في المستعمرات المتعدّدة الأعراق والذكور الباترياركيّين فحسب، بل النساء أيضاً. في عام 1874، عالمة الأعراق كارولين تشيشولم -بإخلاصها المنزّه عن الشكّ لمصالح بنات جنسها- أصدرت التوجيه التالي للحكومة البريطانيّة، كوصفة من أجل «تشكيل أمّة صالحة عظيمة في أستراليا»: رغم كلّ القساوسة الذين سترسلونهم، رغم كلّ الأساتذة الذين ستستعينون بهم، وكلّ الكنائس التي ستبنونها، وكلّ الكتب التي ستصدّرونها، لن ينفعكم شيء من دون مَن يُطلق عليهنّ السادة في المستعمرة لقباً يليق بهنّ، وهو «شرطة الربّ»، أي النساء الصالحات الفاضلات.

حتّى المرأة التي لا يمكن إطلاق صفة «صالحة» أو «فاضلة» عليها بأيّ

2- يُدعى أيضاً بالفينول، وهو مادّة شديدة السمّية تُستخرَج من القطران، كما توجد في بعض النباتات والزيوت الأساسية. المترجمة

شكل من الأشكال، ساهمت في الحفاظ على استقامة الرجال. أحد مؤرّخي الغرب القديم المتوحّش، كتب ما يلي: «عنما نتأمّل قسوة ذلك المجتمع الذكوريّ البحت، لا بدّ من الاعتراف بأنّ العاهرات لعبن دوراً هامّاً في ترويض الغرب الأمريكيّ»، أو بتعبير أحد سكّان مونتانا آنذاك: «لن يقوم أيّ عامل منجم بغسل وجهه أو تمشيط شعره، لولا تفكيره بالفتيات العابثات اللواتي سيلتقيهنّ في الصالونات».

منذ البداية إذن، انضمّت المرأة إلى الإمبراطوريّة وفقاً لشروط الذكر، باعتبارها أداة لترويض دوافع الباترياركيّة المتمثّلة بالهيمنة ومجالاتها، وذكّرتها الأنظمةُ القويّة باستمرار بالغاية من وجودها، كما رسّخت انتماءها إلى الطبقة الدنيا. في أمريكا، منعت القوانين الأولى وهبَ الأراضي إلى النساء العازبات، اللواتي يُنتظَر منهنّ الخضوع إلى «حكم العائلة». في ميريلاند، فرض القانون عام 1634 على المرأة العازبة أن تتزوّج خلال سبع سنوات إن ورثتْ أرضاً، تحت طائلة مصادرة الأرض وإعطائها إلى قريب ذكر. في سايلم، حُكِم على امرأة بالجلْد لأنّها «قلّلت من احترام السلطات»، من ثمّ عوقبت بوضع لسانها داخل ملقط لمدّة نصف ساعة، لأنّها «قلّلت من احترام كبار السنّ». على الأقلّ، نجت تلك المرأة من الموت، على عكس المبشّرة ماري داير، التي كانت «مغرورة منقادة للرؤى»، نُفيَت من بوسطن، ثمّ شُنِقَت عندما عادت.

مع انطلاق الموجة الثانية من التوسّع الإمبرياليّ، بلغ استغلال النساء أبعاداً وبائيّة، وهذا ناجم بجزء منه عن طبيعة التجربة الأستراليّة. أُنشِئت المستعمراتُ في أستراليا بوصفها منفى للمجرمين لا كجنّة للخلاص من العقاب، وكانت بعيدة كلّ البعد عن الحياة المعاصرة في بريطانيا آنذاك. تضافر هذان العاملان لجعل الانتقال إليها –وهو بحدّ ذاته رحلة عسيرة– عذاباً مضاعفاً للمرأة، التي ستعاني بسبب انتمائها للجنس الأنثويّ فضلاً عن العقوبة المفروضة عليها. وضعُها كمدانة جرّدها من الحقوق الإنسانيّة جميعها، ومن استقلاليّتها الفرديّة، وحوّلها إلى لقمة سائغة منذ لحظة إصدار الحكم عليها. استغلالها جنسيّاً سيبدأ مع طواقم سفينة النقل، كما أبلغ أحد شهود العيان الغاضبين اللجنةَ البرلمانيّة الخاصّة عام 1819:

«أبلغتني النساء أنّهن تعرّضن لكلّ أشكال الاستغلال من قبل القبطان والبحّارة، كما عرّى القبطان عدداً منهنّ، وجلدهنّ أمام أنظار الجميع. انتحرت إحداهنّ بإلقاء نفسها في البحر، على إثر ما تعرّضت له من سوء المعاملة. جلد القبطان شخصيّاً امرأة ثانية بالحبل، وسبّب لها كدمات كثيرة على ذراعيها وأجزاء أخرى من جسدها».

الشاهد ذاته أفاد بأنّه «وفقاً لأوامر القبطان، تُعزَل النساء الأكثر شباباً وجمالاً عن بقية المُدانات، وذلك من أجل غايات خبيثة». حتّى أصحاب المهن المحترمة الموجودون على متن السفينة، لم يترفّعوا عن ذلك الاستغلال الغروتسكيّ للنساء. إليزابيث باربر، هي مدانة فضحت مساعد الجرّاح الذي رافق سفينتها، ووصفته بأنّه «حجّام خبيث»، يغوي الفتيات البريئات عندما يعالجهنّ من الحمّى، مستغلّاً عيادته كماخور عائم.

في عينيّ أيّ رجل «عاقل»، المرأة المُدانة منبوذة، والمنبوذة عاهرة حتماً (رغم أنّ النساء جميعهنّ حُكِم عليهنّ مسبقاً بالوصمة ذاتها!). أحد حكّام المستعمرات الأستراليّة الأوائل، وهو شخصيّاً –يا للمفارقة!– مُدان سابق، وصف المُدانات بأنّهنّ «أقذر من يلطّخ صورة الأنثى»، بينما لخّص أحد المحلّلين الوضع بصراحة أكبر: «تنتمي أولئك النساء إلى الحضيض، كلهنّ يدخّنّ ويشربن الكحول. بصراحة، أنا أعتبرهنّ جميعهنّ عاهرات».

بلا شكّ، بعض المدانات اللواتي تمّ ترحيلهنّ إلى أستراليا في القافلة الأولى عام 1788، التي ضمّت 192 امرأة و586 رجلاً، كنّ عاهرات بالفعل، لكنّ هذا لم يشكّل فرقاً، فما إن تدوس المدانة أرض القارّة، حتّى توهب على الفور لأوّل رجل يطلبها. تلك العادة الهمجيّة أثارت بلبلة، حتّى بين شهود العيان الذين لا يعنيهم الموضوع، فقد كتب أحد المستوطنين الأحرار في رسالة إلى الوطن: «لربّما لن تصدّقوا أنّه عند وصول سفينة من المدانات الإناث، تقضي العادة هنا بدعوة رجال المستوطنة للانتقاء منهنّ كما يرغبون، لا ليعملن كخادمات فقط، بل كعبدات جنسيّات مطيعات... ممّا يحوّل المستوطنة بأكملها إلى ماخور ضخم». لم توضع قيود على عدد المُدانات الإناث اللواتي يمكن للمستوطِن في أستراليا أخذهنّ «لاستعماله

الشخصيّ»، بل تمّ توزيعهنّ على رجال المستوطنة كجزء من حصص البضائع الواردة. إضافة إلى ذلك، تحوّلت تلك العادة إلى شأن عسكريّ خاصّ، ففي عام 1803 تمّ إحصاء أربعين مدانة سُمِح بدخولهنّ إلى معسكرات الجيش في نيو ساوث ويلز.

تحويل النساء إلى عاهرات يعني معاقبتهنّ مرّتين على جريمتهنّ الأصليّة، الأولى بترحيلهنّ إلى أستراليا، والثانية بإجبارهنّ على البغاء القسريّ. الأمل الوحيد للمرأة التي تجد نفسها في وضع كهذا، هو أن تتمسّك بكلّ ما أوتيت من قوّة بذكر يحميها. بأيّ حال، جرت العادة أيضاً على رمي الوافدات سابقاً إلى الشارع، ما إن ترسو السفن بحمولة جديدة من «اللحم الطازج». في ظلّ تلك القواعد التي حرمتهنّ من الحصولِ على امتيازات المجتمع، وطبّقت عليهن أقصى العقوبات، نهضت النساء الإمبرياليّات -مهما كانت مرتبتهنّ وضيعة- بأعباء الإمبراطوريّة جنباً إلى جنب الرجل. المستعمِرون، ذكوراً وإناثاً، سيعانون من ويلات المناخ، «بلاد حارّة كالجحيم! والأمطار غزيرة كأنّنا في فيضان!»، كما علّق أحد ضحايا موجة الحرّ التي دامت ستّة أشهر في الهند، حين ارتفعت درجة الحرارة إلى ما يقارب 46 درجة مئويّة في الظلّ، ولم تهبط إلى ما دون 35 درجة حتّى ليلاً، وكان الهواء أشبه «بمكواة حارّة تكوي الوجه» على مدار الساعة. من الويلات الأخرى، أن يستيقظ المرء صباحاً ليجد النمل الأحمر يغزو سريره، وهي مشكلة لا حلّ لها -من آسام إلى أريزونا- إلّا بوضع قوائم السرير في أوعية من التنك مليئة بالماء. المحنة الثالثة، هي العلق الذي يلتصق بالجسم أثناء النزهات في البقاع الجميلة: «المكان شديد الروعة، ضفاف الأنهار مغطّاة بأجمل الأزهار، وماؤها الصافي ينساب بين الصخور الرماديّة... ولكن العلق! تلك المخلوقات البغيضة السمينة، عضّتني في خمسة وعشرين مكاناً! نزفتُ كثيراً، رغم أن العضّة بحدّ ذاتها غير مؤلمة»، كما كتبت «ميم - صاحب[3]» مهيبة بكلّ هدوء.

كما نتبيّن من رسالة الميم - صاحب، وهي زوجة الحاكم البريطانيّ

3- لقب يشير إلى المرأة البيضاء الأجنبيّة التي تنتمي إلى طبقة اجتماعيّة عليا، وتعيش في الهند. غالباً ما تكون زوجة أحد الضبّاط الإنجليز. المترجمة

للهند آنذاك، المرتبة العليا لا تضمن الحماية الشخصيّة، فبعد أن وصلت إلى سِملا، مرهقة من واجباتها، ومن «الرحلة الكابوسيّة» التي أمضتها ملفوفة بالمناشف كي تجفّف عرقها الغزير، أحصت خمسين حشرة عملاقة مصّاصة للدماء على سريرها. «تمكّنتُ من قتل أربع منها صباحاً.. أنا سعيدة لعودتي إلى سِملا!»، كما كتبتْ باقتضاب إلى ابنتها.

لا مناص من القتل، خاصّة إن كانت الضواري الجائعة ذئاباً كما في الغرب الأمريكيّ، أو حيوانات أخرى أشدّ خطورة. آن موفات، ابنة عائلة المبشّرين الإسكتلنديّين الشهيرة التي جابت إفريقيا، نجت ذات مرّة من أنياب أسد بأن قفزت إلى عربتها التي يجرّها ثور، وأمضت الليل بطوله مختبئة وهي تصغي للوحش يقضم عظام الحيوان المسكين. أخطر الضواري على الإطلاق بلا شكّ، هو ذاك الحيوان الذي يسير على قدمين اثنتين، والذي توجّب على الرائدات الأوائل أن يكنّ مستعدّات دائماً للدفاع عن أنفسهنّ ضدّه. الدكتورة آنا شُو، وهي مبشّرة في إحدى الإرساليّات، تصف لنا كيف تصدّت لرجل حاول اغتصابها، بعد أن استأجرت خدماته لنقلها عبر منطقة حدوديّة نائية: دسستُ يدي في الخرج الموجود على حضني، فلامستُ مسدّسي. كانت لمسة لا تضاهيها أيّة لمسة بشريّة! أخذتُ شهيقاً عميقاً وأنا أشكر الربّ، ثمّ أشهرت المسدّس وفتحتُ مسمار الأمان، فحزر الرجلُ ما هي تلك التكّة المفاجئة، وصرخ «بحقّ الربّ!». «إيّاك أن تقترب!» صرختُ، وشعرتُ بشعري ينتصب على رأسي من شدّة الفزع. كانت تلك اللحظة أسوأ كابوس تمرّ به امرأة!

رحلة الدكتورة آنا المرعبة، التي أمضتها وهي تصوّب مسدّسها على من حاول اغتصابها، وهو يقود العربة طيلة الليل عبر الغابة السوداء، انتهت نهاية سعيدة. عندما وصلت إلى معسكر معزول، توافد الحطّابون جميعهم لرؤية السيّدة المبشّرة التي تتسلّح بالمسدّس والإنجيل معاً. الحشد الذي تجمّع لحضور عظتها كان الأضخم في تاريخ المستعمرة، وحصدت آنا نجاحاً باهراً، لم يعتمد على موهبتها في التبشير فحسب. «عظتها؟» قال أحد الرجال فيما بعد، «لا أعرف عن ماذا كانت تعظنا، لكنّ تلك المرأة الضئيلة شجاعة حقّاً!».

تجربة آنا لم تكن فريدة من نوعها، فالرجال يبقون رجالاً حيثما كانوا، وعلى النساء أن يدركن ذلك. الذكر الشبق لم يكن الخطر الوحيد، الحياة في الإمبراطوريّة عموماً كانت تتأرجح على شفير الأخطار في كلّ مكان، لذلك تعلّمت المرأة مهارات جديدة بالتلقائيّة ذاتها التي تعلّمت بها التطريز، أو تدبير المنزل في العالَم القديم. تعلّمت كيف تقطع مسافات شاسعة ركوباً على ظهر أيّ حيوان ذي أربع قوائم، سواء كان ثوراً أم حصاناً أم بغلاً أم جملاً أم فيلاً، وأن تستدلّ على طريقها بمفردها عندما يفرّ الدليل كلصّ في جنح الظلام. تعلّمت أيضاً كيف تتأقلم مع الأزمات على اختلافها، كما فعلت الفيلسوفة مارغريت كارينغتون في سهوب أمريكا الشماليّة، التي واجهت مصاعب الحياة اليوميّة دون ذرّة من الأسى: وتد الخيمة الذي ينقصف في منتصف الليل تحت ثلاث أقدام من الثلج، احتراق قماشها عندما يلامس مدخنة المدفأة المشتعلة، العواصف التي تهبّ عبر باب الخيمة المسدل وتغمر السرير بالثلج، دلاء الماء المتجمّدة، رياح السهوب التي تقلب أغطية الطاولات والأسرّة، أو تطيح بها إلى البراري... إلخ، ولا بدّ أنّ المحنة الأصعب كانت يوم الغسيل! اهتمام ربّة المنزل بالكماليّات كأغطية المائدة، يخفي حقيقة أخرى هي أنّ المرأة اضطرت لإتقان الأعمال التي يقوم بها الرجال عادة، إضافة إلى عبء الأعمال «النسائيّة» التقليديّة. «لقد تعلّمتُ كيف أستخدم البندقيّة جيّداً»، تقول سوزي كينغ تايلور، وهي امرأة سوداء وعبدة سابقة، «أستطيع أن أطلق النار مباشرة، وأن أصيب هدفي غالباً». تعلّمت سوزي كذلك كيف تحشو بندقيتها وكيف تفرّغها من الطلقات، وكيف تنظّفها، وكيف تفكّكها ثمّ تركّبها من جديد، بعد أن عملت مع فيلق للجيش الأمريكيّ الاتّحاديّ طيلة أربع سنوات خلال الحرب الأهليّة، «لم أتلقّ دولاراً واحداً! لكنّني كنتُ سعيدة للسماح لي بمرافقة الفيلق» كما علّقتْ. تضمّنت واجباتها آنذاك التمريض والقتال، أي أنّ الجيش انتفع منها منفعة مزدوجة، دون أن يكلّفه ذلك قرشاً واحداً.

في أغلب الأحيان، كفاءة المرأة وثقتها بنفسها أزعجتا الرجال حولها. آني بلانش سوكالسكي هي أرملة جنديّ، ونسخة واقعيّة عن «كلاماينتي

جاين[4]»، وقنّاصة مشهورة، وفارسة بارعة، اعتادت على ارتداء جلود الذئاب التي اصطادتها بنفسها، والتجوّل في كلّ مكان برفقة كلابها الثلاثة عشر، «عددها يساوي عدد الشرائط في الراية الأمريكيّة بالضبط!»، على حدّ قولها. عندما تخبّ تلك الفارسة بما ترتديه من ذيول الذئاب أمام الجنرال شيرمان[5] على رأس قوّاته، كان القائد المندهش يشهق ويعلّق: «ما هذا الكائن الشيطانيّ؟! امرأة متوحّشة؟! هنديّة حمراء من قبائل باوني أو سُوْ؟! أو ماذا؟!»".

بالنسبة إلى النساء المحظوظات للغاية، اللواتي تمتّعن بالحريّة والمرتبة العليا والمنزلة الاجتماعيّة، الغنائم عظيمة بالفعل، ففي عصرها الذهبيّ، كانت الحياة في الإمبراطوريّة سحريّة، «أشبه بحلم» على حدّ تعبير رديارد كيلنغ. زوجة حاكمَ الهند البريطانيّ السابقة الذكر، وصفت لابنتها أجنحةَ الضيوف خلال إحدى زياراتها إلى قصر المهراجا: الستائر حريريّة زرقاء فاتحة، والأردية جميلة، والحمّامات مليئة بكلّ أنواع أملاح الاستحمام والعطور من «شارع السلام».

في اليوم التالي، توجّهنا لزيارة القلعة، محمولين على مقاعد ذهبيّة منجّدة بالمخمل الأحمر. ليتكِ تستطيعين رؤية «باحة البردة» المنحوتة من المرمر الأبيض الشفّاف.

تلك كانت عجائب النهار فحسب! ليلاً، أُقيمَت حفلات على ضوء القمر، حضرها ما بين خمسمئة إلى ألف شخص يرتدون ملابس فاخرة، رقصوا طيلة الليل على سجّادات من القماش المشمّع الأبيض، بين أحواض أزهار الهيدرانيا العملاقة، تحت أشجار مزدانة بأضواء حمراء وبيضاء

4- مارثا جاين كناري Martha Jane Cannary (1852–1903)، تشتهر بلقب جاين الكارثة calamity Jane، كانت حارسة حدود أمريكيّة وكشّافة محترفة وصيّادة بارعة، اشتركت بالعديد من المعارك ضدّ السكّان الأصليّين. المترجمة

5- ويليام شيرمان (1820–1891) عسكريّ ورجل أعمال ومؤلّف، كان جنرالاً في الجيش الأمريكيّ الاتحاديّ خلال الحرب الأهليّة الأمريكيّة. يمدحه التاريخ بسبب استراتيجيّاته البارعة، ويلومه على سياسة الأرض المحروقة التي اتّبعها ضدّ الولايات الكونفدراليّة. المترجمة

وزرقاء. حتّى زوجة الحاكم العجوز، استسلمت لسحر الهند في أوقات كتلك: «القمر بدر، وشجيرات الورود المتفتّحة تسيّج الحديقة كلّها. يا لها من أرض سحريّة!»، كما أعلنت برضا عميق. بغضّ النظر عن أيّ شيء، الهند كانت تنادي المستعمرين، سواء كانوا من طبقة عليا أم دنيا: «لا أستطيع أن أصف لكَ مقدار سعادتي، وكم أستمتع بمباهج الحياة غير التقليديّة هنا»، كما كتبت أمّ ضابط شابّ في زيارتها الأولى والوحيدة إليه في الهند. «ما أجمل الناس هنا، وما أجمل أردية الساري الأنيقة والمجوهرات التي يضعونها... يا لجمال وجوههم!».

بالنسبة إلى بقيّة نساء الإمبراطوريّة، لم تكن الحياة حفلة جميلة دائماً، والحنين إلى أمجادها الغابرة ينكر حقيقة المحن التي اضطرّت المرأة إلى مواجهتها. ماري إدواردز، وهي زوجة أحد المبشّرين، اعتبرت الدكتور ليڤنغستون[6] ضيفاً ثقيلاً حين فرض نفسه على عائلتها طيلة أشهر. طفح كيلها حين استثار أسداً فهاجمه، وكان عليها أن تضمّد جرحه المتقيّح الذي يعجّ باليرقات، وأن تعتني به رغم جلافته وغروره وتعصّبه. على الأقلّ، تعافى الدكتور! لا بدّ أنّ حزناً أعظم عذّب أولئك اللواتي اضطررن للاعتناء بأحبّاء ما لبثوا أن ماتوا، كزوجة السير توماس مِتكالْف، وهو موظّف بريطانيّ مقيم في دلهي، شاء حظّه السيّئ أن يكون أداة تنفيذيّة لقرار إنجلترا بإنهاء لقب وامتيازات ملك الهند، فما كان من الملكة إلّا أن لجأت إلى انتقام مغوليّ قديم، وسمّمته. خسرت الإمبراطوريّة أيضاً الكثير من السيّدات الأقلّ شهرة، كجايني غولدي ذات السبعة عشر عاماً، التي تزوّجت موظّفاً بريطانيّاً في الهند، وأنجبت طفلاً توفّي، ثمّ ماتت هي أيضاً بسبب الإنتان النفاسيّ، وكلّ ذلك حصل خلال ثمانية عشر شهراً. «أشعر كأنّني مجرم!»، كتب زوجها المفجوع.

تلك التراجيديات الفرديّة مجرّد عيّنة من آلاف وآلاف غيرها. في الواقع، منذ أن داس المستعمِرون أرض أمريكا للمرّة الأولى، مُحيَتْ مستوطنات

6- ديفيد ليڤنغستون (1813–1873)، طبيب إسكتلنديّ ومبشّر مسيحيّ بارز رافق الإرساليّة اللندنيّة إلى إفريقيا. اشتهر شهرة أسطوريّة باعتباره شهيداً بروتستانتيّاً، ورجلاً عصاميّاً برز من أعماق الفقر، ومستكشفاً، ومناهضاً للعبوديّة. المترجمة

بأكملها عن الوجود بسبب هجوم الأعداء أو الأوبئة، لدرجة أنّ الذرة كانت تُزرَع فوق القبور كي لا يتمكّن أحد من إحصاء الموتى. الإمبراطوريّة ملحمة من الخسارة، والهزيمة، والرثاء المستمرّ، والموت الذي خيّم بأبشع صوره. زوجة مدير مستشفى الإرساليّة في بيشاور مثلاً، شهدت موتَ زوجها الطبيب أمام عينيها، بعد أن أطلق النار عليه والدُ طفل فشل في علاجه. رغم ذلك، عادت السيّدة ستاف إلى المشفى ذاته حيث اغتيل زوجها، وعملت مجدّداً بين أعدائه، مكرّسة نفسها كلياً للناس الذين قتلوه. فيما بعد، حين قام رجال القبيلة ذاتها التي اغتالت زوجها، بقتل زوجة ضابط بريطانيّ واختطاف ابنته، أقدمت السيّدة ستاف -التي تتحدّث اللغة البشتونيّة بطلاقة- على فعل شجاع آخر، وتطوّعت بالذهاب بمفردها إلى أرض العدو كي تنقذ الرهينة، ونجحت بإعادتها سالمة، دون أن تقدّم أيّة تنازلات في المقابل.

لم تحظَ النساء جميعهنّ بتلك النهاية السعيدة، إذ انتهت حياة بعضهنّ في بركة من الدماء وهنّ يقاتلن حتّى الموت. السيّدة بِرِسْفورد، هي إحدى الضحايا الباسلات اللواتي سقطن في مجزرة رهيبة حصلت عام 1857، أثناء عصيان الجيش الهنديّ. عندما تعرّض بنك دلهي الذي يديره زوجها للهجوم، وصف شاهد عيان كيف دافعت السيّدة بِرِسْفورد بشجاعة عن كلّ ما هو عزيز لديها: «التجأ السيّد بِرِسْفورد مع زوجته وعائلته، إلى سطح أحد المباني الخارجيّة. وقفوا هناك متأهّبين لبعض الوقت، حمل هو سيفاً، بينما تسلّحت زوجته الشجاعة برمح. دافعا ببسالة عن الدرج، وقاوما ببطولة... كما خرّ أحد المهاجمين صريعاً تحت رمح السيّدة». لكنّ أعداد المهاجمين فاقت عدد أفراد العائلة، «أن نستمرّ بالمقاومة يعني أن نطيل عذاب الموت» كما قالت السيّدة بِرِسْفورد قبل أن تُهزَم وتُمَزَّق إلى أشلاء، راسمة مثالاً من أرقى أمثلة الإمبراطوريّة عن «الحبّ الذي لا يخبو، الحبّ الذي يدفع الثمن، الحبّ الذي يجعل من البسالة آخرَ التضحيات». «التضحية النهائيّة» pro patria mori[7] التي يقدّمها المرء بسقوطه في أرض المعركة، أشيع حتماً

7- Dulce et decorum est pro patria mori: سطر من الأوديسة يُترجَم حرفيّاً إلى «كم هو عذب ولائق، ذلك الموت في سبيل أرض الوطن». المترجمة

بين الرجال، لكنّ الزوجات في أرجاء الإمبراطوريّة واجهن محنة روتينيّة، لا تقلّ خطورة عمّا يتعرّض له الجنود في أرض المعركة: الولادة المحتومة تحت أيّ ظرف مهما كان. هاريت تيتْلَر، وهي زوجة أحد الضبّاط الإنجليز، صارعت المخاض وحدها دون مساعدة، في مؤخّرة عربة ذخيرة اندفعت بها مسرعة إلى برّ الأمان خارج دلهي، بينما كانت عائلة بِرِسْفورد تقاتل حتّى الموت. في مثال آخر، ماري ليفنغستون، التي جرّها زوجها ديفيد معه في كلّ مكان حول إفريقيا، اعتبرت نفسها محظوظة لأنّها «أنجبتْ طفلها في حقل». بأيّ حال، لم تشاطرها أمّها الرأي ذاته، فكتبت إلى الزوجين تقريعاً صارماً:

«ألا يكفي أنّكما خسرتما طفلاً جميلاً، وبالكاد نجحتما بإنقاذ أخوته؟! امرأة حبلى مع ثلاثة أطفال صغار، تقفز من مكان إلى آخر في مجاهل إفريقيا، بين الوحوش والرجال الهمجيّين! لو أنّكما وجدتما مكاناً تستقرّان فيه وتنشِئان إرساليّة، لتغيّر الوضع... عندها لن أتفوّه بكلمة واحدة، حتّى لو اخترتما الجبال في القمر! أمّا أن تذهبا مع فريق استكشاف، فهذا أمرٌ سخيف!».

سخيف أم لا، لكنّه ما حصل. أنجبت ماري طفلها على ضفاف نهر زوغا Zouga، تحت شجيرة شوكيّة. «لا توقيت أفضل، ولا أسهل!»، علّق السيّد ليفنغستون على ولادة طفله الخامس!

على الأقلّ، عرفت ماري ماذا ينتظرها، أمّا بالنسبة للفتيات اللواتي يتمّ تزويجهنّ يافعات وإرسالهنّ إلى المستعمرات الإمبرياليّة، دون أن ترافقهنّ والدة أو قريبة أنثى ترشدهنّ في الحياة الزوجيّة الغامضة، فقد تكون العواقب كارثيّة. إيميلي بايلي، وهي عروس يافعة انتقلت إلى دلهي في آذار، انتابها مرض شديد ما إن انتهت رحلة شهر عسلها المديد في مدينة سملا في شهر تشرين الأوّل، لدرجة أنّ الطبيب أمرها بالعودة إلى إنجلترا. بعد أن تمّ توضيب أمتعتها، وإرسالها إلى السفينة قبل يوم من موعد الإبحار، «فوجئنا بولادة طفلنا الأوّل» كما قالت إيميلي! إضافة إلى الأمّ والطفل، أصبح لدى الطبيب مريض ثالث هو الأب الذي أغمي عليه بعد سماعه الخبر. عندما استفاق، سارع لشراء بعض الملابس للمولود الجديد غير المتوقَّع، وعاد

إلى بيته مزهوّاً بـ «ثوب فرنسيّ من قماش الكامبريك فاخر التطريز، وعباءة قرمزيّة»... ملابس لا تلائم رضيعاً بلا شكّ، لكنّ رجلاً لا يعرف أنّ الجماع يؤدّي إلى حصول الحمل، ولا أنّ حمل زوجته يتقدّم، لن يعرف أنّ المولود يحتاج إلى حفاضات!

مع ذلك، لم تسهّل الخبرة حياةَ الزوجات في الإمبراطوريّة. أرهقتهنّ معاناة أخرى عصيبة، هي الانفصال القسريّ عن أولئك الأطفال الذين أنجبْنَهم بشجاعة في الأكواخ، وعلى الطرقات، وتحت عربات المدافع، وعلى ضفاف الأنهار. نصَّ العرفُ المقدّس في أرجاء الإمبراطوريّة البريطانيّة آنذاك، على أنّ تربية الأطفال مستحيلة في المناخ الحارّ، أمّا الزوجة فمن واجبها أن تبقى إلى جوار زوجها مهما كانت الظروف. نتيجة لذلك، كما يقول الكاتب الهنديّ – البريطانيّ إم. إم. كاي: سنة بعد سنة، تأخذ الأمّهات الباكيات أطفالهنّ إلى الموانئ الكبرى، ويعهدن بهم إلى الأصدقاء أو المربيّات لإيصالهم إلى «الوطن»، حيث يتولّى الأقرباء أو الغرباء أحياناً تربيتهم. رديارد كيلنغ، وأخته تريكس، كانا من بين أولئك الأطفال الذين ربّاهم الغرباء في إنجلترا.

الميم – صاحب السابقة الذكر، التي لم تزعجها عضّات العلق، سمحت لنفسها بأن تتحسّر على غياب أطفالها: «أشعر كأنّني تابوت محمّد[8]، معلقّة بين عائلتي المشتّتة». خسارة الأطفال محتومة بشكل ما أو بآخر، وعلى حدّ قول كاي: «تغصّ الهند بقبور الأطفال، وكلّ أمّ تتوقّع خسارة ثلاثة من كلّ خمسة أطفال تنجبهم».

مع كلّ تلك الأعباء العاطفيّة والجسديّة التي أرهقت المتزوّجاتِ، لا عجب أنّ اللواتي اقتنصن الفرصة هنّ العازبات. الفرص كانت وفيرة في الإمبراطوريّة، ومتنوّعة للغاية، وهو ما لم يسبق له مثيل في تاريخ حياة النساء المقيّدة. استغرقت عاملة المصنع ماري شلِسَر ما يقارب عقداً من

8- الإشارة إلى أسطورة متداولة في المصادر الأوروبيّة خلال العصور الوسطى، تقول إنّ تابوت النبيّ محمّد كان معلّقاً في الهواء إلى سقف قبره، دون أيّ شيء يسنده أو يحمله. المترجمة

الزمن كي تجمع مالاً كافياً، وتدرس، وتحقّق حلمها بالذهاب في إرساليّة تبشيريّة إلى إفريقيا. ما أن وصلت إلى هناك، حتّى تعاملت مع الفظائع التي ترتكبها القبائل -كالأضاحي البشريّة، وقتل التوائم- بحزم ونجاح، فعيّنتها الحكومة حاكمةً محليّة. رغم أنّها بقيت عازبة، لكنّها تبنّت ما لا يقلّ عن اثني عشر زوجاً من التوائم الذين أنقذتهم من طقوس الأضاحي القَبَليّة. لو لم تهاجر من بلدها إسكتلندا، لظلّت ماري مجرّد عاملة بائسة في مصنع.

ماري شلِسَر هي ابنة حقّة لسلالة طويلة من النساء الرحّالات المستكشفات، بدءاً من الأسطورة جاين ديغبي، التي تزوّجت وهي في السادسة والأربعين من عمرها شيخاً سوريّاً، وأصبحت زعيمة لقبيلته، إلى الليدي آن بلَنت، وهي أوّل امرأة تخترق شبه الجزيرة العربيّة. قدّم السفر فرصة ذهبيّة للنساء المحظوظات، تتمثّل بالهرب من ملل الحياة القاتل في الوطن. إيزابيلا بيرد كانت «هشّة للغاية»، لدرجة أنّ الحياة الهادئة في لندن حوّلتها إلى «كائن مُحبَط متوتّر»، أمّا خارج لندن، فكانت تقطع ثلاثين ميلاً على حصانها كلّ يوم، وتنام بسلام خلال العواصف، وتجابه الدببة المتوحّشة والصينيّين الهمجيّين الغاضبين.

نجت المرأةُ المغامِرةُ أيضاً، من القمع الفكتوريّ الصارم لحياتها الجنسيّة. إيزابيلا بيرد المهيبة تلك، بعد أن جرّبت رجال أستراليا، الباسيفيك، الصين، العراق، والتيبت، وبعد أن أصبحت المرأة الوحيدة الحاصلة على زمالة الجمعيّة الجغرافيّة البريطانيّة، وقعت في غرام قاطع طريق في الغرب الأمريكيّ «جيم العزيز، من جبال روكي». لم تكتفِ عالمةُ الفراشات الشهيرة مارغريت فاونتن بجمع الفراشات خلال أسفارها، وعندما روّعت «يعسوباً» ذكراً جذّاباً في سوريا، اتّخذت من تلك العيّنة البديعة خليلاً لها. لويزا جِب، التي جابت تركيا والعراق دون أن ترافقها سوى امرأة أخرى، ونجت مرّات عديدة من الموت الوشيك على يد المتطرّفين الإسلاميّين، وصفت كيف التقت صدفة بمجموعة من الشباب «يصرخون ويرقصون وهم يدورون في حلقة»، فتذكّرت كيف اعتادت على تطريز الكروشيه في غرفة الضيوف، لذلك لم تتردّد: استولى عليّ شعور متوحّش بالتمرّد،

فقفزتُ إلى وسط الحلقة. «دعوني أجنّ!» صرختُ، «أريد أن أجنّ مثلكم أنا أيضاً». جذبني الرجال، وانطلقنا، نرقص ونرقص وندور ونقفز! سرعان ما أصبحتُ متوحّشة، متوحّشة حرّة مجيدة ترقص تحت ضوء القمر.

تلك المتعة لا تضاهيها لعبة ويست[9] في وينشِستر، ولا الشطرنج في تشيلتنهام، ولا الماهجونج في مارلبورو... حتّى ڤالس الڤِلِتا، أو ڤالس سان برنارد، يبهتان بالمقارنة معها!

انطلقت نساء أخريات في مغامرة مختلفة، هي جمع الثروة. ماري سيكول هي سيّدة أعمال جامايكيّة، ورحّالة، ومنقّبة عن الذهب، وكاتبة، وطبيبة خلاسيّة تتحدّر من سلالة عبيد تزاوجوا مع الإسكتلنديّين. هجرت عملها المزدهر في كينغستون، كي ترافق الجيش البريطانيّ إلى كريميا، وأصبحت مشهورة على مستوى البلاد بسبب تفانيها في تزويد الكتائب بالمؤن. باعتبارها أرملة، أصرّت السيّدة سيكول على أنّ ما تقوم به هو خيارها الشخصيّ، وليس أمراً مفروضاً عليها: «بقائي وحيدة هو وضع اخترتُه بسبب ثقتي بقدراتي، لا بسبب الحاجة».

ماري ريبي، امرأة ثانية امتلكت كلّ المؤهّلات اللازمة كي تثق بقدراتها. في عام 1790، تمّ ترحيلها إلى أستراليا وهي في الثالثة عشرة من عمرها بعد أن سرقت حصاناً، لكنّها أصبحت بعد وقت قصير مالكة لفندق، وتاجرة حبوب، كما عملت بالاستيراد والتصدير، وكانت قطباً من أقطاب الشحن البحريّ، ومطوّرة للعقارات، فخلّدتها أستراليا على أنّها أكثر سيّدات الأعمال نجاحاً في تاريخ القارّة.

بأيّ حال، عملت العديد من سيّدات الإمبراطوريّة بتجارة بضاعة فوريّة، هي اللحم البشريّ. فتيات الصالونات في الغرب الأمريكيّ المتوحّش أصبحن أسطورة، دون أن تتطلّب قصصُ حياتهنّ الحقيقيّة بهرجةً. هناك نقشٌ مقتَضبٌ شبه مقروء، على باب منجم فضّة في جوهانسبورغ، كاليفورنيا، مُكرّس إلى: «هاتي، وإيڤا الصغيرة، وبقيّة الفتيات»، يُسجّل

9- Whist لعبة من ألعاب الورق كانت شائعة في بريطانيا خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. المترجمة

بأمانة أنّ «الرجال نقّبوا عن الفضّة، بينما نقّبت هؤلاء الفتيات عن الذهب». وصف أحد المسافرين مرتعباً، كيف اندفعت خمس وسبعون فتاة من فتيات الصالونات نحوه: «كلّ واحدة منهنّ تحمل لقباً ما، كالعذراء، أو لِيْل الجديدة، أو السمينة، أو فرس أوريغون، أو مُهرة أوتا، أو حفنة العشب، أو الدبّة السوداء وشقيقتها الديسم[10]، وواحدة تُدعى بالمتلويّة، وهكذا دواليك. ادفع، وانتقِ منَ تشاء! وإن لم تنتبه، ستسرق الفتيات ما تحمله من مال. هل تتساءل لماذا استعجلنا الرحيل عن ذلك المكان، الذي يُكلّف أيّ شيء فيه الكثير من الدولارات، وحيث تغرينا النساء بخدودهنّ المصبوغة في زوايا الشوارع؟!».

بكلّ تأكيد، كان الذهب موجوداً في جيوب الرجال الذين أمضوا أشهراً، بل سنوات طويلة من الشظف والحرمان والشقاء، بالتنقيب عنه في أماكن يصعب الوصول إليها. أونورا أورنشتاين، الملقّبة بـ«لِيْل ذات السنّ الماسيّة»، وهي آخر «مُدلّلات الصالونات» في داوسن، تكساس، حصلت على ثروتها الأولى بسهولة بعد أن سرقتها من جيبِ أحد المُنقِّبين عن الذهب، وحصلت على ثروة ثانية بالطريقة ذاتها أيضاً. جوليا بُولِت، ملكة أخرى من ملكات تلك المهنة، وصلت إلى فيرجينيا مباشرة بعد اكتشاف مناجم كومستوك المبهرة عام 1859. فرضت جوليا ألف دولار في الساعة على زبائنها لقاء خدماتها، وامتلكت مجموعة من المجوهرات والأحجار الكريمة تليق بإمبراطورة أو بـ«راني» هنديّة. ما تغفله القصص الرومانسيّة عادة عن أولئك النساء (تجسّد مارلين مونرو في فيلم «نهر اللّاعودة» الفانتازيا الأساسيّة عنهنّ)، هو مخاطر المهنة. أونورا أورنشتاين مثلاً خسرت كلّ ثروتها، وكذلك عقلها، وأمضت السنوات الأربعين الأخيرة من حياتها في مصحّة للأمراض العقليّة في ولاية واشنطن. جوليا بولت قُتِلَتْ خنقاً في غرفة نومها الفاخرة ضمن قصرها الرائع، على يد مجرم مجهول سرق كلّ مجوهراتها وأشيائها الثمينة.

لقد تعاملت الإمبراطوريّة بطريقتها الخاصّة مع الإناث الوحيدات

10- الديسم هو صغير الدبّ. المترجمة

«اللواتي لا يحميهنّ رجل»، وذكّرتهنّ دائماً لماذا يحتجن تلك الحماية في المقام الأوّل! الإمبراطوريّة هي ملعب الذكور، بل إنّها مغامَرة ذكوريّة بحتة. عندما تقتحمها امرأة، فهي تفعل ذلك تحت خطر العقاب الأقصى الذي يلخّص هيمنة الرجل وسلطته: موتها.

المنقِّبات عن الذهب، العاهرات، الرحّالات الإناث، التاجرات، والانتهازيّات البسيطات... على الأقلّ، امتلكت هؤلاء النساء الكولونياليّات حقّ تقرير مصيرهنّ، أمّا نساءُ السكّان الأصليّين فكنّ عاجزات غافلات. لقد وجدن أنفسهنّ ضحايا لهيمنة الذكر المستعمِر الأبيض، إضافة إلى ذكور بلدهنّ الأمّ. كما تذكّرنا قصصُ فتيات الصالونات، إحدى الصادرات الخفيّة للكولونياليّة هي التقسيم الباترياركيّ العتيق للنساء إلى سيّدات وعاهرات، وفرْضُ قيمِ وقيود العالم القديم كلّها على العالَم الجديد. «الأراضي العذراء»، كما يحلو للخيال الإمبرياليّ أن يصفها، لم تنتظر قدوم الذكر العظيم الأبيض كي يوقظها من سباتها البدائيّ، فكلّها ضمّت أنظمة اجتماعيّة وسياسيّة قائمة مسبقاً، خضعت النساء في معظمها للرجال.

مع الكولونياليّة، وفي تشابك قاتم حتميّ للمصالح، تداخلت هيمنة المستعمِر الأبيض مع الهيمنة الذكوريّة الموجودة أصلاً في المستعمرات، فهوَت النساء الأصليّات إلى حضيض السلّم الاجتماعيّ، بعد أن اكتملت كلّ طفرات التمييز العِرقيّ والجنسيّ. الدكتور كارينغتون، أحد أفراد الإرساليّة التبشيريّة إلى نيو هبريدس[11]، سجّل قصّة امرأة شاهدت بالصدفة شابّاً اجتاز للتوّ طقس الابتداء، وهو يقوم بشعيرة الغسل التطهّريّ. هربت المرأة فوراً، والتجأت إلى مدرسة الإرساليّة كي «تكفّر عن خطيئتها»، لكنّها استسلمت لرجال قبيلتها عندما أتوا يبحثون عنها دون أن تنطق بحرف، ودُفِنَت حيّة.

نجد أمثلة عن ازدراء حياة الأنثى في المستعمرات الإمبرياليّة جميعها تقريباً، وهو ما أعاق دون شكّ آمال الأسياد البيض بفهم «العِرق الخاضع»،

11- New Hebrides مجموعة جُزر في جنوب المحيط الهادئ، تُعرَف حاليّاً بـ Vanuatu. المترجمة

لأنّ إنكارهم لحقيقة المرأة ككائن بشريّ، اتّخذ في المستعمرات صورة مناقضة، هي تبجيل اللغز الأنثويّ. بالنسبة إلى المغامرين الإمبرياليّين المخضرمين، وإلى الموظّفين الإداريّين الأغرار على حدّ سواء، أثبتت الحوادث المختلفة صحّةَ تقييمهم للسكان الأصليّين على أنّهم همجيّون متوحّشون لا أمل يُرتَجى من إصلاحهم، كما تخبرنا القصّة التالية عن مراهقة قُدِّمَتْ كأضحية بشريّة عام 1838: «كان نصف جسد الفتاة مطليّاً بالأحمر، والنصف الثاني بالأسود. رُبِطَت إلى ما يشبه السلّم، كي تشوى ببطء على نار خفيفة، من ثمّ رُشِقَت بالسهام. مزّق الزعيم قلبها والتهمه، من ثمّ قطّع جسدها إلى قطع وُضِعَت في سلال وأُخِذَت إلى حقول الذرة المجاورة، حيث عُصِر دمها فوق البذور الجديدة بغية إحيائها، كما صُنِعَ من لحمها معجون فُرِكت به البطاطا والفاصولياء والبذور لإخصابها».

نأى الرجال الأنغلو-ساكسونيّون بأنفسهم عن شوي الفتيات حتّى الموت، خاصّة إنّ كنّ جميلات بما يكفي لاستغلالهنّ في خدمات عمليّة أخرى. أمّا فيما يتعلّق ببقيّة النواحي، فقد أدّى سلوك الرجال الاستعماريّين تجاه النساء الأصليّات الخاضعات أصلاً لرجالهنّ، إلى استعمارهنّ استعماراً مضاعفاً. تلقائيّاً، توسّع المجاز المحوريّ للإمبراطوريّة، وهو اغتصاب الأراضي العذراء، ليشمل كلّ النساء الموجودات فوق تلك الأراضي، فأصبحن ملكاً للمستعمِر يفعل بهنّ ما يشاء. كلّ بلد مستعمَر قدّم مورداً لا ينضب من الخليلات، من أجل إمتاع الجنود الإمبرياليّين وتجديد طاقاتهم، كما افترضت هيمنة الذكر الأبيض أنّ الخليلة ممتنّة له، نظراً لحصولها على «امتياز خاصّ» كي تقوم بذلك الدور. وجدت «الخليلات المحظوظات» أنفسهنّ في أسوأ موقع بين العالَمين. «لا-مالينش»، أو «حوّاء المكسيكيّة» كما كانت تُلقَّب، تقدّم مثالاً نموذجيّاً عن ذلك الوضع، وهي امرأة نبيلة من الأزتك، قُدِّمت إلى الفاتح كورتيز في محاولة لاسترضائه عندما اجتاح المكسيك عام 1519. قامت لا-مالينش بدور مترجمة ومستشارة، فضلاً عن دور الخليلة، ويرجع الفضل إليها بتلطيف سياسات كورتيز تجاه بلدها وشعبها. رغم ذلك، نعتها معاصروها بـ La vendida أي «تلك التي بيعَت»، وبـ La chiçada أي «تلك القحبة».

بالنسبة إلى بعض النساء، قدّم ذلك الوضع مرتكزاً للترقّي والحصول على النفوذ. عندما قام السير ويليام جونسون، الحاكم البريطانيّ لمستعمرات أمريكا الشماليّة، والمشرف القدير على العلاقات مع السكّان الأصليّين، باتّخاذ خليلة شابّة من هنود الموهوك، لم يكن في نيّته تغيير مجرى التاريخ المحليّ، إلّا أنّ «موللي برانت» كما أطلق عليها، تحوّلت إلى شخصيّة لا غنى عنها في علاقاته مع القبائل المحليّة، والتفاوض على ترسيم الحدود والقرارات الأخرى التي ما زالت نتائجها قائمة إلى يومنا هذا. عامل جونسون موللي باحترام بالغ، وجعلها خليلته الرسميّة، فأنجبت له تسعة أطفال اعتباراً من عام 1759، وعاشت معه في مقرّ إقامته الرسميّ بوصفها زوجته حتّى وفاته، وعندها منحتها الحكومة البريطانيّة راتباً تقاعديّاً، في اعتراف منها بأهميّة خدماتها.

بالمثل، اعتبر العديد من الرجال البيض خليلاتِهم زوجات شرعيّات، وعاملوا النساء المحليّات بحبّ واحترام، كذلك الضابط الشابّ من «شركة خليج هدسون» الكنديّة، الذي كتب رسالة إلى والديه في إنجلترا، واصفاً لهما زوجته التي تنتمي إلى قبيلة أوجيبوا، رافضاً بحزم أن يلقّبها بـ «الخليلة»: لم أقل لكما شيئاً عن زوجتي، لذلك، لعلّكما تحسبان أنّني أشعر بالخجل. أنتما مخطئان كليّاً! لعلّ زوجتي لن تتألّق كسيّدة في مأدبة رجل نبيل، لكنّها تتأقلم مع محيطها على نحو ممتاز... بالنسبة إلى الجمال، فهي مقبولة مثلي تماماً.

بأيّ حال، المرأة المحليّة التي تتزوّج رجلاً أبيض، كانت معتادة على نعتها بـ «السمراء»، أو «الهنديّة»، أو «الإبريق البنيّ»، أو «قطعة النحاس الذائب»، وبألقاب أخرى أسوأ بكثير. فضلاً عن ذلك، علاقات الحبّ تلك، حتّى وإن دامت سنيناً طويلة، أو تكلّلت بتشكيل عائلة أو إنجاب أطفال، لم تصمد أمام استدعاء الرجل إلى بلده، أو نقله إلى «المجتمع الأبيض» من جديد.

أحياناً، بلغ استغلال النساء المحليّات جنسيّاً أبعاداً وحشيّة مرعبة، أبشعها حدث في أستراليا. هناك، لطالما اعتبر الرجل الأبيض أنّ المرأة الأصليّة ليست كائناً بشريّاً منحطّاً فحسب، وإنّما أحقر نوع من أنواع الحيوانات، وعاملها أسوأ ممّا يعامل كلبه أو حصانه. فيما يلي شهادة امرأة اسمها سارة،

«وهي امرأة أبوريجينيّة، في حوالي العشرين من عمرها»، أنقذها المصلح جورج أوغسطس روبنسون عام 1837:

- س: من أخذكِ؟ ج: البحّار جيمس آلان، وشريكه بِل جونسون.
- س: كم كان عمركِ؟ ج: كنتُ فتاة كبيرة آنذاك.
- س: كيف فعلا ذلك؟ ج: ربطا حبلاً حول عنقي، وقاداني كالكلبة.
- س: إلى أين أخذاكِ؟ ج: لقد توقّفنا في الغابة ذات ليلة، حيث قيّدا يديّ وقدميّ.
- س: هل يضرب البحّارةُ النساءَ؟ ج: أجل، كثيراً، كما قطعوا أذنيّ صبيّ ذات مرّة فمات، إضافة إلى أنّهم اقتطعوا أجزاء من إلية امرأة.
- س: هل ضربكِ داتون؟ ج: أجل، جلدني بحبل.

كما اكتشف روبنسون، فإن جَلْدَ المرأة الأستراليّة الأصليّة، واقتطاعَ أجزاء من لحم إليتها عندما ينضب مخزون الطعام، كانا شائعين لدرجة أنّ البحارة مانعوا بضراوة أيّة محاولة للحدّ منهما، بوصفهما حقّاً من حقوقهم. توجّب على روبنسون جمع الكثير من الأدلّة المماثلة لقصّة سارة، قبل أن يتمكّن من إقناع السلطات البريطانيّة بأنّ النساء الأصليّات، على عكس ما يشاع عنهنّ، لم يكنّ سعيدات مع أسيادهنّ البيض، أو رافضات للافتراق عنهنّ!

يجدر بالذكر أنّ العلاقات بين المستعمِرين والمستعمَرين لم تكن دائماً قاتمة، فقد حثّت المبادئ الدينيّة والإنسانيّة النساءَ خصوصاً، على الوقوف في صفّ أولئك الذين لا يكترث بهم أحد. في مطلع القرن، استُدعيَت قابلة إنجليزيّة في لاهور، باكستان، للمساعدة في مخاض عسير، ضمن ظروف مألوفة هناك رغم قسوتها:

«في الثالثة فجراً من صباح شتويّ قارس... ذهبتُ إلى منزل أحد المنبوذين، وهو كوخ طينيّ صغير لا تتجاوز مساحته 8 × 12 قدماً مربّعاً. داخل الغرفة، يعيش عشرة أشخاص معاً، يمثّلون ثلاثة أجيال من العائلة ذاتها، وينامون جميعهم نوماً عميقاً ما عدا المريضة، إضافة إلى خروف وعنزتين وبقرة وبضع دجاجات، لأنّ المالك لا يثق بجيرانه. الغرفة معتمة،

لا يضيئها سوى قبس خافتٌ يصدر عن مصباح فخّاريّ، وباردة لا تدفئها إلّا الحرارة المنبعثة من أجساد البشر والحيوانات. لا توجد نوافذ، والباب موصد. في الخلف، تصطفّ أربعة أسرّة بعضها فوق بعض، ينام عليها أفراد العائلة والماخض التي تستلقي في السرير الثالث من الأعلى». القابلة كانت قصيرة، لم تتمكّن من الوصول للزوجة، وداهمها الوقت. لحسن الحظّ، هناك بقرة مستلقية بوداعة تحت الأسرّة، وقفت القابلة على ظهرها واستطاعت بعد طول عناء أن تولّد بسلام «توأمين هندوسيّين صغيرين، صبياً وبنتاً».

من ناحية أخرى، لم تكن العلاقات بين النساء في الإمبراطوريّة وحيدة الاتّجاه دائماً، بل ساعدت النساءُ الأصليّاتُ بدورهنّ أخواتِهنّ البيضاوات. كتبت المبشّرة الإسكتلنديّة ماري موفات بشغف عمّا تعلّمته من جاراتها الإفريقيّات، للعناية بشؤون منزلها في وادي كورومان في صحراء كالاهاري: «لعلّكم ستدهشون إن عرفتم أنّنا نفرش أرضيّات الغرف كلّها بروث الأبقار، مرّة في الأسبوع على الأقلّ». باعترافها الشخصيّ، حاولت ماري أن تتدبّر أمرها دون استعمال تلك «الخدعة القذرة»، فقالت: «أنا هنا منذ وقت قصير فحسب، لكنّني سعيدة لأنّني قمتُ بذلك، وأنا أترقّب يوم السبت القادم بنفاد صبر. الروث يمتصّ الغبار كأفضل ما يكون، ويقتل الذباب الذي سيتكاثر لولاه دون رادع، كما أنّه أخضر طازج وطريّ، نمزجه بالماء، ونمدّه في طبقة رقيقة للغاية. في هذه اللحظة، أنا أتأمّل أرضيّة بيتي المفروشة بالروث بإعجاب، كما كنتُ أتأمّل أرضيّة أفضل الغرف في السابق بعد أن نلمّعها».

عموماً، التوسّع الإمبرياليّ لا يكافئ التعاون مع السكّان الأصليّين، بل تأسيس علاقة سيادة ترسّخت مع مرور الزمن عوضاً عن أن تتلاشى. في جنوب إفريقيا على سبيل المثال، عارض المستوطنون البيض بشراسة أيّة محاولة يقوم بها السود لتحقيق المساواة. من وجهة نظرٍ باترياركيّة، اعتبر البيض أنّ السود يعتمدون عليهم، وسينافسون أبناءهم على الأرض لو تحرّروا. شكّلت وجهة النظر تلك سبباً رئيسيّاً خلف «الهجرة الكبرى» ما بين عامي 1835-1848، حين غادر مدينة الكايب أولئك الذين لم يتحمّلوا تحرّر السود. في جمهوريّة ناتال الجديدة، ومقاطعتي ترانسفال وأورانج الحرّتين، تمّ ترسيخ الفصل

العنصريّ من جديد اعتماداً على لون البشرة، رغم أنّه بدأ بالتلاشي في بقيّة أرجاء المستعمرة الأمّ. هذه السياسة استمرّت بنجاح، بعد اتّحاد المستوطنات الجديدة مع مدينة كايب تاون عام 1910، وتمتّع أتباعها بقوّة مكّنتهم من تدمير أيّ برعم لليبراليّة في مهده، وفرضِ نظام استبداديّ راسخ مدمِّر.

عانى الأفراد بدورهم بأشكال مختلفة، نتيجة فرض قيم الرجل الأبيض الغربية عليهم. من المفارقات المؤلمة للإمبرياليّة، أنّ حكّام المستعمرات الذين عجزوا عن إلغاء التقاليد المحليّة التي تقمع النساء، أو رفضوا التصدّي لها، لم يشعروا بتأنيب الضمير لعدم محاولتهم إرساء عادات تمكّن المرأة أو تعطيها سلطة اقتصاديّة. في غرب إفريقيا على سبيل المثال، سيطرت المرأة دائماً على اقتصاد السوق، وكانت حاكمة وسيّدة أعمال بارزة، لكنّ الكولونياليّين البيض لم ينظروا بعين الرضا إلى تلك البُنية، وصمّموا على إخضاعها للنموذج الغربيّ، فقمعوا التاجرات بشكل ممنهج، رغم احتجاجهنّ وخروجهنّ في مظاهرات عديدة، ونجحوا أخيراً بنقل اقتصاد السوق إلى أيدي الذكور. أومو أوكوي، كانت آخر ملكة من «ملكات السوق»، انتُخِبت رئيسة لـ «مجلس الأمّهات» العتيق، وهو بقيّة من بقايا النظام الماترياركيّ دمّره البريطانيّون في نهاية المطاف، عندما نقلوا الإشراف على تجارة الجملة من مجلس الأمّهات إلى سلطات المدينة المحليّة، بعد وفاة أوكوي عام 1943.

في مفارقة أخرى أساسيّة، أتاحت الإمبراطوريّة الفرصة أمام بعض النساء لاكتشاف عوالم جديدة، فانتهزتها البريطانيّات على وجه الخصوص للفرار ممّا يعيقهنّ في الوطن، وأصبحن طبيبات ومدرّسات وقائدات ومقاتلات ومزارعات في الحقول، بينما أُجبِرَت غيرهنّ على الاستسلام لدوّامة الانحطاط العتيق الذي ما زلنا نحاول الخلاص منه اليوم. قصص النساء الرائدات تبيّن كيف تكيّفت المرأة بذكاء وشجاعة، مع الرسائل المتناقضة التي ترافقت مع مكانتها الدونيّة المتأصّلة، وكيف تحوّلت مساهمتها في مجتمعها الجديد إلى ضرورة حيويّة لا غنى عنها. مع مرور الزمن، توسّع نسيج الإمبراطوريّة –وهي مجرّد بلد أمّ، ومجتمع– لكنّ أفقه أصبح أضيق، وعمل على خنق استقلال المرأة الوليد في مهده، قبل أن تتاح له فرصة الازدهار والترسّخ.

في تناقض صارخ مع شوفينيّة التاريخ الذي يمجّد الإمبراطوريّة، لا يمكننا أن ننظر إلى تلك الحقبة الإمبرياليّة إلّا بوصفها «فرصة فاشلة». كلّ ما ربحه العالَم كان مجرّد نسخة عن باترياركيّة الذكر الأبيض، التي تركها الإمبرياليّون نظريّاً خلفهم، لكنّهم أسّسوا باسم «الوطن الأمّ» كلّ ما يريده «الأب» أو يحتاجه أو يستغلّه منذ بدء التاريخ. هذا النموذج بدأ مع فجر الديمقراطيّة في أمريكا، حين اختار الآباء المؤسّسون ذلك النظام، على الرغم من معارضة آبيغيل آدامز[12]، ومناشدتها القويّة لزوجها جون: «أتمنّى منك أن تتذكّر السيّدات، وأن تكون إيجابياً إزاءهنّ أكثر من أسلافك. أناشدك ألّا تضع سلطة كهذه في يد الأزواج، بل تذكّر أنّ الرجال جميعهم يتحوّلون إلى طغاة إن سنحت لهم الفرصة».

قد يصبحون طغاة، وهو ما فعلوه! استمرّت الباترياركيّة، وسحقت في طريقها النساءَ والأطفال والأعراق الأصليّة، وضحّت بأفضل شبابها لنشر الموت على بعد آلاف الأميال من الوطن، مسخّرة أولئك النساء والأطفال والشباب والسكّان الأصليّين لخدمة أوهامها المضلّلة. عندما اتّحد التمييز الجنسيّ مع التمييز العنصريّ في حلقة مفرغة من الهيمنة، وجدت المرأة نفسها ضحية الطرفين، كما يتوضّح لنا من الأحداث التي وقعت أثناء عصيان الجيش الهنديّ عام 1857. عندها، أسرت فيالق السيبوي[13] المتمرّدة النساءَ الإنجليزيّات بعد سقوط مدينة كوانبور (كانبور حاليّاً)،

12- Abigail Adams (1744-1818) زوجة الرئيس جون آدامز، كانت مناصرة لاستقلال الولايات الأمريكيّة عن بريطانيا العظمى، ومدافعة لا تلين عن حقّ المرأة بالتعليم، ومناهضة للعبوديّة. الاقتباس المذكور يرد في رسالتها لزوجها، أثناء تواجده في «مؤتمر القارّة الثاني» للبتّ في مسألة الاستقلال، وفيها جادلته أنّ الحريّة يجب أن تنطبق على النساء الأمريكيّات كما الرجال بالضبط، وإلّا ستقوم النساء بثورة حقيقيّة. المترجمة

13- seboy تعني في الأصل جنديّ مشاة هنديّ مسلّح ببندقيّة في الجيش المغوليّ. في القرن الثامن عشر، وظّفت «شركة الهند الشرقيّة» التي تمثّل الحكومة البريطانيّة، أعداداً كبيرة من الجنود الهنود لمصلحتها في الهند، وأطلقت عليهم اللقب ذاته. المترجمة

وحبستهن في البيبيغار bibighar (يُترجَم حرفياً إلى منزل النساء)، وهو قصر بناه أحد الضبّاط الإنجليز لخليلته الهنديّة. رفض الجنود السيبوي أن يلوّثوا أيديهم بدماء الأسيرات، لكنّهم أرسلوا سفّاحين عوضاً عنهم. عندما بسط البريطانيّون سيطرتهم على مدينة كوانبور مجدّداً، وجدوا البيبيغار مليئاً بالدماء، والملابس الداخليّة النسائيّة، والشَعر، والأطراف المبتورة، والأجساد العارية التي تمّ التنكيل بها وقتلها. تقاسم الجنود الإنجليز خصلة من شعر إحدى الضحايا الشابّات، وأقسموا على قتل سيبوي لقاء كلّ شعرة منها، كما أعلن القائد البريطانيّ، الجنرال نيل، أن عقاب المتمرّدين سيكون «الأفظع، والأقسى، ولن ينساه أحد». أُجبِرَ الأسرى من السيبوي على لعق البيغار بألسنتهم لتنظيفه تماماً من الدمّ، وهو ما يحكم عليهم بالعذاب الأبديّ وفقاً لعقيدتهم الدينيّة، من ثمّ جُلِدوا على الملأ وشُنِقوا، في «حمّى الانتقام الهمجيّ، الذي يمثّل حلقة مخزية من حلقات التاريخ البريطانيّ».

في تلك المجزرة المروّعة، وما نتج عنها من عواقب، تضخّمت الثيمة الإمبرياليّة بشدّة، وأصبحت أكثر وضوحاً رغم كلّ النفاق التاريخيّ المعاصر. الرسالة واضحة: الهيمنة والمهيمِن. كلّ الحركات الإمبرياليّة، على الرغم من الحريّات الجديدة التي ادّعت تقديمها، عملت على ترسيخ انتماء المرأة إلى الطبقة الأدنى، وإلى العِرق الخاضع دائماً.

ولكن...

تحت ذلك الهدوء الذهبيّ الأبديّ الحالم، يتخمّر شيء مختلف، وبعد آلاف السنين من الصراع الإنسانيّ، سينقلب التيّار!



الجزء الرابع

انقلابُ التيّار

جلستُ أتأمّل الرجالَ جميعهم في
تشارترهاوس
وتساءلتُ: لِمَ ليس النساء جميعهنّ؟!

• جورج برنارد شو

حقوقُ المرأة

– بالنسبة إلى الجنس، والحقوق، وعدد المواهب الطبيعيّة ومقدارها، سواء كانت المشاعر أم الذكاء، أنتِ أدنى مرتبة.

• الشاعر كوليريدج مخاطباً زوجته سارة.

– الزوج والزوجة هما واحد، وهذا «الفرد الواحد» هو الزوج.

• السير ويليام بلاكستون،
«أعظم القضاة الإنجليز على الإطلاق».

– تاريخ البشريّة، هو تاريخ الأذى والاعتداءات المتكرّرة التي قام بها الرجال ضدّ النساء، وفي نيّتهم إخضاعهن إلى استبدادهم المطلق.

• «إعلان المشاعر والقرارات» في أوّل مؤتمر لحقوق النساء في أمريكا، سينيكا فولز/ 1848.

– إنّ الملكة متلهّفة كي يشارك الجميع في التحقّق من لائحة حقوق النساء، تلك اللائحة الخبيثة الجنونيّة.

• الملكة ڤكتوريا مخاطبة السير تيودور مارتِن، 1870.

في عام 1848، تقدّمت سيّدة إنجليزيّة هي مدام داوسن بطلب للطلاق. زوجها كان يخونها علانيّة، فضلاً عن متعته السرّيّة التي تتمثّل بجلدها

بالسوط، وتعذيبها بفرشاة للشَعر ذات ذروة معدنيّة حادّة. رفضت المحكمة طلبها، كما رفضتْ قبل ثماني سنوات طلب زوجة تعيسة أخرى، هي سيسيليا ماريا كوشراين، التي هربت من حياتها الزوجيّة البائسة ولجأت إلى أمّها في فرنسا، لكنّ زوجها قام بخداعها واستدراجها للعودة إلى إنجلترا، حيث حبسها ليضمن أنّها لن تهجره مرّة أخرى. عندما حصلت أمّها على أمر قضائيّ بمثول الزوج أمام القضاء، في محاولة منها لتحرير ابنتها، استغلّت محكمة كوينز الفرصة لترسيخ القانون: تولَد المرأة في حالة تبعيّة مطلقة لأبيها ومن ثمّ لزوجها، كما أنّها تعطي موافقتها التامّة بمجرّد إقرار الزواج، على حالتها الجديدة المتمثّلة بموتها مدنيّاً. بالتالي، «لا مجال للتشكيك بالسُلطة العامّة للزوج على زوجته، تلك السلطة التي يخوّله إيّاها قانون إنجلترا... من حقّه أن يحتجزها بالقوّة، وأن يضربها». إذن، يحقّ للسيّد كوشراين أن يحبس زوجته كما يشاء، والقانون سيؤيّده كما يؤكّد القاضي، حتّى على حساب حريّة الزوجة: «يُقال إنّني أحكم بالسجن المؤبّد على ماريّا كوشراين، برفضي إجبار زوجها على إطلاق سراحها. أنا واثق بأنّ السعادة تنمو في الحياة الزوجيّة، من خلال التعايش والاتّفاق المتبادل، وأنّ الرباط الزوجيّ الأبديّ يولّد سعادة أعظم من تلك الناجمة عن فصم عرى الزواج».

لا توجد استثناءات! في الفترة ذاتها، رُفض طلبٌ للطلاق تقدّمت به السيّدة أديسون، رغم إثباتها أنّ زوجها الساديّ يعاشر أختها، كما رُفضَ طلب السيّدة تيش بالطلاق أيضاً «استناداً إلى الأخلاق العامّة»، رغم أنّ القاضي شخصيّاً علّق بأنّه «لا يتذكّر دعوى قدّمتها امرأة، أفضل من هذه». في الحقيقة، كان «الرباط الزوجيّ المقدّس» في أوج قوّته آنذاك، رغم أنّ العالم من حوله يتداعى. ما بين 1700–1850م، مزّقت الثورات كلّاً من أمريكا وأوروبا، وحطّمت القيود التي رزحت تحتها البشريّة آلاف السنين. في إفريقيا، الهند، البلدان العربيّة، والشرق عموماً، اخترق المغامرون الإمبرياليّون ذكوراً وإناثاً حدودَ المعرفة الجغرافيّة، ورسموا خريطة جديدة للكوكب. أولئك الذين بقوا في الوطن قدّموا إنجازات لا تقلّ أهميّة، ووهبوا العالَم اختراعات كثيرة، كساعة الجيب، البندقيّة التي يمكن حشوها بعدّة طلقات معاً، آلة

حلج القطن، التلغراف اللاسلكيّ، مولّد الطاقة الكهربائيّة، ولغة بِتْمان للاختزال. تداعت الحدود التي تعيق المعرفة، وتقلّصت المسافات وكأنّها لم تكن موجودة، لكنّ شذوذاً واحداً لم يتغيّر: ما زالت النساء في كلّ مكان سجينات ضمن حالة من العبوديّة الجنسيّة، مستمرّة منذ فجر الحضارة التي صنعها الرجال. بوصولها إلى القرن العشرين، قطعت البشريّة شوطاً طويلاً وفق التقويم المسيحيّ (أطول بكثير وفق تقويم الحضارات الأخرى) دون أن تتبدّل طبيعة الإيمان السائد عالميّاً بتفوّق الذكر، كما استمرّ تلقين المرأة منذ نعومة أظافرها بأنّ الرجل أهمّ منها. في فرنسا ما بعد الثورة على سبيل المثال، علّق أحد المسافرين بأنّ «سيّد المنزل هو أوّل من يسكب الطعام لنفسه على المائدة، يليه بقيّة الرجال حسب أعمارهم ومرتبتهم. أمّا سيّدة المنزل وبناتها وصديقاتها، فلا يقتربن من الأطباق قبل أن ينتهي آخر رجل من سكب حصّته». في منتصف القرن التاسع عشر، تحوّل ذلك الحقّ الذكريّ إلى سلسلة من الامتيازات، تستند إلى حرمان المرأة من كلّ ما يكافئ الرجل نفسه به. «الإعلان» التالي الذي كتبته إليزابيث كادي ستانتون عام 1884 من أجل «مؤتمر حقوق النساء» في سينيكا فولز، نيويورك، يفضح الظلم الذي تلاقيه المرأة على يد الرجل:

– لا يسمح الرجل للمرأة أبداً، بممارسة حقّها الطبيعي بالانتخاب.

– بعد الزواج، يحوّل الرجل المرأةَ إلى كائن ميت لا يملك حقوقاً مدنيّة.

– يسلب الرجل حقّ المِلكيّة من المرأة، بل حتّى الأجر الذي تكسبه... ويصبح سيّداً لها عن سابق قصد وتصميم.

– صاغ الرجل قوانين الطلاق بحيث تلبي رغباته حصراً، بغضّ النظر عن سعادة المرأة.

– سيطر الرجل حصريّاً على كلّ الوظائف المربحة تقريباً.

– حرم الرجلُ المرأةَ من الحصول على منافع التعليم.

– خلق الرجل شعوراً شعبيّاً زائفاً، من خلال ابتداع نظام أخلاقيّ مختلف لكلّ من الذكور والإناث.

تلقائياً، لم ينظر الرجال إلى الموضوع من تلك الزاوية، كما لم يكن المتفعون وحدهم الراضين عن حالة الستاتيكيّة تلك، بل النساء أيضاً. كارولين نورتون، ذاقت مرارة الاستبداد الذكوريّ شخصياً، حين مارس زوجها المحامي «حقّه القانونيّ» واتّهمها بالزنا، فحرمها من أطفالها ومن أيّ مورد للعيش، ومن ثمّ استولى على الدخل الماليّ الذي درّته عليها كتاباتها، وكذلك على حقوق ملكيّة أعمالها الفكريّة. عندما قادت نورتون حملة لإصلاح القانون، قالت: «أنا شخصياً أؤمن بتفوّق الرجل كما أؤمن بوجود الله، وأؤمن أنّ الوضع الطبيعيّ للمرأة هو أن تكون أدنى منه مرتبة»! وكانت على ثقة بأنّها تتكلّم بلسان الملايين غيرها من النساء، فأضافت: «النظريّات الجنونيّة الغبيّة التي تطرحها بعض النساء، عن المساواة بالحقوق، والتساوي بالذكاء، لا تعبّر عن رأي بنات الجنس الأنثويّ جميعهنّ»!

حصدت وجهة نظرها تلك، تأييداً عالمياً على كلّ المستويات. من بريطانيا، عبّرت الملكة فكتوريا عن شعور الطبقات الحاكمة في كلّ مكان، عندما عارضت بصرامة «خدعة حقوق النساء الجنونيّة الخبيثة تلك، بكلّ ما تحمله من شرور انساق لها الجنس الأنثويّ». لقد خشيت من أنّ المرأة ستصبح «مكروهة، وعديمة الرأفة، ومقرفة، وعندها ستعلن الملكة شخصياً براءتها من الجنس الأنثويّ!». شاطرتها النساءُ في كلّ مكان، من كلّ الأعمار والطبقات، مخاوفَها. في تاريخ أمريكا مثلاً، كانت «النساء» المجموعةَ الوحيدة التي عارضت تحرّر المرأة! في بقيّة أرجاء العالم، وُجدت حفنة من المصلحين الذين نجحوا بوضع حقوق النساء على الأجندة الوطنيّة، لكنّهم تعرّضوا إلى هجوم عنيف لفظيّ وجسديّ أحياناً، من قبل المعارضين ذكوراً وإناثاً، الذين أصرّوا على استمرار حالة «الهيمنة الطبيعيّة» للرجل.

في الواقع، وبعيداً عن كونها «طبيعيّة»، تمّت على عجل إعادة تعريف هيمنة الرجل من جديد. العقوبات الباترياركيّة، بدءاً من العزل القانونيّ وصولاً إلى التابوهات الاجتماعيّة، كانت تُصاغ بالجملة لمجابهة التهديد الذي مثّلته نساء مستعدّات للمخاطرة «بنفي أنفسهنّ من الجنس الأنثويّ»، كي يضعن أيديهنّ على بعض المزايا التي تمتّع بها الرجل طيلة قرون، دون أن

يتسبّب ذلك بأيّ أذى على الإطلاق لأعضائه التناسليّة. المُصلِحة الاجتماعيّة بياتريس ويب مرّت بتلك التجربة شخصياً، عندما زارت البروفيسور ألفرد مارشال في جامعة لندن، في آذار من عام 1889، الذي كانت تعدّه قدوةً لها، كي تناقش معه مشروع بحثها الجديد. رغم أنّها باحثة متمرّسة أجرت عدداً لا يستهان به من الأبحاث، لكنّ بياتريس وجدت نفسها تتلقّى النصيحة التالية من المشرف عليها: «المرأة هي كائن خاضع، وإن امتنعتْ عن الخضوع، لن يتزوّجها أيّ رجل. الزواج هو تضحية بالحريّة الذكوريّة، ولن يتحمّله الرجل إلّا من خلال الإخلاص المطلق روحاً وجسداً، الذي يتبادله كلّ من الذكر والأنثى. لذلك، يجب على المرأة ألّا تطوّر مقدراتها بأيّ طريقة قد تزعج الرجل. القوّة، الشجاعة، الاستقلاليّة... ليست صفات جذّابة في المرأة، ومحاولتها أن تنافس الرجل في مجالاته هي أمرٌ بغيض»، من ثمّ اختتم البروفيسور نصيحته ضاحكاً بالعبارة التالية: «إن نافستِنا، لن نتزوّجكِ».

ترسيخ دونيّة المرأة لم يتمّ من خلال محاولات فرديّة فقط، فخلف كلّ ذكر باترياركيّ مرتعب، تضافرت العوامل التاريخيّة لخلق شروط جديدة تقمع النساء. ظهرت قيود جديدة، وفخاخ، وسياط، واختراعات متنوّعة... إلخ، جنباً إلى جنب مع العوامل التي أدّت إلى نشوء العالَم الحديث المعاصر. عموماً، يمكن تصنيف تلك العوامل إلى ثلاثة تطوّرات مختلفة متداخلة:

- المؤسّسات الصناعيّة، وصعود الرأسماليّة.
- ولادة العلم الحديث، وإعادة تعريف «طبيعة المرأة».
- استجابة المشرّعين للتغيّرات الاجتماعيّة.

الضرر الذي سبّبته ويلات الثورة الصناعيّة، كان الأوضح بين تلك الفئات الثلاث. إنتاجُ المصنع كما تشرح أوليف شراينر، وهي نسويّة من دولة جنوب إفريقيا، حرم المرأة من دورها القديم المتمثّل بالعمل الاجتماعيّ المثمر. «لقد كُسِرَت كلّ مغازلنا، ولم نعد نجرؤ على التباهي كأسلافنا بأنّنا وحدنا، وحدنا فقط، من نكسو شعبنا بالملابس. لفترة ما، احتفظنا بالمِعجَن ووعاء التخمير، لكنّ الآلات البخاريّة تصنع لنا خبزنا اليوم، كما أنّ الأرغفة تصل إلى بابنا».

خسارةُ نمط الاقتصاد المنزليّ عتيق الطراز، أطاحت بالمرأة من مركز البنية التي أعطتها مكانة وسدّت احتياجاتها فيما مضى، ودفعتها للمرّة الأولى إلى مواجهة نظام صارم يتمّ فيه تقسيم العمل بينها، وبين الرجل الذي يُعدّ الآن نوعاً جديداً من الأبطال، مسؤولاً عن كسب لقمة العائلة. إنّها خطوة نقلتِ المرأةَ أوتوماتيكياً إلى مستوى وضيع هامشيّ، أسوأ ممّا اختبرتْه سابقاً. فَصَلتْها شروطُ العمل الجديدة عن عملها المُثمِر القديم (كتخمير البيرة أو صناعة الخبز)، وكذلك عن الرجل. فيما مضى، كان الزوجان شريكين ناجحين متلازمَين في وحدة الإنتاج المنزليّة. أمّا الآن، فقد أُجبِرَت المرأةُ على الانسحاب، بينما تلقّى الزوج تدريباً خاصّاً على إنجاز أعمال صناعيّة معقّدة. دُفِعَت النساءُ إلى مستوى أدنى فأدنى، وإلى مِهن عاديّة ذات أجر بائس، وأدّى إسهامهنّ الهامشيّ في الاقتصاد عموماً إلى تدنّي مرتبتهنّ أكثر.

هذا التقسيم الجندريّ للعمل أثّر على النساء جميعهنّ، لا على اللواتي ينتمين إلى «الطبقة العاملة» الناشئة فحسب. في الحقبة ما قبل الصناعيّة، عاشت معظم النساء وعملن في وحدات منزليّة - تجاريّة بآن واحد، يشتركن فيها مع أبنائهنّ، وأقربائهنّ من الأرامل والأطفال الأيتام وكبار السنّ، والخادمات والخدم والمتدرّبين. الفصل ما بين المنزل والعمل، فصل المرأة أيضاً عن عملها المثمر، وعن زوجها، وعن ذريّتها، وعن غيرها من النساء، وحرمها من التحكّم بحياتها ومن الوصول إلى العالم الخارجيّ. لا الزوجاتُ الفقيرات من الطبقة العاملة الدنيا، ولا زوجاتُ الأثرياء، كان لهنّ تأثير هامّ أو دور في تدبير الأحداث، كما لم يحقّ لهنّ تقرير أيّ شيء بما يخصّ العمل، حتّى ولو كنّ مجبرات على القيام به. في القرن التاسع عشر، دُفِعَت النساء في كلّ المجتمعات الاقتصاديّة المتقدّمة إلى طرفي نقيض، بعد أن ظلّت مرتبة معظم النساء سابقاً -والرجال أيضاً- تتراوح في المنتصف، حسب مقدراتهنّ وظروفهنّ.

مع تحويل النساء إلى طبقة وضيعة منفصلة عن المجتمع، تنامى الشعور بوجود مشكلة فريدة من نوعها، تظهر للمرّة الأولى، وهي «قضيّة المرأة». تطلّبت المعضلاتُ الجديدة حلولاً جديدة، ومن بين الأدوات الجديدة التي

حملها القرن التاسع عشر، كان العلم أكثرها نفعاً في يد صنّاع الرأي القلقين، إذ وفّرت المعرفةُ العلميّة الجديدة بما حملته من يقين، راحةً مطلقة. أصبح من الممكن قياس وزن دماغ الإنسان بدقّة تصل إلى أجزاء الميكرو غرام، ونشأ فرع علميّ جديد هو «علم القحف» Craniology طرح نظريّة لا تقبل الشكّ، هي أنّ الذكاء مرتبط بحجم الدماغ، من ثمّ «برهنَ» على أنّ دماغ الذكر الأبيض، أكبر من دماغ السود والآسيويّين وسكّان أمريكا الأصليّين، وغيرهم من «الأعراق الخاضعة».

إسهام علم القحف بـ «قضيّة المرأة»، تمثّل بتقديم براهين عصماء على أنّ دماغ الذكر أكبر من دماغ الأنثى، لكنّ اليقين الذي أسبغته تلك البراهين على مسألة التفوّق الذكوريّ، لم يدم طويلاً. تخسر المرأة أمام الرجل بالنسبة لكتلة الدماغ المطلقة، لكنّها تربح بجدارة من حيث نسبة حجم الدماغ إلى حجم الجسم. تلك النسبة خلقت معضلة صعبة، أمام تبرير هيمنة الرجل استناداً إلى مبدأ الذكاء الذكوريّ المتفوّق. لذلك، ادّعى أنصار علم القحف أنّ الذكاء يتموضع في الفصوص الدماغيّة الجبهيّة والجداريّة والقفويّة، وفي أيّ جزء آخر من الدماغ يبدو أكبر عيانيّاً عند الرجل منه عند المرأة. في خضمّ تلك الافتراضات «العلميّة» الزائفة، لم يتمكّن أيّ شخص من الإجابة على السؤال الجوهريّ التالي: إن كان امتلاك قضيب ودماغ كبير هو ما يميّز سيّد الخلق، إذن، لِم لا تحكم ذكورُ الحيتان العالَم؟!

بالطبع، لم يكترث أحدٌ بالحيتان، بل انشغل حاكمُ العالم بإثبات أنّه مجرّد قرد ضخم، فقد اكتملت البراهين ضدّ ذكاء المرأة، عندما انبرت نظريّة التطوّر لمساندة علم القحف، إذ اعتبر تشارلز داروِن أنّ «دماغ المرأة الذي لم يتطوّر كدماغ الرجل، هو مثال وصفيّ نموذجيّ عن دماغ الأعراق الدنيا، وبالتالي عن مرحلة سابقة أدنى من الحضارة».

ما سبق يؤكّد لنا أنّ التحيّز العلميّ المغرور، الذي جسّد ملمحاً أساسيّاً من ملامح العالم المعاصر، لم يُسخَّر للبحث الموضوعيّ عن حقائق جديدة، بل تمّ توظيفه روتينيّاً لاجترار الأكاذيب القديمة. بالإضافة إلى ذلك، أصبح العلم بحدّ ذاته أداة للسلطة. عندما احتلّ الرجال مملكة العلم

العذراء الشاسعة، ادّعوا أنّهم يمتلكون الحقّ بتقرير ما هي «القاعدة» أو «الوضع الطبيعيّ»، وكيف ينبغي أن تكون. انتصار العلم اختتم مرحلة تمتدّ بجذورها إلى فجر البشريّة: منبع القوّة المطلق أو الخالق الأسمى، الذي مثّله رحمُ الأنثى الإعجازيّ في السابق، ثمّ اضطلع به الفالوس المقدّس، أصبح الآن دماغ الرجل. من خلال تشويه أهمّ وظيفة من وظائف الإلهة الأمّ المقدّسة، أنجب دماغُ الذكر العلميّ المرأةَ بنسختها القزم القاصرة، التي ما زالت تعيقنا حتّى اليوم. العلم الحديث، في دور مشابه للثورة الصناعيّة، تآمر على دور المرأة والغاية من وجودها، وعرّفهما تعريفاً جديداً رسّخ دونيّتها، وزاد وضعها سوءاً. الأطباء -بمن فيهم المختصّون بطبّ النساء- علماء الفيزيولوجيا، علماء البيولوجيا، «علماء الفراسة»، والمشعوذون، أسهموا جميعهم بـ «قضيّة المرأة»، وقدّموا «نظريّات علميّة» لا حصر لها عن طبيعة المرأة. نظريّاتهم كلّها، لم تتوصّل إلى استنتاج يتعدّى مستوى معلومات أيّ رجل عاديّ في الشارع آنذاك: المرأة ضعيفة، والرجل أقوى. لذلك، هيمنة الرجل ليست مجرّد حقّ من حقوقه فحسب، بل ضرورة حتميّة. الإسهام المميّز الذي تقدّم به «الأطبّاء الجيّدون»، وهو إسهام غزير في الحقيقة، تلخّص بتقديم «برهان علميّ» على أنّ المرأة ضحيّةٌ أبديّة لـ «فيزيولوجيّتها الظالمة». معنى هذه العبارة بالنسبة للنساء، يشرحه بأسى الدكتور جورج. جي. إنجلمان، رئيس الجمعيّة الأمريكيّة لأطباء النساء والتوليد:

«تُهزَم العديد من اليافعات، ويصبحن معاقات إلى الأبد بسبب عواصف البلوغ. إن نجون سالمات، ولم يتمزّقن أشلاء بسبب الإنجاب، لربّما يصمدن خلال مصاعب الطمث المتكرّر. أخيراً، عند الوصول إلى سنّ الضهي، سيجدن ملاذاً آمناً بعيداً عن العواصف الجنسيّة».

بما أنّ فيزيولوجيا المرأة أزمة تهدّد حياتها، استنتج الذكر بدماغه العلميّ المنطقيّ أنّه لا يجوز الوثوق بـ «وعاء هشّ» مثلها. المرأة التي تمّ تمحيصها بعدسة العلم الزائفة، تحوّلت إلى مخلوق ميئوس منه: جسدها هشّ، وعقلها ضعيف كما يؤكّد «علم القحف» بصرامة. الاضطرابات العصبيّة، وعدم الاستقرار العقليّ، أمراض تصيبها غالباً. الأهمّ من ذلك كلّه، هو ألّا أمل

يرتجى من علاج نقص الطبقة الرماديّة في دماغها بواسطة التعليم، بل إنّ أيّة محاولة لفرض التعليم على الفتاة اليافعة، ستعرّض أجزاء دماغها الضعيف إلى خطر «التحريض المفرط»، الذي يؤدّي بدوره إلى عواقب وخيمة. الفيلسوف هربرت سبنسر، الذي هاجمه توماس كارلايل سابقاً بوصفه «أعظم وغد في تاريخ المسيحيّة»، نظراً لدوره في الجدل حول نظريّة التطوّر، كان أبرز من أخذوا على عاتقهم كشفَ التأثيرات السلبيّة لإجبار الشابّات على التعلّم: «التوتّر العصبيّ، فقر الدم، الهستيريا، تأخّر النموّ، والهزال الشديد» هي أبسط الأخطار التي يجب على المرأة أن تتوقّع الإصابة بها، إن لمست نسخة من أشعار كاتلوس[1]، مجرّد لمس! وهذا ليس كلّ شيء، فكما يحذّرها سبنسر، إرهاق الدماغ يثبّط نموّ ثديي الفتاة. بالتالي، «تلك التي تنجو من ضغوط التعليم، لن تستطيع مطلقاً أن تربّي طفلاً حَسَن النموّ».

سبنسر ليس الوحيد الذي آمن بأنّ إنقاذ المرأة من «جهلها الطبيعيّ»، سيؤدّي إلى ولادة عِرق ضعيف سقيم جبان. إنّها مخلوق ذو عقل ضعيف للغاية، ميئوس من تعليمها، لا تصلح لأيّ شيء. بناء على ذلك، تحوّلت الهشاشة الجسديّة والعقليّة المنسوبة للمرأة، إلى أساس لإنكار حقوقها المدنيّة والقانونيّة، وممانعة تغيير «حالتها الطبيعيّة» بالمطلق. في بريطانيا عام 1907، اعترض إيرل هالستيد في مجلس اللوردات، على قانون يمنح النساء الإنجليزيّات حقّ التصويت محليّاً على نطاق محدود، فقال: «أعتقد أنّ المرأة هستيريائية للغاية، تنقاد لمشاعرها لا لنصيحة المنطق المجرّد... وأنا أرفض المساومة. لا أعتقد أنّ النساء صالحات للحكومة، بل إنّهن لا يصلحن لشيء على الإطلاق».

ناصره أرستقراطيّ آخر بارز من النبلاء الإنجليز، هو اللورد جيمس أوف هيرفورد، انطلاقاً من مصلحته الذكوريّة المحضة: «إن ألغينا الوضع الذي شغلته المرأة حتّى الآن، والذي حَبَتها إيّاه الطبيعة لا التعليم المصطنع، وإن

1- غايوس ڤاليريوس كاتلوس Gaius Valerius Cattulus (84ق.م-54ق.م): شاعر لاتينيّ عاش في الجمهوريّة الرومانيّة المتأخّرة، كتب بأسلوب جديد يروي حوادث الحياة الشخصيّة، عوضاً عن ملاحم الأبطال الكلاسيكيّة. المترجمة

نقلناها من الحياة المنزليّة إلى الحياة السياسيّة... نخشى أنّ كلّ عائلات المجتمع ستعاني بسبب ذلك الانتقال». من الواضح أنّ معالي اللورد لم يشغل نفسه بالتعليم «المصطنع» ولا بغيره، لكنّه شدّد على النقطة الأهمّ: أيّة محاولة تقوم بها المرأة للخلاص من الدونيّة المفروضة عليها، ستؤدّي إلى تدمير نسيج المجتمع. لذلك، لا بدّ من قمعها.

بما أنّ «الحالة الطبيعيّة» تتمثّل بمرتبة المرأة المتدنيّة وموتها مدنياً، إذن، لماذا تطلّب الإبقاء عليها كلّ تلك الضوابط الاجتماعيّة والثقافيّة؟! إضافة إلى الثورة الصناعيّة، وانتصار العلم على البديهة والمنطق، كانت القوانين التشريعيّة في القرن التاسع عشر هي العدوّ الأكثر خبثاً لتحرّر المرأة. تجلّى العداء أوضح ما يكون في فرنسا، حيث استُقبِل «قانون نابليون» بالتهليل والترحاب، باعتباره أعظم تطوّر قانونيّ في عصره. لا يوضّح لنا التاريخ هل نجم ذلك الحماس عن الجهل، أم عن إدراك الرجل بأنّ «قانون نابليون» هو التشريع الأشدّ قمعاً للمرأة على مرّ العصور. سابقاً، تحت مظلّة النظام الملكيّ القديم، تمتّعت المرأة الفرنسيّة بحريّة أكبر نسبيّاً، وببعض السلطة على أملاكها، وبموقع مؤثّر في مجتمعها، وهي حقوق وسّعتها الثورة الفرنسيّة نوعاً ما، من خلال تسهيل إجراءات الطلاق على سبيل المثال. الآن، بإصراره على إعادة صياغة قوانين فرنسا استناداً إلى القوانين الرومانيّة -أو بالأصحّ: الكورسيكيّة- سنّ نابليون تشريعاً صارماً يجبر المرأة على الخضوع المطلق للرجل، ويحوّلها إلى عبدة مطيعة تنفّذ كلّ رغباته. حمل ذلك القانون بصمة شخصيّة لا يمكن إنكارها، «ينبغي على المرأة أن تكتفي بالحياكة» قال نابليون لابن مدام دو ستيل[2]، التي لم تكن مشهورة بمهاراتها باستخدام صنانير الحياكة بأيّ حال! موقفه من المرأة ينمّ عن ضيق أفقه، وعن آرائه المتحيّزة الجلفة، فضلاً عن إصراره على أنّ كلّ ذكر من ذكور فرنسا يجب أن يصبح الحاكم المطلق لأسرته، اقتداءً به شخصيّاً بوصفه الحاكم الأوحد للبلاد. مرّر نابليون «إصلاحاته» من خلال مجلس الأمّة،

2- آن لويز جيرمين دو ستيل (1766-1817)، كاتبة وناقدة فرنسيّة - سويسريّة، ومنظّرة سياسيّة، جسّدت صوت الحداثة أثناء الثورة الفرنسيّة والحقبة النابليونيّة. المترجمة

وأعلن أنّ الرجل يجب أن يتمتّع بسلطة مطلقة لا تُناقَش، ومن حقّه أن يقول لزوجته «يا مدام، لن تذهبي إلى المسرح، ولن تستقبلي فلاناً، لأنّ الأطفال الذين ستنجبينهم يجب أن يكونوا أطفالي». بالمثل، على كلّ امرأة أن تدرك أنّها ستنتقل إلى وصاية زوجها، عندما تخرج من وصاية عائلتها.

بما يخصّ «الوصاية»، سلّح قانونُ نابليون الزوجَ بقوى استبداديّة استثنائيّة لم يسبق لها مثيل. يمكنه الآن أن يجبر زوجته على الإقامة معه، أو الانتقال إلى أيّ مكان يقرّره. كلّ ما تملكه أو تكسبه الزوجة أصبح مِلكاً له، وعند الطلاق يحتفظ بالأطفال وبالمنزل بما فيه من أغراض، فلا حقّ للمرأة بمِلكيّة مشتركة. في حالة الزنا، تُسجن المرأة فترة قد تصل إلى عامين، أمّا الرجل فلا يخضع للعقاب.

أحوال المرأة الفرنسيّة خلال العصور المظلمة، كانت أفضل بكثير من وضعها تحت قانون نابليون عام 1804. تلك التراجيديا تكرّرت في زوايا الكوكب، بعد أن اقتبست العديد من البلدان «قانون نابليون» كنموذج، جنباً إلى جنب النظام المتريّ الذي اكتسح العالم.

رغم أنّ قوى القمع الباترياركيّة المستبدّة أعادت تشكيل صفوفها، لكنّها حملت بذور هزيمتها في طيّاتها. الثورة الصناعيّة جعلت بحثَ النساء عن هويّة جديدة وغاية لحياتهنّ أمراً ملحّاً لا غنى عنه، كما أنّها وضعت وسائل تحقيق ذلك في أيديهنّ عن غير قصد. نجاحها بخلق الثروة، خلق أيضاً الزوجةَ التي لا تعمل، كإعلان عن نجاح الزوج على الصعيد الاجتماعيّ. فائض البضائع والثروات، خلق أيضاً فائضاً من النساء، ومفهوماً تاريخيّاً جديداً يتمثّل باعتماد المرأة ماديّاً على الرجل بشكل تامّ. بالتالي، وجدت أعداد كبيرة من نساء الطبقة البرجوازيّة الصاعدة أنفسهنّ مرميّات في الليمبو، ما بين مرتبة لعبة خزف، ومرتبة حيوان منزليّ أليف، فتقمّصن دور «النساء الصغيرات» الكلاسيكيّ الذي ما زال موجوداً حتّى اليوم. عوضاً عن العمل وعن الأهميّة، قُدِّم للزوجة الخاملة ذلك الهراء الحديث، ككتاب «الفنون المنزليّة» لمؤلّفته السيّدة بيتون، أو «الإتيكيت في المجتمع، في العمل، في السياسة، وفي المنزل» لإيميلي بوست، أو «لغة الأزهار».

بمرور الزمن، هذا «الشذوذ الذكوريّ الغريب، الذي يطلب من المرأة أن تكون عديمة القيمة» بكلمات المؤرّخ آموري دي رينكور، «أثبت أنّه غلطة شنيعة. السجلّات التاريخيّة تبيّن أنّ النساء، بشكل ما أو بآخر، يجب أن يتموضعن في المركز، وأنّهنّ لا يحتملن البقاء عاطلات أو هامشيّات لزمن طويل». العطالة القسريّة قدّمت للسيّدات المرفّهات وقتاً كافياً لتفحّص نمطِ حياتهنّ الواهن المحبِط، واعتمادِهنّ على الرجل سواء ماديّاً أو من أجل المكانة والمعنى. رغم فرض نمط الحياة الغبيّ الوحشيّ الشاذّ عليهنّ، باعتباره أسمى أشكال وجود الأنثى وأقصى طموحاتها، خرج الصراع بين نمط الحياة القائمة وتلك التي يجب أن تكون، عن نطاق سيطرة الرجل.

من ناحية أخرى، بنات الطبقة العاملة اللواتي لا يتاح لهنّ ترف تمحيص حياتهنّ، والخاضعات خضوعاً مطلقاً لأزواجهنّ وأسيادهنّ، رزحن تحت عبء مضاعف جديد، تمثّل بالعمل ضمن المصنع طيلة النهار، من ثمّ القيام بالأعمال المنزليّة فيما يتبقّى من الوقت. رغم ذلك، مرّت المرأة العاملة قبل أن تتزوّج بتجربة أن تكون جزءاً من سلالة جديدة، مهما كانت تلك التجربة قصيرة. الانتقال من النظام الصناعيّ إلى الرأسماليّة، خلق طيفاً من الوظائف الحديثة، في قطاع التمويل والمصارف، في إدارة الأعمال وتجارة التجزئة، وضمن نطاق التكنولوجيا الجديدة كالتلغراف والطباعة على الآلة الكاتبة. اقتحمت ملايين الشابّات صفوف «النساء العاملات»، كمختزِلات، وعاملات في مقاسم الهاتف، ومحاسبات، ومساعدات في المتاجر، وسكرتيرات. تلك التجربة الحديثة لقّنتهنّ درساً، وهو أنّ «إتقان اللغة الفرنسيّة في المدرسة، والموسيقى، والرقص، ورسم الزهور، والتطريز» لا يؤهّلهنّ بالضرورة للحصول على وظيفة مربحة. فضلاً عن ذلك، خرافة أنّ المرأة تترك وظيفتها حتماً عندما تتزوّج، هي فكرة دحضتها خبرة الاختصاصيين الاجتماعيّين، كالمُصلِحة البريطانيّة إليزابيث آن راي، في تقريرها عن وضع «الشابّات اللواتي يطلبن عملاً» عام 1861:

«تنهال طلبات التوظيف على مكتبي كلّ يوم، فضلاً عن أنّ كلّ المدن وكلّ المقاطعات في المملكة المتّحدة تُرسل لي طلبات مستعجلة. لسوء

الحظّ، تجربتي في هذا المجال مشابهة لتجربة غيري، ويمكنني أن أؤكّد أنّ مكتباً بحجم مكتبنا، سيستقبل يومياً ما لا يقلّ عن مئة وعشرين امرأة يبحثن عن عمل، لكنّنا لا نجد ولو وظيفة واحدة شاغرة لأيٍّ منهنّ».

في تلك الظروف، هزمت المرأة العاملة خرافةَ الرجل المسؤول وحده عن كسب لقمة العائلة، وكذلك صفة «الزوجة المتبطّلة»، واكتشفت أنّ حياتها ومصالحها مستقلّة عن حياة ومصالح الرجل. لكن للأسف، لم تستمتع العازبة بثمار استقلالها الماديّ لفترة طويلة، لأنّ الرجل كان يستولي بعد الزواج على ما كلّ كسبته. ذلك الاستقلال الاقتصاديّ الوجيز، والأجر الزهيد الذي لا يتجاوز وسطياً نصف ما يكسبه الرجل، لم يسمحا للمرأة بتناسي أنّها لا تساوي الكثير!

هناك عوامل أخرى بالطبع، جعلتِ المرأةَ ترفض الصورة المفروضة عليها وفق التقييم الذكوريّ السائد. النساء اللواتي نجون من مغامرات الإمبراطوريّة، بكلّ ما فيها من دمار وموت، ومن نار ومجاعات، لم يقبلن بـ«الاكتشاف العلميّ» الجديد، الذي أعلن أنّ المرأة مخلوق ضعيف. خلّد التاريخُ فلورنس نايتنغيل على أنّها «السيّدة ذات المصباح»، أمّا في الحياة الواقعيّة، فقد كانت معروفة في كريميا بـ«السيّدة ذات الفأس»، لأنّها حطّمت باب مخزن للمؤن بضراوة، عندما مُنِعَتْ من أخذ اللوازم الطبيّة التي تحتاجها. بين كلّ الصعاب والإهانات الأخرى التي تعرّضت لها، لم يجرؤ أحد على نعتها بأنّها ضحيّة لتكوينها الفيزيولوجيّ الدونيّ. بالمثل، اشتهرت الجنرال هارييت تَبمان بعملها في أنفاق سكّة الحديد، كي تهرّب العبيد الأمريكيّين السود إلى الحريّة، بنقلهم من عمق الجنوب الأمريكيّ إلى الولايات الشماليّة. خلال الحرب الأهليّة، شنّت عمليّة أسفرت عن تحرير ما يزيد على سبعمئة وخمسين عبداً، وهي الحملة العسكريّة الوحيدة في تاريخ الولايات المتّحدة الأمريكيّة التي تخطّط لها، وتقودها، امرأة.

رفضت النساء من أمثال نايتنغيل وتبمان وأنصارهما، التعايشَ مع تلك الصورة الضحلة المهينة التي يروّجها رجال عصرهنّ عن المرأة. سوجورنر تروث، وهي عبدة سابقة امتلكتها أختُ تبمان، ثمّ أصبحت ناشطة مناهضة

للعبوديّة، كانت أفضل من لخّصت احتجاجات بنات جنسها في «مؤتمر حقوق المرأة» عام 1851:

« يقول ذلك الرجل هناك، إنّ من الواجب مساعدة النساء بركوب العربة، وحملهنّ فوق الخنادق، وإعطاؤهنّ الموقع الأفضل حيثما كان. لم يساعدني أحد قطّ بركوب العربة، أو القفز فوق برك الماء في الشارع، ولم يعطوني أفضل مكان... ألستُ امرأة؟!

انظروا إلى هذه الذراع! لقد حرثتُ وبذرتُ وسقتُ القطعان إلى الحظائر، ولم يسبقني أيّ رجلٍ إلى ذلك... ألستُ امرأة؟!

أستطيع أن أعمل، وأن آكل كالرجل تماماً -إن توفّر لي الطعام- وأن أتحمّل السوط... ألستُ امرأة؟!

لقد أنجبتُ ثلاثة عشر طفلاً، ورأيتُ معظمهم يُباع إلى العبوديّة، وعندما بكيتُ حزناً على موت أمّي، لم يسمعني أحد إلّا يسوع المسيح.... ألستُ امرأة؟!».

في نهاية المطاف، لم يكن العلماء هم من حرّضوا ثورة النساء، بل المشرّعون بمحاولاتهم الوحشيّة الفاشلة لترسيخ قواعد السلطة الباترياركيّة المتقلقلة. إصرار النساء على حقّهنّ بالعدالة وبالحريّة الفرديّة وبمرتبة فرد كامل، مثّل الموجة الأخيرة من موجات الاضطرابات السياسيّة الكبرى في «قرن الثورات». برفع أصواتهنّ بمطالبهنّ، سارت النساء على خطى الرجال، الذين نجحوا في كلّ مكان من أرجاء العالَم الصناعيّ بإرساء مفهوم جديد للمشاركة الاجتماعيّة. المبادئ الديمقراطيّة تنصّ على أنّه لا يمكن منح امتياز لمجموعة من المواطنين، وإنكاره على مجموعة أخرى، رغم أنّ من يمسكون بزمام السلطة لم يتورّعوا عن محاولة القيام بذلك. عندما اضطرّت الحكومات لتعديل التشريعات القديمة في استجابة للمطالب الديمقراطيّة، انتهزتِ الفرصةَ -للمرّة الأولى في التاريخ- من أجل حرمان النساء بشكل مقصود وممنهج، من كلّ الحقوق التي اكتسبها الرجال حديثاً. على كلٍّ من ضفّتي المحيط الأطلسيّ، تمّ تفسير «حقوق الإنسان» حرفيّاً على أنّها حقوق الرجال حصراً، لا البشريّة جمعاء.

كان ذلك مهيناً على نحو خاصّ بالنسبة للمرأة -الإنجليزيّة على الأقلّ- لأنّ الرجل انتصر بالحصول على حقوق جديدة، كـ«رجل واحد، صوت انتخابيّ واحد»، بينما تعرّضت هي إلى قمع لا مثيل له. سابقاً، لم تكن هناك ضرورة للتمييز تشريعيّاً ضدّ النساء، ولم يمنع القانون المرأةَ من الجلوس في البرلمان، كما فعلت رئيسات أديرة شافتزبوري وباركنغ وويلتون وسانت ماري وينشستر طيلة قرون. حتّى نهاية حكم آل ستيوارت، احتفظت النساء الأرستقراطيّات بحقّ انتقاء مرشّحين للبرلمان وحقّ تقرير نتائج الانتخابات، ولم يقبلن أن يعبث أحد بامتيازاتهنّ السياسيّة. كونتيسة دورسِت مثلاً، جابهت مندوب البلاط بحزم حين حاول أن يفرض عليها مرشّحَ الملك: «لقد تنمّر عليّ مغتصب (تقصد كرومويل)، كما تعرّضتُ إلى سوء المعاملة في البلاط (كانت منزعجة من الملك تشارلز الثاني)، لكن لن يملي عليّ تابعٌ أيّ شيء. مرشّحكَ مرفوض!». مهما كانت تلك الحقوق محدودة عمليّاً على أرض الواقع بالنسبة لنساء الطبقات العليا، لكنّها مهمّة على صعيد خرق الدوغما المطلقة، التي تنصّ على حقّ الرجل وحده في الحكم.

الآن، تمّ استثناء المرأة رسميّاً وقانونيّاً، من خلال تشريعات لا سابق لها في البرلمان الإنجليزيّ، نصّت على استفادة المواطن الذكر فقط من كلّ الإصلاحات والمنافع المترتّبة عليها، وهو ما أدّى إلى اندلاع شرارة المقاومة النسويّة، التي وجدت وقوداً جاهزاً بدأ يتحضّر منذ زمنٍ ليس بالقصير. الحركة النسويّة التي فاجأت القرن التاسع عشر في منتصفه، كانت قد انطلقت منذ أواخر القرن الثامن عشر في الحقيقة، عندما رفعت النساء أصواتهنّ لكسر صمت دام طيلة الألفيّة. بعد عصور من الخنوع والاستكانة لهيمنة الرجل، أدركت المرأة أخيراً زيفَ تلك الفكرة العتيقة، وحاولت القضاء على الممارسات الخبيثة والعادات التي ترسّخ عبوديّتها.

من أوائل اللواتي حرّضن على ظهور الثورة الفكريّة «النسويّة» -وهي صفة لم تكن قد أُطلِقَت عليها بعد- كانت ماري وولستونكرافت. بشكل عام، لا تختلف قصّة ماري عن حياة أيّة فتاة فقيرة وحيدة: عملت كمرافقة شخصيّة لسيّدة نبيلة، حاولت أن تؤسّس مدرسة وفشلت، سافرت في أرجاء

فرنسا، وأحبّت رجلاً ما لبث أن هجرها هي وطفلهما غير الشرعيّ. في خضمّ تلك القصّة الرومانسيّة الرديئة، ألّفت عام 1792 أحد أهمّ كتب النقد النسويّ: «الدفاع عن حقوق المرأة». نقطة انطلاقها كانت غضبها الشديد من «طغيان الرجل على المرأة، ذلك الطغيان المتقيّح الدائم»، الذي تنبثق منه كلّ الشرور الاجتماعيّة، التي عانت منها هي شخصيّاً: انعدام التعليم، إنكار حقّها بالعمل المجزي، المعايير الجنسيّة المزدوجة التي تكافئ الرجل على كونه «وحشاً شهوانيّاً، أو فاسقاً مدّعياً»، لكنّها تعتبر المرأة عاهرة إن هي أقدمت على علاقة واحدة. من وجهة نظر ماري، العلاقات التي كانت قائمة آنذاك بين الرجال والنساء علاقات استغلاليّة مؤذية، «فبعد أن يأخذ الرجل جسدَ المرأة، يترك عقلها يصدأ»، كما رفضت المعيار التقليديّ لسلوك النساء ساخرة: «كم يهيننا أولئك الذين ينصحوننا بأن نكون حيوانات مدجّنة لطيفة!». من خلال مطالبتها الشرسة بالتعليم، وبالعمل، وبالشراكة المتساوية مع الرجل، صاغت في كتاب «الدفاع عن حقوق المرأة» عدداً من اهتمامات النسويّة الدائمة، كما تحدّت المجتمع بأسلوب لا يمكن تجاهله، فبعد أن فضحت ما تعانيه المرأة بسبب غباء المجتمع وطفوليّته الحقيرة، لم يعد ممكناً الاستمرار بادّعاء أنّ «بنات الجنس الناعم» سعيدات بما يفرضه عليهنّ الرجل والربّ.

لا نتوقّع من الجنس الآخر بلا شكّ أن يسعد بذلك الهجوم على سلطته وامتيازاته، ناهيكم عن انتقاد سلوكه وأخلاقيّاته وظلام عقله، لأنّ الرجل لا يعتبر نفسه طاغية. عندما اقتحمت ماري وولستونكرافت ذلك المضمار، قوبلت بردود أفعال عنيفة، وهستيرياثية أحياناً. لا بدّ أنّ المرأة تعجّبت كثيراً آنذاك من الرجال الذين يصرخون «فضيحة!»، قبل أن يفهموا السؤال المطروح عليهم، كما علّقت فلورا تريستان، وهي مؤلّفة فرنسيّة من أتباع ماري. حياة تريستان بحدّ ذاتها كتيّب عن نضال النسويّات: غرقت في الفقر بعد أن مات والدها وهي طفلة، ثمّ تزوّجت زواجاً بائساً لم يدم إلّا فترة قصيرة، لكنّ عواقبه عكّرت حياتها إلى الأبد. حصولها على الطلاق كان مستحيلاً بسبب «قانون نابليون»، وحرمها زوجها من التواصل مع أطفالها،

كما أنّه حاول قتلها عندما نشرت سيرتها الذاتيّة بعنوان Pérégrinations d'un Paria (رحلاتُ المنبوذة)، ثمّ ماتت بعمر الحادية والأربعين عام 1844، بعد أن تعرّضت لإزعاجات متكرّرة من قبل الشرطة بوصفها شخصيّة غير مرغوب بها. باعتبارها اشتراكيّة، اعتنقت تريستان بحماس مطالبَ ماري وولستونكرافت بالتعليم والعمل، وتجسّد إسهامها الإضافيّ للنسويّة بإصرارها على «الحقّ بالمساواة القانونيّة بين الرجل والمرأة، من أجل تحقيق وحدة البشريّة». اقتراحها ذاك كان عسيراً على فهم الرجل، الذي لطالما اعتبر نفسه ممثّلاً للبشريّة جمعاء.

لقد بدأت المرأة إذن بفصل مصيرها عن الرجل. بالمثل، بدأ بعض الرجال بعزل أنفسهم عن بقيّة أفراد جنسهم، رافضين أن يستغلّوا الامتيازات الممنوحة لهم على حساب النساء. الفيلسوف الاشتراكيّ ويليام تومسون، بعد أن ألهمتْه أعمالُ الفيلسوفة آنا ويلَر[3] التي طواها النسيان، نشر في عام 1825 كتاباً بعنوان «دعوى نصف الجنس البشريّ، النساء، ضدّ ادّعاءات النصف الآخر، الرجال». تلك الوثيقة الفريدة من نوعها والأشبه بالنبوءة، ربطت بشكل مباشر بين القمع الجنسيّ والقمع العرقيّ، وفيها قال تومسون: «لقد تحوّلت النساء بالإكراه إلى آلات تفريخ، وعبدات في بيوتهنّ، لا يختلف وضعهنّ كثيراً عن العبيد الزنوج في الكاريبيّ، بسبب طغيان الرجال». عبوديّة المتزوّجة، كانت الثيمة الرئيسيّة في كتابه. «المنزل هو سجن الزوجة» قال، «يصوّره الرجل على أنّه مسكن مبارك هادئ، لكنّه يحرص على فتح أبواب لاستعماله الشخصيّ في أنواع غير هادئة من البركات... المنزل هو بيت الرجل وحده، بكلّ ما فيه، وأهمّ قطعة من أثاثه هي آلة التفريخ البائسة، زوجته». لن تتحرّر المرأة إلّا بالمساواة السياسيّة مع الرجل، كما أعلن تومسون، الذي اختتم كتابه بالنداء إلى منح النساء حقّ الانتخاب، وهو نداء

3- Anna Wheeler (1780–1848)، تُعرف أيضاً باسمها قبل الزواج: آنا دويل. كاتبة إنجليزيّة مولودة في إيرلندا، كانت مناصرة لحقوق المرأة السياسيّة واستخدام موانع الحمل، كما ترجمت العديد من أعمال الفلاسفة الفرنسيّين إلى الإنجليزيّة. المترجمة

تردّد صداه في صدور نساء العالَم بأسره: «يا نساء إنجلترا، انهضنَ! أيّتها النساء جميعكنّ، في أيّ بلدٍ يزدريكنّ، انهضن! انهضن كي تفكّرن بالسعادة التي تنتظركنّ، عندما تتلقّى قدراتكنّ الجسديّة والعقليّة كلّها الرعايةَ والتطوير... عبوديتكنّ قيّدت الرجلَ إلى الجهل ورذائل الطغيان، وتحرُّركنّ سيكافئه بالمعرفة وبالحرية والسعادة». عوقب تومسون على دعمه لقضيّة المرأة، فسخر منه مجتمعه ونبذه. بعد أربعين سنة، حاول جون ستيوارت ميل عام 1869 في مقالة مستفيضة عقلانيّة، أن يفضح بدوره «استعبادَ النساء».

رغم دعم كلّ المتعاطفين مع قضيّتها، توجّب على المرأة أن تخوض بمفردها معركتها في سبيل الحريّة والعدالة والمساواة. في حقبة لاحقة، انطلقت «حركة حقوق المرأة» بوصفها الحركة الأولى من نوعها في التاريخ، التي تخطّط لها وتنفّذها نساء. قوّة مطالبهنّ وكرامتها وعدالتها، انعكست على القائدات، فضلاً عن صفاتهنّ الشخصيّة ونشاطهنّ السياسيّ، فحقّقن النصر، بعد نضال ملحميّ حافل بالإلهام والعزم. في إنجلترا، أُبلِغ وزيرُ الداخليّة بأنّ النساء مستعدّات للموت من أجل السيّدة بانكهرست[4] التي يقال إنّها قدّمت النصيحة التالية، لشابّة خائفة من أعضاء حركة السفرجيت[5]: صلّي إلى الله يا عزيزتي، والله سوف «تسمعكِ»! تلك النصيحة تلخّص قوّتها واعتقاداتها الدينيّة. استمدّت النساء الأخريات العزيمة من بساطة القضيّة المهيبة: «الرجال لهم حقوقهم ولا شيء آخر، النساء لهنّ حقوقهنّ ولا شيء أقلّ»، كما تقول سوزان. بي. أنطوني في عبارتها الشهيرة.

صمود أولئك النساء هو نقطة أساسيّة. الفرنسيّة ماريّا دوريم أسّست

4- Emmeline Pankhurst (1858-1928): ناشطة سياسيّة بريطانيّة، قامت بتنظيم حركة السفرجيت، ولعبت الدور الرئيس في حصول النساء البريطانيّات على حقّ الاقتراع. المترجمة

5- The suffrage movement: حركة ناضلت من أجل حصول المرأة على حقّ الاقتراع في المملكة المتّحدة، من خلال تنظيمات نسويّة مختلفة، ونجحت بذلك من خلال القوانين التي صدرت عام 1918 و1928. لم تقتصر الحركة على النشاط السياسيّ، بل لجأت إلى التكتيك العسكريّ العنيف من أجل زعزعة قواعد المجتمع البالية وإثارة العصيان المدنيّ، والهجوم على الأملاك العامّة وخرق القانون. المترجمة

أوّل جمعيّة لحقوق النساء عام 1866، وكانت كاتبة نسويّة شهيرة، ومناوئة لسلطات رجال الدين منذ عام 1860. عملها الأخير «حوّاء في البشريّة» Eve dans l'humanité، ظهر عام 1891. إليزابيث كادي ستانتون تقاعدت من رئاسة «الجمعيّة الوطنيّة الأمريكيّة للمطالبة بحقّ المرأة في الانتخاب» عام 1892 في عمر السابعة والسبعين، فاستلمت المنصب سوزان. بي. أنطوني طيلة ثماني سنوات، إلى أن تقاعدت بدورها في عمر الثمانين. ولاية بعد ولاية، وبلداً بعد بلد، نضال المرأة من أجل حقوقها استمرّ إلى أن خمد نشاط المعارضين أو دُحِر، أو انقلبوا إلى مؤيّدين لها.

المرأة الأمريكيّة تمتّعت بقوّة أكبر، بسبب تشابك المعايير الديمقراطيّة لبلادها، مع دورها الفعّال كرائدة إلى جانب الرجل، خاصّة في الغرب الأمريكيّ، إلّا أنّ المعركة بدأت في إنجلترا أوّلاً. الحكومة البريطانيّة، المستندة إلى أقدم الثورات الصناعيّة في العالَم وأكثرها نجاحاً، وإلى مجد الإمبراطوريّة التي لا تغيب عنها الشمس، كانت قائمة على رأس نظام أقصى النساء كليّاً عن هاتين المؤسّستين الوطنيّتين. في عام 1832، اقترح «المرسوم التشريعيّ الأوّل» جعلَ ذلك الإقصاء قانونيّاً ودائماً. في الوقت ذاته، أعطى حقَّ الاقتراع لشريحة واسعة من المواطنين كانت مهمّشة في السابق، لكنّه منحه حصريّاً للذكور، للمرّة الأولى في تاريخ التشريع البريطانيّ.

اندلعت احتجاجات النساء على الفور، وحصدت تأييداً عظيماً من الرجال سرّع بتحقيق النصر. في الثالث من آب عام 1832، قدّم الخطيب الراديكاليّ المشهور هنري هَنت عريضة للبرلمان البريطانيّ، مطالباً بمنح حقّ الاقتراع للنساء اللواتي يحققْن المعاييرَ ذاتها المطلوبة من الرجال، وجادل -متأثراً بالثورات السابقة في أمريكا وفرنسا- أنّه لا يجوز فرض الضرائب على الأفراد المحرومين من التمثيل البرلمانيّ، وأنّ النساء باعتبارهنّ مسؤولات أمام القانون ويُعاقبْن بصرامة كالرجال تماماً، يجب أن يحظين بالدرجة نفسها من المساواة في الحياة العامّة.

قوبلت عريضة هنت بالاستهزاء وبردود وقحة سخيفة، ما زالت تلطّخ سمعة البرلمان البريطانيّ حتّى يومنا هذا، عندما تكون «قضيّة المرأة» على

المحكّ. مع ذلك، اندلعت المعركة رسمياً على الجبهات كلّها. خلال مؤتمر مناهضة العبوديّة العالميّ عام 1840، نقلت البريطانيّات وجهة نظرهنّ النسويّة إلى شقيقاتهنّ الأمريكيّات، وهو ما ساهم بانعقاد مؤتمر سينيكا فولز عام 1848، الذي أعلن رسمياً انطلاق النضال بغية حصول المرأة على حقّ الاقتراع، في ضفّتي المحيط الأطلسيّ كليهما. في عام 1869، عندما أطلقت إليزابيث كادي ستانتون، وسوزان. بي. أنطوني نشرة إخباريّة نسويّة راديكاليّة: «الثورة»، أصبحت طبيعة التغيير الذي تريده النساء واضحةً.

حقّ التصويت كان دائماً حجر الأساس في أيّ برنامج لتحرير المرأة، وإنكاره جزءٌ لا يتجزّأ من أيّة محاولة لإخضاعها، وأوضح رموزها، لكنّ حركات تحرّر المرأة طالبت بأنواع أخرى من الحريّة. جاء الدين على رأس قائمة مطالب النسويّات باعتباره أقدم أشكال الاستبداد، لكنّ المرأة لم تكن وحيدة هنا. انطلاقاً من حقبة 1840، قوّض عدد كبير من المفكّرين -معظمهم ألمانيّون- قيمةَ الإنجيل كدليل تاريخيّ صحيح، فتغيّرت مرتبة النصوص المقدّسة تغيّراً جذرياً. الاكتشافات الجيولوجيّة الحديثة آنذاك، هدمت بدورها الإيمان الكاثوليكيّ التقليديّ، ككتاب «مبادئ الجيولوجيا» لتشارلز لِيل عام 1830، الذي قدّم فيه للعالم أجمع دليلاً دامغاً على أنّ قصّة الخلق التوراتيّة هي مجرّد أسطورة. تلقّت قصّة الخلق أيضاً ضربة قاضية من «القرد – الإنسان»، عندما أعلن تشارلز داروين أنّ الرجل ليس مخلوقاً فريداً من نوعه صنعه الربّ، بل إنّه تطوّر بالتدريج مع مرور الزمن كبقيّة أنواع الحيوانات.

في ظلّ الهجمات المشتركة التي شنّها علماء اللغة والجيولوجيّون والداروينيّون، أصبح من المستحيل على أيّ شخص عاقل في عام 1850، الإيمان بأنّ الإنجيل وما يسرده عن التفوّق الذكوريّ صحيح حرفيّاً، كما كانت الحال قبل عشرة أو عشرين عاماً. انتهزت النسويّات تلك الفرصة بشراسة، وضربن ضربتهنّ: كيف يمكن للرجال أن يبنوا نظريّة التفوّق الذكوريّ، استناداً إلى قصّة يظهر فيها آدم ضعيفاً منقاداً لحوّاء، من ثمّ يتذمّرون بسبب ذلك؟!

تعرّضت المسيحيّة للهجوم من الأطراف جميعها، بسبب نظرتها الدونيّة للنساء، كما في النقد التالي الذي صدر من إيطاليا، قلبِ الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة، في عام 1867: «يجب أن تتحرّر المرأة من تأثير الكنيسة. من خلال ثقافتها الجديدة، لن تصدّق بعد اليوم -ولن تُجبِر أطفالها على التصديق، وهو ما يعيق ذكاءهم- بأنّ يسوع هو من يرسل المطر، أو أنّ الرعد هو علامة على الغضب الإلهيّ ونذير شؤم، وأنّ نجاح المحاصيل أو فشلها، يخضعان للإرادة الإلهيّة».

في أمريكا، شنّت النسويّات هجمات أكثر راديكاليّة على الكنيسة، إذ آمنت إليزابيث كادي ستانتون، وسوزان. بي. أنطوني، بأنّ الإنجيل كان العائق الأساسيّ أمام تطوّر المرأة طيلة ألفي عام. برأي ستانتون، العهد القديم هو «تاريخ محض عن شعوب متخلّفة جاهلة»، تمّ التلاعب به لإضفاء «الشرعيّة السماويّة» على إرادة الرجل باستعباد النساء. لن تدرك النساء طبيعة وأبعاد تلك الخدعة الكونيّة، إلى أن يتاح لهنّ الاطلاع على النسخة الحقيقيّة وهي «إنجيل المرأة»[6]، الذي ظهر في عامي 1895 و1898 بعد جهود جبّارة. طيلة آلاف السنين، أسبغ الربّ الاحترامَ والتقديس على معاداة النسويّة، أمّا الآن، فقد تبيّن أنّ ذلك الباترياركَ العجوز ذا اللحية البيضاء، هو مجرّد إمبراطور عارٍ.

رفضُ النسويّة للصورة الدونيّة النمطيّة التي فرضتها المسيحيّة على العديد من الأمم، ترافق مع تداعيات هامّة على مستوى أساسيّ آخر في حملة حقوق النساء، وهو المطالبة بالتعليم. جهلُ المرأة مرتبط بالدوغما المسيحيّة: خطيئة حوّاء هي سعيها إلى شجرة المعرفة، لذلك كان عقابها هو حرمانها الأبديّ من العلم. تلك الدوغما سادت طيلة قرون دون اعتراض من أحد، وخلقت أجيالاً وأجيالاً من النساء اللواتي نشأن في ظلام عقليّ دامس، من ثمّ وُصِمن بالغباء!

6- The woman's bible: كتاب من جزأين ألّفته إليزابيث كادي ستانتون مع لجنة مكوّنة من ستّ وعشرين امرأة، تحدّى النظرة الدينيّة التقليديّة التي تنصّ على تبعيّة النساء للرجال، وطرح لاهوتاً جديداً تحرّرياً راديكالياً. أثار الكتاب جدلاً واسعاً آنذاك، ويُعدّ من كلاسيكيّات النسويّة. المترجمة

«لم يعلّمونا إلّا الجهل المطبق، لا العلم الذي يقوّي عقلنا» كما اشتكت الليدي ماري وورتلي مونتاغو[7] بمرارة في القرن الثامن عشر، الذي اندلعت في نهايته الاحتجاجات في كلّ مكان على ما عُرف بـ «تعليم المرأة» آنذاك. «في عصر الحرمان هذا، تُعدّ المرأة متعلّمة وحكيمة بما يكفي إن كانت قادرة على تمييز سرير زوجها من سرير غيره»، كما علّقت رائدة التعليم هانا وولي بسخريتها اللاذعة المعهودة. تعليم الفتيات في السابق لم يقدّم مثالاً مشجّعاً، على الرغم من أنّ تعليم النساء الأرستقراطيّات هو تقليد غربيّ عريق، لكنّ نجاحهنّ كان فرديّاً ومتفرّقاً. الأختان آندريا اللامعتان –وهما محاميتان إيطاليّتان من القرن الرابع عشر– تتلمذتا على يد والدهما. كاترينا كورنر، ملكة قبرص في القرن الخامس عشر، تتلمذت على يد أخوتها الذكور. الشاعرة و«كاهنة الإنسانيّة» توليا دي آراغون في القرن السادس عشر، علّمها عشّاقها. كلّ تلك الحالات لم تؤسّس نمطاً مرجعيّاً يُبنى عليه، فضلاً عن أنّ تجربة الكثيرات ممن اقتحمن مضمار تعليم النساء كجمعيّة «الجوارب الزرقاء»[8]، لم تكن مشجّعة. حتّى مؤسِّسة الجمعيّة، إليزابيث إلستوب التي لُقّبت بـ «الحوريّة الساكسونيّة» بعد أن قدّمت إسهامات مذهلة بالغة الأهمّيّة في دراسة اللغة الأنغلوساكسونيّة، انتهت حياتها في فقر مدقع، وهي تحاول جاهدة إدارة مدرسة للسيّدات دون نجاح. بين أولئك الرائدات، واجهت ماري آستِل المصيرَ الأسوأ. كانت أوّل من قدّم اقتراحاً بإنشاء كليّة للدراسات المتقدّمة خاصّة بالنساء في العالَم في القرن السابع عشر، وحصد اقتراحها في البداية وعداً من الملكة آن بمنحة مقدارها عشرة آلاف جنيه، لكنّ المعارضة الشرسة التي واجهتها، أجبرت ماري آستل على سحب اقتراحها، ولم يسجّل التاريخ ما يشبهه طيلة المئة والخمسين عاماً التالية.

7- Mary Wortley Montagu (1689–1762) شاعرة وكاتبة تنتمي للطبقة الأرستقراطيّة الإنجليزيّة. تشتهر برسائلها عن فترة حياتها في إسطنبول، مع زوجها السفير في الإمبراطوريّة العثمانيّة. المترجمة

8- The Blue stockings society حركة اجتماعيّة تعليميّة غير رسميّة، نشطت في بريطانيا في منتصف القرن الثامن عشر. توجّهت إلى النساء، وتأسّست كمجموعة نقاش للابتعاد عن نشاطات المرأة التقليديّة غير الفكريّة آنذاك. المترجمة

خلال كلّ ما سبق، اختمرت الأفكار الثوريّة المتعلّقة بـ «قضيّة المرأة»، ولم يعد ممكناً إهمال مسألة تعليم البنات إلى الأبد. موقف توماس هكسلي، وهو رجل إنجليزيّ ڤكتوريّ وُلِد في العام ذاته الذي نشر فيه تومسون كتابه نيابة عن الجنس الأنثويّ المُغيّب، يوضّح لنا كم تغيّرت الآراء خلال جيل واحد فقط: «لا أعتقد أنّنا قادرون على تحقيق أيّ تقدّم دائم، إن كان نصف الجنس البشريّ -أي تسعة أعشار النساء- غارقاً في الخرافات والجهل. كي أبرهن لكم أنّ أفكاري قابلة للتطبيق، اتّخذتُ قراراً بمنح بناتي تدريباً في العلوم الفيزيائيّة، يماثل ما سيتلقّاه أخوتهنّ الذكور... ولن يكون ذلك أبداً بمثابة مصيدة للرجال في سوق الزواج».

تأثير أولئك الرجال، الذين تجمعهم أفكارهم مع متنوّرين سابقين -ككوتون ميذر[9]، والسير هنري مور، وإيراسموس- كان عظيماً. باربارا بوديشون على سبيل المثال، التي قدّمت أوّل وثيقة بريطانيّة حول منح حقّ التصويت للنساء عام 1865، كانت من أبرز الشخصيّات في حركة السفرجيت في أوروبا، وساهمت بتمويل المطبوعات النسويّة، وبتأسيس كليّة جيرتون في كامبريدج. لم تكن لتقوم بذلك كلّه، لولا والدها الذي كان مدرّساً محترفاً، ورجلاً تقدّمياً تماماً مثل هكسلي، قرّر أنّ ابنته يجب أن تتلقّى تعليماً مكافئاً لتعليم ابنه.

تحقّق الإنجاز الأهمّ على صعيد التعليم عندما تولّت النساء الأمور بأيديهنّ، تماماً مثلما فعلن بالنسبة لإدارة النضال للحصول على حقّ الاقتراع، بدءاً من قيام إيما. إتش. ويلارد بشجاعة بافتتاح «كليّة تروي اللّاهوتيّة للنساء» في الولايات المتّحدة الأمريكيّة عام 1821، وحتّى قيام دوروثي بيل بإنشاء كليّة القدّيسة هيلدا في أوكسفورد، بريطانيا عام 1893. توالت الإنجازات، وسط انقسامات عنيفة بين المُصلِحات. آمنت بعضهنّ،

9- Cotton Mather (1663-1728) كان وزيراً بيوريتانياً في نيو إنغلاند، وكاتباً غزير الإنتاج، وإحدى أبرز الشخصيّات السياسيّة في المستعمرات البريطانيّة. قدّم إسهامات علميّة عديدة في مجال تهجين النباتات والترويج لتطبيق لقاح الجدريّ وغيرهما. المترجمة

كالأمريكيّة كاثرين بيتشر، بدور المرأة التقليديّ، وطالبن بتدريسها «العلومَ المنزليّة» كي تصبح الفتاة صالحة للزواج. عارضت الأخريات هذا الرأي، كإيميلي ديڤيس مؤسِّسة كليّة جيرتون، التي حاربت زملاءها في الجامعة بإصرار لا يلين، كي تضمن حصول طالباتها على الفرص التعليميّة نفسها، واستيفاءهنّ المعايير ذاتها المطلوبة من الرجال.

في نهاية المطاف، تغلّبت النساء على الانقسامات كلّها، ولم تقتصر ثورة تعليم المرأة على إنجلترا وأمريكا فحسب. بدءاً من حقبة 1860، ليرمونت وايت دالريمبل في نيوزيلندا، كاليوبي كيهاجيا في اليونان، بانديتا راماباي في الهند، ماريّا تروبنيكوڤا في روسيا، عملن جنباً إلى جنب مع غيرهنّ من الناشطات، لتوسيع تعليم الفتيات على جميع المستويات، بدءاً من الروضة إلى الجامعة.

مع دخول المزيد من النساء إلى ميدان التعليم العالي (أثبتت الرائدات للعالَم أنهن سيقمن بتأسيس جامعات خاصّة بالنساء، إن لم يسمح لهنّ الرجال بارتياد جامعاتهم)، لم يعد ممكناً حرمانهنّ من الحقّ بممارسة المهن التخصّصيّة. لربما دُهِشَ الأطبّاء الذكور من رغبة النساء بأن يصبحن طبيبات لا ممرّضات، لكنّ المرأة الطَموحَ لم تضيّع وقتها بتصحيح آراء الذكور. «من الطبيعيّ أن أفضّل دخلاً مقداره ألف جنيه، على عشرين جنيهاً في العام»، كما قالت أوّل طبيبة في بريطانيا، وهي إليزابيث غاريت أندرسن. ردّها المقتضب ينمّ عن إيديولوجيّة نسويّة قويّة، بعد أن ألهمتها محاضرة قدّمتها أوّل طبيبة في أمريكا، وهي إليزابيث بلاكويل، باختيار مهنتها. سخّرتْ كلٌّ من المرأتين نفوذَها لمساعدة النساء في كلّ مكان، والنضال من أجل الحصول على حقّ الاقتراع، وفتحِ أبواب المجالات الطبّيّة أمامهنّ. أخيراً، أصبحت أندرسن أوّل امرأة بريطانيّة تشغل منصب «محافظ»، وذلك في مدينة أدليبرغ، سافولك، عام 1908.

مواجهة ردود الفعل المناوئة، تطلّبت شجاعةً بالغة من هؤلاء الرائدات. الطبيبة الأستراليّة هارييت كلِسبي، ناضلت لسنوات في كلّ من إنجلترا والولايات المتّحدة الأمريكيّة قبل أن تتأهّل رسميّاً لممارسة المهنة في

عام 1865، وهي في عمر الخامسة والثلاثين. أمريكا لم تفتح ذراعيها دائماً للنساء الطامحات بدراسة الطبّ، عندما تمّ قبول هارييت هَنت مثلاً في كليّة هارڤارد من قبل العميد أوليڤر ويندل هولمز شخصيّاً عام 1850، اندلع الشغب بين الطلّاب الذكور الذين اعترضوا على «تضحيتها بالحشمة»، ممّا أجبرها على الانسحاب من الجامعة إلى الأبد.

لم تنتهِ العوائق والإهانات التي تعترض سبيل الطبيبات، بمجرّد اجتياز الدراسة الجامعيّة. كي تصبح أوّل طبيبة في هنغاريا، اضطرّت ڤيلما هوغوناي وارثا إلى دراسة اللغة اللّاتينيّة والرياضيّات المتقدّمة، وأن تعمل ممرضة مساعدة لأحد الأساتذة، وأن تنشر بحثين، وأن تخضع لامتحان شفهيّ خاصّ، بالإضافة إلى دراسة الطبّ التقليديّة التي يدرسها الرجال. في نهاية المطاف، بعد أن اجتازت كلّ ما سبق، تمّ منحها شهادة في القبالة عام 1879، فقط لا غير! لاحقاً، بعد أن حصلت على شهادة الطبّ من جامعة زوريخ، هُزِمَت مرّة أخرى بسبب تشريع جديد، حرم المرأة من ممارسة الطبّ إلّا بوجود شريك ذكر.

تلك العوائق تكرّرت مع كلّ مهنة أرادت المرأة اقتحامها، كما فرض كلّ بلد بدوره تحدّيات مختلفة على النسويّة، التي لم يهدف نضالها إلى طرح مجموعة من المبادئ العامّة، صالحة لكلّ زمان ومكان، بل إلى كسب الممكن ضمن الظروف المحليّة والأعراف الوطنيّة. في الهند، ناضلت كلّ من ساروجيني نايدو وآبالا بوز وغيرهما من النسويّات، ضدّ طقس إحراق الأرامل وضدّ نظام الطبقات، الذي تحتلّ المرأة فيه مرتبة أدنى من نظيرها الرجل، بغضّ النظر عن الطبقة التي تنتمي إليها. في اليابان، فوساي إتشيكاوا، قادت النضال ضدّ البغاء المنظّم الذي استعبد آلافاً من النساء اليابانيّات.

من بين كلّ القضايا التي ألهمت النضال من أجل حقوق المرأة، كان النضال الموازي ضدّ العبوديّة في ولايات الجنوب الأمريكيّ هو الأهمّ. هناك، مأساة الزنوج المروّعة حرّضت مئات النساء على الانخراط في القتال من أجل الحريّة. سارة غْرِمك مثلاً كانت في الرابعة من عمرها عندما رأت عبدة تُجلَد بوحشيّة، ولم تنسَ ذلك المشهد قط. في طفولتها أيضاً،

تصدّت للقانون الذي يحرّم تعليم العبيد، عندما علّمتْ عبدتها القراءة والكتابة، ممّا تسبّب بجَلْدها هي شخصياً. في خضمّ تلك الظروف، تحوّلت مناهضة العبوديّة إلى مهد للنسويّة، ودفع المجتمعُ الذكوريّ العنيف بالنساء إلى النضال في سبيل حقوقهنّ: «أنا لا أطلب امتيازاً لأنّني امرأة»، أعلنت سارة غرِملك، «كلّ ما أطلبه هو أن يرفع الرجال أقدامهم عن أعناقنا». عندما تضاربت المصالح بين القضيّتين، لم تجد المرأة أمامها إلّا خياراً وحيداً: «أنا امرأة قبل أن أكون مناهضة للعبوديّة»، أعلنت لوسي ستون أمام جمعيّة العبيد في ماساشوستس، «لذلك يجب أن أتحدّث باسم النساء». وهو ما فعلته النساء في كلّ مكان! رفعن أصواتهنّ للمطالبة بحقّ التعليم، وإصلاح القانون، والحصول على وظائف، والحقوق المدنيّة، والأهمّ «حقّ الاقتراع للنساء جميعهنّ!». القوّة الرمزيّة لحقّ الاقتراع تتجلّى بأنّه كان آخر مكاسب المرأة، بعد أن انتصرت بتحقيق كلّ ما عداه: ارتياد المدارس الثانويّة والجامعات، دخول المهن التخصّصيّة، الحصول على حقّ المِلكيّة، والمواطنة التامّة. كما نتوقّع، تبوّأت أمريكا الصدارة حين قامت ولاية وايومنغ بمنح المرأة حقَّ الانتخاب عام 1869، أمّا أوّل بلد في العالم بأسره يمنحه لمواطناته جميعهنّ، فهو نيوزيلاندا عام 1893. على إثر سياسة المماطلة الخسيسة التي اتّبعتها الحكومة البريطانيّة ضدّ مدام بانكهارست، وفيلقها الهجوميّ، وأتباعها من النساء في حركة السفرجيت، أدلت المرأة بصوتها في صناديق الاقتراع في كلّ من أستراليا، الدانمارك، فنلندا، أيسلندا، النرويج، وروسيا، قبل أن تربح البريطانيّة ذلك الحقّ عام 1918. على الأقلّ، بعد كلّ تلك الخطابات والعرائض، وكلّ الاستهزاء والممانعة، انتصرت النساء أخيراً، وما كان سابقاً مظالم، أصبح حقوقاً.

هل تحقّق ذلك بالفعل؟

تحت حدّ المقصلة، صرخت أوليمب دي غوج قائلة إنّ الثورة لم تغيّر وضع النساء. الحقوق التي اكتسبتها المرأة بعد ما ينوف على القرن من النضال، كانت بالأصل حقوقاً للرجل. لذلك، لم تجد المرأة أمامها خياراً آخر، سوى أن تشقّ طريقها إلى معقل الامتيازات الذكوريّة الحصين، كي

تدمّر قلعة الهيمنة الذكوريّة. مع ذلك، أولئك اللواتي اعتقدن أنّه الانتصار الختاميّ، كنّ مخطئات. حتّى في لحظة النصر، أدركت بعض النساء بوضوح ما ينتظرهنّ:

«كلّ من يفهم طبيعةَ الحركة النسويّة، أو روحَ المرأةِ الجديدةِ الحقيقيّةَ، يعرف بأنّ المرأة العصريّة لا تقاتل من أجل حقّ الانتخاب، والتعليم، والحريّة الاقتصاديّة، كي تصبح رجلاً... إنّها فكرة ابتدعها المكر الذكوريّ. المرأة تناضل اليوم -كما فعلت دائماً طيلة عصور- من أجل حرّيّتها بأن تكون امرأة».

ماذا يعني أن «تكون امرأة»؟! أثناء اكتشاف الإجابة، كان على صاحبة العلاقة أن تخوض نضالاً آخر، في ساحة معركة مختلفة. متعَبات، لكن دون أن يتذمّرن، احتشدت نساء العالم جنباً إلى جنب، وحاربن من جديد!



الجسدُ السياسيُّ

– لا يمكن لأيّة امرأة أن تدّعي الحريّة، دون أن تملك جسدها وتتحكّم به.

• **مارغريت سانجر**

– من غير المسموح تحت أيّة محنة أو وعد، أن تخضع استقلاليّة الزوجة سواء جسديّاً أو عقلانيّاً، إلى إرادة زوجها وسلطته. وظائف الزوجة والأمّ يجب أن تبقى حصريّاً وكليّاً، خياراً من خيارات المرأة.

• **إليزابيث وولستنهولم إيلمي.**

– كلما عُقِدَت مقارنة نجمت عنها نتائج لا تميل لمصلحتهنّ، تبدي السيّدات شكوكاً بأنّنا نحن المحلّلين الذكور، لم نتغلّب بعدُ على تعصّب عميق تجاه كلّ ما هو أنثويّ... كان علينا أن نقول فقط: «هذا لا ينطبق عليكِ. أنتِ استثناء، وفي هذا الصدد أنت ذكوريّة أكثر منكِ أنثويّة»

• **سيغموند فرويد.**

إذن، لقد ظفرت النساء بحقّ الاقتراع! إنّه جوهرة التاج، والرمز الرئيس للنضال من أجل حقوق المرأة، الذي يمثّل كلّ الحقوق والحريّات الجديدة أيضاً، كالتعليم، المواطَنة، ممارسة المهن المختلفة، حقّ المِلكيّة... إلخ.

لكن، بماذا ستنفع فرصة الحصول على التعليم العالي أمّاً وحيدة لديها أربعة عشر طفلاً؟! وما هي الحريّة التي سيقدّمها الصندوق الانتخابيّ لامرأة في أواسط العمر، تعاني من انسدال الرحم بعد أن أنجبت سبعة عشر طفلاً خلال عشرين عاماً، وبالكاد تستطيع جرجرة نفسها إلى مركز الاقتراع؟!

في أوج النضال من أجل حقوق المرأة، أدركت العديدات أنّ الانتصار لا قيمة له إن لم تتحرّر المرأة جسديّاً. عام 1919، اعتبر الدكتور ڤكتور روبنسون من «فريق الأبوّة الطوعيّة الأمريكيّ»، أنّ المعركة من أجل الحقّ باستخدام موانع الحمل، هي حجر الزاوية في النضال من أجل الحريّة، ونبّه المرأة إلى المعارضة التي ستواجهها الآن، والتي لن تختلف عمّا تصدّت له من قبل:

«عندما طالبت المرأة سابقاً بحقّ التعليم العالي، قال الرجال إنّ الأنثى التي ستدرس الأعضاء الجنسيّة للزهرة في علم النباتات، هي امرأة لا تصلح للاختلاط بشقيقاتها المحترمات. عندما اقتحمت المرأة بوّابات الطبّ، أعلن الرجال أنّ تلك التي ستستمع إلى محاضرة في التشريح، ليست جديرة بأن تصبح زوجة محترمة. عندما طالبت المرأة بالكلوروفورم[1] كي تخفّف آلام المخاض، أبلغها الرجال على الفور أنّها لن تحبّ طفلها إن أنجبته دون ألم. عندما طالبت المرأة المتزوّجة بحقّ الملكيّة، أقسم الرجال على الفور أنّ خطوة راديكاليّة كتلك ستقضي فوراً على نفوذهم، وستفجّر بركاناً تحت أساسات العائلة المتماسكة، وتدمّر السعادة الزوجيّة الحقيقيّة، كما أكدّوا أنّهم يعارضون التغيير لا لأنّهم يكرهون العدالة، بل لأنّهم يحبّون المرأة. خلال السنوات العديدة التي ناضلت المرأة خلالها في سبيل المواطَنة، كان الرجال يجتمعون في البارات ونوادي القمار، حيث يرثي بعضهم لحال بعض لأنّ المرأة تدمّر منازلهم. الآن، تطالب المرأة بحقّ التحكّم بجسدها،

1- سائل عديم اللون، رائحته لطيفة مميّزة، يتبخّر بسرعة إلى غاز. بدأ استخدامه في التخدير على يد الطبيب الإسكتلنديّ السير جيمس يونغ سمبسون عام 1847، بتقطير بضع قطرات منه على إسفنجة، تُطبَّق على فم المريض وأنفه كي يستنشق الأبخرة. استخدمته الملكة ڤكتوريا عام 1853 أثناء ولادة ابنها الخامس، وانتشر على نطاق واسع رغم مخاطره العديدة، إلى أن تلاشى استخدامه تماماً بعد 1932. المترجمة

وهناك رجال يردّون بالقول إنّها لو تعلّمت كيف تمنع الحمل، ستلغي الأمومة نهائيّاً. يبدو لي أنّ هناك دائماً من يخشون خطّة تنفّذها المرأة لإبادة الجنس البشريّ، وأيّة محاولة للنقاش العقلانيّ مع أمثالهم هي محاولة حمقاء. ليس في جعبتنا إلّا الأمل بانتشار المعرفة حول وسائل منع الحمل وطرق تطبيقها، كي نقضي على ذلك النوع من الرجال».

منعُ الحملِ كان القضيّة الرئيس في معركة الجسد، ومطلباً محوريّاً لا يقلّ أهميّة عن الحصول على حقّ الاقتراع في حملة حقوق المرأة. الكثير من الأمور لعبت دوراً هنا، لا آليّات منع الحمل فحسب. لو استطاعت المرأة أن تتخلّص من «استبداد تكوينها»، ستحظى بالفرصة كي تصبح فرداً مستقلّاً. إن استطاعت إنقاذ نفسها من دورات الخصوبة اللّانهائيّة، أي من الممارسة الجنسيّة والحمل والإنجاب والإرضاع ثمّ الحمل مجدّداً، ستصبح قادرة على توجيه طاقاتها إلى تطوير شخصيّتها وبناء هويّتها الاجتماعيّة. إن لم تترافق الممارسة الجنسيّة بخطر الحمل غير المرغوب به، مع ما يترتّب عليه من كوارث اجتماعيّة أو الوفاة أثناء الولادة، لن ينظر أحد إلى المرأة بوصفها خاطئة تستحقّ العقاب. لو أدركت كلّ امرأة الأفكار السابقة، وأصبحت قادرة على التحكّم بجسدها واستعماله كما تشاء، ما هو الثمن الذي ستدفعه الباترياركيّة وسُلطتها؟!

منعُ الحملِ كان وما يزال، نضالاً مريراً، هدفه إعادة تعريف جنسانيّة المرأة، بعد أن انتزعتْ من أيدي الرجال حقّها بأن تكون أكثر من مجرّد وعاء حاضن لنِطافهم. الثقافة الصناعيّة الجديدة في العالم، استغلّت التطوّرَ الذي شهده القرن التاسع عشر، خاصّة في مجال «التخمين العلميّ»، كي تسجن المرأةَ في صورة ضعيفة وهشّة. سبب ذلك الضعف وتلك الهشاشة معروف ومؤكّد، وهو «الرحم المتحرّك الجوّال[2] دون فطنة أو إرادة»، الذي لا يمكن التنبّؤ بما سينجم عنه. من وجهة نظر أجيال من خبراء الطبّ،

2- منذ عصر أبقراط وأفلاطون وحتّى القرن الثامن عشر، كان الاعتقاد سائداً بأنّ الرحم ليس ثابتاً في مكانه، بل يتحرّك بحريّة داخل تجويف البطن، ممّا يسبّب للمرأة أمراضاً عديدة، بدءاً من الوهن والصداع، مروراً بعسر النطق وفقدان الوعي والهستيريا، وصولاً إلى الموت. المترجمة

وأجيال من الذكور قبلهم، المرأة هي مجرّد «جهاز جميل مصنوع لخدمة أبهى ألغاز الطبيعة: عمليّة التكاثر»... وكأنّنا نعود بالزمن ثلاثمئة وخمسين عاماً إلى الخلف، كي نسمع ازدراء مارتن لوثر الساخط: «هذا ما خُلِقَت المرأة من أجله»!

نظريّة الرحم الذي يسيّر المرأة، هي حُكم بالسجن المؤبّد. الأطبّاء الاختصاصيون بأمراض النساء في القرن التاسع عشر، حدّدوا بأسلوب شكسبيريّ «المراحلَ السبع» للمرأة (الولادة كأنثى، الطمث، فضّ البكارة، الحمل، الإنجاب، الإرضاع، وسنّ الضهيّ) التي تتركّز حصريّاً حول الأمومة بوصفها «تاج الأنثى، وجوهر حياتها»، وذكّروا المرأة دون كلل أو ملل بأنّ وظيفتها الطبيعيّة هي أن تصبح زوجة وأمّاً، وأنّ تلك الوظيفة جزء من قدرها، ومن دونها ستبقى بعيدة عن الكمال وعن التطوّر. رغم ذلك، لم تكن تلك الوظيفة طبيعيّة تماماً بنظر الأطبّاء الجيّدين: «لا وجود لامرأة غير مريضة في الحياة، لأنها إمّا أن تعاني من عادة النساء الشهريّة، أو لا. في الحالتين، هي إمّا مريضة مرضاً طبيعيّاً، أو شاذّاً... الطبيعة تجعل الجنس الأنثويّ بأكمله معاقاً». الجنس الأنثويّ كلّه؟! بالطبع، ودون استثناء! أحد الاختصاصيين البارزين بأمراض النساء، كان يقول لمريضاته: «لو عرفتِ المرأةُ مقدار الخطر الكامن في أعضائها الحوضيّة، لما نزلتْ قط من عربتها إلى الرصيف!».

تأثيرُ إشغال الحوض بالأحشاء الأنثويّة الهائجة، يتعدّى الكوميديا. بما أنّ المرأة مخلوق لا وظيفة له إلّا التكاثر، بالتالي مفتاح شفائها من كلّ أمراضها هو علاج جهازها التناسليّ: فقر الدم، الهستيريا، الجنون، بل حتّى الإجرام، كلّها عولجت بإجراءات جراحيّة، كاستئصال المبيض أو قناة فالوب[3] كلّما راجعت المريضةُ طبيبها بشكاية ما، ممّا أدّى بالطبع إلى تأخير تشخيص المرض الحقيقيّ، وإطالة معاناة المرأة، وتشجيع اعتمادها على الطبيب. إجراء توسيع للعنق مع تجريف الرحم (توسيع عنق الرحم

3- تأخذ شكل أنبوب ينشأ من الرحم ويصل إلى المبيض، وظيفتها هي التقاط البويضة وإيصالها إلى جوف الرحم. المترجمة

القسريّ، ثمّ كشط بطانة الرحم)، كان شائعاً «لغايات أخلاقيّة»، أي أنّه نوع من الاغتصاب الجراحيّ منصوح به كعلاج للفتيات الصاخبات، أو اللواتي لا يتصرّفن كسيّدات. العلاج الأشد خبثاً كان «البتر لغايات نبيلة»، أي بتر الأعضاء التناسليّة الخارجيّة المعروف بـ«ختان الإناث»، عن طريق استئصال البظر وأجزاء واسعة من الأعضاء التناسليّة الخارجيّة. طيلة القرن التاسع عشر، وصولاً إلى بدايات القرن العشرين، كان من الشائع إجراء «ختان الإناث» لعلاج العادة السريّة، والأهلاسات، والتهاب المهبل، وتخريش النخاع الشوكيّ، و«الهوس الهستيريائي»، كما كان العلاج الأمثل للصرع. ضمن حقل الجراحة التخصّصيّة هذه، تصدّرت كلّ من بريطانيا والولايات المتّحدة الأمريكيّة قائمة «الدول المتقدّمة»، وتواطأتا للعودة مجدّداً إلى العصور المظلمة، التي ما زالت مخيّمة في الشرق الأدنى والشرق الأوسط، حيث ما يزال بتر أعضاء المرأة التناسليّة مطبّقاً حتّى اليوم، كعلاج فعّال للحالة المعروفة بـ«البلوغ»!

اعتبار المرأة ضحية أبديّة لجنسها، يجافي الحقيقة كليّاً. استعراض تاريخ الممارسة الجنسيّة، والطمث، والتكاثر، يكشف عن أنّ المرأة بحثت باستمرار عن وسيلة للتحكّم بجسدها، وأنّها نجحت بذلك، خاصّة على صعيد منع الحمل. لطالما كان الدافع قويّاً إلى تجنّب عمليّة الولادة –أو تقليل عدد الولادات إلى الحدّ الأدنى– باعتبارها الفعاليّة الجسديّة الأخطر التي تهدّد حياة المرأة. التنوّع المدهش للجرعات والأدوات المستخدمة منذ ما قبل التاريخ إلى عصرنا الحاليّ، وحرص المرأة على تجنّب الحمل، يلقيان أيضاً ضوءاً ساخراً على خرافة «غريزة الأمومة»، بعد أن استعملت النساء كلّ ما يضمن لهنّ نعمةَ عدم الخصوبة.

العديد من الوسائل التي استُخدِمَت عبر التاريخ لمنع الحمل كانت مروّعة، لا يبرّرها إلّا أنّ حصول الحمل أسوأ. في اليابان، نصح «كتاب الوسادة» السيّدات باستعمال «مزيج من الزئبق وذبابة الخيل والعَلَق، تُمزج وتسخّن جيّداً، وتؤخذ ما أن تبدأ بالغليان». بالنسبة لمن لا تقدر على ابتلاع الجرعة الساخنة، يُنصَح بجرعة بديلة تُحضّر من كمّيات كبيرة من القرنبيط الذي يُطبَخ

قليلاً مع دماغ القرد في ماء بارد، ويضاف إلى شظايا مرآة مطحونة. ساد انبهار مماثل بفضلات الحيوانات في البلدان الأخرى، إذ وردت أوّل إشارة إلى موانع الحمل عند المصريّين القدماء عام 1850 قبل الميلاد، في لفافة بردي تقترح استخدام سدادة مهبليّة، تُحضَّر بمزج العسل مع روث التمساح. في بقيّة أرجاء إفريقيا، يمكن استخدام الوصفة ذاتها مع أيّ نوع متاح من الروث الطازج، لكنّ روث الفيلة هو الأفضل. بحلول عام 900م، وصلت بدعة الروث إلى إنجلترا، حيث نصح كتاب «بولدز حول العلَق» الساكسونيّ باستخدام مانع حمل رهيب، قد يكون نوعاً من «العلاج المنفّر»: «تؤخذ قطعة من روث الخيول وتُسخَّن فوق الفحم الحارّ، ثمّ توضع بين الفخذين تحت الملابس، مع الحرص على تصاعد الكثير من الدخان، إلى أن تتعرّق المرأة بغزارة».

اعتمدت التدابير الاحترازيّة الأخرى على منع دخول النطاف إلى الرحم، رغم أنّ نتائجها غير مضمونة. أبرزها كانت «قبّعة عنق الرحم» اليابانيّة –وهي قرص من الورق المصنوع من البامبو، يُدهَن بالزيت ويوضع على عنق الرحم– لكنّها قد تنزاح من مكانها بسهولة، أو تتمزّق خلال الممارسة الجنسيّة، على عكس القرص المصنوع من شمع العسل الذائب الذي استخدمته النساء في منطقة «بانات» في هنغاريا، وفي ألمانيا. هناك أمثلة لا تحصى عن الموادّ المستخدمة لصنع سدادة تغلق فوهة عنق الرحم، وتمنع دخول النطاف: صفار البيض، الزبد المتشكّل على فم الجمل، أوراق شجرة الجوز، الزعفران، البصل، النعنع، الجذور المجفّفة، الأعشاب البحريّة، الخُرَق، الأفيون... إلخ. أغرب الوصفات على الإطلاق كانت وصفة كازانوڤا الشخصيّة، وهي قرص ذهبيّ له في مركزه ذراع قصيرة تحمل كرة حجمها غير محدّد، تُغطَّس بمادّة قلويّة وبعصير نصف ليمونة. تُدسّ الكرة عبر المهبل كي تسدّ عنق الرحم، أمّا الذراع المستقيمة (التي تمثّل القضيب)، فتسمح للعصارة بالتقاطر خلال الجماع. طبيعة التجربة التي لا تُنسى بالنسبة لكلّ من الشريكين، تفسّر لماذا دخل كازانوڤا التاريخ، على عكس العديد من الرجال!

بالإضافة إلى ما سبق، نُصِحت المرأة أيضاً ببرنامج من الحركات النشيطة والأوضاع المختلفة لمنع حدوث الحمل، عوضاً عن ممارسة الجنس وهي

مستلقية على ظهرها. سولاناس الإفسوسيّ، وهو طبيب إغريقيّ اختصاصي بأمراض النساء عاش في القرن الثاني للميلاد، شجّع على اتّباع الطقس التالي الذي ظلّ مستَخدماً طيلة قرون: «في لحظة الجماع الحاسمة، عندما يوشك الرجل على قذف بذرته، على المرأة أن تحبس أنفاسها وتسحب جسمها قليلاً، بحيث لا تدخل البذرة عميقاً داخل الرحم». من عاهرات روما إلى كونتيسات إسبانيا، ساد الاعتقاد بأنّ النشاط الحركيّ القويّ أثناء الممارسة الجنسيّة، يزيح النطاف من داخل الرحم (من الجليّ أنّ صاحب تلك النصيحة، كان يأمل أن تقوم شريكته بما يتعدّى الاستلقاء وحبس أنفاسها)، وهو ما فعلته النساء في أرجاء العالم، من أيسلندا إلى البيرو. الوصفة الشعبيّة نصحت المرأة بأن تعطس، أو تسعل، أو تقفز في مكانها، أو تندفع خارج المنزل وتتشقلب في الثلج، كي تطرد النطاف من جسمها أو تجمّدها على الأقلّ. الوصفة الأكثر شيوعاً كانت «التبوّل بعنف داخل وعاء»، وهي وصفة طبّقتها العاهرات وأخواتهنّ المحترمات في كلّ مكان طيلة آلاف السنين، وما تزال مطبّقة اليوم لكن مع لمسة إضافيّة تتمثّل بغسيل المهبل بالخلّ أو النبيذ. عندما لا تسمح الظروف بالقيام بأيّ ممّا سبق بعد انتهاء الجماع، تلجأ النساء إلى تقنيّات سلبيّة، كارتداء تميمة حول العنق تمنع حصول الإلقاح، إمّا أن تكون سنّ طفل ميت، أو آية من القرآن، أو الخصية اليسرى التي تؤخذ من نمس حيّ قبل أن يغيب القمر.

تاريخ الواقيات الذكريّة المتواضع، يشهد بأنّ المرأة لم تكن وحيدة في سعيها للاستمتاع بالجنس دون الوقوع بنتائجه المحتومة. صُنِع الواقي الذكريّ سابقاً من الكتّان، أمعاء الحيوانات، جلد الخروف، أغشية السمك، الجلود، قوقعة السلحفاة، القرون... إلخ، ولم يقدّم الكثير على صعيد المتعة. في عام 1650، اشتكت مدم دي سيڤنيه[4] من أنّ الواقي المصنوع من غشاء أمعاء الثور هو «درع ضدّ المتعة الكاملة، ومجرّد غشاء عنكبوت ضدّ أخطار الإنتان»، ممّا يذكّرنا بأن الواقيات الذكريّة صُنِعت في الأصل لحماية

4- ماري دي رابيتان شانتال (1626-1696)، مركيزة فرنسيّة اشتهرت بمراسلاتها مع ابنتها. المترجمة

الذكر لا الأنثى، من العدوى بالأمراض الزهريّة التي اجتاحت أوروبا بعد أن استوردها كولمبوس وطاقمه من العالَم الجديد.

من ناحية أخرى، «الجماع المسدود» كان ممارسة جبانة نتائجها غير مضمونة، تنمّ عن رغبة حقيقيّة للذكر بتجنّب التسبّب بالحمل، وفيها يتمّ الجماع بشكل كامل، لكنّ القذف يُثبَّط من خلال الضغط على قاع الإحليل (أين بالضبط؟!)، ممّا يحوّل مجرى القذف إلى داخل المثانة. لا بدّ أنّها مناورة صعبة، ومن العسير بالنسبة لأيّ من الطرفين أن يعرف اتّجاه القذف بالضبط.

كلّ الأساليب السابقة لا تبدو ممتعة، بل أشبه بمهمّة عسيرة. الطرق الأخرى المتّبعة لتجنّب الإنجاب لم تقلّ عنها إحباطاً، كالزواج المتأخّر، أو جهاز منع الحمل البدائيّ الذي ما يزال مستخدماً إلى اليوم في إيرلندا، أو الجماع المبتور، أو ممارسة الجنس أثناء الفترة الآمنة فقط من الدورة الشهريّة، أو «روليت الڤاتيكان» الذي يمنع الزوجين من ممارسة الجنس في أيّام محدّدة، أو «الرادع الأخلاقيّ» الذي نصح به الفيلسوف هنري ثورو، وكلّها أساليب استخدمها الناس لكن مقابل التضحية بالمتعة.

هناك عقابيل أخرى أسوأ من إلغاء المتعة، العديد من وسائل منع الحمل التي استخدمتها النساء وصولاً إلى الحقبة الحديثة، كانت خطرة للغاية فضلاً عن أنّها مقرفة: أكلُ التراب الموجود في أذن بغل ميت، التهام شظايا مرآة مطحونة (مليئة بالزئبق)، شرب الماء الذي يبرّد الحدّادون فيه أدواتهم (يحتوي على الرصاص)، استعمال سدادات مهبليّة مصنوعة من صوف الخراف، أو لحاء الشجر، أو الدرنات، أو المواد القلوية، أو «الشبّة»[5]، وكلّها نجحت بمنع الحمل بأبسط طريقة: موتُ من تستعملها!

بعض الموادّ، كالعسل أو الصمغ العربيّ، تملك تأثيراً يبطّئ النطاف أو يقتلها، لكنّ آليّة التكاثر القويّة المعقّدة لم تستسلم إلّا أمام تطوّر المعرفة العلميّة في القرن الحادي والعشرين. استعمال الطرق القديمة لمنع الحمل

5- الشبّة أو حجر الشبّ alum: مركّب كيماوي يتكوّن من كبريتات البوتاسيوم والألمنيوم، معروف باستعمالاته العديدة مثل قطع النزيف، منع التعرّق، وإحداث تقبّض في المهبل. المترجمة

-التي كانت مُحيِّرة ومقرفة غالباً- يتطلّب أن تتمتّع المرأة بمعدة قويّة، وشجاعَة، وأعصاب من حديد، وحظّ لا مثيل له طيلة فترة خصوبتها التي قد تبدأ منذ عمر الثانية عشرة وتستمرّ إلى ما بعد الخمسين، كي لا تنجب إلّا الأطفال الذين تريدهم عندما ترغب بذلك. في الواقع، لم يكن أمام المرأة خيار سوى الإنجاب طيلة آلاف السنين، لأنّ الله هو من يرسل الأطفال، «أطفال أكثر، بركة أكثر» كما أملت التقوى أثناء حكم الملكة إليزابيث الأولى. الأمومة كانت مهنة المرأة ودورها الرئيسيّ، أكسبتها الأهميّة والسلطة في العصور التي سبقت دخولها إلى عالم الوظائف.» من هي أعظم النساء؟ حيّة أو ميتة؟»، سألت مدام دو ستيل نابليون، فردّ الديكتاتور الصغير على الفور: «تلك التي تنجب عدداً أكبر من الأطفال».

لم يكن الإنجاب محطّ اهتمام الكورسيكيّين الأجلاف فحسب! في أمريكا، اتّحدت الأخلاق البيوريتانيّة مع مساحة العالم الجديد الشاسعة، فتحوّل إنجاب ذريّة ضخمة إلى واجب أخلاقيّ، أمّا الخاضعون للكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة، فلم يكن بوسعهم التملّص من واجب إنجاب المزيد من الكاثوليكيّين. في بقيّة العالم، خاصّة في البلدان الفقيرة، أدّى معدّل وفيّات الرضّع العالي إلى اتّباع سياسة الإنجاب المتكرّر، قبل أن تتوضّح طبيعة العلاقة المتداخلة ما بين الفقر، ومعدّل الإنجاب المرتفع، وجهل الوالدين، ووفيّات الأطفال. في الحقيقة، ساد الاعتقاد في البلدان الغنيّة والفقيرة على حدّ السواء، أنّ التلاعب بعمليّة الإنجاب بأيّة طريقة كانت، هو أمرٌ «ضدّ الله وضدّ الطبيعة»، كما كتبت ماري درو في رسالة إلى والدها ويليام غلادستون، رئيس وزراء الملكة ڤكتوريا. معظم المجتمعات لم تتوقّع بقاء المولود أو أمّه على قيد الحياة، ومعظم الصلوات التي تُليَت لتطهير المرأة بعد انتهاء المخاض، قدّمت الشكر للربّ على نعمة اجتياز «الوادي المحفوف بظلال الموت» بسلام. إضافة إلى ذلك، لجأت كلّ المجتمعات إلى توفير بديل عن الزوجة المتوفّاة من خلال السماح بتعدّد الزوجات، سواء بالجمع بين عدّة نساء معاً كما في الشرق، أو واحدة تلو الأخرى كما في الغرب.

معنى كلّ ما سبق بالنسبة للمرأة، تلخّصه يوميّات تاجر في عصر النهضة هو غريغوريو داتي. «زوجتي الأولى الحبيبة بانديكا، ارتقتْ إلى الفردوس بعد مرض دام تسعة أشهر سببه الإجهاض»، كما كتب. وواسى داتي نفسه مؤقّتاً مع «عبدة يافعة تترية» أنجبت له ابناً، ثمّ تزوّج امرأة ثانية كي ينجب أطفالاً شرعيّين، إلّا أنّها ماتت أثناء المخاض بعد أن أنجبت له ثمانية أطفال خلال تسع سنوات. زوجته الثالثة أنجبت له أحد عشر طفلاً، من ثمّ «شاء الله أن يدعو إليه زوجتي جِنِفْرا، لروحها السلام. لقد ماتت بعد مخاض عسير»، وهو ما لم يثنِ داتي عن الزواج بامرأة رابعة، أنجبت له ستّة أطفال آخرين وأجهضت مرّة. تنتهي معلوماتنا عنه هنا، لأنّه توقّف عن الإحصاء بعد ثمانية وعشرين حملاً، من قبل خمس نساء، خلال ثلاثين عاماً.

داتي لم يكن استثناء، لا من حيث رغبته الدائمة بالأبوّة، ولا من حيث ممارسة العمليّة التي تؤدّي إليها، كما أنّ خطر الموت والأمراض التي تتهدّد النساء أثناء الحمل والولادة، لم يكن خارجاً عن المألوف، سواء في عصره أو العصور اللاحقة. لا يسعنا إلّا أن نتعجّب من ثقة توماس جيفرسون في القرن التاسع عشر، عندما كتب لابنته أنّ «المخاض أشبه بلكزة من المرفق»، رغم أنّ زوجته ماتت أثناء المخاض، تماماً مثلما ستموت الابنة بعد شهرين. على النقيض منه تماماً، فزعت مدام دي سڤينيه عندما حملت ابنتها الحبيبة ثلاث مرّات خلال سنتين من الزواج، وتعرّضت إلى إجهاض خطير. في رسالة غاضبة، حذّرت صهرها من أنّ «جمال وصحة وتقوى المرأة التي تحبّها، ستتدمّر بسبب معاناتها المتكرّرة التي تسبّبها أنت!»، وهدّدته بالقول: «سآخذ زوجتك منك. هل تظنّ أنّني زوّجتها لكَ كي تقتلها؟!». نجت الابنة فرانسواز بسلام من الحمل، لكنّ مخاوف أمّها لم تنته، فأرسلت إليها على الفور بعد ولادتها، رسالة تحذّرها من الاعتماد على إرضاع المولود كوسيلة لمنع الحمل. «عندما تقرّرين ممارسة الحبّ مع السيّد غرينان بعد أن يبدأ الطمث مجدّداً، اعتبري نفسك حاملاً مرّة أخرى. إن ادّعت أيٌّ من القابلات العكس، إذن، تأكّدي أنّ زوجك قام برشوتها!».

بلا شكّ، لم يكن الزوج سعيداً وهو عالق ما بين إشباع شهواته الأنانيّة

القاتلة، والزهدِ الاختياريّ. على الأقلّ، سينجو هو بعد ممارسة الحبّ، على النقيض من آلاف النساء! في عصرنا الحديث، اكتشفت المرأة أنّ ظروف الإنجاب أصبحت أسوأ، على الرغم من التقدّم العلميّ والازدهار، بعد أن انتصر الرجال في المعركة الأهمّ التي تمسّ حياة النساء جميعهنّ، وظفروا بحقّ «تدبير المخاض». هجوم الذكور على المعالِجات الإناث ليس جديداً، وإصرار الأطبّاء المتخرّجين من الجامعات على إلغاء المنافسة الأنثويّة هو إحدى حلقاته. مع ظهور الأدوية الحديثة، وملاقط الجنين[6]، وتقدّم علم التخدير، والتدريب الطبّيّ الرسميّ، نجح الأطبّاء الذكور أخيراً باغتصاب دور القابلة القديم، وقدّموا أنفسهم على أنّهم «الأطبّاء المولّدون» الحقيقيّون.

مسلّحاً بسلطة الاختصاصيين، لم يجد الرجل الجديد صعوبة بهزيمة المرأة القديمة، حتّى ولو كان مخطئاً. باعترافه الشخصيّ، قام ويليام سميلي العظيم، رائد طبّ التوليد البريطانيّ، بقطع الحبل السريّ لأحد المواليد ذات مرّة عن طريق الخطأ، فنزف الطفل بغزارة وكاد يموت. آنذاك، قال سميلي للقابلة التي شكّت بما حصل، إنّه يطبّق تقنيّة جديدة ثوريّة هدفها منعُ حصول الاختلاجات عند حديثي الولادة. فيما بعد، اعترف أنّه شعر برعب لا مثيل له يومها!

قطع الطبّ في الغرب شوطاً هامّاً مع استخدام الكلوروفورم والمطهّرات، وابتعد عن العصور المظلمة المتحيّزة السابقة، التي اعتبرت أنّ معاناة المرأة ووفاتها أثناء المخاض هما «شرٌّ لا بد منه»، أو «بركة من الإنجيل» كما كتب أحد روّاد طبّ النساء البريطانيّين عام 1848. في بقيّة أرجاء العالم، عوملت المرأة بلا مبالاة، ولم تتغيّر العادات أو الأعراف التي تتسبّب بموتها. في أواخر حكم الراج في الهند، كتب أحد الأطبّاء التقرير اليائس التالي:

تستلقي امرأة على الأرض، وإلى جانبها تقرفص عجوزان قذرتان،

6- ملاقط معدنية منحنية قاسية، تدخل عبر المهبل للإمساك برأس الجنين وسحبه خارج الرحم، وذلك في حال تعسّر الولادة. تراجع استخدامها حالياً، بعد تطوّر الولادة القيصريّة. المترجمة

أيديهما ملطّخة بالتراب والقمل يعشّش في شعرهما. لقد دخلت المريضة طورَ المخاض منذ ثلاثة أيّام، ولم تنجح القابلتان بسحب الجنين. عند فحصها، وجدنا الفَرْج متمزّقاً ومتورّماً، فقالت القابلتان: «أجل، المخاض عسير، ولا بدّ من الاستعانة بالأيدي والأقدام لتوليد الطفل». طبّقنا الكلوروفورم، ثمّ سحبنا الجنين بالملقط، وكنّا واثقين أنّنا سنعثر في المهبل على قطع من نبتة الخطميّة التي حشرتها القابلتان هناك، أو سلكاً، أو خرقة قذرة ملفوفة حول بذور السفرجل داخل الرحم. لا تحسبوا أنّ الفقيرات فقط يعانين هكذا، نستطيع أن ندلّكم على الكثير من المنازل التي يقطنها رجال هنود يحملون شهادات جامعيّة، تلد زوجاتهنّ فوق أسرّة قذرة بمساعدة أولئك «الدايات»، أي القابلات الشعبيّات.

لقد أدرك الطبيب بوضوح أنّ سبب المعاناة وما ينجم عنها من الإنتان والموت، ليس ذنب القابلة الشعبيّة أو الداية، بل ذنب الأزواج. تبلور الرأي ذاته في البلدان التي دخلت الحقبة ما بعد الصناعيّة، لأنّ المرأة الغربيّة التي تعيش ضمن ظروف أكثر تقدّماً من المرأة الهنديّة المذكورة، ظلّت أسيرة آراء وتوقّعات المجتمع الذكوريّ الذي يعاقبها على كونها امرأة. رغم ذلك، وبالشجاعة ذاتها التي أبدتها خلال نضالها للحصول على حقّ الاقتراع، وكجزء من مطالبتها الكاسحة بالحصول على حقوق الإنسان، استحوذت المرأة في الغرب أخيراً على المسؤوليّة الختاميّة المتمثّلة بالتحكّم بكينونتها الجنسيّة، وكان عليها أن تعيد تعريف الجنسانيّة الأنثويّة والذكوريّة على السواء، بعد أن واجهتها عقبة لا تقلّ صعوبة عمّا مرّت به سابقاً، وهي الرجال الذين لم يشكّوا يوماً في حقّهم في استغلال النساء.

لم تكن المرأة سيّدةَ نفسها، أمّا الرجل فكان سيّدَ جسدها ومالكَه. خلال القرن التاسع عشر، رغم كلّ الاضطرابات العنيفة والفوضى والثورات، لم تتغيّر وجهة النظر الذكوريّة التي تعتبر المرأة وعاء جنسيّاً، والتي تعود بتاريخها إلى حقبة العصور المظلمة وما قبلها. خلال جولته في شمالي إنجلترا عام 1844، لاحظ فريدريك إنجلز في كلّ مصنع أو معمل زاره، أنّ العاملات -كما هو الحال خارج المصنع- ما زلن مجبرات على تقديم

«حقّ الليلة الأولى» لربّ العمل، الذي يحصل على موافقتهنّ بأسلوب خسيس هو التهديد بالطرد، ممّا يجبر الفتاة على الرضوخ في تسع حالات من أصل عشر. بالتالي، صاحب المصنع يحوّل منشأته إلى «حريم»، كأنّه الحاكم المطلق على أرواح وأجساد عاملاته.

ملاحظة إنجلز لا تمثّل مأساة بضع فتيات كادحات فحسب! حيثما تطلّعت النسويّات بعد أن شحذ النضال من أجل الحريّة بصيرتهنّ، اكتشفن أنّ المجتمع «ليس إلّا نظاماً من أنظمة استعباد المرأة جنسيّاً»، بسبب إصرار الرجال على وظيفتها الإنجابيّة كما كتبت كريستابِل بانكهرست، ولأنّ «المرأة هي مجرّد جنس وفقاً للعقيدة السائدة، ولا شيء آخر». يجمّل الرجل هذه الحقيقة بإلباسها فكرة أنّ المرأة خُلِقَت لتحقيق دور محترم كأمّ، لكنّه كاذب: «ما يقوله الرجل يعني في الحقيقة أنّ المرأة خُلِقَت أوّلاً من أجل إرضائه جنسيّاً، وثانياً لإنجاب أطفاله إن رغب هو بذلك، وبالعدد الذي يريده».

تلك الآراء الراديكاليّة لم تعبّر فقط عن رأي الجناح المتمرّد الثوريّ من حركة حقوق النساء، الذي تمثّله عائلة بانكهرست وأتباعها. الجناح المعتدل المتمثّل بـ«منظمة النساء الوطنيّة»، الذي يستلهم مبادئه من المُصلِحة الاجتماعيّة جوزفين بتلر، تصدّى دون هوادة للاستغلال الجنسيّ الذي تتعرّض له طبقة العاهرات. جادلت الناشطات بأنّ «حقّ الرجل بالجنسانيّة الحرّة» هو في واقع الحال استغلال قبيح، يقسّم النساء تقسيماً زائفاً إلى «عفيفات» وإلى «ساقطات»، ويدمّر الأخوّة بينهنّ. برأي جوزفين بتلر، المرأة المحترمة «العفيفة» مُستَغَلَّة إلى الحدّ ذاته تماماً كأختها «الساقطة»، وكلّ ما في الأمر أنّ جسدها ليس مصمّماً للمتعة الجنسيّة، وإنّما لهدف جنسيّ مختلف هو دور «الناقل» للمِلكيّة من خلال الوراثة.

بسبب هجومها على «فسوق الرجال» وعلى «طغيان القويّ، واستبداده على الضعيف»، وُصِمَت بتلر بالعاهرة من قبل الرجال الساخطين الذين احتشدوا للدفاع عن أنفسهم، لكنّ النساء لم يتراجعن. من أمريكا، شنّت إليزابيث كادي ستانتون هجوماً نموذجيّاً: «وفقاً لشهوته، أدار الرجل مسألة الاتّصال الجنسيّ بأكملها منذ فترة طويلة. هذا يكفي! دعوا أمَّ الجنس

البشريّ تنهض وتفحص تلك المسألة بلا خوف، فمن حقّها أن تضع حدوداً لامتيازاته». على عكس زميلتيها لوسي ستون، وسوزان. بي. أنطوني، اعتبرت ستانتون العلاقات بين الرجال والنساء حرباً جنسيّة. رغم انشغالها العميق بآمال المرأة الأخرى، كالحصول على حقّ المواطَنة التامّة وحقّ التصويت، فإنها ثارت بغضب عارم ضدّ القوانين التي سنّها الرجل، وضدّ العادات التي تعطيه حقّ امتلاك جسد المرأة والتحكّم به.

في بريطانيا، الناشطة روزا فرانسيس سويني من تشِلتنهام شاركت ستانتون غضبَها، وأعلنت أنّ استغلال المرأة ليس ظاهرة طبيعيّة، ولم يحدث بالصدفة، بل هو جزء من نظام جنسيّ متكامل: فكّروا بما فرضه كلٌّ من قانون الرجل، والدِين الذي ابتدعه الرجل، والنظام الأخلاقيّ للرجل، على المرأة. لقد رأت المرأة طفلتَها الأنثى، التي تجسّد أرقى درجات التطوّر العضويّ في الطبيعة، تُقتَل بلا رحمة باعتبارها فائضة عن الحاجة، كما رأت ابنها الذكر، ذلك «النوع الآخر المعطوب بيولوجيّاً»، والذي يولَد بسبب سوء التغذية والظروف غير المواتية، ويجسّد بالتالي كائناً غير كامل، يعلو عليها باعتباره سيّداً وربّاً وطاغية! الكنيسة والدولة، الدِين، القانون، التعصّب، العادات، التقاليد، الطمع، الشهوة، الكراهية، الظلم، الأنانيّة، الجهل، والغرور... كلّها تآمرت ضدّ المرأة، تحت مسمّى الحكم الجنسيّ للذكر البشريّ.

لم توافقها النساء جميعهنّ على آرائها، خاصّة إعلانها الصريح ذاك الذي لا يقبل المهادنة عن تفوّق المرأة. مع ذلك، ابتهجت الكثيرات لسماع تلك النسويّة الغاضبة تهاجم الرجال «الذين اغتصبوا سيادة الكون، رغم أنّهم مجرّد كارثة جينيّة. أدمغتهم ضعيفة وصغيرة، أجسادهم شهوانيّة مريضة، ونطافهم عبارة عن مزيج عشوائيّ مائع من سمّ شديد الفوعة». شجاعة سويني بالحديث عن النطاف دون مواربة، ألهمتِ النساءَ في كلّ مكان، فبدأن «يفكّرن بتلك المسألة ويفحصنها دون خوف»، وهو ما نادت به إليزابيث كادي ستانتون بالضبط.

شغل البغاء موقعاً رئيسيّاً بين اهتمامات النسويّة، خاصّة أنّ مقاربة التشريعات الجديدة في القرن التاسع عشر له، لم تقدّم إلّا مزيداً من المعاناة

للمرأة، دون أيّ اعتبار لدور الرجل كسبب من أسباب وجود الدعارة، أو كمُستغِلّ للمرأة. اتّبعت كلّ دولة أجندة خاصّة بها، فرنسا مثلاً تباطأت بالاستجابة إلى مطالب الحملات المتكرّرة ضدّ بغاء الأطفال، لأنّ استغلال «الضحايا اليافعين في تجارة الرقيق الأبيض» كان سوقاً رائجة هناك، وهو ما عذّب المصلحين الإنجليز. آنذاك، حاولت الناشطات الفرنسيّات عبثاً إيقاظ ضمير الأمّة، ولفتَ انتباهها إلى محنة العاهرات اللواتي تضربهنّ الشرطة بشكل روتينيّ في الطرقات لتسلية الناس، «ملطّخات بالطين والقاذورات، ثيابهنّ ممزّقة، يتعرّضن للرفس واللكمات، وتجرّهنّ الشرطة من شعرهنّ في الشارع». في بريطانيا، اتّخذ العنف الرسميّ ضدّ العاهرات صيغة الفحص التناسليّ الدوريّ القسريّ الوحشيّ المهين، لاستقصاء إصابتهنّ بالأمراض الزُهريّة، استناداً إلى «قانون الأمراض المُعدية» الذي ينصّ على أنّ الأنثى هي وحدها الحاضنة والناقلة للإنتانات التناسليّة. مع ذلك، تلاشت الانقسامات بين الناشطات في الدول المختلفة، من خلال اتّحادهنّ في مهمّة ضمنية هي المطالبة بإلغاء «الحقّ الجنسيّ» للذكور، الذي يؤمن كلّ رجل بأنّه مخوّل به، سواء كان سيّداً أم لا.

اكتسب النضال النسويّ ثيمتين أساسيّتين خلال استمراره وتطوّره، لعبتا كلتاهما دوراً بتغيير حياة النساء في القرن العشرين. تنبع الثيمة الأولى من الحقّ الجسديّ الرئيس، وهو حقّ الرفض. قبل الثورة الصناعيّة، كانت «العازبة المسنّة» مخلوقة تعيسة يبغضها الناس ويشفقون عليها، مفترضين أنّها تستميت للارتباط بالرجل ولا تساوي شيئاً من دونه، كما أنّها ستقبل دون شروط بأيّ ذكر يظهر في حياتها. اختيار المرأة لحياة العزوبية البائسة تلك، وتفضيلها على النعمة الزوجيّة، كان فكرة خارجة عن السياق، لكن بعد أن أوجدت المرأة العازبة معنى لحياتها في القرن التاسع عشر، وحصلت على عمل يحقّق لها غايتها، رفعت حركةُ حقوق النساء سقفَ مطالبها، وكذلك تقديرَ المرأة لنفسها. من خلال البرامج المتنوّعة التي استهدفت إصلاح القوانين، والحصول على حقّ الاقتراع، وتعليم الفتيات، والاعتدال السياسيّ، وإلغاء العبوديّة... إلخ، احتفتِ المرأة العازبة بإنجازاتها

الشخصيّة، وتحلّت بالشجاعة كي ترفض فكرة أنّ الزواج هو كلّ شيء. بعد أعمالها البطوليّة في كريميا، أصبحت فلورنس نايتنغيل «العانسَ» الأشهر على مستوى العالم، وكان رفضها للزواج بمثابة تصريح مباشر عن قيمة استقلاليّتها الذاتيّة، وتفرّدها، وجسدها. عبّرت عن هذا بوضوح من خلال إعلانها بأنّ «المرأة يجب أن تضحّي بحياتها كلّها إن قبلتْ عرضاً بالزواج، لأنّها ستلغي كيانها بأسره في ظلّ الرجل».

«العانس» الجديدة التي اكتشفت نفسها للتوّ، لا تحتاج إلى رجل إذن، لكنّ هذا لا يعني أنّها تريد قضاء حياتها مغمورة أو عذراء أو عازبة. الحقّ بالرفض توازى مع حقّ الاختيار: المرأة التي أصبحت حرّة بأن تختار وأن تستمتع، من حقّها الآن أن ترتبط بامرأة أخرى. بالتالي، اضطرّ دعاة الأخلاقيّات التقليديّة التي اهتزّت بفعل الكثير من الصدمات، إلى تقبّل الحبِّ العلنيّ بين النساء المِثليّات جنسيّاً، الذي لم يولَد بالطبع في القرن التاسع عشر. سابقاً، الممارسات الجنسيّة المثليّة بين النساء، كما الكثير من مناحي حياتهنّ الخاصّة، كانت غير مرئيّة من قبل «المجتمع الحقيقيّ» الذكوريّ ككلّ، لكنّها مألوفة بالنسبة للرجال الذين غضّوا النظر عنها بتواطؤ مزهوّ. كتبَ رئيس دير برانتوم في القرن السابع عشر عن النساء في بلاط الملك هنري الثاني، مدافعاً عن العلاقات الجنسيّة بينهنّ بوصفها «مجرّد تدريب على الحبّ الأعظم بين الرجال والنساء»، كما أنّها مقبولة بالنسبة للأزواج لأنّها لا تنطوي على «فسوق».

هذا الموقف المتسامح الصادر عن رجل بلاط راقٍ، لا يتماشى أبداً مع موقف الكنيسة الرسميّ. يشير الإنجيل مرّة واحدة فقط إلى العلاقات الجنسيّة المثليّة بين النساء (في رسائل القديس بولس، بلا ريب!) لكن سرعان ما تنامى بغض المسيحيّة لتلك «الرذيلة الشاذّة»، وعاقبت مَن ترتكبها بالموت. في عام 1721، أُحْرِقَت امرأة ألمانيّة هي كاترينا مارغاريتا لينك، بتهمة انتحال شخصيّة رجل، وزواجها من امرأة أخرى. إنّها حالة تشهد بوضوح على حقيقة الغضب الباترياركيّ الذي تعامل به مع كلّ الحالات المشابهة، إذ لم تُعاقَب لينك على علاقتها الجنسيّة مع «زوجتها»، وإنّما على تنكّرها كذكر. من ناحية

أخرى، أيّة راهبة أو امرأة عاديّة تستخدم «جهاز اللواطة» أي الديلدو[7] الذي يحلّ محلّ القضيب، لن تتوقّع الرأفة إن تمّ إلقاء القبض عليها. من وجهة نظر رجال الكنيسة والآباء والأزواج، العلاقات الجنسيّة بين النساء ليست رهيبة إن اقتصرت على تبادل القبلات، أو المداعبات، أو تقاسم السرير، أو الوصول إلى النشوة الجنسيّة، لأنّها تنسجم مع تصوّر الذكور عن جنسانيّة النساء، وتغذي فانتازياتهم الفالوسيّة، كما في السيناريو الشهير «سحاقيّتان ورجل واحد»، الذي تتداوله الموادّ الإباحيّة منذ العصور الكلاسيكيّة وحتّى اليوم.

ظهور نساء اتّخذن قراراً سياسيّاً واعياً بفصل أنفسهنّ عن التيّار السائد في مجتمعاتهنّ آنذاك، ألقى ضوءاً مختلفاً على قضيّة «الحبّ النسائيّ». في عام 1892، قامت أليس ميتشيل، وهي امرأة شابّة من ولاية تينيسي، بقتل عشيقتها فريدا وورد «كي لا يحصل عليها أحد غيري»، كما قالت. بالتالي، لم يعد بمقدور الرجال الأمريكيّين المحترمين الادّعاء بأنّ تلك الحوادث تحصل فقط في العالم القديم، أو في المجلّات الإباحيّة الفرنسيّة. في أوروبا، بدأت النساء المثليّات بتنظيم صفوفهنّ منذ عام 1900 –وهو العام الذي شهد بداية مسيرة مثليّ الجنس للمطالبة بحقوقهم– فنادت إحدى العالِمات الألمانيّات آنذاك: «تشجّعي يا أختاه، وأثبِتي للعالَم الطبيعيّ أنّك تمتلكين الحقّ بالحياة. تحدّي ذلك العالَم، وسوف يقبل الناس بوجودك، ويدركونه، بل سيحسدونك»... لكنّ الوقت ما يزال باكراً على الثقة!

في ظلّ الخبرة القليلة، وتفسيرِ العلاقات بين النساء المثليّات المتمحورِ حول الفالوس، تسامحت أمريكا وأوروبا علانية مع «الصداقة الرومانسيّة» بين النساء، أو «الارتباط العاطفيّ»، أو «الحبّ بين الأرواح المتقاربة»، بل حتّى مع «زواج بوسطن»[8]، لكنّ ردّ الفعل كان عنيفاً عندما صرّحت النساء

7- Dildo: جهاز يشبه القضيب الذكريّ، يُستعمل للمتعة الجنسيّة. المترجمة

8- مصطلح ظهر في القرن التاسع عشر للإشارة إلى أيّ امرأتين تعيشان معاً تحت سقف واحد، دون الاعتماد على وجود ذكر، سواء قامت بينهما علاقات جنسيّة أم لا. يستخدم حالياً كإشارة تاريخية فقط، نظراً لتشريع زواج مثليّي الجنس في العديد من البلدان. المترجمة

دون موارية بالطبيعة الجنسيّة الحقيقيّة لارتباط بعضهنّ ببعض. إن كان ممكناً لـ «بظرين» أن يستمتعا دون وجود ولو «قضيب» واحد، ستنقصف الهيمنة الفالوسيّة من جذورها! فجأة، اضطرّ الرجل للاعتراف بأنّ أداء الإصبع واللسان والمرأة، أفضل ممّا يقوم به عضوه المقدّس، فضلاً عن المساواة الاقتصاديّة والسياسيّة التي تطالب بها النساء... إذن، قد تستغني المرأة عن الذكر نهائيّاً!

إنّها معركة نهاية العالَم! لم تجد النساء اللواتي يناضلن للخروج من السجن البابَ موصداً فحسب، بل مسدوداً بالطوب! في عام 1928 في بريطانيا، نشرت الكاتبة راديكليف هول مناشدة عاطفيّة عن التسامح هي رواية «بئر العزلة». راديكليف التي عُمِّدَت باسم مارغريت، لكنّها عُرِفَت دائماً بـ «جون»، تعرّضت لانتقاد شديد من النسويّات فيما بعد، بسبب آرائها السلبيّة عن «الانقلاب الجنسيّ» بالمصطلحات السيكولوجيّة السائدة في عصرها آنذاك: «أنا واحدة ممّن وصمهنّ الله بعلامة على الجبين» تقول بطلة الرواية لحبيبتها، «أنا موصومة ومُدانة كقابيل». في الختام، صرخت البطلة صرخة لا تُنسى، وتكلّمت نيابة عن النساء جميعهنّ حين قالت: «اعْتَرِف بنا يا إلهي أمام العالَم كلّه... أعطِنا الحقَّ بالوجود»، لكنّ أحداً لم يسمعها. في إدانة همجيّة لاحقة، سُحِقَت راديكليف هول ماديّاً واجتماعيّاً، لأنّ مجتمعها الذكوريّ أثبت أنّه سينقضّ بهياج على كلّ من تتحدّى سلطته.

لن أدّعي أنّ الذكور الباترياركيّين اهتمّوا بما تطالب به النساء المثليّات من التسامح والقبول، فقد واجهتهم معارك أخرى في كلّ المجتمعات الصناعيّة حول العالم، وشعروا جميعهم برياح التغيير. منذ منتصف القرن، ارتاع الرجل لرؤية حقوقه تتداعى بعد أن خضعت لتمحيص النسويّات الصارم، بدءاً من البغاء، ودعارة الأطفال، وانتهاء باستخدام العنف ضدّ النساء. كلّ المعارك التي تمحورت حول الجنسانيّة، وكلّ الصراعات التي خاضتها النساء من أجل إنهاء أو تقليص سلطة الرجل على الجسد الأنثويّ، اتّحدت في معركة موانع الحمل –أو «تنظيم الإنجاب» بتعبير مارغريت سانجر– التي تحوّلت إلى رمزٍ يمثّل التحرّر الجسديّ، مثلما كان الحقّ

بالانتخاب هو محور المواطَنة. كلاهما حرّضا ردود الأفعال ذاتها المتمثّلة بالغضب والبارانويا والامتعاض، وكلاهما أثار العناد والإصرار ذاته في نفوس الناشطات، لكنّ حقَّ «تنظيم الإنجاب» مسألةٌ تمسّ النساء جميعهنّ في صلب حياتهنّ الحميمة الشخصيّة. ربّما لن يشعر الزوجان بأنّ حصول المرأة على حقّ الاقتراع يؤثّر على وجودهما معاً، على العكس من منع الحمل الذي يهدّد بتغيير نمط حياتهما الجنسيّة، سلباً أو إيجاباً، إلى الأبد.

الطرائق الحديثة التي ظهرت آنذاك لمنع الحمل كانت فعّالة، وهي تختلف جذرياً عمّا سبقها من أدوات وجرعات. الحواجز المهبليّة والواقيات الذكريّة كانت موجودة منذ الأزل، أمّا الآن، فقد حلّت محلّها طرائق رخيصة كفوءة، حوّلت الحلم إلى واقع ملموس. السبب الرئيسيّ في ظهورها، كان تطوّر تقنية تصليب المطّاط في حقبة 1840، ممّا سمح بإنتاج الواقي الذكريّ بشكله المعروف اليوم، فضلاً عن اختراع «غطاء عنق الرحم» على يد الطبيب الألمانيّ فريدريك أدولف وايلد عام 1838، وانتشار استعماله على نطاق واسع. تسجيل براءة اختراع «حقنة الدوش المهبليّ» في حقبة 1870، يجسّد خطوة فائقة الأهميّة، لأنّ الحقنة قدّمت ميزة إضافيّة هي استخدامها كأداة للنظافة الشخصيّة، أي يمكن للمرأة أن تشتريها دون افتضاح نيّتها بالتدخّل في «أسلوب الطبيعة». بالتالي، خضع مسار النطاف أخيراً لسلطة المرأة.

في هذا السياق، تطوّرَ العلمُ أسرع من عقليّة الجمهور الذي يستهدفه. منذ أن بدأ النقاش حول وسائل منع الحمل في العصر الحديث، أي منذ مدحت المصلحة الفرنسيّة فرانسيس بلايس «قطعة الإسفنج تلك، التي لا تزيد مساحتها عن إنش مربّع، والتي تُدَسّ في المهبل قبل الجماع، من ثمّ تُسحَب عند الانتهاء بواسطة خيط مجدول»، حتّى تعالت ردود أفعال هستيريائية. الأطبّاء على ضفّتي الأطلسيّ، في إطار سعيهم لكسب الاحترام لمهنتهم، نفروا مرتعبين من «التحوير الشاذّ الداعر للطبيعة». برأيهم، ممارسة الجنس دون نيّة بحصول حمل، هي بحدّ ذاتها مجرّد «استمناء ضمن إطار الزواج»، وكلّ نطفة تُقتَل تُعَدّ بشكل غير مباشر «جريمة قتل طفل»، لكنّها تختلف عن بقيّة الجرائم بأنّ من ترتكبها لن تفلت دون عقاب، كما هدر الدكتور سي.

إتش. إف روث الملقّب بـ «إشعياء» الجمعيّة الطبيّة البريطانيّة، الذي حذّر من أنّ موانع الحمل تسبّب ما يلي: التهاب بطانة الرحم المزمن، المفرزات البيضاء، قلّة دم الطمث، القيلة الدمويّة، الآلام الرحميّة، زيادة الحساسيّة للمحرّضات الجسديّة، السرطانات الخبيثة الغازية، استسقاء المبيض، العقم المطلق، الهوس الذي ينتهي بالانتحار، والسلوك الجنسيّ القهريّ المقرف.

لم تقتصر العقوبات التي تعرّضت لها الناشطات على الإدانة الشفهيّة فحسب، في عام 1877، نَجت الناشطة البريطانيّة آني بيزانت من عقوبة السجن، لكنّها خسرت حضانة ابنتها باعتبارها «أمّاً غير فاضلة». بعد عشر سنوات، شُطِب اسم السير توماس كلِفورد آلبوت من سجلّات النقابة، لأنّه كتب مقالاً عن موانع الحمل في كتابه «دليل الزوجة». رغم ذلك، انقلب التيّار على الباترياركيّين الساخطين. في عام 1882، قامت آليتا جايكوبس -وهي أوّل طبيبة في هولندا- بافتتاح أوّل عيادة من نوعها في العالم، متخصّصة بتنظيم الإنجاب. الجيل التالي من المناضلات في سبيل هذه القضيّة (كماري ستوبس في إنجلترا، ومارغريت سانجر في أمريكا) كان عصيّاً على الهزيمة، خاصّة بعد أن تحطّم الترافق الحتميّ ما بين العلاقة الجنسيّة والإنجاب. خاضت ستوبس وسانجر المعركة بنجاح في الوقت ذاته، لكن بهدفين مختلفين. من وجهة نظر سانجر، ستحرّر الأمّ أخيراً من الفقر المحتوم والمعاناة الجسديّة، لأنّها لم تعد مضطرّة لإنجاب الكثير من الأطفال، أمّا ستوبس فأعلنت أنّ موانع الحمل ستحرّر النساء وترحّب بهنّ في «فردوس من الملذّات الزوجيّة». بأيّ حال، كلتاهما اعتبرتا أنّ المرأة ستنتصر.

في أوج المعركة، حملت الصحيفة التي أصدرتها سانجر لتغطية نشاط حملتِها اسمَ «المرأة تتمرّد». بعد أن انتهت الثورة النسويّة وتحقّقت أهدافها، لم يبق على «المرأة المتمرّدة» إلّا أن تحيا وتقطف ثمار وضعها الجديد، وهو ما كانت ستفعله بلا شكّ لو أتيحت لها الفرصة، لكنّ الظروف التاريخيّة التي أدّت إلى ظهور النسويّة في القرن التاسع عشر، خلقت في الوقت ذاته الردَّ الذكوريّ عليها. في الغرب، حيثما أطاحت النسويّة بإله – أبّ، سواء قانونيّاً أو مهنيّاً أو منزليّاً، انبطح الرجال على الأرض وهم يصرخون

مطالبين بالانتقام لكبريائهم الجريحة، وجاءتهم النجدة من فيينا على يد سيغموند فرويد، الذي أسّس ثقافة جديدة تعيد للرجل «حقّه» بالصدارة في مركز الكون.

من سوء حظّ النساء، أنّ فرويد وُلِد في المجتمع الألمانيّ البرجوازيّ في منتصف القرن التاسع عشر. بالنسبة إلى رجل كان مقدّراً له أن يعيد صياغة رأي العالم حول الجنس الأنثويّ، قدّمت له بيئته المثالَ الأسوأ عن التنظيم الاجتماعيّ، بكلّ ما فيها من ضيق أفق وتسفيه ورجعيّة وردود أفعال هدّامة، واختزلت المرأةَ إلى لعبة فارغة الرأس أو كائن هستيريائي. لم تختلف آراء فرويد الشخصيّة عن موقف الباترياركيّة اليهوديّة من المرأة، ولم يتأثّر قط بأيٍّ من النساء العظيمات اللواتي قدن نضال النسويّة، كما هو واضح من الرسالة التالية التي وبّخ فيها خطيبته:

«إرسالُ النساء للنضال من أجل الوجود كالرجال، فكرةٌ ستموت في مهدها. أنا على سبيل المثال، لو تخيّلتُ فتاتي الحبيبة كمنافسة لي، لن أقول لها إلّا إنّني أحبّها، وسأحثّها على الانسحاب من النضال، والعودة إلى النشاط الهادئ غير التنافسيّ في بيتي. أعتقد أنّ كلّ إصلاحات القانون والتعليم سوف تتحطّم أمام الحقيقة التالية: قبل زمن طويل من حلول ذلك العصر الذي كسب فيه الرجل موقعه ضمن المجتمع، كانت الطبيعة قد قرّرت مصير المرأة من خلال السحر والجمال والعذوبة. لربّما يعيد القانون إلى النساء الكثيرَ ممّا حُرِمنَ منه، لكنّ موقع المرأة لن يتبدّل. ستبقى مُدلَّلة حبيبها في صباها، وزوجته المحبّة في شيخوختها».

مع دخول «السيّدة الطبيعة» مجدّداً إلى المشهد البدائيّ، كي تعيد تقسيم السُلطة كما ينبغي بين الذكور والإناث، وترسّخ حالة الستاتيكيّة مجدّداً، لا يفاجئنا اندفاع فرويد لاستعادة موقع الرجل القديم ضمن مركز الكون، كأنّ كلّ تلك السنين الطويلة من النضال والشقاء الذي تكبّدته حركات التحرّر النسويّة، وكلّ النجاح الذي حقّقته، لا يعني شيئاً! لقد قام فرويد باستغلال اللّاوعي، وأحيا الفالوس من جديد. في الحقيقة، لم يمت الفالوس قط، لكنّه كان متوارياً عن الأنظار، وقد طأطأ رأسه بعد أن هُزِم أمام هجوم النساء على

الامتيازات الذكوريّة الجنسيّة الراسخة. أمّا الآن، فقد أصبح البطل الرئيسيّ في مسرحيّة جديدة، يؤلّفها كاتب دراميّ ألمانيّ جديد!

حبكة فرويد بسيطة: يكبر الصبيّ الصغير الذي يحبّ أمّه، وذات يوم، يكتشف الأعجوبة الكبرى أي قضيب الذكر البالغ. يا حسرة! ذلك القضيب ليس قضيبه، لذلك ينهار الصبيّ الصغير محتاراً. في الوقت ذاته، ترى أخته الصغيرة العضو المهيب بدورها، فيثور غضبها لأنّها لا تملك واحداً مثله. على الأقلّ، سيتغلّب الأخ الصغير يوماً على عقدة كراهيّته لوالده وعلى مخاوف الخصاء، ويكبر، ويصبح لديه قضيبه الخاصّ كي يلهو به، أمّا الأخت الصغيرة فستبقى إلى الأبد عالقة في جسدها غير الناضج، وفي غيرتها من القضيب المقدّس. العبرة من هذه الدراما الأوديبيّة بسيطة بدورها: من الأفضل أن تكون صبيّاً لا بنتاً، ولا شيء في العالم كلّه أعظم وأقوى وأهمّ وأفضل من امتلاك قضيب.

استناداً إلى ما سبق، لا مناص من أن نستنتج ما يلي: أوّلاً، يحظى الجنس الأنثويّ بمرتبة أدنى، بسبب «افتقار الأنثى للأعضاء التناسليّة الخارجيّة». بعبارة أخرى، أنتِ معطوبة لأنّكِ امرأة. ثانياً، فرويد الذي علق شخصيّاً في مرحلة «قضيبي أكبر من قضيبك»، أعلن أنّ «قضيب المرأة» أي البظر، قاصرٌ ومثير للشفقة. عندما لاحظ أنّ البظر حسّاس للغاية رغم حجمه الصغير غير المُبهِر، قرّر أنّ البظر يعاني من نوع من التأخّر سمّاه «الذكورة الطفوليّة»، ولن تنضج المرأة جنسيّاً إلّا إن انتقل مركز الإثارة من البظر إلى جوف المهبل. النشوة المهبليّة إذن هي علامة «المرأة الحقّة»، أمّا البظر فيعني «توقّفي وابدئي من جديد».

يلخّص عالم بيولوجيا أمريكيّ معاصر، تأثيرَ أفكار فرويد تلك: نظريّة فرويد عن النشوة المهبليّة، تطالب المرأة بإنكار حواسّها ومعرفتها بإيروتيكيّتها الشخصيّة، كي تصبح أنثى ناضجة، لكنّها صفقة هدّامة محبِطة. تداعيات تلك النظريّة خطيرة، إذ إنّ تحقيق النشوة المهبليّة بالنسبة للعديد من النساء هو مجرّد مجهود عقيم، لا ينتج عنه إلّا ترسيخُ إحساسهنّ بالدونيّة ونقصِ الكفاءة والذنب. نظريّة كتلك، تُقدَّم لتفسير وعلاج «الجمود الجنسيّ»، لا تضمن إلّا عدمَ تحقيق النشوة، بسبب إصرارها على أن تحصل

عليها المرأة باتّباع أصعب طريقة ممكنة... كما أنّها ترسّخ الجنسانيّة المتمحورة حول الفالوس، بتعريف جنسانيّة المرأة من خلال القضيب حصراً. الفَرْج مهمٌّ، لكنّ ميراث فرويد يضمن أن الجنس عند المرأة -وهو أكثر قضاياها حميميّة- أصبح خاضعاً لـ«الخبراء» الذكور، الذين لم يسألوا المرأة قط كيف تشعر أو بماذا تفكّر، ولم يكترثوا مطلقاً للبراهين المعاكسة التي قدّمَتْها، لأنّهم يمتلكون السلطة كي يقرّروا كيف يجب أن تمارس الجنس، وكيف يجب أن تشعر خلال مرحلة منه. من وجهة نظر الذكور، نظريّة فرويد كانت حقلاً جديداً سمح لهم بتسخير الطبيعة الأمّ لخدمة الأب الجديد إله العلم، ودفعِها إلى الجنون كي تردّد القصّة العتيقة ذاتها: الرجل قويّ والمرأة ضعيفة، الرجل نشيط والمرأة خاملة، الرجل مهيمن والمرأة خاضعة. في كتاب «جنسانيّة الأنثى» الذي ألّفته الأميرة ماري بونابارت، وهي إحدى تلميذات فرويد، نقرأ الوصف الغريب التالي للمرأة «الحقيقيّة»:

«دور الأنثى في كلّ شيء، بدءاً من الإباضة وانتهاء بالحبّ، هو الانتظار. لا بدّ للمهبل من انتظار دخول القضيب، بالأسلوب السلبيّ الكامن ذاته الذي تنتظر فيه البويضة وصول النطفة. في الواقع، الخرافة الأنثويّة الأزليّة عن الجميلة النائمة، تلخّص علاقتنا البيولوجيّة الأولى».

يا لها من خدعة جيّدة، نُفِّذَت في الوقت الملائم!

مع انتشار المعرفة بوسائل منع الحمل الحديثة، كادت المرأة أن تتحكّم بجسدها، وأصبح من العسير على الرجل الغربيّ إخضاعُ زوجته عن طريق إنجاب الكثير من الأطفال، أو إبقاؤها «حافية وحبلى في المطبخ». ظنّت الناشطات أنّهنّ يشهدن نهاية قمع المرأة بسبب جنسها، إذ لم يعد من المقبول أن تُسجَن أو أن تُضرَب بسبب علاقة جنسيّة، كما أنّها لم تعد أسيرة الإنجاب، بل قادرة على رفض العلاقة الجنسيّة متى شاءت. ولكن...

السلطة الذكوريّة الحاضرة دوماً، ابتدعت خدعتها الأعظم، وهي التلاعب سيكولوجيّاً بالمرأة وترهيبها بـ«الجمود الجنسيّ»، وبأنّها «ليست امرأة حقيقيّة، بل رجل غير ناضج أو طفل قاصر». إنّها خطّة عصماء! حيثما وصلت نظريّة الدجّال الألمانيّ، اضطربت المرأة، وبذلت ما في وسعها

لتطبيقها. «لا يمكن لأيّة امرأة أن تدّعي الحريّة، وهي لا تملك جسدها ولا تتحكّم به»، على حدّ قول مارغريت سانجر.

عندما تطلّع الربّ إلى أعماله ووجدها جيّدة، لم يتمالك نفسه عن القول: أجل.



بناتُ الزمن

- الحقيقة هي بنتُ الزمن، لا بنت السُلطة.

• **فرانسيس بيكون**

- لو قرأتم التاريخ على نحو صحيح، لأدركتم أنّه تسجيل لمحاولات ترويض الأب. أعظم انتصارات الحضارة، كان تدجين الذكر البشريّ.

• **ماكس ليرنر**

- كيف ينبغي أن يفكّر الرجال والنساء بذكورتهم وأنوثتهم في القرن العشرين، بعد أن توجّب علينا تحديث العديد من مفاهيمنا القديمة؟!

• **مارغريت ميد**

في الرابع من آب عام 1914، نظر السير إدوارد غراي، وزير خارجيّة بريطانيا، عبر شارع وايتهول إلى لندن المعتمة، وعلّق: «الأنوار تنطفئ في كلّ أرجاء أوروبا، ولن تُضاء مرّة أخرى خلال حياتنا». ملاحظته بدت منطقيّة، إذ إنّ الدول التي اشتركت في الحرب العالميّة الأولى لم تستطع توفير الغاز أو الكهرباء. تكبّدت بريطانيا آنذاك ما يعادل خمسين مليار جنيه، إضافة إلى ضعفي ذلك المبلغ لإصلاح الدمار الناجم عن المعارك. إنّه مبلغ خرافيّ كان من الممكن استثماره لتوفير مساكن أفضل، وخدمات عامّة،

وغذاء، لكنّه أُنفِقَ على صراع خلّف ملايين الأشخاص في أوروبا مشرّدين يتضوّرون جوعاً.

أولئك المشرّدون الجياع كانوا محظوظين، بعد أن فقد أكثر من عشرة ملايين شخص حياتهم في خدمة إله الحرب، الذي ما زال يطالبنا بالأضاحي حتّى اليوم. ما الذي دفع برجال الحكومة إلى إرسال خيرة شبابهم كي يقتلوا أعداءَ الأمّة، أو يُقتَلوا بدورهم؟! مهما كان السبب، عندما خسرت المرأة زوجها أو ابنها أو أحبّاءها جميعهم، قيل لها إنّ خسارتها هي جهد حربيّ يعزّز مكانتها الاجتماعيّة والقانونيّة. لا بدّ أنّها أحسّت بالغبن مع ذلك، لأنّ الثمن الذي دفعته كان باهظاً بينما بقي الهدفان التوأمان، الحريّة والمساواة، بعيدَين عن متناولها.

خلال الحرب، أعدم الألمان الممرّضة البريطانيّة إديث كافل لأنّها ساعدت الأسرى المصابين على الهرب، أمّا الراقصة الهولنديّة ماتا هاري فقد أعدمها الفرنسيّون بتهمة التجسّس لمصلحة الألمان. تساوت المرأة مع الرجل أمام فرقة الإعدام إذن، لكنّ استثناء النساء من كلّ الامتيازات التي أسبغها الرجال على أنفسهم، ظلّ قائماً يذكّرنا بقسوة بأنّ الظروف –والرجال أيضاً– لم تتغيّر كثيراً.

تكرّر درس الحرب العالميّة الأولى، وترسّخ، مع اندلاع الحرب العالميّة الثانية. صعود الفاشيّة، وتركيزها على العدوانيّة والذكوريّة المبالغ بها، قوّض كلّ المكتسبات التي ظفر بها النضال النسويّ خلال القرن السابق. روّجت النازيّة صورة «المرأة الألمانيّة الجديدة»، وأعلن هتلر أنّ تحرّر النساء هو عَرَض من أعراض الحرمان، ينجم عن الإحباط واختلال وظيفة الغدد الجنسيّة، أمّا وزير دعايته يوزف غوبلز فقد صرّح بأنّ «أنثى الطير تقدّم نفسها لقرينها فقط، ولا تضع البيض إلّا من أجله». نواةُ الفكر النازيّ حول قضيّة المرأة كانت عدم المساواة بين الجنسين، وهي عقيدة لا تقبل النقاش، تماماً كتفوّق العِرق الآريّ على غيره من الأعراق. كما هو الحال طيلة تاريخ النساء، تطلّب الحفاظ على حالة عدم المساواة تلك قوّةً وحشيّة، كما يشرح المؤرّخ رينشارد غرَنْبرغر: «دستور ڤايمار منح النساءَ حقَّ التصويت، ودعم ظهور نخبة نسائيّة، تمتدّ من روزا لوكسمبورغ وكلارا زتكين في اليسار، إلى

المسؤولات في الرايخ ستاغ الوطنيّ كممثّلات عن اليمين. ما بين أولئك السياسيّات، والنسوة العاملات، برزت طليعة أكاديميّة متخصّصة: قرابة مئة ألف مدرِّسة، وثلاثة عشر ألف عازفة، وثلاثة آلاف طبيبة».

إنّها الطليعة التي ستُطرَد من الحياة العامّة فيما بعد. مرسوم كانون الأوّل 1921، كان أحد أبكر المراسيم التي أصدرها النازيّون، ومنعوا بموجبه النساءَ إلى الأبد من تولّي أيّ منصب في الحزب. واجب المرأة، سواء بالنسبة للحزب أو أثناء الحرب، هو إنجاب الحلمِ الآريّ: طفلُ المستقبل. عوضاً عن المعادلة القديمة Kinder, Kirche, Küche أو 3Ks (الأطفال، المطبخ، الكنيسة)، تلقّت المرأة الألمانيّة وعداً بالحصول على «التقدير الذي تستحقّه كرامتُها الأساسيّة»، لكن بعض النساء فقط ظفرن به. مقدار احترام النازيّين للمرأة يتوضّح من خلال الحادثة التالية، التي انصاع فيها النظام لإيديولوجيا الحزب بكفاءة نازيّة نموذجيّة:

«في أوشڤيتز، أقيم ماخور مؤلّف من أربعين غرفة في المبنى 24، يقدّم خدماته لمن يحملون المثلّث الأسود[1]، وللسجناء الألمان، ولبعض المتملّقين ممّن يحملون المثلث الأخضر. وزّع الحرّاس التذاكرَ كجائزة لدخول المبغى الذي أطلقوا عليه اسم Puff – hous، والذي تسمّى مديرته بـPuff mutter. عملت الفتيات هناك ساعتين يوميّاً، لثلاثة أيّام أسبوعيّاً، وكانت المديرة ترنّ الجرس كلّ عشرين دقيقة، وهو الوقت ذاته الذي تستغرقه المناوبة في الأفران[2]».

مع تنامي وحشيّة النظام، تفرّد النازيّون بـ«استعمال» جديد للعاهرات، إذ قاموا بربطهنّ بأجساد السجناء الذين غُمِروا بالماء المتجمّد حتّى الموت، كي يكتشفوا إن كانت حرارة أجسادهنّ قادرة على إعادة الحياة للميت. هدفت

1- شارة على شكل مثلّث أسود اللون تُخاط على الملابس، استخدمها النازيّون لتمييز السجناء «المعادين للمجتمع» كالكحوليّين والمشرّدين والشحّاذين والغجر والعاهرات والسُحاقيّات. استُخدم المثلّث الأخضر لتمييز المجرمين والمحكومين، إضافة إلى عدّة شارات مختلفة أخرى، تمكّن الحرس من تصنيف المُعتَقلين بمجرّد النظر إليها، وبالتالي تسخيرهم في أعمال تتناسب قسوتها مع نوع الجريمة. المترجمة

2- المقصود بها الأفران التي استُخدِمَت لإحراق جثث المعتقلين في المعتقلات النازيّة. المترجمة

تلك «التجربة العلميّة» كما شرح الدكتور سيغموند راشر من سلاح الجوّ النازيّ، الذي عمل في معسكر اعتقال داشاو، إلى التوصّل إلى طريقة تنقذ الطيّار النازيّ إن سقطت طائرته في البحر البارد. سبق للعلماء النازيّين أن جرّبوا مصابيح الأشعّة فوق البنفسجيّة، وزجاجات الماء الساخن، بل حتّى العلاج بالصدمة الكهربائيّة، قبل أن تخطر فكرة «دفء الحيوان الأنثويّ» في بالهم. شرطُ هاينريش هيملر[3] الوحيد في هذا الصدد، كان ألاّ يقوم أوزوالد بول، المسؤول عن معسكرات الاعتقال، باستخدام العاهرات الألمانيّات.

بمعايير الهولوكوست، أولئك النساء كنّ محظوظات. خارج معسكرات الاحتجاز، سبحت قلّة من النساء فقط بعكس تيّار الحماس الأنثويّ الغامر تجاه هتلر، الذي كان عاملاً رئيسياً في وصوله إلى السلطة. من بين المعارضات، تلميذة مغمورة اسمها هيلتغانت زاسنهاوس[4]، فضّلت أن تكسر لوحاً من الزجاج بيدها عوضاً عن تأدية التحيّة النازيّة، وأصبحت بطلة من بطلات المقاومة.

مُنِعتِ النساء من الانضمام إلى القوّات المسلّحة، لكنّهن ناضلن ضدّ الفاشيّة من خلال العمل الفكريّ أو الانضمام إلى الميليشيات، وهو أمر ليس جديداً، إذ لطالما لجأت المرأة عبر التاريخ إلى مناورات خفيّة ضدّ العدوّ، منذ عصر دليلة وياثيل[5]. نضال المرأة قد يكون خفيّاً أثناء الحروب، عندما تتطلّب اللمسةُ الميثولوجيّة اجترارَ الكذبة القديمة ذاتها عن الرجال

3- قائد القوات الخاصّة الألمانيّة، والمشرف على عمليّات إبادة المدنيّين في معسكرات الموت النازيّة. المترجمة

4- Hiltgunt Margret Zassenhaus (1916-2004) فيلولوجيّة عملت مترجمة في هامبورغ خلال الحرب العالميّة الثانية، حيث كلّفها مكتب المدّعي العام بمراقبة مراسلات السجناء الإسكندنافيين، لكنّها كانت تضيف إلى البريد رسائل تحث فيها الأهل على إرسال الطعام والملابس الدافئة. بدأت بدراسة الطبّ في هامبورغ عام 1942، من ثمّ أصبحت طبيبة عندما هاجرت إلى أمريكا، ونشرت مذكّراتها عن الحرب بعنوان «جدران» عام 1974. المترجمة

5- يرد ذكرها في سفر القضاة، على أنّها المرأة التي قتلت سيسرا قائد جيش الكنعانيّين بعد هزيمته على يد القاضية دبورة وقائد جيشها باراق، وذلك بدقّ وتد في صدغه عندما كان نائماً. المترجمة

الذين يقاتلون فقط «للدفاع عن الجنس الأضعف، وحمايته»، أمّا في أزمنة الحروب الأهليّة أو الاضطرابات الثوريّة، فلا يمكن للتاريخ أن ينكر مساهمتها. في الحقيقة، اعتمد نجاح الثورات الحديثة على النساء، اللواتي ما إن تخلّصن من الصورة النمطيّة المحافظِة التي توحي بها خياراتهنّ في صندوق الاقتراع، والتي تُعَدُّ مميّزة للجنس الأنثويّ أكثر من العنف، حتّى أثبتن أنّهن «ثوريّات أكثر بمرّتين من الرجال» على حدّ قول فيديل كاسترو. انخراط النساء في النشاطات الراديكاليّة ليس حدثاً استثنائيّاً، كما أنّ معظم الحركات الثوريّة طالبت عند انطلاقها بأسمى الأهداف نيابة عنهنّ. تمرّد تايبينغ الذي أخضع الصين ما بين 1850–1864، خطّط لمنح المرأة مساواة تامّة مع الرجل على الصعيدين الاجتماعيّ والتعليميّ، وهو طرح يتجاوز مبادئ الشيوعيّة البدائيّة التي نُسِبَت إلى التمرّد.

لا يهمّ تقديم الثورة أو الحرب على أنّها «من أجل المرأة»، الثورة متأصّلة في المرأة وتنبثق عنها، على المستويات جميعها. أثناء نضال البارغواي ضدّ البرازيل الذي امتدّ ما بين 1864–1870، قُتِلَت ستمئة امرأة في مجزرة بيريبيباي عام 1868، التي تتميّز عن غيرها بأعداد الضحايا من الجنسين، ونقص السلاح. آنذاك، قُتِلت النساء وهنّ يقذفن الأعداء بالحجارة والرمال والزجاجات الفارغة، في دفاع مستميت عبثيّ.

إذن، أثناء الثورات والاضطرابات، ستتحوّل المرأة مجدّداً إلى جنديّة تقاتل على الجبهة مباشرة. انتهى تجنيد النساء رسميّاً في الجيش الإيرلنديّ منذ القرن السابع الميلاديّ، بعد أن كان تقليداً عريقاً يمتدّ بجذوره إلى عصور الماترياركيّة الغابرة، ولم يتلاشَ كليّاً في العصر الحديث. في إفريقيا، أثارت «الأمازونيّات المحارِبات» في مملكة داهومي استهزاء السير ريتشارد بورتون عام 1863: «جميعهنّ قبيحات، ومعظمهنّ مسنّات... يتمّ انتقاء الضبّاط الإناث وفقاً لحجم مؤخّراتهن، والمناورات التي يقمن بها لا تتعدّى دقّة قطيع من الخراف»، لكنّ كفاءة وتجهيزات ذلك الجيش النسائيّ المؤلّف من ألفين وخمسمئة امرأة، أجبرته على تغيير رأيه. من المحال أن تكون كلّ الجنديّات قبيحات أو مسنّات، بما أنّهنّ جميعهنّ زوجات الملك رسميّاً.

في الحقبة الحديثة، قاتلت المرأة فعلياً في الصفوف الأولى أثناء الحروب، رغم الرفض الرسميّ لتجنيدها في الجبهة. في القرن السادس عشر، هربت كاتالينا دي إيروسو الإسبانيّة من الدير قبل يوم واحد فقط من تلقّي نذورها، وقاتلت تحت راية إسبانيا في كلّ أرجاء أمريكا الجنوبيّة. كيت كاڤاناغ انضمّت إلى الجيش البريطانيّ عام 1693 بحثاً عن زوجها الذي جُنِّدَ قسراً، وقاتلت الفرنسيّين بشجاعة، فرُقّيَت إلى رتبة فارس. هانا شنِل أصيبت باثني عشر جرحاً وهي تصدّ هجوم الأسطول البريطانيّ على بونديتشيري عام 1748، واستخرجت رصاصة من مغبنها بنفسها كي لا يكتشف أحد أنّها امرأة. لوريتا ڤِلاسكيز الكوبيّة انضمّت إلى الجيش الفدراليّ، وقاتلت في الحرب الأهليّة الأمريكيّة، بعد أن مات أطفالها الثلاثة بالحمّى. فلورا ساندز، وهي ابنة قسّ إنجليزيّ، قادت كتيبة مدفعيّة صربيّة ضدّ البلغاريّين في الحرب العالميّة الأولى. الأمثلة لا تُعدّ ولا تُحصى عن الجنديّات، اللواتي يرسم نشاطهنّ صورةً عنيفة تتناقض مع دور المرأة السلبيّ المتعارف عليه أثناء الحروب، أي التمريض، والعناية بالجرحى، ومواساة المحتضرين.

بقتالها جنباً إلى جنب الرجل، حظيت المرأة بالسُلطة التي حرمها إيّاها دورها التقليديّ في المجتمع. ترينيداد تِسْكون امرأة فليبينيّة ناضلت ضدّ الإسبان، واشتركت في المعارك الرئيسيّة أثناء الثورة الفيليبينيّة بعد عام 1895، من ثمّ استغلّت شهرتها كبطلة حرب كي تؤسّس مستشفيات لعلاج الجرحى، وهناك كان الرجال ينادونها ببساطة Ina (أي الأمّ). الجنديّة الروسيّة البلشفيّة ماريّا بوتشكاريڤا مثال آخر لا تقلّ عن تِسكون شجاعة، رغم أنّها أقلّ تعاطفاً منها (لربّما تعكّرت الرقّة البشريّة التي يجب أن تتحلّى بها، بإجبارها على الدعارة وهي طفلة، ومن ثمّ زواجها من مجرم حرب). بعد خدمة عسكريّة مبهرة كوفئت خلالها بالعديد من الميداليّات تقديراً لشجاعتها، أسّست بوتشكاريڤا فيلق اقتحام خاصّ بالنساء، يضمّ ألفي امرأة من ذوات الكفاءة القتاليّة العالية، وأسمته «كتيبة الموت النسائيّة». كان الفيلق تجربة ناجحة للغاية، تحوّلت إلى نواة لتأسيس وحدات قتاليّة مماثلة

في أرجاء روسيا، تطوّعت ذات مرّة ألف وخمسمئة امرأة في يوم واحد للانضمام إليها، ممّا يدلّ أيضاً على حماسهنّ الشديد لدخول المعركة.

عموماً، قدّمت النساء إسهاماً أعظم للحركات الثوريّة كمناضلات من أجل الحريّة، لا كجنديات على الطراز الذكوريّ التقليديّ، خصوصاً في بلدان أمريكا اللّاتينيّة. غيرترودس بوكانِغرا مثلاً أدارت شبكة نسائيّة سريّة خلال حرب الاستقلال المكسيكيّة، وماتت تحت التعذيب عام 1817. الصينيّة تشيو تشن لاقت المصير ذاته، وهي نسويّة سارت على غرار جان دارك عندما انضمّت للقتال ضدّ سلالة المانشو عام 1898، وأُعدِمت عام 1907 بعد فشل ثورتها. لم يذهب عملها البطوليّ سدى، فقد رفضت الوشاية بأيٍّ من شركائها، وكتبت سبعة أحرف صينيّة فقط لا غير تُترجَم إلى «رياح الخريف وأمطاره ألقت الحزنَ في قلوبنا». شجاعتها ألهمت الآخرين، وساعدت على انتصار القضيّة التي ماتت من أجلها.

يصف التاريخ غالباً «القضيّةَ»، لا المرأة التي تناضل من أجلها، بالمنتصِرة! كان من الممكن إنقاذ حياة الكثير من النساء، كالروسيّة صوفيا بيروفسكايا التي خطّطت لاغتيال القيصر ألكساندر الثاني عام 1881، لكنّ ذكاءها وحنكتها خاناها عندما اعتُقِل حبيبها، فألقت بنفسها بين براثن الموت دون اكتراث. زميلاتها اللواتي بقين على قيد الحياة دفعن ثمناً باهظاً، إليزافيتا كوفالسكايا -صديقة بيروفسكايا، وشريكتها في النضال- أمضت عشرين عاماً منفية في سيبيريا. فيرا فغنر، وهي عضوة أخرى في المجموعة، قضت أيضاً العقوبة ذاتها منفية في قلعة نهر نيفا الرهيبة، حيث «تتوقّف ساعة الحياة» كما كتبت في مذكّراتها لاحقاً. لعلّ مصير فيرا ليوباتوفيتش كان الأسوأ بينهنّ، فبعد أن هربت مع حبيبها إلى جنيف حيث أنجبا طفلاً، اختطفت الشرطة السريّة الأب، فتركت ابنها كي تبحث عنه، لكنّها اعتُقِلت ونُفيَت إلى سيبيريا، وخسرت كلّ شيء.

تلك الأخطار لم تثبّط عزيمة الثائرات الحقيقيّات. الثورة الصينيّة، وهي آخر ثورة من الثورات التي صاغت العصر الحديث، تميّزت بإسهام النساء من خلال التحضير لها، والتطوّع للقتال في المعركة الختاميّة. بعضهنّ، مثل كانغ

كوتشينغ، بدأن بحمل السلاح منذ المراهقة. تينغ ينغ تشاو كانت بين خمس وثلاثين امرأة انضممن إلى «المسيرة الطويلة» عام 1934 / 1935، بعد أن هجرت بيتها وعائلتها كي تسير ثمانية آلاف ميل من أجل «غرس الشيوعيّة في الصين»، برفقة زوجها زو إنلاي، وعاشت كي تراه رئيس وزراء الصين الجديدة، بينما تبوّأت هي سلسلة من المناصب السياسيّة الرفيعة. هُو هسيانغ نينغ، وهي من أوائل النسويّات الصينيّات، تبنّت الرمز الثوريّ المتمثّل برفع شعرها للأعلى في حقبة 1920، وخسرت زوجها بعد اغتياله عام 1925. كسيانغ جينغيو التي ابتدعت ذلك الرمز، فقدت حياتها عام 1927 أثناء «الرعب الأبيض» الذي نفّذه الشيوعيّون، عندما اغتالوها لمنعها من قول كلمتها الأخيرة.

شاركت النساء أيضاً في الثورات التي قامت في كلّ من حقبة الثلاثينيّات، والخمسينيّات، والسبعينيّات من القرن العشرين. في إسبانيا، دولوريس إيباروري الملقّبة بـ«لا باسيوناريا» La Pasionaria ألهمت جيلاً بأكمله عندما ردّدت شعارها المناهض للفاشيّة No Passaran! (لن يمرّوا!). جميلة بوحيرد في الجزائر، وهايدي سانتا ماريا في كوبا، خضعتا كلتاهما إلى تعذيب جنسيّ مروّع هزّ ضمير العالم. جويس توراي روبا نهونغو (Teurai Rupa تعني الدم المسفوح) صدّت هجوم الروديسيّين الذين أرادوا أن يأسروها لأهداف دعائيّة، ودحرتهم بنجاح قبل يومين فقط من ولادة ابنتها.

الثمن الذي دفعته المرأة باهظ، لكنّ انتصارها يعزّيها. في الصين ما قبل الثورة، أيّ رجل يرفض ضرب زوجته يوميّاً بناء على أوامر والده، كان سيُلقى في سجون الإقطاعيّ أو السلطاتِ المحليّة. الثورة حرّمت ضرب النساء اللواتي اغتنمن الفرصة على الفور، للخلاص من شقاء دام خمسة آلاف عام، كما اشتكى أحد الأزواج متحسّراً: «أصدقائي جميعهم يضربون زوجاتهم، وأنا أتبع التقاليد لا غير. أحياناً، لا مبرّر لديّ إلّا أنّني لم أضربها منذ فترة... بعد التحرّر مباشرة، صار من الصعب أن أضربها. أفقد أعصابي أحياناً وأرفع يدي كي أصفعها، لكنّها تردعني فوراً هي والأطفال، بتذكيري أنّ الرفيق ماو لا يسمح بذلك. لقد تمرّدت زوجاتنا، والجميع سيعترض لو أسأنا معاملتهنّ. ذلك مستحيل!».

ربّما بالنسبة له، أمّا بالنسبة للزوجة، فتلك كانت الثورة الحقيقيّة، التي لا تدين بنجاحها إلى الرفيق ماو. قرار اللجنة المركزيّة للحزب الشيوعيّ الصينيّ بحظر ضرب الزوجات كان أساسياً، لكنّ قوّة «رابطة المرأة الصينيّة» هي التي ضمنت نجاحه. في نموذج مبكّر عن مجموعات «رفع الوعي» التي أسّستها الحركات النسويّة في أواخر حقبة الستينيّات من القرن العشرين، تمّ تشجيع النساء الصينيّات على الاجتماع معاً بهدف «شرح المعاناة التي يعشنها» علناً، ومواجهة ظروفهنّ واستغلالِ الأزواج لهنّ، وتحدّي أيّ رجل يرفض التخلّي عن عاداته القديمة السيّئة، بل حتّى معاقبته عقاباً بدنياً.

الإطاحة بنظام قائم لمصلحة نظام جديد، لا تترادف بالضرورة مع منافع ملموسة مباشرة لمصلحة المرأة. بالنسبة للنساء الريفيّات، وأولئك الفقيرات المقيمات في المدن على حدّ سواء، لم تبتعد الحياة كثيراً في قرن الثورات عن حلقة إنجاب الأطفال الأبديّة والصراع من أجل البقاء، وغالباً ما بدا الحدث الحقيقيّ المقدَّر له أن يغيّر حياتهنّ هامشيّاً، أو نائياً. غريغوري بِنكوس، وهو باحث أمريكيّ في معهد وورسيستر للبيولوجيا الكيمائيّة في ماساشوستس، نجح في عام 1955 بعزل مجموعة من الستيروئيدات ذات خواصّ برجسترونيّة، لكنّ المرأة لم تسمع بذلك الخبر أو لم تكترث به. في الحقيقة، كان اكتشافه بمثابة حجر الفلاسفة بالنسبة للعلوم الجينيّة، إذ حوّل قروناً من الأماني والأحلام إلى واقع ملموس، لأنّ البروجستاجينات تثبّط الإباضة عندما تؤخذ فمويّاً. وهكذا، وُلِدت «أقراص منع الحمل» بصمت ودون جلبة، من مركّب كيميائيّ هامشيّ تصنعه الطبيعة، ويملك القدرة على إدخال تعديلات جذريّة على حياة النساء، وكأنّه ثورة من ثورات القرن!

مؤتمر الأبحاث العلميّة الذي عُقِد في طوكيو عام 1955، حيث أعلن بنكوس عن اكتشافه، كان بحدّ ذاته نقطة تغيير جذريّ، تمخّض عنها اختراع آخر غير متوقّع، هو «جهاز منع الحمل» الذي يُثبَّت داخل الرحم. تمّ تطوير الجهاز أوّلاً في ألمانيا خلال حقبة العشرينيّات والثلاثينيّات، استناداً إلى فكرة بدائيّة تعرفها أيّ داية هنديّة شعبيّة جاهلة، وهي أنّها لو نجحت بإدخال بذور النباتات، أو عود ڤانيليا، أو جذر عرق السوس، عبر المهبل وصولاً إلى باطن

الرحم، فلن تحبل المرأة. نتائج الأجهزة الأولى كانت محبطة وكارثيّة غالباً، لعدم توافر تكنولوجيا آمنة آنذاك لتثبيتها داخل الجسم، وعدم توافر موادّ لا تسبب ارتكاساً في بطانة الرحم الذي سيحاول لفظها إلى خارجه، وبالتالي قد لا تنجو المرأة من عواقب الداء الحوضيّ الالتهابيّ الوخيمة. في نهاية المطاف، طوّر اليابانيّون -بعد نجاحهم المبهر بتطوير راديو الترانزستور- جهازَ منع الحمل داخل الرحم، باختراع «لولب» صغير للغاية من البلاستيك غير القابل للتحلّل، يضمن عدم حصول الحمل عندما يُثَبَّتُ في مكانه.

خلال خمسة عشر عاماً، استعملت أكثر من عشرين مليون امرأة أقراص منع الحمل، كما استعملت اللولبَ اثنا عشر مليون امرأة أخرى، وليس من الصعب تفسير سبب شعبيّة هاتين الطريقتين، وسرعة انتشارهما، إذ إنّهما تطوّرتا بعد المشاكل الأوليّة في عمليّة التصنيع، وأصبحتا أكثر كفاءة وفعاليّة من الطرق القديمة. بالإضافة إلى ذلك، تمتاز كلٌّ منهما بأنّ المرأة وحدها تتحكّم بهما تحكّماً مطلقاً، على عكس الواقي الذكريّ مثلاً. لم تعد الزوجة مضطرّة للاستلقاء وهي تتساءل إن كان زوجها قد اشترى واقياً، أو أنّه سيقبل أصلاً باستعمال «أحد تلك الأشياء التي تقتل المتعة»، أو أنّه سيكون صاحياً بما يكفي لوضعه، أو للحفاظ عليه في مكانه. أقراص منع الحمل واللوالب تتفوّق على غطاء عنق الرحم أيضاً، بأنّها فعّالة 24 / 24 ساعة طيلة أيّام السنة. استعمال غطاء عنق الرحم، الذي أضيف إليه الجِل القاتل للنطاف عام 1932 -تمّ اختراعه في مكان لا نتوقّعه أبداً، وهو مدينة أكسفورد الحالمة!- يتطلّب التخطيط مسبقاً لممارسة الجنس، كأنّه عمليّة حسابيّة مزعجة «سأمارس الجنس اليوم»، أو روتين يتخطّى هدفه غالباً، «ثبّتي الغطاء كلّ ليلة عندما تغسلين أسنانك، واتركي الباقي لزوجك» كما اقترح منشور بريطانيّ حول منع الحمل في حقبة الخمسينيّات البريئة. الآن، سواء كان الدافع هو الخرافة الرومانسيّة عن الشهوة العفويّة، أو نوبة نفاق تولّدها المعايير الباترياركيّة الزوجيّة، يمكن للمرأة أن تمارس الجنس دون أن تبذل جهداً لمنع الحمل كما في السابق. منعُ الحمل فصلَ ما بين ممارسة الجنس والإنجاب، والتكنولوجيا الجديدة فصلت ما بين منع الحمل والجنس.

بذلك، عاد إلى الواجهة السؤال الذي كان جزءاً من نسيج الوجود البشريّ منذ بداياته، وهو سؤال أسهم باشتعال الحرب بين الجنسين، وكذلك بين الزوجَين: من يتحكّم بجسد المرأة؟! للمرة الأولى في التاريخ، وجدت المجتمعات الغربيّة نفسها تتصارع مع وضعٍ عُدَّ سابقاً نوعاً من الخيال والهرطقة، وهو أن تمارس المرأةُ الجنسَ وتتعامل معه كما فعل الرجال دائماً، وبتلقائيّة، ووفقاً لمشيئتها، ودون تخطيط مسبق، بل ودون عواقب، وهو ما تزامن مع منعطف تاريخيّ جديد عندما اتّجهت القوانين الغربيّة نحو الليبراليّة، وشرّعت الإجهاض خلال حقبة الستينيّات.

تاريخ الإجهاض هو بحدّ ذاته نموذج مصغّر، عن الوصاية الاجتماعيّة والقانونيّة على جسد المرأة، وهي الوصاية التي استمرّت إلى عهد قريب جدّاً، عاكسةً دوافع الباترياركيّة وارتيابها، لا احتياجات النساء. حتّى عام 1939 في بريطانيا مثلاً، كانت هناك لجنة حكوميّة يترأسها اللورد بيركِت، تتولّى ترسيخ حقّ الدولة بالتحكّم بمقدرات المرأة الإنجابيّة، لإبقاء معدّل الولادات مرتفعاً. تغيّر ذلك الوضع في الغرب، عندما انتقل اهتمام الدولة من ترسيخ السلطة إلى الاعتراف القانونيّ بحقوق الفرد، والاستقلاليّة الفرديّة.

في الدول ذات التقاليد الكاثوليكيّة الراسخة، ظلّ الإجهاض غير قانونيّ، بل غير وارد على الإطلاق. بالتالي، كان الصراع لتشريعه طويلاً ومريراً وعنيفاً، لكنّ الانتصار تحقّق بفضل إصرار النسويّات والتنسيق ما بينهنّ. في إيرلندا، سافرت عشرات النساء معاً من دبلن إلى بلفاست لشراء موانع الحمل، لأنّ بلفاست تقع في شمالي الجزيرة وتعتبر جزءاً من المملكة المتّحدة، وتخضع بالتالي للقانون الإنجليزيّ. عندما عاد القطار إلى دبلن، وجدن بانتظارهنّ حشداً من المؤيّدين، كما غضّ رجال الجمارك النظر عن بضاعتهنّ غير الشرعيّة. في فرنسا، قامت مجموعة من النساء تضمّ نخبة من المشهورات آنذاك -كسيمون دي بوڤوار- بنشر «مانفيستو الـ343»، وهو وثيقة اعترفت الموقّعات عليها -ثلاثمئة وثلاث وأربعون امرأة- بأنّهن جميعهنّ أجرين إجهاضات غير قانونيّة، وتحدّين السلطات

بأن تقوم بإعدامهنّ. من هذه الحادثة نشأت منظمة «شوازير» (Choisir أي اختيار) الداعمة للإجهاض، التي موّلتها جيزيلا حليمي، المحامية التي تولّت الدفاع عن المناضلة الجزائريّة جميلة بوحيرد. شنّت المنظمة حملة أجبرت البرلمان الفرنسيّ على تشريع الإجهاض ومنع الحمل عام 1974، بعد الجهود التي بذلتها سيمون ڤايل.

مع نهاية حقبة السبعينيّات، صدرت قرارات هامّة على ضفّتي الأطلسيّ، غيّرت حياةَ كلٍّ من المرأة الأوروبيّة والأمريكيّة تغييراً جذريّاً. في عام 1973، أعلنت المحكمة العليا الأمريكيّة أنّ «حقّ الفرد بالخصوصيّة يشمل قرار الإجهاض»، من ثمّ أكّدت ذلك الحقّ بقرار تالٍ فائق الأهمّيّة: «بما أنّ المرأة هي التي تحمل الطفل في جسدها، وهي التي تتأثر أكثر وعلى نحو مباشر وفوريّ بالحمل، لذلك ما بين الوالد والوالدة، يرجع القرار بشأن الإجهاض إلى كفّة المرأة». في بريطانيا، صدر قرار مماثل تمّ تأكيده من خلال التماس رُفِع إلى محكمة العدل الأوروبيّة عام 1981، التي أعلنت أنّ «القانون البريطانيّ لا يعطي الأبَ الحقَّ باستشارته بما يخصّ إنهاء الحمل».

لا حقّ للأب؟! المرأة تطالب بحقّ التحكّم بجسدها، والمحكمة تؤيّدها؟! كيف حصل هذا؟! فقط بعد عشرين عاماً من النضال النسويّ المكثّف!

من المهم أن ننوّه إلى أنّ المرأة في المجتمعات الصناعيّة لم تزحف عائدة إلى منزلها، وهي تشكر زوجها وسيّدها بعد أن فازت بحقّ الاقتراع. بكلمات دورا راسل[6] –وهي نسويّة استمرّ نشاطها مدى الحياة– في رسالتها إلى دايل سبندر[7]: «لم تنقطع الحركات النسويّة في هذا القرن!». الحقبة ما بين الحربين شهدت أيضاً صدور أحد أهمّ النصوص النسويّة، وهو تحليل سيمون دي بوڤوار المذهل لشبكة قمع المرأة في كتابها «الجنس الآخر»

6- Dora Russell (1894–1986) كاتبة بريطانيّة نسويّة ومناضلة اشتراكيّة، وهي الزوجة الثانية للفيلسوف برتراند راسل. المترجمة

7- Dale Spender: كاتبة أستراليّة وناشطة نسويّة وُلِدت عام 1943. من أشهر كتبها «اللغة التي اخترعها الرجل». المترجمة

1949، لكن لم يتحوّل نشاط المرأة السياسيّ إلى تقليد راسخ واضح، إلّا عندما هجمت الباترياركيّة العنيدة مجدّداً بأساليب مُقنَّعة غير متوقّعة، نظراً لغياب النساء الأبديّ عن كتب التاريخ، وعن سجلّات التجربة المعاصرة، وانعدام التواصل الثابت ما بينهنّ، على عكس الرجال الذين تمتّعوا دائماً بذلك الامتياز من خلال العمل والنشاط الاجتماعيّ. عندها فقط، انتفضت النساء في ثورات جديدة وحلّلن نضالهنّ السابق، فاكتشفن نقاط قوّتهنّ وتضامنهنّ وتاريخهنّ السياسيّ. في كلّ مرّة، كان على المرأة أن تبدأ من الصفر، بينما يؤكّد الرجال لها أنّها لم تكن أفضل حالاً من قبل. إنكار قمع النساء كان قويّاً للغاية، إلى حدّ أنّ المشاعر السلبيّة التي ولّدها في نفس كلّ امرأة أصبحت تُعرف بـ «المشكلة التي لا اسم لها».

بيتي فريدان، أمُّ النسويّة المعاصرة، لخّصت كلّ ما سبق بإنصاف في كتابها الشهير «اللغز الأنثويّ» الصادر عام 1936، كما شرحت الطور الحاسم الذي مرّ به نضال المرأة بعد حصولها على حقّ الاقتراع: «كان شعوراً غريباً مقلقاً من التوق وعدم الرضا، راود النساء الأمريكيّات في منتصف القرن العشرين. كلّ زوجة في الضواحي تصارعت معه بمفردها وهي ترتّب الأسرّة، أو تشتري لوازم البيت، أو تفرش أغطية متطابقة على الأثاث، أو تأكل سندويشات زبدة الفستق، أو توصل أبناءها وبناتها إلى نادي الكشّافة، أو حين تضطجع إلى جوار زوجها ليلاً...

كانت خائفة من طرح ذلك السؤال الصامت حتّى على نفسها: «هل هذا كلّ شيء؟!». فضحت بيتي فريدان خرافة ربّة المنزل السعيدة، ممّا ساعد المرأة على تحطيم قضبان سجنها الورديّ ضمن «عالم المنزل»، كي تتقاسم مع غيرها من النساء الشعورَ بالإحباط والغضب، وهو شعور كانت له مسبّبات أخرى آنذاك، كالسياسات الراديكاليّة في حقبة الستينيّات، التي استقطبت العديد من النساء القويّات الملتزمات إلى النضال ضدّ العنصريّة وضدّ الحرب في ڤيتنام. في «الحركات الثوريّة» جميعها، اكتشفت المرأة أنّ الرجال «يقودون النضال ويلقون الخطابات، متوقّعين من شريكتهم في النضال أن تردّ على الرسائل وأن تصغي لهم فحسب». عندما أعلن الزعيم

الأسود ستوكلي كارمايكل[8] أنّ الموقع الوحيد المتاح للمرأة في الحركة هو «الاستلقاء»، أدركت الناشطات أخيراً أنّ النساء يشكّلن طبقة خاضعة تعاني من القمع أكثر من السود، ويجب النضال لتحريرها قبل فيتنام. اندلع غضبهنّ في كلّ مكان، ويتوضّح لنا نجاحهنّ من خلال قائمة الأحداث الأبرز في الأعوام اللّاحقة:

1966: تأسيس «المنظّمة الوطنيّة الأمريكيّة للنساء»، التي ترأستها بيتي فريدان.

1969: قدّمت آن كودت بحثاً في غاية الأهميّة، عنوانه «خرافة النشوة المهبليّة»، حرّر البظر من خرافة الجهل ومن التجاهل الذي دام قروناً، وجعل منه رمزاً لجنسانيّة المرأة.

1970: صدور كتاب «السياسات الجنسيّة» لكايت ميلِت، وكتاب «المرأة المخصيّة» لجيرمين غرير، وكتاب «ديالكتيك الجنس: قضيّة الثورة النسويّة» لشولاميت فايرستون، كما عُقِد أوّل مؤتمر عالميّ لتحرّر المرأة في بريطانيا.

1971: تأسيس التكتّل السياسيّ الوطنيّ للمرأة الأمريكيّة.

1973: انعقاد مؤتمر النسويّة العالميّ.

1975: إعلان الأمم المتّحدة لحقوق المرأة.

1960–1980: برامج إصلاح القانون، إصدار التشريعات التي تضمن تكافؤ الفرص للجنسين، والتّوجهات الإيجابيّة لمصلحة المرأة في أرجاء العالم الصناعيّ.

بعد بداية ضبابيّة متخبّطة، تحوّلت حركة النساء الجديدة إلى قوّة سياسيّة ضخمة، سخّرت لمصلحتها الحكومات والرجال أيضاً. النبرة الجديدة لصوت الاحتجاج، والبُعد الجديد للتحليلات، أكسبا تلك الحركة سلطة

8- Stockely Carmichael (1941–1998): كان قائداً بارزاً في حركة الحقوق المدنيّة، والحركة الإفريقيّة العالميّة، وعدّة حركات أخرى ناضلت من أجل تحرّر السود. المترجمة

وأصالة: «نحن النساء طبقة مقموعة... لقد تمّ استغلالنا كموضوعات جنسيّة، وخادمات في المنزل، وآلات للإنجاب، ويد عاملة رخيصة. فُرِض علينا سلوك معيّن، تحت التهديد بالعنف الجسديّ. لقد عشنا بحميميّة مع مضطهِدِنا، بمعزل بعضنا عن بعض، ممّا منعنا من اعتبار معاناتنا الشخصيّة حالة سياسيّة».

من تلك البصيرة القويّة الأصيلة، انبثق شعار الحركة الأقوى: «الشخصيُّ هو سياسيّ». للمرّة الأولى، أدركت المرأة أنّ العدوّ ليس الكنيسة، ولا الدولة، ولا القانون، ولا الحكومة، بل ممثّلهم ووكيلهم: الرجل الذي تقاسمه سريرها، وهو استنتاج انتظرته ملايين النساء منذ الأزل، لأنّه يشرح تجربتهن باعتباره سجلّاً للواقعيّة الاجتماعيّة وآليّات عملها. المطلوب واضح: يجب نقل هذا الشعار النسويّ إلى المرحلة التالية، وتحويل «الشأن الشخصيّ» إلى «سياسيّ» حقّاً، وعندها سيتمّ التغلّب على العديد من العوائق التاريخيّة القائمة. رغم ذلك، دخول المرأة إلى معترك السياسة والسلطة حول العالم كان بطيئاً، وفرديّاً. في سيرلانكا عام 1960، أصبحت سيريماڤو باندرانايكا أوّل امرأة في العالم تتولّى منصب رئيسة وزراء، فمهّدت الطريق لظهور العديد من السياسيّات القويّات القادرات المتعطّشات للمناصب، اللواتي اعتنقن حكمة الكاتبة النسويّة الأمريكيّة جيل جونستون: «لا ينبغي أن يرقص أحد طيلة حياته نحو الخلف».

الرقص في حلبة السياسة والسلطة مخصّص للذكور حصراً، يتطلّب مناورات رشيقة ومقدرات عالية، سواء عاطفيّاً أو جسديّاً. عندما انتُخِبتْ نانسي آستور كأوّل نائبة تدخل البرلمان البريطانيّ بعد ألف عام من تأسيسه، وصفت الأشهر الستّة الأولى من عملها بـ«جحيم فظيع». حقّ الترشّح للبرلمان هو جحيم بحدّ ذاته في العديد من البلدان، عندما حاولت الاشتراكيّة النسويّة جين ديروان أن تترشّح إلى البرلمان الفرنسيّ عام 1849، أثارت موجة من السخرية والإدانة، لأنّ الوظيفتين الوحيدتين المسموح للمرأة بمزاولتهما آنذاك كانتا إمّا التدريس في مدرسة، أو إدارة مكتب بريد. فكتوريا كلافلِن وودهل هي أوّل امرأة في التاريخ، تترشّح لرئاسة الولايات

المتّحدة الأمريكيّة عام 1872. رغم أنّها أسّست مع أختها أوّل شركة نسائيّة محترفة للمضاربة في سوق الأسهم، لكنّها كانت سابقة لعصرها، وأثارت بترشّحها للرئاسة فضيحة على مستوى البلاد.

لم تستسلم المرأة! بعد قرن من تحدّي وودهل الفاضح، بدأت النساء في كلّ أرجاء العالم -بما فيها البلدان المحافظة- بتبوّء المناصب السياسيّة التي شغلها الذكور حصراً في السابق. في عام 1966 أصبحت إنديرا غاندي أوّل رئيسة وزراء في الهند، في عام 1969 أصبحت غولدا مائير رئيسة وزراء الكيان الإسرائيليّ، معقل الباترياركيّة الغاشم. في عام 1974، كانت إيلا تامبوسي غراسو أوّل امرأة تُنتَخب حاكم ولاية في أمريكا، وفي العام ذاته نجحت وزيرة الصحّة الفرنسيّة سيمون ڤايل بالحصول على موافقة البرلمان الفرنسيّ على تعديل قانون الإجهاض. شهد عام 1979 انتخاب كلّ من بينظير بوتو في باكستان، هاو تيانكزو في الصين، ومارغريت ثاتشر في بريطانيا، تلتهنّ الكثيرات من «مغتصِبات المناصب» كما أطلقت عليهنّ الصحافة الأمريكيّة، كڤيغديس فينبوغادوتير وهي أوّل امرأة تتولّى رئاسة أيسلندا عام 1980، وجيرالدين فيرارو النيويوركيّة التي رُشِّحَتْ عام 1984، لأهمّ منصب في العالم الغربيّ كنائبة للرئيس الأمريكيّ، وأوشكت على الفوز. تكرّر هذا النجاح على مستوى المقاطعات والدوائر، في المناصب المدنيّة والإدارات التنفيذيّة، ممّا جعل سيّدة أعمال أمريكيّة تهلّل: «النساء قادمات يزمجرن!».

لم تنبهر النسويّات جميعهنّ بنجاح المرأة في اختراق عالم السلطة الذكوريّة، إذ أثارت شكوكهنّ السهولةُ التي تقبّلتها بها الأنظمة دون أن تتغيّر بُنيتها الأصليّة، وجادلت بعضهنّ بأنّ «أدوات السيّد لا يمكن أن تهدم بيته»، على حدّ قول الشاعرة النسويّة السوداء أودري لورد. تنامت القناعة بأنّ احتياجات ودوافع الرجال والنساء السياسيّة ليست مختلفة فحسب، بل متعارضة، ممّا أدّى إلى نشوء أحزاب وجماعات خاصّة بالنساء فقط، قاتلت في سبيل تشكيل هويّة نسائيّة مختلفة بعد ولادة النسويّة الجديدة في حقبة الستينيّات، كما قدّمت مقاربة راديكاليّة للمشاكل الاجتماعيّة التي أغفلها الجميع في السابق (بوصفها مشاكل خاصّة بالنساء)، كإنشاء

مراكز لمساعدة اللاجئات وضحايا الاغتصاب. بدورها، شغلت مشاكل البيئة وحمايتها موقعاً هامّاً على أجندة النساء السياسيّة، كما لاحظ المؤرّخ آموري دي رينكور: «بعد أنّ لوّث الرجل الغربيّ بيئته، عليه اليوم أن يتحالف مع روح أمّنا الأرض الصاعدة، التي تولّد -كالإلهة كالي ذات الوجوه المتعدّدة- الاستقرارَ الحضاريّ، والغضبَ الثوريّ كذلك». شعارُ حركة «نساء من أجل الحياة على الأرض»، كان الروح المؤسّسة لـ «معسكر النساء للسلام»[9] في غرينهام كومون جنوبي إنجلترا، الذي دام حوالي عشرين عاماً (ممّا يجعله الأطول من نوعه)، على الرغم من المضايقات المستمرّة من الجيش الأمريكيّ الذي يشغل قاعدة قريبة للصواريخ النوويّة، ومن المحاكم البريطانيّة، والشرطة المحليّة، وعصابات عنيفة مختلفة، فضلاً عن تنمُّر الصحافة الصفراء. في المعسكر، ردّدت المعتصماتُ أغنية «حركة النساء من أجل السلام»: أوه يا أخواتي، هيّا نغنّي من أجلنا / الأذرع خُلِقتْ كي تتلاقى / يا أخواتي، نحن نطالب بالأرض.

بعد انتصار المرأة على معظم المظالم التي تعرّضت لها، ركّزت انتباهها على ما تبقّى منها، وبعد بهجة الانتصارات الأولى المذهلة، أدركت النسويّات في أواخر القرن العشرين أنّه مع كلّ معركة ينتصرن فيها، سيحشد العدوّ قواه في مكان آخر ويشنّ هجوماً جديداً، ولن يختلف الاضطهاد الجديد عمّا سبقه في كونه مظهراً لعدم المساواة الجوهريّة التي يصعب اجتثاثها من جذورها. بإحساس تاريخيّ شحذته الخيبات العديدة، أدركت المرأة أخيراً أنّ نضالها يتكرّر بالضرورة، وفهمت أنّ الظروف ذاتها التي ربحت فيها حقوقها وحرّيّتها، قد تقوّض انتصاراتها.

انهيار الأنظمة القديمة في أزمنة الاضطرابات الاجتماعيّة، سمح للنساء

9- سلسلة اعتصامات بدأت عام 1981 في غرينهام كومون للاحتجاج على التسلّح النوويّ، بعد أن وصلت جماعة ويلزية هي «نساء من أجل الحياة على الأرض» إلى الموقع، وخيّمت فيه للاعتصام احتجاجاً على موافقة الحكومة البريطانيّة على تخزين الصواريخ النوويّة هناك. بدأ المعسكر بمئتين وخمسين امرأة، اعتُقِلَت منهنّ أربعٌ وثلاثون، واستمرّ حتّى عام 2000 تقريباً. المترجمة

(وغيرهنّ من الجماعات المهمَّشة) باختراق بنى كانت ممنوعة عليهنّ في السابق، وتحقيق تقدّم سواء في الفضاء العامّ أو على الصعيد المهنيّ، كالقتال على الجبهات، أو حصول المهاجرات على حقّ العمل في مهن مختلفة، وحقّ الترشّح للمناصب في المدن واتّحادات العمّال. النضال في سبيل التحرّر بعد حقبة الستينيّات ترافق مع الكساد العالميّ الذي دفع بالنساء إلى صفوف القوى العاملة (بلغت نسبتهنّ 47% في بريطانيا آنذاك)، تماماً كما فعلت الحروب الكبرى من قبل، عندما رمت ملايينُ النساء منفضة الغبار أرضاً، وأقسمن ألّا يعدن مجدّداً إلى «العمل المنزليّ»، ولكن...

جيل بأكمله من المهندسات الناشئات والعاملات المحترفات و«روزي المبرِشمة»[10] عاد إلى «العمل المنزليّ»، رغم أنّ العمل المهنيّ كان آنذاك مسألة حيويّة بالنسبة للمرأة، تماماً كقيادة السيّارة وتوافر حضانات ودور رعاية نهاريّة خاصّة بالأطفال. عُدَّت مظاهر الحريّة تلك مجرّد استجابة للأزمة، وما لبثت أن تقوّضت بسببها أيضاً. مناخُ الإحباط، والخوف، وعدم اليقين، الناجمُ عن الأزمات العالميّة والمحليّة، ترابط مع عمل المرأة وغياب «حضورها العذب الدافئ» من المنزل، ممّا أدّى إلى اعتبارها سبباً في «التغيّرات السيّئة» التي حصلت في مجتمعها، برأي الرجال والنساء على حدّ سواء. الضغوطات والإحباطات التي عانت منها المرأة آنذاك، والتي طالبتها بتحمّل مسؤوليّة ما يحصل، بدت لها ثمناً باهظاً تدفعه لقاء حريّتها الجديدة.

في الواقع، الأسباب الجذريّة لعدم الرضا عن حريّة المرأة، لم تتغيّر طيلة مئات السنين:

- عندما تعمل المرأة، سيبقى الرجل عاطلاً عن العمل، أي أنّها تسرق وظيفته.
- عندما تخرج المرأة من عزلة المنزل، سيتنامى تضامنها مع غيرها من النساء في المعامل أو الجماعات.

10- Rosie the Riveter كانت نجمة حملة استهدفت تجنيد النساء للعمل في الصناعات الدفاعيّة خلال الحرب العالميّة الثانية، وأصبحت أشهر أيقونة تجسّد المرأة الأمريكيّة. المترجمة

- عندما تحصل المرأة على دخل خاصّ بها، ستصبح مستقلّة ماديّاً.
- ستحصل المرأة على حقوق عامّة، عوضاً عن «الامتيازات» المنزليّة السابقة.
- ستتعلّم المرأة «مهارات ذكوريّة»، كقيادة السيّارة وإطلاق النار وإدارة العمل... إلخ، وبالتالي ستتدمّر خرافة الكفاءة الذكوريّة، ممّا يخلق تحدياً لحقّ الرجال الصريح بالقيادة.
- غيابها عن المنزل للقيام بعمل آخر، سيخلق معاناة داخل بيتها.

تزاوج الأسباب السابقة كلّها مع النوستالجيا الكامنة، والحنين لعودة الظروف إلى ما كانت عليه -«عندما نعود كلّنا إلى الوضع الطبيعيّ، ستتحسّن الظروف مجدّداً»، أو «عندما تنتهي هذه الحرب القذرة، ستتحسّن الأوضاع»- جعل مكتسبات المرأة هشّة، تعترضها غالباً هجمة باترياركيّة رجعيّة مُقنَّعة. «بعد حصولنا على حقّ الاقتراع، دُهشنا لأنّنا لم نحصل على حقّ المواطَنة التامّة! لقد كان اكتشافاً مروّعاً!»، كما اشتكت إحدى العضوات السابقات في حركة السفرجيت، بعد خمسين عاماً من انتصار الحركة.

إنّه «اكتشاف» تكرّر مرّات ومرّات، وكان على المرأة أن تتعلّم الدرس بالطريقة المؤلمة الصعبة، كي تقتنع أنّ الحريّة لن تتحقّق من تلقاء ذاتها. في القرن التاسع عشر، عقدت النساء آمالاً عريضة على حقّ الاقتراع والحقّ بالتعليم وممارسة المهن التخصّصيّة، وكان دور كلارا زِتكِن محوريّاً في تحقيق ذلك في أوروبا. كلارا زِتكِن هي مؤسِّسة «مؤتمر النساء العالميّ الاشتراكيّ» عام 1907، تميّزت على مستوى العالم بتحليلها النقديّ المبهر، وفهمها العميق لما يجري من أحداث، كما آمنت -كالعديد ممّن سبقتها، أو تلتها، من النسويّات- بأنّ مشاركة المرأة في القوى العاملة، وحصولها على المساواة القانونيّة التامّة، سيقودانها أوتوماتيكيّاً إلى التحرّر السياسيّ والاجتماعيّ، لكنّها اصطدمت بحائط مسدود حين حاصر المناوئون صديقَتَها وزميلتها في النضال، روزا لوكسمبورغ -كما حصل مع هيباتيا- ثمّ ضربوها وقتلوها. كلتاهما لم تثقا بماركس لخلق ثورة في مستقبل المرأة على غرار الرجال، وبالفعل، بعد إدخال تغييرات بسيطة -كتوسيع حقّ

المرأة بالإجهاض والطلاق- وجدت المرأة الروسيّة نفسها في وضع أسوأ من السابق، لأنّها اختُزِلتْ إلى أداة اقتصاديّة بيد النظام، وإلى موضوع جنسيّ بالنسبة للرجل، مُجبَرة على العمل طيلة النهار، من ثمّ على العناية بالأطفال وإنجاز أعمال المنزل بمفردها ليلاً في «ساعات الراحة والترفيه».

مع نهاية القرن التاسع عشر، أصبح متوسّط عمر المرأة الروسيّة أقصر بسنتين من الرجل، رغم أن بيولوجيا المرأة تملي العكسَ عادة. مع بداية حقبة الستينيّات، أصبح متوسط عمر المرأة أقصر بثماني سنوات من نظيرها الذكر، لكنّ الحزب الشيوعيّ الروسيّ استمرّ بنظام التقسيم الجائر للعمل، وروّج لمفهوم رجعيّ عن دور الجنسين: «يجب أن يتمّ إعداد الصبيّ للانضمام إلى الجيش الأحمر منذ دخوله المدرسة، وأن يتلقّى تدريباً جسديّاً عسكريّاً خاصّاً، استعداداً لحياة الجنديّ الصارمة... وماذا عن الفتاة؟ وظيفتها الأساسيّة هي الأمومة، لذلك يجب أن تلقّنها المدرسة معلومات عن تشريح الجسم البشريّ، والفيزيولوجيا، والسيكولوجيا، وعلم التربية، والنظافة».

هذا الفصل المعاق بين الجنسين ما زال موجوداً في بُنية كلّ المجتمعات، وما زال مزدهراً في باطن العقل البشريّ. خيارات الحياة المتاحة أمام النساء، اختُزِلت إلى أحد شرّين: إمّا العاملة -الزوجة- الأمّ المثقلة بالأعمال، أو ربّة المنزل - الخادمة التي تعيش حياة من الحرمان واليأس. الخياران متشابهان في الحقيقة، لربّما يبدو لنا دور ربّة المنزل أفضل قليلاً، لأنّه يتيح للمرأة أن تتحكّم نوعاً ما بحياتها أكثر ممّا تتيحه المؤسّسات الصناعيّة، كما أنّه أقلّ إرهاقاً من الوظيفة الأشبه بعبوديّة مدفوعة، لكنّنا واهمون. ربّة المنزل لا تتحكّم إلّا قليلاً، أو لا تتحكّم على الإطلاق، بالعمل المنزليّ الذي يقضم معظم ساعات صحوها، ولا تنتهي منه أبداً.

خلال القرن العشرين الحافل بالأحداث، وبعد ما ينوف على مئة عام من تصريح شارلوت بِركنز جيلمان بأنّ «المنزل ليس بحاجة إلى الزوجة، أكثر من حاجته إلى الزوج»، لم يتناقص مقدار العمل المنزليّ المطلوب من المرأة. المكنسة الكهربائيّة، الغسّالة الكهربائيّة، الثلّاجة، غسّالة الصحون،

محضِّر الطعام الكهربائيّ، الميكروويف... إلخ، تدفّقت كالسيل من المختبرات والمصانع بدءاً من منتصف القرن التاسع عشر -اخُترِع موقد الغاز في بريطانيا عام 1841، والكهرباء في عام 1881، وسُجِّلَت براءة اختراع أوّل مكنسة كهربائيّة في عام 1908- لكنّ عدد الساعات التي تقضيها ربّة المنزل في الطبخ والتنظيف ورعاية عائلتها لم يتقلّص، لأنّ الوقت الذي توفّره أثناء القيام بمهمّة ما، سينصبّ ببساطة على واجب منزليّ آخر. أصبح العمل المنزليّ متطلِّباً وأكثر تعقيداً، واضطرّت المرأة إلى العمل بجدّ أكبر، كي تحقّق خدماتُها المستوى المطلوب الذي تفرضه التكنولوجيا الجديدة المتطوّرة.

نظريّاً، تخفيف العمل المنزليّ أو إعادة تعريفه لم يلاقيا نجاحاً. شارلوت بركنز جيلمان نادت بإلغائه، إيماناً منها بأنّ عدم المساواة الاجتماعيّة تبدأ في المنزل. واجبات الطبخ والتنظيف والعناية بالمنزل، يجب أن تكون مشتركة بين الجنسين برأيها، يقوم بها كلٌّ من الرجال والنساء على حدّ سواء كأيّ عمل آخر، ممّا يحوّل المنزل إلى مكان للراحة الشخصيّة والاسترخاء. لم يتحمّس الذكر عموماً لإنهاء الفصل ما بين «عمل النساء» و«عمل الرجال»، بل ركّز جهده على اختراع المزيد والمزيد من الأجهزة المنزليّة التي لا ينتفع منها سواه، والتي أضافت المزيد من الأعباء على عاتق المرأة.

وفرة الأجهزة المنزليّة في النصف الثاني من القرن العشرين، حوّلت «العمل المنزليّ» إلى نشاط ميكانيكيّ هامشيّ، تدنّت قيمته سواء في عينيّ المرأة، أو في عيون المستفيدين من خدماتها. «أنا مجرّد ربّة منزل!»، كان شعاراً كلاسيكيّاً لعدم الرضا عن الذات في حقبة ما بعد الستينيّات، حين أصبحت ربّة المنزل عبدة منزليّة بلا أجر، مهمّشة، بخسة، غير مرئيّة (إلا من قبل شركات الإعلانات)، مُغرَّبة، ومُبغَضة، تضطرّ أحياناً للجوء إلى الأدوية كي تستطيع المضيّ قدماً، وهو ما تشهد عليه أيضاً معدّلات الإدمان على الكحول والمهدِّئات بين النساء في الغرب.

مَن تُدعى بـ «المرأة العاملة» -وكأنّ ربّة المنزل لا تعمل على الإطلاق!- تنجز الأعمال المنزليّة كلّها بلا أجر، إضافة إلى متطلّبات مهنتها، علماً أنّها لا

تتقاضى في أفضل الأحوال إلّا ثلاثة أرباع أجر نظيرها الذكر. التشريعات التي سُنَّت حول العالم لفرض التساوي بالأجور، لم تؤثّر إلّا تأثيراً ضئيلاً على هذا الظلم الراسخ المتأصّل، إذ تشكّل النساء ثلث القوى العاملة رسمياً في العالم، لكنّهن لا يتقاضين سوى 10% فقط من الدخل العالميّ، ولا يملكن إلّا 1% من مجموع المِلكيّات الخاصّة في العالم، كما أنّهنّ يعملن في مستويات وظيفيّة أدنى، ويُحرَمن من الترقية بأسلوب ممنهج، وكذلك من ممارسة المهن التي قد تعود عليهنّ بالمكانة والمكاسب الماليّة. في بعض المجتمعات، ممارسة المرأة لبعض أنواع المهن يؤدّي إلى تصنيفها كـ «مهن نسائيّة»، وبالتالي إلى تدنّي أجورها تلقائياً. من خلال تضافر العوامل السابقة معاً، تُحرَم المرأة من الحصول على الموارد الأساسيّة التي كان من الممكن أن تنقلها إلى ظروف أفضل، وتخوّلها سلطة أكبر، ضمن العائلة والمجتمع على حدّ سواء.

نجاح المرأة في المجتمعات الغربيّة ضمن عالم الأعمال، هو بحدّ ذاته شاهد على تطوّر لا بأس به. في الماضي، لم يعتَبَر حرمان المرأة من الوظائف مشكلة، أمّا اليوم، فالمجموعات والأحزاب النسائيّة الغاضبة تجتمع في موقع القوّة، لا كي تشتكي من الحواجز والعوائق فحسب، بل كي تحطّمها.

انطلاقاً من حقبة السبعينيّات، بات واضحاً أنّ المكتسبات النسويّة تحقّقت على يد المرأة البيضاء في الطبقة الوسطى، ومن أجلها. عندما طالبت النسويّات بحقوق المرأة الملوّنة، اعتبرت هذه الأخيرة موقفهنّ غير لائق، وعنصريّاً، وفوقيّاً. من وجهة نظر المرأة السوداء المتنبّهة إلى أدقّ تفاصيل القمع، محاولة النسويّات البيض لضمّها إلى حركة تحرّر المرأة كانت ملطّخة بروح الكولونياليّة العتيقة الطراز. في مقالها «كيف تفكّر المرأة السوداء بحركة تحرّر النساء»، كتبت توني موريسون عام 1971: «أعلنت العديد من الحركات والتنظيمات عن مبادرات صريحة لإدراج السوداوات في صفوفها، ونجحتْ بذلك. لا ترغب المرأة السوداء بأن تُستَغَلّ مجدّداً لمساعدة شخص ما على تولّي زمام السلطة، الذي سيبقيها عن عمد خارج متناولها».

برأي بعض الناشطات السوداوات، كانت النسويّة مجرّد استعراض

جانبيّ، وتشتيتاً للأنظار عن المعركة الأساسيّة ضدّ العدوّ الرئيس المتمثّل بالعنصريّة، بينما جادلت بيل هوكس[11] والبعض الآخر من أجل فهم أشكال الاستبداد المتداخلة، التي تتغلغل كالديدان تحت هيمنة الذكر الأبيض، بغية توحيد جهود الناشطات جميعهنّ ضدّ العدوّ المشترك، لا بعضهنّ ضدّ بعض. ما تقوله المرأة السوداء واضح: النساء جميعهنّ على حدّ سواء يعانين من وطأة استبداد مشترك بينهنّ بسبب جنسهنّ، لكنّهن يخضعن إلى مستويات متفاوتة من القمع، ومن الصعب بل من المستحيل على مراقب خارجيّ أن يفهم شبكة التحالفات والروابط المعقّدة التي تربط المرأة بالرجل، أو نمط الحياة الذي يحيلها إلى موقع أدنى. على سبيل المثال، بين نساء قبيلة لاكوتا أو سُوْ في أمريكا، الخضوع إلى الـ «بلوكا» Bloka (الذكورة أو هيمنة الذكر) في مجتمعهنّ الحربيّ، هو جزء من تقليد عتيق. أن نطالب أولئك النساء باتّخاذ موقف صارم أكثر تجاه رجالهنّ، يكافئ أن ترفض امرأةٌ لاكوتا «النصفَ الأصليّ» من ذاتها لمصلحة «النصف الأمريكيّ»، ممّا يحطّم مصداقيّتها.

حيثما تتقاطع العنصريّة مع التحيّز الجنسيّ، ستعاني الضحيّة من التشظّي السابق. في الولايات الأمريكيّة الجنوبيّة، سيقف الرجل «الجنتلمان» كي يعطي مقعده لسيّدة، لكن من المعروف أيضاً أنّ المرأة الزنجيّة لا تُعدّ سيّدة، وكلّ «جنتلمان» امتلك كومة كتب ألّفها رجال مثله، برهنوا فيها على أنّ المرأة الزنجيّة هي «نوع من الحيوانات»، وليست امرأة بشريّة كاملة. لذلك، إن كنتِ امرأة سوداء في بداية القرن العشرين، ستتخلّين عن نصف شخصيّتك عندما تتخلّين عن مقعدك وفق القانون كي يجلس الجنتلمان الأبيض. طفح كيل إحدى النساء أخيراً في مدينة مونتغومري، آلاباما: روزا باركس، التي دخلت التاريخ عام 1955 برفضها التخلّي عن مقعدها في الباص لرجل أبيض. حرّض موقفها السودَ على مقاطعة ركوب الباصات

11- غلوريا جين واتكنز، تشتهر باسمها المستعار بيل هوكس، كاتبة وبروفيسورة أمريكيّة نسويّة ومناضلة اشتراكيّة وُلِدت عام 1952، تركّز في أعمالها على التداخل والتقاطع بين العرق والرأسماليّة والمساواة بين الجنسين، وما ينجم عن هذا التقاطع من أنظمة القمع والهيمنة الدائمة. المترجمة

في جنوب الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وولِدَتْ حركة الحقوق المدنيّة من موجة الاحتجاجات تلك. «إنّها معجزة تحدث!» قال مارتن لوثر كينغ جونيور، مباركاً الإطاحة بالعبوديّة النفسيّة، التي تقيّد السود بسلاسل خفيّة إلى الرجل الأبيض، وتجعلهم خاضعين له.

من المظاهر الكلاسيكيّة للعنصريّة، تحويل الجماعات الإثنيّة إلى مشكلة في المهجر، والافتراض بأنّهم سيكونون أفضل حالاً في أوطانهم الأصليّة. تجربة الكثير من النساء في الوطن الأمّ تقترح أنّ الحريّة قادمة، ولكن «ليس هنا، ليس بعد، ليس من أجلنا» على حدّ قول النساء الإيرانيّات. في إيران، تداعت حقبة فرض التقاليد الغربيّة على المجتمع من قبل الشاه، وانتهت بسياسة التطرّف الراديكاليّ على يد آية الله الخميني، دون أن ينقطع طغيان الرجال على النساء ولو للحظة. لخّص مراقب غربيّ التناقضات التي فرضها الشاه والخميني كلاهما على المرأة الإيرانيّة، دينياً وسياسياً:

ما بين عامي 1978 و1979، لبست النساء المثقّفات التشادور احتجاجاً على سياسة الشاه، وانتقد الخمينيّ موقف الشاه تجاه المرأة الإيرانيّة قائلاً: «أعلن الشاه أنّ المرأة يجب أن تكون أداة جنسيّة، وهو ما قاد النساء إلى الدعارة، واختزال أنفسهنّ إلى موضوع جنسيّ». اليوم، أيّ امرأة إيرانيّة تكشف عن شَعرها تخاطر بأن يتمّ إرسالها إلى معسكرات «إعادة التأهيل الأخلاقيّ»، لأنّ الحجاب يُعَدّ رمزاً للاستقلال عن القيم الغربيّة التي استغلّها الشاه لترسيخ سلطته. الإخفاق باتّباع قواعد الحجاب، يكافئ أنّ المرأة ضدّ الثورة.

الهجوم السابق على «رومانسيّات الإسلام» تدعمه شهاداتُ النساء الإيرانيّات، رغم صدوره عن رجل غربيّ. الكاتبة مهشيد أميرشاهي انتقدت الخميني علانية، خاصّة عندما صرّح بأنّ «النساء غير متساويات مع الرجال، بل أدنى منهم من الناحية البيولوجيّة والطبيعيّة». ما يُترْجَم إليه هذا التصريح على أرض الواقع، تشرحه لنا ناشطة إيرانيّة فضّلت عدم الكشف عن اسمها أثناء أحد المؤتمرات في لندن: «الزواج إجباريّ. قبل أن يتمّ إعدام الناشطات السياسيّات، يتعرّضنَ للتعذيب والاغتصاب، خاصّة الشابّات، فضلاً عن اغتصاب السجينات اللواتي لا تتعدّى أعمارهنّ التاسعة، لأنّ إعدام العذراء

مخالف لشرع الله. تتعرّض المرأة لهجوم مروّع بطرق مختلفة، منها إحراق وجهها بالحمض، أو إحراق شعرها المكشوف. هذا يعني أنّ مجرّد كونكِ امرأة في إيران، هو جريمة سياسيّة».

ما الذي تغيّر؟! مجرّد كونكِ امرأة، عُدَّ خطيئة ضدّ الطبيعة وجريمة ضدّ الإله طيلة التاريخ، أمّا الآن فقد أصبح شذوذاً إيديولوجيّاً في المعادلة. في هذا النظام، المرأة التي تتجرّأ على التشكيك بالإيديولوجيا الحاكمة ستجد نفسها بين «بنات الشيطان» اللواتي قرّر رجالُ الله -أو إله الرجال- التخلّصَ منهنّ. المرأة التي تجادل وتناقش وتتحدّى، ليست امرأة! المرأة مصمّمة بالفطرة كي تدخل السرور على قلب الرجل وتمدحه، كي تحبّ وتخدم سيّدها وإلهها، وإلّا لماذا خُلِقَت؟! هذا المطلب يلخّص الخرافة الأبديّة عن معنى كونكِ امرأة، وفانتازيا الذكر الواهم الذي لا يشبع. من وجهة نظر الرجال، الإجابة بسيطة: خُلِقت المرأة من أجل الرجل، ويجدر بها أن تشعر بالامتنان لذلك! هذه الإجابة المغرورة وصلت إلى ذروة ازدهارها ورواجها، في مصنع أحلام القرن العشرين: سينما هوليوود.

رذائل هوليوود، المتزامنة مع ما تنقله من هوس باختزال الأنثى إلى جنس، هي صورة وصفيّة لكلّ وسائل الإعلام الجماهيريّة الأخرى، وسرُّ نجاحها التجاريّ. رغم أنّ الموقع الرئيسيّ لترسيخ صورة نمطيّة جنسيّة عن المرأة انتقل إلى صناعة الإعلان، لكنّ هوليوود ما زالت في الطليعة، وهي التي ضخّمت الأفكار النمطيّة عن الذكر والأنثى، أو الحبّ والعمل... إلخ في المجتمع، بغضّ النظر عمّا فكّر به سكّان العالم بعد الحرب.

ما الذي نقلته هوليوود إلى العالَم المشدوه، عبر سحر شاشتها الفضيّة الذي لا يخبو؟! ما هي رسالة المغول الذين يعرفون كلّ شيء عن حوّاء، وكيف تصبح المرأة شهوانيّة لا تشبع، تخشى من المختلّين، وتتوق إلى كينغ كونغ وإلى سَحْقِ وجهها بثمرة غريفون[12]؟! الإجابة هي التالية:

12- الإشارة إلى مشهد مشهور من فيلم The Public Enemy 1933، حيث يقوم البطل بسحق نصف ثمرة غريفون على وجه عشيقته التي لا تتوقّف عن التذمّر. المترجمة

هناك فتيات جيّدات، وفتيات سيّئات. هناك امرأة يضاجعها الرجل، وأخرى يتزوّجها. هناك نساء صغيرات وزوجات صالحات، أمّا ولادة الأمّة فهي من اختصاص الرجل وحده (يا نساء، أحضرن الكثير من الماء المغليّ!) فكّري بذلك يا أختاه، الرجل يفضّل الشقراوات! دون أن ندري، ورغم أنّها تحترم الأديان دائماً (يسوع الناصريّ وُلِد كي يحقّق أعلى المبيعات على شبّاك التذاكر!)، تحوّلت هوليوود إلى كنيسة أمريكا، كلّ فيلم تنتجه أصبح العهدَ الجديد، وكلّ مشهد فيها يروي قصّة، وكلّ قصّة هي تلك الأعظم والأقدم والأقسى والأغبى: وُلِدَ الرجلُ كي يكون رجلاً.

سيبقى الصبيّ صبيّاً إذن، سواء في ملاعب أمريكا أو في أفلام هوليوود. لا بدّ أنّ البهجة غمرت الإله - الأب عندما دارت الكاميرات في فيلم تلو آخر، تحت إشراف الجيل الأوّل من أباطرة السينما الباترياركيّين حتّى النخاع. من تلزمه قيود ماديّة، أو قوانين غاشمة، أو حظر التعليم والعمل والمشاركة في المجتمع، لإبقاء النساء أسيرات في بيئة من الدرجة الثانية، بينما يمكنه ببساطة أن يعرض لهنّ فيلماً واحداً يقوم بكلّ ما سبق، فضلاً عن إعادتهنّ سعيدات إلى بيوتهنّ؟! قدرة الإعلام الجماهيريّ في القرن العشرين على الحلول مكان أدوات الهيمنة والقمع القديمة، في إطار سعي الباترياركيّة الدائم لإبقاء النساء خاضعات، ما زالت بحاجة إلى المزيد من الدراسة. من خلال تعاملها المصوَّر وتنميطها لكلّ ما هو أنثويّ، ومن خلال اجترار الأدوار التقليديّة القديمة للأنثى بوصفها أمّاً وعذراء وعاهرة لا غير، ومن خلال تركيزها على سيناريو مثاليّ يتعارض مع «الفتيات اللواتي ينحرفن»، تقف هوليوود بكلّ فخر في صفّ شرطة الأخلاق التي يديرها الخمينيّ، لأنّها تقوم بعمل لا يُقدَّر بثمن في إبقاء المرأة خاضعة، وتلقينها «المواصفات» التي يريدها الرجل العاديّ في زوجته وأمِّ أطفاله.

من خلال صناعة الميديا الحداثيّة الكاذبة، التي تمسكنا من أعضائنا التناسليّة كي تقودنا إلى مستقبل «رجعيّ»، نستشفّ ما هي الحلبة التي ستخوض فيها المرأة معركتها التالية من أجل التحرّر والمساواة. خلال ألف عام من الحضارة، منبع دونيّةِ المرأة وموقِعها الهامشيّ، تمركز ضمن الدين

والطبيعة والبيولوجيا والفيزيولوجيا وحجم الدماغ وسيكولوجيا الأنثى. حاربت المرأة من أجل الحصول على الحقّ بالتعليم، وامتلاك مالها الخاصّ، وحقّها بالاقتراع... إلخ، إلى أن انتهت العوائق واحداً تلو الآخر في بعض أجزاء العالم، وتقوّض ما بقي منها بوصفها «طبيعيّة» أو «محتومة»، لكنّ البنية الكامنة خلف تلك العوائق لم تتغيّر إلّا ببطء شديد. هذا لا يعني الانتقاص من إنجازات النسويّة، بل هو ببساطة تأكيد على أنّ تغيير العالم يتطلّب وقتاً أطول، وهو ما تدركه النسويّات حول العالم أثناء خوضهنّ الصراع الأعمق.

ما زال أمامنا الكثير ممّا ينبغي القيام به، لخلق مجتمع معاصر جديد. كلّ التجارب الديمقراطيّة، وكلّ الثورات، وكلّ المطالب بالمساواة، بقيت قاصرة عن تحقيق المساواة الجنسيّة. ضمن بنى السلطة والنفوذ في كلّ المجتمعات، توجد سلسلةٌ من شيفرات الهيمنة الخفيّة المتداخلة، التي ترسّخ دائماً تصنيف الرجال في مرتبة أعلى من النساء. لا وجود لأيّ مجتمع حتّى الآن قضى على تقسيم العمل حسب الجنس، وما ينجم عنه من اختلاف في المكاسب والسلطة. بالمثل، لا وجود لأيّ مجتمع تحظى النساء فيه بالحقوق والامتيازات والإمكانيّات ووقت الاستجمام كالرجال، وما زال الرجل يقوم بدور الوسيط بين المرأة والسلطة، وبين المرأة والدولة، وبين المرأة والحريّة، وبين المرأة وذاتِها.

إنّها قصّة لا تنتهي! تاريخ النساء بدأ لتوّه بشكل ما أو بآخر، على الرغم من طوله. لقد قاتلت المرأة دائماً من أجل البقاء، ومن أجل معنى النضال بحدّ ذاته. الآن، تنتظم النساء في مجموعات، ويندفعن قدماً لتعريف أنفسهنّ تعريفاً جديداً، وللحصول على الحقّ بالتعريف أيضاً. كيف سيُكتَب التاريخ، تتساءل جيردا ليرنر، «عندما تُرفَع مظلّة الهيمنة، وتتشارك النساء والرجال بحقّ التعريف؟!». في كتابها الرؤيويّ عن المستقبل، الذي حمل عنوان «سنخطو ببساطة تحت سماء حرّة»، تكتب: «نعرف أنّ الرجل ليس معياراً لما هو بشريّ، بل الرجال والنساء معاً هم المعيار. الرجل ليس مركزَ العالَم، بل الرجال والنساء معاً هم المركز. هذه البصيرة ستغيّر الوعيّ جذريّاً، تماماً كاكتشاف كوبرنيكوس أنّ الأرض ليست مركز الكون».

تحتاج المرأة الجديدة إلى رجل جديد، وهو أمر لا غنى عنه، لكنّها لن تكرّر الخطأ ذاته الذي ارتكبته في الماضي، بأن تعهد بحرّيتها ومستقبلها إلى الرجل وحده. الروح الجديدة المتولّدة عن اكتشاف المرأة لذاتها واعتمادِها على نفسها، تتغلغل في كلّ مناحي الحياة، بدءاً من النظريّة النسويّة إلى الأغاني الشعبيّة، كما في أغنية هيلين رِدي: أنا امرأة، اسمعوني أزمجر / أنا ونساء كثيرات لا تستطيعون تجاهلهنّ / لقد تعلّمتُ الكثير، ولن أتراجع مدّعية / أنّني سمعتُ ذلك كلّه من قبل / كنتُ هناك على الأرض / ولن يقدر أحد على إخضاعي مجدّداً / أنا امرأة، انظروا إليّ وأنا أكبر / انظروا إليّ أقف / وأفرد ذراعيّ بحبّ عبر الأرض / لكنّني ما زلتُ جنيناً / أمامه الكثير والكثير من النمو / كي أجعل شقيقي يفهم / إن اضطررتُ، بمقدوري أن أفعل أيّ شيء / أنا قويّة / أنا لا أُقهَر / أنا امرأة.

هذه القوّة الجديدة تنبع من إدراك المرأة بوضوح، للحقيقة الكامنة في صوت النسويّة السوداء الحديثة: «لقد أدركنا أنّ الأشخاص الوحيدين الذين يكترثون بنا بما يكفي، كي يعملوا باستمرار من أجل تحرّرنا، هم: نحن النساء! سياستنا تنبثق من حبّنا السليم لأنفسنا ولأخواتنا ومجتمعنا، وهو ما يسمح لنا بمتابعة النضال والعمل». الحبّ والنضال والعمل، إنّها ثلاثيّة تلخّص تاريخ نساء العالم، سواء في الماضي أو المستقبل، وإن وُجِدَت حقيقة مؤكَّدة، فلن تكون إلّا استمرار الحبّ والنضال والعمل، من خلال الدافع الأساسيّ الذي تؤطّره مقولة ألفرد أدلر: «مهما كانت التسمية التي نسبغها عليها، سنجد دائماً في الإنسان سلسلة النشاطات العظيمة تلك، وذلك النضال من أجل الارتقاء من مرتبة دنيا إلى أخرى أعلى، من الهزيمة إلى النصر، ومن القاع إلى الأعلى».



المراجع

الفصل الأول

1. Elizabeth Gould Davis, *The First Sex* (1971), pp. 34–35. The argument that the male chromosome «Y» is no more than «a defective X» has a long pedigree—see Francis Swiney, *Women and Natural Law* (1912). In the modern period it has been vigorously advanced by Valerie Solanas in *The SCUM Manifesto* (New York, 1968), and by Gould Davis: «this small and twisted Y chromosome is a genetic error... the first males were freaks, produced by some damage to the genes...»
2. Amaury de Riencourt, *Women and Power in History* (1974, first published in English in 1983), p. 52.
3. Nigel Calder, *Timescale* (1984), p. 10.
4. Accounts of the «gene fount mother» are to be found in the *Listener*, 27 February 1986, and the *Guardian*, 3 March 1986.
5. For the shortness of the first humans' life span, see Marian Lowe and Ruth Hubbard (eds.), *Woman's Nature: Rationalisations of Inequality* (New York and Oxford, 1983), p. 131.
6. George P. Murdock, *Our Primitive Contemporaries* (New York, 1934); *Social Structure* (New York, 1949); «World Ethnographic Sample,» *American Anthropologist*

(1957); «Ethnographic Atlas: A Summary,» *Ethnology* 6, No. 2,109–236. Murdock's own work is discussed in Jo Freeman (éd.), *Women: A Feminist Perspective* (Palo Alto, California, 1979), p. 94. See also the work of Richard Lee, in *Man the Hunter,* eds. R. B. Lee and Irven De Vore (1968). Lee showed that even failure at the hunt would not induce the !Kung bushmen of Botswana to hunt more than one week in three or four; since hunting was subject to magic outside their control no amount of effort on their part, they believed, could reverse a run of bad luck. Their refusal could go on for a month, or even longer, during which visiting, entertaining and especially dancing were the primary activities of the men, and women's gathering alone sustained the tribe.

7. Women's gathering skills are described by Elaine Morgan in *The Descent of Woman* (1972), p. 184; and see Calder, p. 156, for a description of the botanical and ecological knowledge displayed in the most famous of prehistoric burials, that of «the Flower Man of Shanidar.» This unknown Mesopotamian was laid to rest about 60,000 years ago on a bed of flowers like ragwort and hollyhock, all known to have medicinal properties, and all used to this day in women's traditional remedies. Of course the flower – gatherers could have been men—but if prehistoric Shanidar boasted a man who could tell a hollyhock from a hole in the ground, he failed to hand down the secret of his skill to most of his male descendants.

8. For a discussion of toolmaking, see Kenneth Oakley, *Man the Tool –Maker* (i947); R– Leakey and R. Lewin, *Origins* (New York, 1977); G. Isaac and R. Leakey, *Human Ancestors* (1979); B. M. Fagan, *People of the Earth: An Introduction to World Pre – History* (1980).

9. Elise Boulding, in *The Underside of History* (Colorado,

1976), p. 78, discusses women's discovery of the technique of fire – hardening and suggests that women thereby invented hunting, by providing the tribe with weapons capable of spearing and impaling.

10. See Sally Slocum, «Woman the Gatherer: Male Bias in Anthropology.» This landmark paper is to be found in Rayna Reiter (éd.), *Towards an Anthropology of Women* (New York, 1975), and in Mary Evans (éd.), *The Woman Question: Readings in the Subordination of Women* (1982). The importance of the swag bag is also discussed by Sheila Lewenhak in *Women and Work* (1980), pp. 20–21.
11. Ibid.
12. The story of Man the Hunter is to be found everywhere, in scholarly and popular books for adults and children—see Lee and De Vore (above); S. Washburn and C. S. Lancaster, «The Evolution of Hunting,» in Lee and De Vore (eds.), *Kalahari Hunter – Gatherers* (Harvard, 1976); Sol Tax (éd.), *Evolution After Darwin,* Vol. II: *The Evolution of Man* (Chicago, i960); Josef Wolf and Zdenek Burian, *The Dawn of Man* (London and Prague, 1978); Robert Ardrey, *African Genesis* (1961) and *The Hunting Hypothesis* (1976); and many, many more.
13. Ardrey (1976), pp. 91–92.
14. W. I. Thomas, *Sex and Society: Studies in the Psychology of Sex* (1907), p. 228.
15. Calder, pp. 142–143.
16. Morgan, pp. 58–63. The human male's super – sized penis is also examined at length by Desmond Morris in *The Naked Ape* (1967), p. 65 and p. 75.
17. Boulding, p. 83.
18. Vonda Mclntyre's argument is to be found in Joanna

Russ, *How to Suppress Women's Writing* (Texas, 1983), pp. 51–52.

19. Elaine Morgan, p. 116, describes the hygiene routine of female monkeys; Sheila Lewenhak (p. 20 and pp. 23–24) the Stone Age sling – makers; and Paula Weideger, *History's Mistress* (1985), pp. 133–134, the experiments with tampons.
20. Donald C. Johanson and Maitland A. Edey, *Lucy: The Beginnings of Humankind*

(London and New York, 1981), p. 340.

21. H. G. Wells, *The Outline of History* (1920), p. 94 and p. 118.
22. Ardrey (1976), p. 83.
23. Morris, p. 65 and p. 75.
24. Ardrey (1976), p. 100.
25. Charles Darwin, *On the Origin of Species by Means of Natural Selection* (1859), and *The Descent of Man* (1871); Thomas Huxley, *Ethics and Evolution* (1893); Herbert Spencer, *Principles of Biology* (1864 – 1867); Carveth Read, *Origins of Man* (1925); Raymond Dart, «The Predatory Transition from Ape to Man,» *International Anthropological and Linguistic Review* V.i., n. 4 (1953).
26. Robert Ardrey (1961), p. 316; Konrad Lorenz, *On Aggression* (1966); Anthony Storr, *Human Aggression* (1968) p. i.
27. Wells, pp. 77–78; Ardrey (1978), p. 91.
28. Washburn and Lancaster, p. 303; Johanson, p. 65; John Nicholson, *Men and Women: How Different Are They?* (Oxford, 1984), p. 5.
29. De Riencourt, p. 6.
30. Myra Shackley, *Neanderthal Man* (1980), p. 68.

31. Peter Farb, *Man's Rise to Civilization as Shown by the Indians of North America from Primeval Times to the Coming of the Industrial State* (1968), PP – 36–37.
32. Shackley, p. 68.
33. J. Constable, *The Neanderthals* (1973).
34. Shackley, p. 206.
35. Ibid., p. 94.
36. Lowe and Hubbard, pp. 114–115.
37. Shackley, pp. 107–108.
38. Robert Graves, *The New Larousse Encyclopaedia of Mythology* (1959), p. 6; and see G. – H. Luquet, *The Art and Religion of Fossil Man* (Oxford, 1930).
39. Lewenhak, pp. 19–36.
40. Graves, *Larousse*, p. 7.

الفصل الثاني

1. The fullest examination of the historical phase when the supreme deity was female has been carried out by Merlin Stone, *The Paradise Papers: The Suppression of Women's Rites* (1976), and *Ancient Mirrors of Womanhood* (1979); see also the work of Elizabeth Gould Davis (above), and Elizabeth Fisher, *Woman's Creation: Sexual Evolution and the Shaping of Society* (New York, 1979). But this idea has been established among scholars for many years through the work of Erich Neumann, *The Great Mother: An Analysis of the Archetype* (New York and London, 1955); E. O. James, *The Cult of the Mother Goddess: An Archaeological and Documentary Study* (1959); Robert Graves, *The White Goddess: A Historical Grammar of Poetic Myth* (1948); C. Kerényi, *Eleusis: Archetypal Image of Mother and Daughter* (New York and London, 1967); and many others

2. For a discussion on Inanna and her poet – priest Enheduanna, see Paul Friedrich, *The Meaning of Aphrodite* (Chicago and London, 1978), pp. 13–15.

3. The vision of L. Apuleius is to be found in *The Golden Ass,* translated by Robert Graves, (Penguin, 1950), pp. 228–229. As Apuleius insists here, the goddess had different titles and was worshiped by rites that differed from place to place, but she was one deity, «the Goddess of ten thousand names,» as Plutarch describes her: Isis, Ishtar, Ashtoreth, Astarte, Athar, Aphrodite, Inanna, Cybele, Demeter, Au Set, Allât, and hundreds, if not thousands more. Her titles were equally varied, and often strangely familiar: Our Lady, the Queen of Heaven, the Holy One, Divine Ruler, the Lady of the High Place, the Lioness of the Gods, the Lady, the White Lady, the God – Mother of the Country, Holy Mother.

4. Sir Arthur Evans, *The Palace of Minos at Knossos* (4 vols, 1921–1935), *passim,* and de Riencourt, pp. 26–27 and p. 30.

5. Neumann, p. 94.

6. The sacred status of women, and the anthropological and archaeological evidence to support it, is to be found in James (1959), Neumann, Wolf and Burian (above), Stone (1976), particularly pp. 19,34, 46,172, and numerous other sources.

7. «According to women archaeologists, there are far more representations of women's thighs and vulvas in Paleolithic cave art than has ever been reported in the literature. Not only the Abbé Breuil, who played such an important part in publishing this art, but several of the other early researchers in the field were members of the Catholic clergy, and they tended to ignore these disquieting reminders of the dangerous female»—Fisher, p. 143. One

honorable exception was *The Art of Prehistoric Man in Western Europe* (1967), by André Leroi –Gourhan. The frieze at Angles– surl'Anglin is discussed by John Coles in *The Archaeology of Early Man* (1969), p. 248.

8. The mystery of birth in prehistoric cultures, and complete ignorance of the masculine part in reproduction, are documented in Sir James Frazer, *The Golden Bough* (1922); Margaret Mead, *Male and Female: A Study of the Sexes in a Changing World* (1949); Jacquetta Hawkes, *Dawn of the Gods* (1958), *Prehistory* (New York, 1965), *The First Great Civilizations* (1975); S. G. F. Brandon, *Creation Legends of the Ancient Near East* (1963), and elsewhere.
9. James (1959), pp. 42–43; and see the work of Graves (i960); Frazer; and Brian Branston, *The Lost Gods of England* (1974).
10. Allen Edwardes, *The Jewel in the Lotus: A Historical Survey of the Sexual Culture of the East* (1965), pp. 58–59.
11. Penelope Shuttle and Peter Redgrove, *The Wise Wound: Menstruation and Everywoman* (1978), p. 178.
12. Graves, *Larousse,* p. 58.
13. Friedrich, p. 31.
14. Graves, *Larousse,* p. 60.
15. *The Epic ofGilgamesh,* translated by N. K. Sandars (London, i960).
16. Helen Diner, *Mothers and Amazons: The First Feminine History of Culture* (1932), p. 15.
17. M. Esther Harding, *Women's Mysteries, Ancient and Modern: A Psychological Interpretation of the Feminine Principle as Portrayed in Myth, Story and Dreams* (New York, 1955; English edition 1971), p. 138.

18. See Diner, p. 174; Frazer, p. 267 and p. 270; James (1959), p. 101; and Harding, p.128.

19. Shuttle and Redgrove, p. 182.

20. The first serious work on matriarchy was done by the Swiss scholar J. J. Bachofen in *Das Mutterrecht* [The Mother Right] (1861); see the English version, *Myth, Religion and Mother – Right* (Princeton, 1967). The theory of the existence of a worldwide matriarchy before the emergence of the «patriarchal revolution» was also accepted by Engels in *The Origin of the Family* (1884); and by Mathilde and Mathias Vaerting in *The Dominant Sex: A Study in the Sociology of Sex Differences* (English translation, 1923). Other early contributors to the discussion included Matilda Joslyn Gage, *Women, Church and State* (1893), Robert Briffault, *The Mothers* (1927), and Helen Diner (above). Later work includes that of Evelyn Reed, *Woman's Evolution* (New York, 1975), Fisher and Gould Davis (above). See too Paula Webster, «Matriarchy: A Vision of Power,» in Reiter (q.v.), which includes a helpful review of the literature.

21. *The Second Sex* (English edition, 1953), p. 96; but see «And then the Great Mother was dethroned» (p. 101), and other similar references in Chapters 11 and 12 that tend to undermine de Beauvoir's own dismissal of the subject. However, hers is still substantially the position of modern feminists—see Mary Lefkowitz, *Women in Greek Myth* (1987).

22. Diner, p. 169.

23. Ibid.

24. Melanie Kaye, «Some Notes on Jewish Lesbian Identity» in *Nice Jewish Girls,* ed. Evelyn Torton Beck (Mass., 1982), pp. 28–44.

25. John Ferguson, *The Religions of the Roman Empire* (1970), p. 14.

26. Charles A. Seltman, *Women in Antiquity* (1956), p. 82; C. Gascoigne Hartley, *The Position of Women in Primitive Society* (1914), p. 206–207; and Boulding, p. 186.

27. Diner, p. 170.

28. Ibid.

29. *The Oxford Classical Dictionary* (Oxford, 1970), p.

30. For Tamyris, see *The Macmillan Dictionary of Women's Biography*, ed. Jennifer S. Uglow (1982), p. 457; and Eilean Ni Chuilleanâin (éd.), *Irish Women: Image and Achievement—Women in Irish Culture from Earliest Times* (1985), p. 14.

31. Ni Chuilleanâin, p. 14.

32. Nora Chadwick, *The Celts* (1970), p. 50.

33. The Athenian festival of *Boedromion*, for example, was held to commemorate the defeat of the Amazons by Theseus, and the ceremonial ritual in honor of the dead at Panopsion was believed to honor the fallen Amazons. But see G. D. Rothery, *The Amazons* (1910), for the kind of unhistorical treatment that undermined the whole concept.

34. *Macmillan Dictionary of Biography*, pp. 459–460, and *Oxford Classical Dictionary*,

p. 1041.

35. Diner, p. 172.

36. Chadwick, p. 55.

37. Boulding, p. 318.

38. The Cogul figures are described by James (1959), p. 21, and the females of ancient Britain in Seltman, p. 37.

39 – Harding, p. 135.

40. Stone, pp. 168–178.

41. Hilary Evans, *The Oldest Profession: An Illustrated History of Prostitution (i979),* P – 33 –

42. John Langdon – Davies, *A Short History of Women* (1928), p. 141

الفصل الثالث

1. Robert Graves, *The Greek Myths* (2 vols, i960), I, p. 28. See Marilyn French, *Beyond Power: Men, Women, and Morals* (1985), p. 49 ff. Gerda Lerner, in *The Creation of Patriarchy* (New York and Oxford, 1986), p. 146, reports that over 30,000 Mother – Goddess figurines have been found in 3,000 sites in southeast Europe alone. For the Winnepagos, see Harding, p. 117.
2. Shuttle and Redgrove, p. 66; de Riencourt, p. 30.
3. Shuttle and Redgrove, p. 139; E. O. James, *Sacrifice and Sacrament* (1962), *passim.*
4. Farb, p. 72. «Sub – incision» is also discussed by Freud and Bettelheim, among others.
5. Ian D. Suttie, *The Origins of Love and Hate* (i960), p. 87.
6. Margaret Mead, *Male and Female: A Study of the Sexes in a Changing World* (New York, 1949), p. 98.
7. Joseph Campbell (éd.), *Papers from the Eranos Year Books,* Vol. V, *Man and Transformation* (1964), p. 12.
8. Jean Markdale, *Women of the Celts* (Paris, New York and London, p14
9. Lee Alexander Stone, *The Story ofPhallicism* (first published 1879; Chicago, 1927 edition), pp. 12–13; and G. R. Scott, *Phallic Worship: A History of Sex and Sex Rites in Relation to the Religion of All Races from Antiquity to the Present Day* (New Delhi, 1975).

10. Gould Davis, p. 98. For further details of the numerous and varied Indian rites of phallus – worship see Edwardes, pp. 55–94.
11. Edwardes, pp. 72–75.
12. Gould Davis, p. 99.
13. Lee Alexander Stone, p. 75.
14. The phases of the dispossession of the Great Goddess are described by loseph Campbell in *The Masks of God: Occidental Mythology* (New York, 1970).
15. Graves (i960), pp. 58–60.
16. Ni Chuilleanâin, p. 16; James (1959), p. 53.
17. Calder, p. 160.
18. For a wider discussion of these key historical developments of the agricultural revolution and the massive migration of peoples over all the known world from about 3000 B.C. onward, see *The Times Atlas of World History* (revised edition, 1986); and J. M. Roberts, *The Hutchinson History of the World* (1976).
19. Fisher, p. 122.
20. Geoffrey Parrinder, *Sex in the World's Religions* (1980), pp. 105–106.
21. De Riencourt, p. 35 and p. viii.
22. *Macmillan Dictionary of Biography*, p. 54. According to some sources (the later Greco – Roman historians Appian of Alexandria, and Porphyry), Ptolemy succeeded in marrying Berenice in 81 B.C., and killed her 19 days after the wedding.
23. Fisher, pp. 206–207.
24. Boulding, p. 20.
25. Julia O'Faolain and Laura Martines, *Not in God's Image: Women in History* (i973)> P – 57; and see Livy's *History*, Book 34.

26. Plutarch, *Dialogue on Love.*
27. Farb, p. 42.
28. O'Faolain and Martines, p. 62.
29. *The Illustrated Origin of Species,* ed. Richard A. Leakey (1979), p. 58.
30. «Kingsworthy: A Victim of Rape» describes the excavations at Worthy Park, Kingsworthy, Hampshire, England, by Sonia Chadwick Hawkes of Oxford University, and Dr. Calvin Wells for the Department of the Environment. It is reported in *Antiquity* and *The Times,* 23 July 1975
32. C. P. Fitzgerald, *China: A Short Cultural History* (1961) p. 52.
33. Lynn Thorndike, *A Short History of Civilization* (1927), p. 148.
34. For Agnodice's story, see the *Macmillan Dictionary of Biography,* p7
35. Mead, p. 206.
36. *Macmillan Dictionary of Biography,* p. 464.
37. It is only fair to the unknown band of female medics who practiced before Fabiola to stress that she is the first woman doctor to be known *by name.* Women were practicing medicine as early as 3000 B.C. in Egypt, where an inscription on the medical school of the Temple of Sais, north of Memphis, records: «I have come from the school of medicine at Heliopolis, and have studied at the Women's School at Sais, where the divine mothers have taught me how to cure disease.» In addition, the Kuhn medical papyri of *c.* 2500 B.C. established that Egyptian women specialists diagnosed pregnancy, treated infertility and carried out all branches of gynecological medicine, while women surgeons performed cesarean

sections, removed cancerous breasts, and operated on broken limbs—see Margaret Alic, *Hypatia's Heritage: A History of Women in Science from Antiquity to the Late Nineteenth Century* (1986

38. Wu Chao (éd.), *Women in Chinese Folklore,* Women of China Special Series (Beijing, China, 1983), p. 91 and pp. 45–60.
39. Joe Orton, the *Guardian,* 18 April 1987.
40. Marcel Durry (éd.), *Eloge Funèbre d'une Matrone Romaine. Eloge dit de Turia* (Collection des Universités de France, 1950), p. 8ff.
41. For Hypatia's work and death, see Alic, pp. 41–47. See also the novel by Charles Kingsley, better known as the author of *The Water Babies* (1863). His *Hypatia* (1853) presents a sympathetic portrait of its heroine, contrasting her subtle and humane intelligence with the vicious bigotry of the early Christian Fathers.

الفصل الرابع

1. For a detailed investigation of the antifeminism of Christianity, see the work of Mary Daly, *The Church and the Second Sex* (1968) and *Beyond God the Father: Towards a Philosophy of Women's Liberation* (1973).
2. The Story of Félicitas is to be found in Herbert Musurillo (éd.), *The Acts of the Christian Martyrs* (1972), pp. 106–131.
3. Karen Armstrong, *The Gospel According to Woman* (1986), p. 256.
4. Jeremiah 7,17–18.
5. For the ancient Chinese power – shift from Mother Earth—> phallus —> abstract male power, see C. P. Fitzgerald, *China: A Short Cultural History* (1961), p. 44

and pp. 47–48. For the worldwide usurpation of Goddess worship, see Raphael Patai, *The Hebrew Goddess* (New York, 1967); the work of Merlin Stone (q.v.); and John O'Neill, *The Night of the Gods* (2 vols, 1893), for the continued existence of the Great Goddess's symbolism from Persian horned moons to Roman Catholic veneration of Mary as «Our Lady» and «the Queen of Heaven»

6. R. F. Burton, *Personal Narrative of a Pilgrimage to Al – Madinah and Meccah* (2 vols, 1885–1886), II, p. 161.
7. For the full story of the Ka'aba at Mecca, see Harding, p. 41, and O'Neill, I, p. 117.
8. Bertrand Russell, *History of Western Philosophy, and Its Connection with Political and Social Circumstances from the Earliest Times to the Present Day* (1946), p. 336.
9. For the role of women in the early church see the discussion by the Professor of Ecclesiastical History at the University of London, *The Times,* 1 November 1986; Boulding, p. 360; and J. Morris, *The Lady Was a Bishop* (New York, 1973).
10. Julia Leslie, «Essence and Existence: Women and Religion in Ancient Indian Texts,» in Holden (q.v.), pp. 89–112.
11. Nawal El Saadawi, «Women in Islam,» in Azizah Al – Hibri, *Women and Islam* (1982), pp. 193–206.
12. Azizah Al – Hibri, «A Study of Islamic Herstory, or, How Did We Ever Get into This Mess?» in Al – Hibri (1982), pp. 207–219.
13. El Saadawi, p. 197.
14. Fatnah A. Sabbah (pseud.), *Woman in the Muslim Unconscious* (London and New York, 1984), pp. 104–106.
15. II Chronicles 15,16–17.

16. E. L. Ranelagh, *Men on Women* (1985), p. 49.
17. Numbers 5,14–31.
18. Sabbah, p. 108.
19. Edwardes, p. 32.
20. Gabriel Mandel, *The Poem of the Pillow: The Japanese Methods* (Fribourg,

1984), pp. 17–18.

21. Mandel, p. *77* and p. 78.
22. Edwardes, p. 50.
23. Armstrong, p. 43 and p. 23.
24. Fitzgerald, pp. 48–49.
25. De Riencourt, p. 82; and see Sara Maitland, *A Map of the New Country: Women and Christianity* (1983), where Maitland argues that Christianity divides creation into a dualistic opposition of «good» (spirit) and «bad» (flesh), and that such dualistic splits are the root cause not only of sexism, but also of racism, classism and ecological destruction.
26. Ni Chuilleanâin, p. 14.
27. Sabbah, p. 5 and p. 110.
28. Ibid., p. 13.

الفصل الخامس

i. D. Martin Luther, *Kritische Gesamtausgabe* Vol. III, *Briefweschsel* (Weimar, 1933), PP – 327–328.
2. O'Faolain, p. 134.
3. Mead (1949), P – 343 –
4. Chaim Bermant discusses the Talmudic prescriptions in *The Walled Garden: The Saga of Jewish Family Life and Tradition* (1974), p. 60; for St. Paul, see I Corinthians 11, 5.
5. Armstrong, p. 56. It is noteworthy that the patriarchal

religions did not *invent* these new stringencies increasingly applied to women from Christian times onward; as early as 42 B.C. a Roman husband, C. Sulpicius Gallus, had divorced his wife because she was seen out of doors with her face unveiled. But this procedure was condemned by his own contemporaries as «harsh and pitiless» (see Valerius Maximus, *Facta et Dicta Memorabilia).* We know too from other sources that the vast majority of Roman women suffered no such restrictions.

6. Renée Hirschon describes the Greeks in «Open Body/ Closed Space: The Transformation of Female Sexuality,» and Caroline Humphrey the Mongolians in «Women, Taboo, and the Suppression of Attention»; both in Shirley Ardener, *Defining Females: The Nature of Women in Society* (1978).
7. Christopher Hibbert, *The Roots of Evil: A Social History of Crime and Punishment* (Penguin, 1966), p. 45.
8. Gallichan, p. 42.
9. Sabbah, p. 36.
10. All these quotations are taken from Shaykh Nefwazi's *The Perfumed Garden,* translated by Sir Richard Burton (originally published 1876; this edition 1963), p. 201, p. 191, p. 72.
11. Jacob Sprenger, *Malleus Maleficarum* (The Hammer of Witches) (1484); Armstrong, p. 100.
12. Gladys Reichard, *Navajo Religion: A Study of Symbolism* (New York, 1950), p. 31.
13. The deep suspicion that at bottom men are better off without access to or reminder of women's sex organs is evident in the Islamic teaching that when Allah ordained paradise and *houris* to attend on the valiant faithful, he made them *without vaginas.* Many cultures have ritual

expressions of theirfears of women stealing men's power via their sexual emissions, in the form of taboos on intercourse before major or sacred undertakings—a process not unknown to certain twentieth century sportsmen and others even today: cf. modern Australian jockspeak, «Bum to mum tonight, boys!»

14. Edwardes, p. 23.
15. Some idea of the range of menstruation taboos, many much more horrific, Notes and References • [299] painful and dangerous than these, can be gained from Frazer, pp. 595–607. For the native American customs, see Lowe and Hubbard, p. 68.
16. Bermant, p. 129.
17. Edwardes, p. 24.
18. Ibid.
19. The delegation to an older man of the danger of deflowering the virgin bride is the atavistic origin of the custom of droit du seigneur, not as is widely believed, the lord's demand to exercise his rights of possession over his female serfs. The latter became in time an accepted «explanation» of what time had rendered inexplicable, then passed into social expectation and even into the law itself in some countries: see the Anglo – Saxon tax called *legerwite* (literally, «payment for lying down»), payable by ever bride to her liege lord from the earliest times in England up to the Middle Ages. In effect, it compensated him for the loss of her virginity to another (Katherine O'Donovan, *Sexual Divisions in Law*, 1985, p. 34). Originally though, the lord was *conferring*, not receiving a benefit (Langdon – Davies, p. 99 and p. 118). For the Turkish and Arab brutality on defloration, plus their freedom with the *jus primae noctis*, see Edwardes, pp. 38–39.

20. *The Confessions of Lady Nijo,* translated by Karen Brazell (1975), p. 9.

21. Angela M. Lucas, *Women in the Middle Ages: Religion, Marriage and Letters* (1983), p. 101; Katharine Simms, «Women in Norman Ireland,» in Margaret MacCurtain and Donncha ô'Corrain (eds.) *Women in Irish Society: the Historical Dimension,* pp. 14–25.

22. For British army reports on child – brides, see Katherine Mayo, *Mother India* (1927), p. 61; also Pramatha Nath Bose, *A History of Hindu Civilization During British Rule* (3 vols, 1894), I, pp. 66–67; and H. H. Dodwell (éd.), *The Cambridge History of India* (6 vols, Cambridge and New York, 1932), VI, pp. 128–131.

23. Joseph and Frances Gies, *Life in a Medieval Castle* (New York, 1974), p. *77.*

24. Pierre de Bourdeille, Abbé de Brantôme, *Les Vies des Dames Galantes* (1961), p. 86. See also Gould Davis, pp. 165 167, and Eric Dingwall, *The Girdle of Chastity* (1931).

25. Edwardes, p. 186–187.

26. Scilla McLean, «Female Circumcision, Excision and Infibulation: The Facts and Proposals for Change,» *Minority Rights Group Report No. 47* (December, 1980). See also Fran Hosken, *The Hosken Report—Genital and Sexual Mutilation of Females* (Women's International Network News, Autumn 1979,187 Grant Street, Lexington, Mass. 02173, USA). Note that this practice continues today. Over 90 percent of all Sudanese women are still mutilated, despite legislation outlawing it over thirty – five years ago. Female genital mutilation has indeed spread to the West in the wake of globalization, and all European capitals now boast a surgeon who will perform this operation at the demand of expatriate

parents. In 1986 the British Parliament refused to pass a bill outlawing this practice in Britain, on thegrounds that it would not intervene to restrict the rights of parents.

27. Jacques Lantier, *La Cité Magique* (Paris, 1972), cited by McLean, p. 5.

28. For the Chinese practice of infanticide, see Lisa Leghorn and Katherine Parker, *Woman's Worth: Sexual Economics and the World of Women* (1981), p. 163, and de Riencourt, p. 171. For India, see Bose, Vol. Ill, and Dodwell VI, pp. 130–131. Even today, argues Barbara Burke, there is worldwide «a relative neglect of girls, through poorer nutrition and general care, which means that mortality rates for females, who are actually hardier than boys at birth, exceed those for males in Bangladesh, Burma, Jordan, Pakistan, Sri Lanka, Thailand, Lebanon and Syria. In parts of South America, mothers wean girls earlier than boys because they fear that nursing them too long will make them unfeminine. Less well nourished, the girls then tend to succumb to fatal diseases»—»Infanticide,» *Science 84,* 5:4 (May 1984), pp – 26–31.

29. Koran LXXXI1, 8–9,14.

30. Lesley Blanch, *Pavilions of the Heart: The Four Walks of Love* (1974), p. 102.

31. Geoffrey of Tours, *Historia Francorum Libri Decem,* Bk. 6, Chapter 36. It is possible that some of the rage directed at this woman may have been due to her wearing men's clothing, something regarded with particular abhorrence in Western Europe for many centuries by church and laity alike—as late as the seventeenth century one Ann Morrow was blinded by missiles thrown by an unusually vicious crowd when she was pilloried for wearing men's clothing, for the purpose of inducing women to marry her (Hibbert, pp. 44–45). Note that the offense was the same

as Joan of Arc's in 1428, i.e., wearing male apparel only, *not,* in this case, trying to contract a false marriage.

32. *Cambridge History,* VI, p. 132. Note that in the standard way of euphemizing these practices, disguising their hideous cruelty and sadistic barbarity under obscure and little – understood Latinisms, wife – burning is usually described as «self immolation.» Hardly hurts at all, does it?
33. *Cambridge History,* VI, p. 134.
34. This and the details of the English legislation are taken from E. J. Burford, *Bawds and Lodgings: A History of the English Bankside Brothels c. 100–1675* (1976), p. 26, p. 56, p. 73 –
35. Master Franz Schmidt, *A Hangman's Diary,* ed. A. Keller, trans. C. Calvert and A. W. Gruner (1928), *passim.*
36. Susan Rennie and Kirsten Grimstad, *The New Woman's Survival Sourcebook* (New York, 1975), p. 223.
37. Hibbert, p. 45.

الفصل السادس

1. Armstrong, p. 82.
2. Joseph Campbell, pp. 22–23.
3. Diane Bell, «Desert Politics,» in *Women and Colonisation: Anthropological Perspectives,* (eds.) Mona Etienne and Eleanor Leacock (New York, 1980).
4. Lewenhak, p. 32.
5. Basil Davidson, *Africa in History: Themes and Outlines* (1968) p. 119.
6. The sisterhoods of these religions are described in the work of Julia Leslie (q.v.). In Buddhism, although Buddha attacked the idea of women joining male orders, he expressly taught in the *Mahjung Nikaya,* for

example, that women could attain enlightenment in their own disciplines. Within Islam, the position of female religious is even more interesting, according to Anne – Marie Schimmel: «History indicates that some women were known as benefactors of Sufi *khanqahs* which they endowed with money or regular food rations These activities were not restricted to a particular country: we find women patrons of Sufis in India and Iran, in Turkey and North Africa.» In medieval Egypt (and possibly other areas) even special *khanqahs* were erected where they could spend either their whole life or a span of time. Nor was it unknown in Islam for women to lead religious groups that also included or even consisted entirely of men: «We know the names of some *shaykas* in such places as medieval Egypt. We also know the name of an Anatolian woman who... was head of a dervish *tekke* and guided the men («Women in Mystical Islam» in Al – Hibri [q.v.], p. 146 and p. 148).

7. Diner, p. 6; Gould Davis, p. 140; Boulding, pp. 193–194.
8. For a discussion of the surprising range of privileges these women could command, see Julia Leslie in Holden (q.v.), pp. 91–93.
9. Leghorn and Parker, pp. 204–205.
10. Armstrong, p. 122.
11. MacCurtain and ô'Corrain, pp. 10–11.
12. Anne J. Lane (éd.), *Mary Ritter Beard: A Sourcebook* (New York, 1977), p. 223.
13. Russell, p. 362.
14. Judith C. Brown, *Immodest Acts: The Life of a Lesbian Nun in Renaissance Italy* (Oxford, 1986).
15. Angela M. Lucas, *Women in the Middle Ages: Religion, Marriage and Letters* (1983), pp. 38–42.

16. Lucas, p. 141.

17. De Riencourt, p. 167.

18. *The Lawes Resolution of Women's Rights* (1632), written by the anonymous, «T.E.,» p. 141.

19. *Paradise Lost,* Book IV, 635–638 20. Pennethorne Hughes, *Witchcraft,* (1965), p. 54.

21. Jean Bodin, *De la Demonomanie des Sorciers* (Paris, 1580), p. 225.

22. Reginald Scot, *The Discoverie of Witchcraft,* ed. B. Nicholson (1886), p. 227.

23. O'Faolain, pp. 220–221 and p. 224.

24. Antonia Fraser, *The Weaker Vessel: Woman's Lot in Seventeenth – Century England* (1984), p. 143 and p. 53—see pp. 51–55 for the story of this attractive and generous personality.

25. Hughes, p. 94.

26. Margaret Wade Labarge, *Women in Medieval Life* (1986), pp. 3–4.

27. Raymond Hill and Thomas G. Burgin (eds.), *An Anthology of the Provençal Troubadours* (1941), p. 96.

28. Denis de Rougemont, *Passion and Society* (1956), p. 96. Note that the radical assertion of courtly love that women's love was certainly as strong as men's, and usually stronger, was still a live issue in the nineteenth century— see the climactic Chapter 23 of Jane Austen's *Persuasion* (1818), and Henry James's Lord Warburton in *Portrait of a Lady* (1881): «It's for life, Miss Archer, it's for life!»

29. Viola Klein, *The Feminine Character: History of an Ideology* (1946), p. 91.

30. O'Faolain, p. 202.

31. The first extract was written by Hélisenne de Crenne, author of the first psychological novel in French, *Les Angoysses qui procèdent d'Amour, contenant trois parties composées par dame Hélisenne de Crenne laquelle exhorte toutes personnes a ne pas suivre folle amour* (Painful Tribulations occasioned by Love, comprising three parts composed by Lady Hélisenne de Crenne, who exhorts everyone not to follow the madness of love) in 1538. The second is taken from Jeanne de Flore (pseud. Jeanne Galliarde), *Contes Amoureux, touchant la punition que fait Vénus de ceux qui condamnent et mésprisent le vray amour* (Amorous tales, regarding the punishment by Venus of those who condemn and scorn true love), addressed «to noble ladies in love» in 1541. The third comes from the *Débat de Folie et d'Amour* (Debate of Folly and Love) by Louise Labé. All are cited by Evelyne Sullerot in *Women on Love: Eight Centuries of Feminine Writing* (1980), pp. 92–93.

32. Christine de Pisan, *Treasure of the City of Ladies,* trans. B. Anslay (London, 1985), Bk. I, Ch II.

33. This and a large number of similar views are expressed by Abbot Antronius in Erasmus' dramatized colloquy on reactionary and progressive attitudes to women's education—see *Colloquies of Erasmus,* trans. N. Bailey (3 vols, 1900), II, 114–119.

34. Agrippa d'Aubigné, *Oeuvres Complètes,* E. Réaume and F. de Caussade (Paris, 1873XI, 445 –

35. Joseph Besse, *A Collection of the Sufferings of the People Called Quakers* (2 vols, 1753), I, 84

الفصل السابع

1. For Joan of Arc, see Marina Warner's splendid *Joan of Arc: The Image of Female Heroism* (1982). Other dates

and events are taken from *The Times Atlas of World History.*

2. For Parnell, see Burford, p. 74. This is of course a pseudonym, «Parnell» being a recognized name for a prostitute and «Portjoie» boasting of her professional ability to «bring pleasure.» For Eva, see MacCurtain and O'Corrain, p. 22.
3. W. I. Thomas, p. 124.
4. The working women of Greece are described by Homer, Aristotle, Plato, Demosthenes, Xenophon and many others; those of Rome by Ovid, Horace, Plautus, Martial, etc. For a useful digest and list of source materials, see the *Oxford Classical Dictionary,* pp. 1139–1140. A fascinating discussion of the women musicians of ancient Greece is to be found in Yves Bessières's and Patricia Niedzwicki's, *Women and Music, Women of Europe,* Supplement No. 22 (Commission of the European Communities, October 1985); figures taken from p. 9.
5. Lewenhak, p. 33.
6. For the heavy work of women, including this portering episode, see Lewenhak, pp. 49, *77,* 88 and 122–123.
7. Erasmus, *Christiani Matrimonii Institutio* (1526); O'Faolain, p. 194.
8. Lewenhak, p. 111.
9. O'Faolain, p. 272.
10. Jean de la Bruyère, *Oeuvres Complètes,* ed. J. Benda (1951), p. 333.
11. Klein, p. 9.
12. Jacques de Cambry, *Voyage dans la Finistère* (1799); O'Faolain, p. 272; and statistics of laborers' pay, pp. 266–267.
13. For women's much lower wages, see A. Abram, *Social*

England in the Fifteenth Century (1909), p. 131, and Alice Clark's magisterial survey, *The Working Life of Women in the Seventeenth Century* (1919), pp. 65–66.

14. J. W. Willis Bund, *Worcester County Records,* (Worcester, England, 1900), I, P – 337 –
15. O'Faolain, p. 273.
16. M. Phillips and W. S. Tomkinson, *English Women in Life and Letters* (Oxford, 1927), p. 76.
17. Lewenhak, pp. 42–43.
18. Proverbs 31,13–27.
19. O'Faolain, pp. 265–266.
20. *Libro di Buoni Costumi* (The Book of Good Customs), ed. A. Schiaffini (Florence, 1956), pp. 126–128.
21. Gies, p. 60; and see Patricia Franks, *Grandma Was a Pioneer* (Canada, 1977)» P – 25
22. Le Grand Aussy, *Voyage d'Auvergne* (Paris, 1788), p. 281.
23. Edwardes, p. 250.
24. Lewenhak, p. 124.
25. *Le Livre de la Bourgeoisie de la Ville de Strasbourg 1440–1530,* éd. C. Wittmer and C. J. Meyer (3 vols, Strasbourg and Zurich, 1948–1961), I, pp. 443, 499, 504, 822, 857, 862,1071.
26. With very rare exceptions: one woman from the North of England, Mariona Kent, rose to become a member of the council of a guild, the York Merchant Adventurers in 1474–1475. In other guilds women could occasionally inherit a membership from a deceased husband, and even more interestingly *transfer* that coveted membership to a second husband, but such membership never gave women the full rights and privileges enjoyed by men.

France and Italy boasted some all – women craft guilds, but their influence was necessarily limited.

27. Diane Hutton, «Women in Fourteenth – Century Shrewsbury» in Lindsay Charles and Lorna Duffin, *Women and Work in Pre – Industrial England* (1985).
28. Margaret Alic, *Hypatia's Heritage: A History of Women in Science from Antiquity to the Late Nineteenth Century* (1986), pp. 54–57 –
29. J. Q. Adams, *The Dramatic Records of Sir Henry Herbert* (New Haven, Oxford and London, 1917), p. 69.
30. Society, especially that section of it writing books about prostitution (see *The Oldest Profession: A History of Prostitution* by Lujo Basserman, 1967, and *The Oldest Profession: An Illustrated History of Prostitution* by Hilary Evans, 1979, and many others) insist on calling this the «oldest profession» of women. It is a perfect paradigm of the degradation of women that the exact opposite is true. The oldest profession of women was the priesthood, when they served the Great Goddess and later her phallic supplanters. Prostitution by contrast did not evolve until the stage of urban organization. The idea that the first real employment women ever had was to minister to the needs of men makes, however, a very satisfactory historical fiction.
31. Hilary Evans, p. 73.
32. Burford, p. 115

الفصل الثامن

1. Roger Thomson, *Women in Stuart England and America: A Comparative Study* (1974), p. 106.
2. Charles Royster, *A Revolutionary People at War: The Continental Army and the American Character 1775–1883* (Chapel Hill, North Carolina, 1979), pp. 30–31 and pp. 35–36.

3. Sarah's poignant and expressive letters are discussed by Robert Middlekauf in *The Glorious Cause: The American Revolution 1763–89* (New York and Oxford, 1982), p. 537. Sarah was luckier thanmany women—the husband for whom her «heart aked» finally came home to her and their children, in one piece.
4. Royster, pp. 296–297.
5. Ibid., p. 166.
6. For the record of the women's activity, and further discussion, see William R Cumming and Hugh Rankin, *The Fate of the Nation: The American Revolution Through Contemporary Eyes* (1975), pp. 28–29.
7. For Lady Harriet Acland, see Mark M. Boatner, *Encyclopedia of the American Revolution* (New York, 1973), p. 4. Baroness Riedesel wrote her own story in what has become an invaluable source book, *The Voyage of Discovery to America* (1800). «Pitcher Molly» Hays is described in Cumming and Rankin, p. 215.
8. B. Whitelock, *Memorials of English Affairs* (1732), p. 398. The women's petition was finally presented to the House of Commons on May 5,1649. A decent, dignified document arguing cogently for women's rights on the basis of both law and natural justice, it anticipates later feminist insistence that women's rights are only the human rights due to every member of society.
9. Lady F. P. Verney, *Memoirs of the Verney Family During the Civil War* (2 vols, 1892), II, p. 240.
10. Antonia Fraser, pp. 192–197.
11. James Strong, *Joanereidos: or, Feminine Valour Eminently Discovered in Westerne Women* (1645).
12. John Vicars, *Gods Ark Overtopping the Worlds Waves, or, the Third Part of the Parliamentary Chronicle* (1646), p. 259.

13. Edward Bulwer – Lytton Lytton, *The Parisians* (1873), Book 5, Chapter 7.
14. Christopher Hibbert, *The French Revolution* (1980), pp. 96–105.
15. Ibid., p. 99.
16. Basserman, p. 213.
17. Edmund Burke, «Letter to the Hon. C. J. Fox,» October 8,1777.
18. Basserman, p. 215.
19. Hibbert, p. 139.
20. A. Le Faure, *Le Socialisme Pendant la Révolution Française* (Paris, 1863), pp. i2off.
21. Marie – Jean de Caritat, Marquis de Condorcet, *Essai sur l'Admission des Femmes au Droit de la Cité* (Paris, 1790).
22. Olympe de Gouges, *Déclaration des Droits de la Femme et la Citoyenne* (1791).
23. The wholly masculine tenor of Mirabeau's meaning is clear from the context of this statement of June 1789: «History has too often recounted the actions of nothing more than wild animals, among which at long intervals we can pick out some *heroes*...» (Hibbert, p. 63).
24. C. Beard, *The Industrial Revolution* (1901), p.
25. Anne Oakley, *Housewife* (1974), p. 14.
26. These comments are taken from a Factory Commissioners' report on working conditions, and from the Hansard record of the ensuing debate in parliament—see Ivy Pinchbeck's pioneering study *Women Workers and the Industrial Revolution 1750–1850* (1930), p. 94.
27. Pinchbeck, pp. 195,190,188 and 189.
28. J. L. Hammond and Barbara Hammond, *The Rise of Modern Industry* (1939)» P – 209.

29. E. Royston Pike, *Human Documents of the Industrial Revolution in Britain* (1966), pp. 60–61, pp. 192–193 and p. 194.
30. Pike, p. 80 and p. 133.
31. The horrors of the mine work performed by the British women of the Industrial Revolution are very well documented. For the details cited here, see Pinchbeck, pp. 240–281, and Pike, 245–278.
32. Pike, pp. 257–258.
33. Report of the parliamentary commissioners; see the testimony of Sarah Gooder, age eight: «I'm a trapper [trap – opener] in the Gawber pit... I have to trap without a light, and I'm scared... I don't like being in the pit, I would like to be at school far better...» (Pinchbeck, p. 248).
34. Pike, p. 124.
35. Ibid., pp. 129–130.
36. T. S. Ashton, *The Industrial Revolution 1760–1830* (1948) p. 161.
37. Pinchbeck, pp. 2–3.

الفصل التاسع

1. A. James Hammerton, *Emigrant Gentlewomen* (1979), p. 54 and p. 57.
2. Kay Daniels and Mary Murnane, *Uphill All the Way: A Documentary History of Women in Australia* (Queensland, 1980), pp. 117–118.
3. James Morris, *Pax Britannica* (1969), p. 74.
4. Anne Summers, *Damned Whores and God's Police: The Colonisation of Women in Australia* (Ringwood, Vic, 1975), p. 12.
5. Dee Brown, *The Gentle Tamers: Women of the Old Wild West* (New York, 1958), p. 81.

6. Thompson, p. 84 and p. 88.
7. C. M. H. Clark, *Select Documents in Australian History 1788–1850* (Sydney, 1965), p. 48.
8. Frederick C. Folkhard, *The Rare Sex* (Murray, Sydney, 1965), p. 69.
9. Michael Cannon, *Who's Master? Who's Man?* (Melbourne, 1971), p. 55; *Report of the Select Committee on Transportation* (1837), evidence of James Mudie.
10. T. W. Plummer to Colonel Macquarie, May 4, 1809, *Historical Records of New South Wales,* VII, p. 120
11. Brian Fitzpatrick, *The Australian People 1788–1945* (Melbourne, 1946), p. 108.
12. The sufferer «in torments» was Sir Malcolm Darling, *Apprentice to Power: India 1904–1908* (1966), p. 26. The *hurra mem* was Annette Beveridge, described in her son William Beveridge's *India Called Them* (1941), p. 201.
13. Iris Butler, *The Viceroy's Wife* (1969), p. 164.
14. Eve Merriam, *Growing Up Female in America: Ten Lives* (New York, 1971), pp. 179–181.
15. Dee Brown, pp. 41–42.
16. Merriam, p. 195.
17. Dee Brown, pp. 51–52.
18. Butler, p. 101.
19. Ibid., p. 111; Darling, p. 129.
20. Edna Healey, *Wives of Fame: Mary Livingstone, Jenny Marx, Emma Darwin* (1986), p. 14.
21. Beveridge, p. 60.
22. M. M. Kaye (éd.), *The Golden Calm: An English Lady's Life in Moghul Delhi, Reminiscences by Emily, Lady Clive Bayley, and by Her Father, Sir Thomas Metcalfe* (Exeter, 1980), p. 213.

23. These lines are taken from the famous hymn, «I vow to thee my country,» by Cecil Spring – Rice, which performed invaluable service during the empire and the First World War in inducing young men to volunteer to be killed. Its second verse subsequently afforded the title for the film *Another Country.*

24. Healey, p. 24. It is worth recording that Mary Livingstone was not totally submissive to her demanding husband—when he wanted to call the baby boy Zouga after the river beside which he was born, Mary refused point – blank.

25. Kaye, p. 215.

26. Ibid., p. 49; Beveridge, p. 240.

27. Joanna Trollope, *Britannia's Daughters: Women of British Empire* (1983), p. 148; see also D. Middleton, *Victorian Lady Travellers* (1965).

28. Ziggi Alexander and Audrey Dewjee (eds), *The Wonderful Adventures of Mrs. Seacole in Many Lands* (1984), p. 15.

29. *The Insight Guide to Southern California* (1984), p. 243.

30. William Bronson, *The Last Grand Adventure* (New York, 1977), p. 166.

31. James (1962), p. 85.

32. For a discussion of La Malinche and a feminist reworking of her myth, see Chéris Kramarae and Paula A. Treichler, *A Feminist Dictionary* (1985), p. 245.

33. Trollope, p. 52.

34. Mayo, pp. 103–104.

35. Healey, p. 8.

36. F. Ekejiuba, «Omu Okwei: A Biographical Sketch,» *Journal of the Historical Society of Nigeria* (1967), p. iii.

37. R. Miles, *Women and Power* (1985), p. 82; Susan Raven

and Alison Weir, *Women in History: Thirty – Five Centuries of Feminine Achievement* (1981), p.

38. Ronald Hyam, *Britain's Imperial Century,* 1815–1914: *A Study of Empire and Expansion* (1976), pp. 224–225.

الفصل العاشر

1. For Cecilia Cochrane's case, see A. Dowling, *Reports of Cases Argued and Determined in the Queen's Bench Practice Courts* (1841), VIII, p. 63off. For Dawson, Addison and Teush, see O'Faolain, p. 333.
2. De Cambry, II, p. 57.
3. Louise Michèle Newman (éd.), *Men's Ideas, Women's Realities: Popular Science, 1870–1915* (New York and London, 1985), pp. 192–193.
4. Klein, p. 24.
5. Queen Victoria's instructions to her secretary are to be found in Trollope, p. 29.
6. Beatrice Webb, *My Apprenticeship* (1926), p. 92.
7. Olive Schreiner, *Woman and Labour* (1911), p. 50.
8. Hubbard and Lowe, p. 48; and see their Chapter 4, «The Dialectic of Biology and Culture,» for full discussion of the idea that white male dominance was legitimately based on mental superiority, «one of the most tenacious ideas of the last 100 years.» 9. Darwin's ranking of the mental faculties is discussed at length in *The Descent of Man, and Selection in Relation to Sex* (1871). For a detailed critique of these ideas and their relation to modern feminism, see the work of Rosalind Rosenberg, in particular «In Search of Woman's Nature, 1850–1920,» *Feminist Studies* 3 (Fall 1975), pp. 141–153, and *Beyond Separate Spheres: Intellectual Roots of Modern Feminism* (New Haven, 1982).

10. George J. Engelmann, «The American Girl of Today,» the President's Address, *American Gynecology Society* (1900).
11. Herbert Spencer, *Education: Intellectual, Moral, and Physical* (1861); and see Newman pp. *6–7* and p. 12 for full discussion.
12. The first speaker in this House of Lords debate was the Earl of Halstead— see Hansard Vol. 175, 4th Ser. (1907), col. 1355. The second was Lord James of Hereford, Hansard (above), col. 1362.
13. J. Christopher Herold, *The Horizon Book of the Age of Napoleon* (New York, 1963), pp. 134–137. Strictly, the punishment for an adulterous male was to be forbidden to marry his mistress, but it is hard to see how this could have come as anything but a relief to many men. For the Code's other specific restrictions on women, see articles 213, 214, 217, 267, and 298, among many others.
14. De Riencourt, p. x and p. 306.
15. Edwin A. Pratt, *Pioneer Women in Victoria's Reign* (1897), p. 123
16. «The Emigration of Educated Women,» Social Science Congress in Dublin, 1861—see Klein, p. 22.
17. «Votes for Women» (1912), April 9, p. 737.
18. «General» Tubman's campaign took place in the Port – Royal region of South Carolina, with action on June 2,1863—see Kramarae and Treichler, p. 31, and E. Conrad, *Harriet Tubman* (1943).
19. Kate Millet, *Sexual Polities* (1969), Chapter 3, «The Sexual Revolution, First Phase»; and see H. Pauli, *Her Name Was Sojourner Truth* (1962).
20. Roger Fulford, *Votes for Women: The Story of a Struggle* (1958), p. 16.

21. Quotations here are taken from the 1929 edition of the *Vindication,* edited

by Ernest Rhys, pp. 21–23.

22. Flora Tristan, *L'Union Ouvrière* (Paris, 1843), p. 108.
23. Fulford, p. 24.

24. A. Angiulli, *La Pedagogia, lo Stato e la Famiglia* (Naples, 1876), pp. 846°.

25. Phillips and Tomkinson, p. 184.

26. Thomas Huxley, *Life and Letters of Thomas Huxley* (2 vols, New York 1901), I, p. 228.

27. Raven and Weir, p. 218.

28. Ibid., pp. 73 and 86.

29. Anne B. Hamman, «Professor Beyer and the Woman Question,» *Educational Review* 47 (March 1914), p. 296.

الفصل الحادي عشر

1. Newman, p. 105.

2. J. M. Allan, «On the Differences in the Minds of Men and Women,» *Journal of the Anthropological Society of London* 7 (1869), pp. cxcvi – cxcviii.

3. Dr. Mary Schalieb, *The Seven Ages of Woman* (1915), pp. 11–12, and p. 51, extols the joys of «Motherhood»; Allan (above) argues that womanhood is an illness; and Dr. Howard A. Kelly, in *Medical Gynecology* (1909), pp. 73–74, warned of the danger of the «pelvic organs.»

4. For a fuller consideration of the revolting saga of modern genital mutilation of females, see G. Barker – Benfield, «Sexual Surgery in Late Nineteenth – Century America,» in C. Dreifus (éd.), *Seizing Our Bodies* (New York, 1978). Useful extracts from contemporary documents discussing this mutilation in Britain are to be found in Pat Jalland and John Hooper (eds.), *Women from Birth*

to Death: The Female Life Cycle in Britain 1830–1914 (1986), pp. 250–265.

5. The Japanese recipes and barrier methods are taken from Mandel, pp. 44–45. The Egyptian references come from Elizabeth Draper, *Birth Control in the Modern World* (1965), p. 75; Casanova's specifics from pp. 77–78.
6. Burford, p. 34.
7. Soranus's *Gynaecology*, trans. Owsie Temkins (Johns Hopkins, 1956), pp. 62–67.
8. Burford, p. 173.
9. Draper, p. 69.
10. De Riencourt, p. 281.
11. Jalland and Hooper, p. 276.
12. G. Bruckner (éd.), *Two Memoirs of Renaissance Florence*, trans. J. Martines (New York, 1968), pp. mff.
13. Madame de Sévigné, *Lettres de Marie de Rabutin – Chantal, Marquise de Sévigné, a sa fille et ses amis* (Paris, 1861), I, pp. *417&*. and II, pp. *17ft.*
14. Herbert R. Spencer, *The History of British Midwifery from 1650 to 1800* (1929), pp. 43 and 51. For a full discussion of these issues see Anne Oakley, *The Captured Womb: A History of the Medical Care of Pregnant Women* (Oxford, 1985).
15. Jalland and Hooper, p. 121, and pp. 165–186 for the chloroform controversy.
16. Mayo, pp. 97–98.
17. F. Engels, *Condition of the Working Classes in England* (1892), pp. i48ff.
18. Christabel Pankhurst, *Plain Facts About a Great Evil (The Great Scourge, and how to end it)* (Women's Social and Political Union, 1913), p. 20.

19. A. Sinclair, *The Emancipation of American Woman* (New York, 1966), p. 72.
20. Francis (sic) Swiney, *Women and Natural Law* (The League of Isis, 1912), p. 44, and *The Bar of Isis* (1907), p. 38. Interestingly, Swiney foresaw the link between unprotected sexual intercourse and cervical cancer.
21. L. Fiaux, *La Police et Les Moeurs en France* (Paris, 1888), p. 129.
22. Sheila Jeffreys, *The Spinster and Her Enemies: Feminism and Sexuality 1880–1930* (1985), p. 88.
23. Lillian Faderman and Brigitte Eriksson (trans, and éd.), *Lesbian Feminism in Turn – of – the – Century Germany* (Weatherby Lake, Missouri, 1980), pp. 23 –
32. See also Faderman's magisterial *Surpassing the Love of Men: Romantic Friendship and Love Between Women from the Renaissance to the Present* (1981).
24. *The Well of Loneliness,* Chapter 56, section 3.
25. C. H. F. Routh, *The Moral and Physical Evils likely to follow practices intended as Checks to Population* (1879), pp. 9–17. It will be recalled that many of these diseases were also supposedly attendant upon higher education for women. For Francis Place, see Derek Llewellyn Jones, *Human Reproduction and Society* (1974), p. 228.
26. Eva Figes, *Patriarchal Attitudes: Women in Society* (1970), pp. 27–28.
27. Bleier, pp. 170–171.
28. Juliet Mitchell, *Woman's Estate* (1971), p. 164

الفصل الثاني عشر

1. M. N. Duffy, *The Twentieth Century* (Oxford, 1964), pp. 1–2.
2. Mata Hari's conviction has always been a matter of

controversy. She herself claimed to be a double agent working for the French all along. It is possible that her real guilt was fraternizing with the hated Germans—see S. Wagenaar, *The Murder of Mata Hari* (1964).

3. Richard Grunberger, *A Social History of the Third Reich* (1971), pp. 322–323 for this, and the Goebbels remark.
4. Vera Laska, *Women in the Resistance and the Holocaust* (Connecticut, 1983), p. 181.
5. Edward Crankshaw, *Gestapo* (1956), p. 19.
6. J. Henderson and L. Henderson, *Ten Notable Latin American Women* (Chicago, 1978), p. xv.
7. Macksey, pp. 56–57.
8. See M. Bochkareva and I. D. Levine, *My Life as a Peasant Officer and Exile* (1929).
9. V. Figner, *Memoirs of a Revolutionist* (1927), and V. Liubatovich, *Memoirs* (1906); also B. Engel and C. Rosenthal, *Five Sisters: Women Against the Tsar* (1975).
10. Leghorn and Parker, p. 83.
11. Llewellyn Jones, pp. 239–240.
12. *Planned Parenthood of Missouri* v. *Danforth* (1976), 428 US 52; 49 L.Ed 788, records the U.S. 1973 decision. For the British case, see *Paton* v. *Trustees of BPAS* [1978] 2 All ER 987 at 991. For these and a fascinating retrospective of the history of legal attitudes to abortion, see O'Donovan, pp. 87–92.
13. Betty Friedan, *The Feminine Mystique* (1963) p. 15.
14. Bleer, p. 167. Koedt's much – discussed paper was important because it challenged head – on Freud's key concept of *two* female orgasms, clitoral and vaginal, one «mature,» the other «immature,» and asserted that Freud's theory to «cure» women's supposed «frigidity» actually

ensured lack of orgasm by requiring women to have sex in the way it is most difficult to reach orgasm. This issue of sexuality thus became both symbol and proof of women's need to take the management of their lives into their own hands and no longer allow male «experts» to explain their bodies to them.

15. This extract comes from the very earliest manifesto of women's liberation, drawn up by a New York women's group calling themselves the Redstockings— see Anna Coote and Beatrix Campbell, *Sweet Freedom: The Struggle for Women's Liberation* (1982), p. 15.
16. De Riencourt, p. 339.
17. *International Herald Tribune,* 24 August 1970.
18. *Kommunist,* Moscow, November 1963.
19. R. Fuelop – Miller, *The Mind and Face of Bolshevism* (New York, 1965), p. 173.
20. Leghorn and Parker, p. 14.
21. Tuttle, *Encyclopedia of Feminism* (London, 1986), p. 42; and see Bell Hooks, *Feminist Theory: From Margin to Center* (Boston, 1984(,
22. Tim Hodlin, «Veil of Tears,» the *Listener,* 12 June 1986.
23. Selma James (éd.), *Strangers and Sisters: Women, Race and Immigration* (1985), p. 85.
24. Lerner, p. 13.
25. Turtle, p. 42



إن كان رجلاً، ألن يُخصَّص له يوم بين أعياد القدّيسين، ويصبح شفيعاً للطهاة المشهورين؟! أسئلة كهذا السؤال أوقعتني في المشاكل منذ أيّامي الأولى في المدرسة، حين بدا لي آنذاك أنّ التاريخ -مثل كلّ شيء آخر في العالَم- هو تاريخ الذكور. كلّ مخطّطات «فجر التاريخ» في المدرسة الابتدائيّة، تُصوِّر الرجلَ البدائيّ وهو يخطو بثقة إلى المستقبل، لكن دون أيّ أنثى ترافقه!

الرجل - الصيّاد ضَمِن انتقالنا إلى أكلِ اللحوم وبالتالي زيادة حجم أدمغتنا، الرجل - صانع الأدوات نحتَ رؤوساً للرماح، الرجل - الرسّام اخترع الفنّ في الكهوف... إلخ. على ما يبدو، تسلّق «الرجل» شجرة التطوّر وحيداً نيابة عنّا جميعاً، ولم يخطر لأحد أنّ المرأة لعبت دوراً في ذلك، أيّاً كان!

تتابعت العصور، وبالكاد ظهرت بعض النساء في المشهد. في مواكب التاريخ المبهرجة، المؤلّفة من الحروب والبابوات والملوك، شاركت النساء فقط عند فشل الرجال. جان دارك قادت الفرنسيّين بسبب عدم وجود رجال يتمتّعون بالمؤهّلات المطلوبة، والملكة إليزابيث الأولى حكمت إنجلترا بسبب عدم وجود وريث ذكر للعرش، بينما كانت البطلات اللّاحقات (كفلورنس نايتنغيل وسوزان. بي. أنطوني) معزولات نوعاً ما عن عالم الرجال، وعزلتهنّ هي شرط مسبق لتحقيق الشهرة. استشهاد جان دارك، وعذريّة إليزابيث، وعنوستهما الذكوريّة المتقشّفة، كلّها لم تستهوِ خيال البنت الصغيرة التي كنتُها آنذاك.



النساء اللواتي حفظتْ كتبُ التاريخ أسماءهنّ نادرات... أين الأخريات؟! إنّه سؤالٌ ملحٌّ رفض أن يفارقني، ولذلك كتبتُ «من طبختِ العشاء الأخير؟» في محاولة للإجابة عليه، على الأقلّ بالنسبة لي. نقطة انطلاقي كانت سؤالَ غيبون -مؤرّخ الإمبراطوريّة الرومانيّة الشهير- الذي لا يقبل المساومة: «ما هو التاريخ؟ إنّه أقرب إلى سجلٍّ عن جرائم الرجال، وأخطائهم، ومصائبهم».

أغراني التحدّي، «وأخيراً!» أعلنتُ بشجاعة، «اليدُ التي تهزّ المهدَ، أمسكتْ بالقلم كي تصحّح السجلات: هناك نساءٌ في التاريخ أيضاً!». بتلك الكلمات الشجاعة، صدرتِ النسخة الأولى من هذا الكتاب بثقة أكبر ممّا شعرتُ به في الحقيقة، لأنّني لم أعرف كيف سيستقبله القرّاء، لكن كما اتّضح لي، لم أكن الوحيدة التي يؤرّقها غياب النساء عن كتب التاريخ. احتفاء الجمهور بكتابي، فاق أحلامي! منذ صدور الطبعة الأولى تحت عنوان «تاريخ العالَم كما ترويه النساء»، طُبع هذا الكتاب مراراً وتكراراً، وتمّت ترجمته إلى ما ينوف على الثلاثين لغة بما فيها اللغة الصينيّة مؤخّراً، وألهمَ سلسلة تلفزيونيّة وعرضاً منفرداً قدّمته امرأة، فضلاً عن الاقتباسات العديدة منه بلغات مختلفة، التي تغصّ بها شبكة الإنترنت.

9 789933 655143

لوحة الغلاف للفنان: Bertalan Szekely de Adamos